أدعياء الهيكل..؟

الدكتور محمد أديب الصالح



مكتبة العبيكان

أدعياء الهيكل ..!

تأليف

الدكتور محمد أديب الصالح

أستاذ ورئيس قسم القرآن والسنة
بكلية الشريعة بجامعة دمشق سابقًا
رئيس تحرير مجلة «حضارة الإسلام»

مكتبة العبيكان

ح مكتبة العبيكان، ١٤٢٣هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الصالح، محمد أديب

أدعياء الهيكل./ محمد أديب الصالح.. الرياض، ١٤٢٤هـ.

٧٥٦ ص، ١٦,٥×٢٤سم

ردمك: ٣-٣٩٦-٤٠-٩٩٦٠

١- اليهودية أ- العنوان

ديوي ٩٥٦,٩ ٣٢٦٨/ ١٤٢٤

ردمك: ٣-٣٩٦-٤٠-٩٩٦٠ رقم الإيداع: ٣٢٦٨/ ١٤٢٤

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ /٢٠٠٤م

الناشــر

مكتبة العبيكان

الرياض ـ العليا ـ تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة.
ص.ب: ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥
هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤، فاكس: ٤٦٥٠١٢٩



توطئة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين وعلى آله وصحابته أجمعين. وبعد:

فالناظر في الكتاب والسنة وما استنبطه أئمة الهدى منهما، يدرك - وهو يتبصر بما ورد في شأن أعداء الله، وإعطاء الأحكام والقواعد التي يجب أن تضبط العلاقة بين المسلمين وغيرهم - أن الإسلام لا يريد لأتباعه وهم يبنون الحياة على منهج سويٍّ يشمل الميادين كلها، ويشيدون صروح الحضارة المثلى بنظرات تتجاوز الحاضر إلى ما وراءه.. لا يريد لهم أن تكون أحكامهم مرتجلةً يعوزها الوعي والتبصُّر، أو قائمةً على ردود الأفعال والتأثر الآني الذي يكون الإنسان فيه منفعلاً وكفى، لا فعَّالاً مؤثراً في التخطيط والتنفيذ.

بل يريد لهم أن تأتي الأحكام نتيجة دراسةٍ وتمحيص، ومعرفة صحيحة بالواقع وبطبيعة الأرض التي يتحركون عليها والمناخ الذي يعملون فيه، ذاكرين أنهم - بحمد الله - أصحاب رسالة هادية يريدون أداءها. وأن يصحب ذلك تقويم بميزان الحق الذي نزل به الكتاب، وأوضحت أبعاده وفصَّلت مجمله السنة المطهرة، وإدراكٌ لترتيب النتائج على المقدمات والمسبَّبات على الأسباب، كما هي سنة الله فيما خلق وقدَّر .. كل أولئك دونما إغفال للمصلحة التي تعود على الإسلام وأهله

بالخير والقوة والمنعة، علماً بأن المصالح الحقيقية للمسلمين، هي في خدمة الإنسان، ولا تعارض بينها وبين الحق، لأنها – دائماً – من الحق وإليه.

أقول هذا بين يدي الحديث عن خلائق أدعياء الهيكل – اليهود في القرآن والسنة؛ لأن مما يستوقف الباحث في كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، وسيرته المطهرة عموماً، أنه كانت هنالك عناية بالكشف عن حقيقة اليهود – والصهيونية مخلب أزرق ماكر من مخالبهم – في العصر الحاضر في طباعهم وخصالهم وعنصريتهم ودعاواهم الكاذبة وبهتانهم ومكرهم، والقيم التي تحكمهم، سواء أكان في علاقتهم بربهم وأنبيائهم ورسلهم، أم كان في علاقتهم بالناس الآخرين من غير أتباع ملتهم – التي طرأ عليها ما طرأ من التحريف والتبديل –.

وقد كان ذلك على مساحة واسعة تُعين على كشف خبايا هؤلاء الأناسيّ أعداء الله والإنسان، وأبعاد سلوكهم وتصرفاتهم ماذا وراءها، مما يحتاج المسلمون لمعرفته وهم على ثغور المواجهة للتحديات في السلم والحرب. وأصبح ذلك من الثوابت الإيمانية التي لا خيرة للمسلم في التصديق الجازم بها لأنها من وحي السماء، والعمل بها دليل صدق الإيمان.

فالقرآن – مثلاً – لم يعرض لهذه الأمور في مجموعة قليلة من النصوص، ولكنه جاء بفيض زاخر مبارك، يتناول الكليات والجزئيات والوقائع، حتى بلغ الحديث عن بني إسرائيل أن كان من أكثر القضايا نصوصاً بعد العقائد، كل ذلك بوضوح لا تشوبه شائبة لبس أو

غموض، وجزمٍ قاطع لا يقبل الاحتمال. وعلى سبيل المثال نقرأ لتبين الوضوح والجزم اللذين نلمح إليهما ما جاء في سورة النساء بشأن اليهود بدءاً من الآية الثالثة والخمسين بعد المائة؛ ذلكم قول الله تبارك وتعالى:

﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُّبِينًا (١٥٣) وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا (١٥٤) فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٥٥) وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨) ﴾ [النساء: ١٥٣ - ١٥٨] إلى أن يقول جل شأنه في الآيتين الستين بعد المائة والحادية والستين بعد المائة ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠) وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦١) ﴾ [النساء: ١٦٠، ١٦١].

هكذا جاءت هذه الآيات على مظاهر انحرافهم عن العقيدة الصحيحة وشيء من دعاواهم الكاذبة، وما كان ديدنهم من قتل الأنبياء بغير حق، كما جاءت على ذكر افترائهم على مريم، وزعمهم أنهم قتلوا عيسى عليه

السلام؛ والواقع أنهم ما قتلوه وما صلبوه ولكن شبِّه لهم،وكشفت الآيتان الأخيرتان عن أن الله حرَّم على اليهود طيِّبات أُحلَّت لهم وذلك بسبب ظلمهم وصدّهم عن سبيل الله كثيراً، وأخذهم الربا وقد حُرِّم عليهم، وأكلهم أموال الناس بالباطل، وختمت الآية الحادية والستون بالوعيد الشديد بالعذاب الأليم في الآخرة، وذلك بسبب ما اجترحوه من الكفر الظالم البواح الذي ينقض دعاواهم واحدة واحدة، والذي انعكس على تفكيرهم وسلوكهم حتى كانت تلك الصور المقيتة والعياذ بالله. فقال تعالى: ﴿ **وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا** ﴿١٦١﴾ ﴾ و«من» هنا في «منهم» بيانية وليست للتبعيض، إذ كلهم كذلك إلا من شرح الله صدره للإسلام. كعبد الله بن سلام –رضي الله عنه– وآخرين وهم قلة.

ولما قال اليهود للنبي ﷺ: بمن نؤمن؟ أجابهم بما دعا إليه قول الله تعالى في الآية السادسة والثلاثين بعد المائة من سورة البقرة: ﴿ **قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** ﴿١٣٦﴾ ﴾ [البقرة: ١٣٦] فلما ذكر عيسى عليه السلام قالوا: لا نعلم ديناً شراً من دينكم، فنزل قول الله تعالى في سورة المائدة وذلك في الآية التاسعة والخمسين: ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ** ﴿٥٩﴾ ﴾ [المائدة: ٥٩] ثم قال جل شأنه في كشف عن جوانب من سمات اليهود ونقائصهم وما عوقبوا به من اللعن والغضب والمسخ: ﴿ **قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ**

مَكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [المائدة: ٦٠ – ٦٢] أرأيت إلى هذه الدقة في تفصيل ذلك البعض من سماتهم ونقائصهم على صعيدي العقيدة والسلوك، وأن أحبارهم والغون في الضلالة، لا ينهونهم عن قولهم الإثم وأكلهم السحت، وهم في صنيعهم هذا مستحقون للمؤاخذة؟ لبئس ما كانوا يصنعون.

وأود الإشارة هنا إلى أن هذه الآيات الكريمات التي أوردتها هنا، وأخواتها في المواطن الأُخَر من كتاب الله عز وجل: مما سوف نأتي على بيان مدلولاتها – إن شاء الله – بالقدر الذي تدعو إليه الحاجة، تجلية للموضوع قدر المستطاع.. لم أوردها على سبيل الاستيفاء، ولكني أوردتها هنا لتكون أنموذجاً للوضوح في الكلام على بني إسرائيل، والجزم بما أطلق عليهم الكتاب الكريم من أحكام؛ كيما يكون المسلمون على بينة من أمرهم ويدركوا الحقيقة التي يحول إدراكها بينهم وبين الغفلة والقعودِ عن الإعداد، ثم يحملوها واضحة جلية إلى الناس.

وإذا كان الأمر كذلك: فالحقيقة التي لا معدى عنها – والله أعلم – والتي لم تزدها التجارب الآيسة إلا رسوخاً، وهي: أن الخطوة الأولى التي تتقدم ما بعدها مما تقتضيه طبيعة المرحلة التاريخية ومعطياتها من جميع الوجوه على طريق المواجهة بين أمتنا وبين اليهود ومن على شاكلتهم: الإدراك الواعي لما جاء من الثوابت في القرآن الكريم وبيانه من حديث النبي عليه الصلاة والسلام،

وسيرته المطهرة عن خلائقهم، وطبيعة المواجهة بيننا وبينهم على الصعيدين العقدي والحضاري ووضعها موضعَها على صعيدي التصور والتطبيق ذاكرين في كل مرحلة من مراحل الصراع وتزييف الحقائق عندهم: قول الله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وكم في تاريخنا معهم بدءاً من عصر الرسالة، وحتى يوم الناس هذا، من وقائع تؤكد هذه الحقيقة التي يتجاهلها الكثيرون، وحصدنا من جهلها أو تجاهلها المرَّ والعلقم!!!

وعلى هدي من هذه المقولة، كانت هذه الصفحات التي ولِدت أحاديث، أُذيعت في حينها من إذاعة القرآن الكريم بالرياض، وبدأ ذلك عام ثلاث وأربعمائة وألف للهجرة. ثم دخلها الكثير من الإضافات وبعض التعديل والتنقيح فضلاً عن العناية بمزيد من تخريج النصوص، والحرص على إثبات الآيات القرآنية بأرقامها كما هي بخط المصحف.

والحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد الذي تركنا على المحجة البيضاء، في الموالاة والمعاداة، وعلى آله وصحابته ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين.

محمد أديب الصالح

٢٥/٢/١٤٢٤هـ

الرياض

التحايل على أحكام الله والصدُّ عن سبيله

- ١ -

الكلام على اليهود كشفاً عن سماتهم في الضلال والمكر ومحاربة الله ورسله والعداء للإنسان، والسلوك الذي يتجافى مع الحق والاستقامة، قد أخذ مساحة واسعة مباركة في كتاب الله وسنة المصطفى عليه الصلاة والسلام، وكان الكلام - كما أسلفت من قبل - شديد الوضوح لا تشوبه شائبة لبس أو غموض، جازماً لا يقبل أيَّ لون من ألوان الاحتمال، وقد ضربت من قريب مثالاً للوضوح والجزم بآيات من سورتي النساء والمائدة.

ونحن الآن على موعد مع بعض النماذج من السنة المطهرة؛ حيث كان النبي ﷺ يقود المجتمع الوليد بالإسلام، وهو على ذُكر تام من عدوان اليهود على الحق، وعبثهم بالأحكام التي أنزلها الله على موسى عليه السلام في التوارة، أخرج مسلم وأبو داود عن البراء بن عازب -رضي الله عنهما - قال: «مُرَّ على النبي ﷺ بيهودي محمَّماً مجلوداً فدعاهم ﷺ فقال: هكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟ قالوا: نعم فدعا رجلاً من علمائهم، فقال: أنشدك بالله الذي أنزل التوارة على موسى أهكذا تجدون حدَّ الزاني في كتابكم؟ قال: لا، ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك، نجده الرحم، ولكنه كثر في أشرافنا، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحدَّ، فقلنا: تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه

على الشريف والوضيع، فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم، فقال ﷺ: اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه، فأمر به فرُجم، فأنزل الله عز وجل: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٤١) ﴾ [المائدة: ٤١] يقولون: ائتوا محمداً ﷺ فإن أمركم بالتحميم والجلد، فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا، فأنزل الله تعالى ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤٧) ﴾ [المائدة: ٤٧] في الكفار كلُّها. هذه إحدى روايات مسلم وأخرجه البخاري عن ابن عمر، وفي رواية أبي داود مثل ذلك وقال في آخرها: فأنزل الله عزل وجل ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ﴾ [المائدة: ٤١] – إلى قوله – ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤) ﴾ [المائدة: ٤٤] في اليهود إلى قوله: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥) ﴾ [المائدة: ٤٥] في اليهود إلى قوله: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤٧) ﴾ [المائدة: ٤٧] قال: هي للكفار كلُّها يعني هذه الآية.

وهذه الآيات المومى إليها من سورة المائدة بدءاً من الآية الحادية والأربعين، وهي قول الله جل شانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ... ﴾ [المائدة: ٤١] الآية.

والتحميم: تسويد الوجه، من الحميم جمع حممة وهي الفحمة. وأخرج الحديث النسائي وابن ماجه بنحوه.

هكذا: مراعاة لذوي الشرف والمكانة فيهم، بدَّلوا حكم الله وحكموا في هذه الجريمة بغير ما أنزل الله؛ فبدلاً عن الرجم اخترعوا من عند أنفسهم التحميم وهو تسويد وجه مرتكب الجريمة بالفحم. ولذلك جاءت الآيات تعلن بصراحة ووضوح أن من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون، فأولئك هم الظالمون، فأولئك هم الفاسقون، ولسوف تسعَّر بهم جهنم يوم القيامة عندما يحشرون في زمرة من قال الله فيهم: ﴿ **يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ** (١٠٦) ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

وفي رواية أخرى لمسلم عن نافع أن عبد الله بن عمر أخبره «أن رسول الله ﷺ أُتي بيهودي ويهودية قد زنيا، فانطلق رسول الله ﷺ حتى جاء يهود، قال: ما تجدون في التوارة على من زنى؟ قالوا: نسوِّد وجوههما ونحملهما ونخالف بين وجوههما ويطاف بهما، قال: فأتوا بالتوراة إن كنتم صادقين فجاؤوا بها فقرؤوها، حتى إذا مرُّوا بآية الرجم وضع الفتى الذي يقرأ يده على الرجم، وقرأ ما بين يديها، وما وراءها، فقال له عبد الله بن سلام – وهو مع رسول الله ﷺ –: مُره فليرفع يده، فإذا تحتها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما، قال عبد الله بن عمر: فكنت فيمن رجمهما، فلقد رأيته يقيها الحجارة بنفسه». هكذا بلغ بهم الاستهتار بالدين، أن يضع الشاب الذي يقرأ، يده على آية الرجم، حتى كشف الحيلة عبد الله بن سلام رضي الله عنه.

وفي خطوة أخرىٰ – بعد أن رأينا احتيالهم مراعاة للطبقية – نتجه إلى ما كشفت السنّة المطهّرة عن احتيالهم للهروب من حكم الله طمعاً في الكسب ولو كان حراماً، وكيف أنَّ رسول الله ﷺ دعا عليهم ولعنهم من أجل ذلك. وفي هذا الموقف من رسول الله ﷺ ما فيه من التنبيه على عدم الوقوع فيما وقع فيه اليهود من العبث بالدين واللجوء إلى التحايل على أحكام الشريعة طلباً للدنيا ورغبة عن الآخرة. فقد أخرج البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن جابر بن عبد الله – رضي الله عنهما – قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول عام الفتح بمكة: «إن الله حرَّم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام. فقيل: يا رسول الله، أرأيت شحوم الميتة؟ فإنها تُطلى بها السفن، وتدهن بها الجلودويستصبح بها الناس؟ فقال لا، هو حرام» ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك: «قاتل الله اليهود، إن الله لما حرَّم عليهم شحمها جملوه، ثم باعوه، فأكلوا ثمنه» وفي رواية للبخاري عن ابن عباس «لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجملوها وباعوها».

وعند أبي داود في رواية أخرى عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أيضاً قال: «رأيت رسول الله ﷺ جالساً عند الركن فرفع بصره إلى السماء فضحك وقال: لعن الله اليهود – ثلاثاً – إن الله حرَّم عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا أثمانها، وإن الله عز وجل إذا حرَّم على قوم أكل شيء حرم عليهم ثمنه». أخرجه في باب (ثمن الخمر والميتة) من كتاب (الإجارة) وإسناده صحيح. ومعنى جملوها: أذابوها، حتى تصير وَدَكاً فيزول عنها اسم الشحم. والودك ما يتحلَّب من اللحم والشحم من

الدسم. تقول: جملت الشحم وأجملته: إذا أذبته، وجَمَلَ أفصح من أجمل.

هكذا كان الاحتيال على الحكم الشرعي بالقيام بعملية إذابة الشحم حتى يتغير اسمه ولكن حقيقة المحرَّم واحدة. ولذلك ندَّد عليه الصلاة والسلام بهم فقال: «لعن الله اليهود – أو قاتل الله اليهود – إن الله لما حرَّم شحومها – أي الميتة – أجملوه ثم باعوه فأكلوا ثمنه».

وفي استنباط للأحكام من هذا الحديث قال الإمام الخطابي المتوفىٰ سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة للهجرة، وصاحب كتاب (معالم السنن) الذي شرح فيه سنن أبي داود، قال – رحمه الله –: وفي هذا بيان بطلان كل حيلة يحتال بها للتوصل إلى محرَّم، وأنه لا يتغير حكمه بتغيير هيئته وتبديل اسمه.

ولقد فهم الصحابة – رضوان الله عليهم – أن في تنديد رسول الله ﷺ باليهود بسبب احتيالهم تنبيهاً للمسلمين أن لا يقعوا فيما وقع فيه المغضوب عليهم؛ فقد أخرج البخاري ومسلم والنسائي عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: بلغ عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – أن فلاناً باع خمراً فقال: قاتل الله فلاناً ألم يعلم أن رسول الله ﷺ قال: «لعن الله اليهود، حرّمت عليهم الشحوم فجملوها فباعوها».

رزقنا الله الاستقامة في القول والعمل، وباعد بيننا وبين الوقوع في تقليد من غضب الله عليهم ولعنهم وأعدّ لهم جهنم وساءت مصيرا. وهدانا للانتفاع بهدي النبي ﷺ في شأن احتيالهم على أحكام الله، وتلاعبهم بمدلولات النصوص والحمد لله رب العالمين.

التحايل على أحكام الله والصدُّ عن سبيله

- ٢ -

سعدنا من قريب باصطحاب نماذج من السنة المطهرة، وقفتنا فيها النصوص على مدى الوضوح في الكلام على خصال اليهود، والجزم الذي لا يقبل الاحتمال في الحكم على انحرافهم بما يصنعون، فمن احتيال على نصوص التوارة بشأن حد الرجم للزاني إرضاء لطبقة الأشراف من الناس، إلى احتيال على تحريم الشحوم حيث كانت الحيلة تغيير اسم تلك الشحوم بالإذابة إذ يصبح اسمها بعد الإذابة ودكاً. ومما جاء في شأن القضية الأولى ما روى مسلم عن نافع أن عبد الله بن عمر أخبره أن رسول الله ﷺ أتي بيهودي ويهودية قد زنيا، فانطلق رسول الله ﷺ حتى جاء يهود فقال: ما تجدون في التوارة على من زنى؟ قالوا: نسوِّد وجوههما ونحملهما ونخالف بين وجوههما ويطاف بهما، قال: فأتوا بالتوارة إن كنتم صادقين، فجاؤوا بها فقرؤوها، حتى إذا مروا بآية الرجم، وضع الفتى الذي يقرأ يده على آية الرجم، وقرأ ما بين يديها وما وراءها، فقال له عبد الله بن سلام، وهو مع رسول الله ﷺ: مره فليرفع يده، فإذا تحتها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما، قال عبد الله بن عمر: فكنت فيمن رجمهما، فلقد رأيته يقيها الحجارة بنفسه.

هذا وقد جاء في رواية لأحمد في مسنده، تصريح باسم القارئ الذي جيء به ليقرأ في التوارة لمعرفة حكم الله في تلك الجريمة؛ فقد أخرج –

رحمه الله - بسنده عن ابن عمر - رضي الله عنهما - «أن اليهود أتوا النبي ﷺ برجل وامرأة منهم قد زنيا، فقال: ما تجدون في كتابكم؟ فقالوا نسخِّم وجوههما، ويخزيان، قال: كذبتم إن فيها الرجم، فأتوا بالتوارة فاتلوها إن كنتم صادقين. فجاؤوا بالتوارة وجاؤوا بقارئ لهم أعور يقال له ابن صوريا، فقرأ، حتى إذا انتهى إلى موضع منها، وضع يده عليه، فقيل له: ارفع يدك، فرفع يده فإذا هي تلوح، فقال أو قالوا: يا محمد إن فيها الرجم، ولكنا كنا نتكاتمه بيننا، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما، قال: فلقد رأيته يجانئ عنها يقيها الحجارة بنفسه».

السُّخام: سواد القدر، وتسخيم الوجه تسويده بالسُّخام.

ولقد يتساءل متسائل عن كون النبي ﷺ قد علم أن الموجود في التوراة الرجم. وأكذبهم حينما قالوا غير ذلك، فالمعروف أنهم قد حرَّفوا وبدَّلوا كما دلت على ذلك نصوص القرآن الكريم من مثل قوله تعالى في الآية الخامسة والسبعين من سورة البقرة خطابا للمؤمنين: ﴿ **أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** (٧٥) ﴾ [البقرة: ٧٥] وقوله جل شأنه في الآية السادسة والأربعين من سورة النساء: ﴿ **مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً** (٤٦) ﴾ [النساء: ٤٦] وقوله سبحانه في الآية الثالثة عشرة من سورة المائدة: والمعنيون هم اليهود: ﴿ **فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ**

وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [المائدة: ١٣] ونقرأ في الآية الخامسة عشرة من السورة نفسها قول من لا يخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء: ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾** ﴾ [المائدة: ١٥].

ونحن واجدون عند العلماء الجواب عن التساؤل المومى إليه، قال الإمام النووي في شرحه لصحيح مسلم عند الكلام على ما جاء في الحديث من قوله ﷺ: «ما تجدون في التوراة» قال العلماء: (هذا السؤال ليس لتقليدهم ولا لمعرفة الحكم منهم، وإنما هو لإلزامهم بما يعتقدونه في كتابهم، ولعله ﷺ قد أُوحِي إليه أن الرجم في التوراة الموجودة في أيديهم لم يغيروه كما غيروا أشياء، أو أنه أخبره بذلك من أسلم منهم، ولذلك لم يخف ذلك عليه حين كتموه).

هذا: وقد كان النبي ﷺ حريصاً أشد الحرص على أن يعتبر المسلمون بما حل باليهود من غضب الله بسبب تحايلهم على الأحكام وعملهم الدائب على التفلت منها، فكان عليه الصلاة والسلام لا يني يبين لأمته أن الوقوع فيما وقع فيه اليهود شر مستطير، واتجاه يتنافى مع الالتزام بشرعة الإسلام ومنهجه في الحياة، بل هو سبب الهلاك والعياذ بالله؛ فعن عائشة – رضي الله عنها –: «أن قريشا أهمهم شأن المرأة التي سرقت في عهد النبي ﷺ في غزوة الفتح، فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ فقالوا ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد، فتلوَّن وجه رسول الله ﷺ فقال: أتشفع في حد من حدود

الله؟ فقال له أسامة: استغفر لي يا رسول الله، فلما كان العشي قام رسول الله ﷺ فاختطب فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: أما بعد فإنما أهلك من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإني والذي نفسي بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها. ثم أمر بتلك المرأة التي سرقت فقطعت يدها، قالت عائشة: فحسنت توبتها بعد وتزوجتْ، وكانت تأتيني بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ» [رواه أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه واللفظ لمسلم].

وفي رواية للبخاري «لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها» بدل (لقطعت يدها) والمرأة هي فاطمة بنت الأسود بن عبد الأسد المخزومية عمها أبو سلمة رضي الله عنه.

وبعد: فإن عتب رسول الله ﷺ على أسامة بن زيد الحِبِّ بن الحب لأنه يشفع في حد من حدود الله، وهو بمثابة إعلان في تاريخ الإنسانية كلها، يبيِّن أوضح بيان أن الحق في الإسلام هو الذي يجب أن يعلو، وأن الكل متساوون أمام شريعة الله عز وجل، فالرب واحد والشريعة لعباده من عنده سبحانه. ولقد أعقب هذا العتاب، كشفه - عليه الصلاة والسلام - عن سنة من سنن الله في خلقه؛ وهي أن العبث بدين الله والانحراف عن شريعته بعدم تطبيقها على الجميع، مدعاة للهلاك والدمار ذلكم قوله عليه الصلاة والسلام: «فإنما أهلك من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد»، والمقصود هنا أهل الكتاب وبخاصة اليهود، وقد رأينا

محاولتهم التفلت من إقامة حد الرجم بكتمان ما جاء صريحا عندهم في التوراة.

وبعد هذه الرحلة مع ذلك النموذج المبارك من السنة، الذي وقَفَنا على لون من ألوان الاحتيال على الأحكام عند اليهود، نعود إلى النموذج الآخر وهو ما أخبر عنه النبي ﷺ ـ كما سلف ـ من أنهم عمدوا إلى إذابة الشحم المحرَّم عليهم بيعه فباعوه وأكلوا ثمنه، بحجة أن اسمه قد تغيَّر فأصبح (الودَك) ذلكم قوله ﷺ فيما روى الشيخان وأصحاب السنن عن ابن عباس – رضي الله عنهما –: «لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجملوها وباعوها» واللفظ للبخاري.

عمدت إلى التذكير بهذا الحديث الذي يحمل أعمق الدلالة على الانحراف المتأصل في نفس اليهودي، وكيف أنه يدعي الإيمان بالتوراة، وفي الوقت نفسه لا يألوا جهدا ـ وهو يدور مع المال حيث دار ـ في أن يزيغ عن حكم الله ليحصل على الربح من أي طريق ولو كانت سحتا والعياذ بالله... أقول: عمدت إلى التذكير مرة أخرى بهذا الحديث الذي رواه ابن عباس – رضي الله عنهما –، كيما أورد رواية أخرى عن عبد الله بن عمر تحمل لونا آخر من ألوان الوعيد لأولئك الأناسي على ما يرتكبون من مآثم وضلالات في هذه السبيل.

فعن عبد الواحد البُناني قال: «كنت مع ابن عمر – رحمه الله – فجاءه رجل فقال: يا أبا عبد الرحمن إني أشتري هذه الحيطان يكون فيها العنب ولا نستطيع أن نبيعها كلها عنباً حتى نعصره، فقال: عن ثمن

الخمر تسألني؟ سأحدثك حديثا سمعته من رسول الله ﷺ . كنا جلوسا عند رسول الله ﷺ إذ رفع رأسه إلى السماء ثم أكبَّ ونكت في الأرض وقال: الويل لبني إسرائيل، فقال له عمر: يا رسول الله لقد أفزعنا قولك: الويل لبني إسرائيل فقال: ليس عليكم من ذلك بأس، إنهم لما حرمت عليهم الشحوم، فيذيبونه فيبيعونه فيأكلون ثمنه، كذلك ثمن الخمر عليكم حرام»، رواه أحمد والطبراني في الكبير. قال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح خلا عبد الواحد وقد وثقه ابن حبان، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحابته أجمعين.

التحايل على أحكام الله والصدُّ عن سبيله

- ٣ -

في متابعة لما يراه الناظر في نصوص الكتاب والسنة من وفرة في الكلام على أهل الكتاب بعامة – وعلى اليهود بخاصة – في خصالهم وسلوكهم ونهجهم في الموالاة والمعاداة واحتيالهم على أحكام الدين للتفلُّت منها، ومظاهرتهم الباطل على الحق حتى مع الأنبياء والرسل، وعنصريتهم البغيضة التي تتحرك في إطار من الدعاوى الباطلة.. أود الإشارة ـ في متابعة لهذه الحقيقة إلى أن الوقائع من بدء تاريخ الإسلام ـ في علاقتهم بأمتنا ـ حتى عصرنا الحاضر، جاءت مؤيدة التأييد كله لما جاء في الكتاب والسنة وسيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام ـ على وجه العموم.

وبصرف النظر عن هذه المؤيدات الناطقة التي تتجدد يوما بعد يوم، والتي تدل ـ فيما تدل ـ على أن الكلام الذي قيل بشأنهم هو الصدق كله، لأنه وحي من عند الله يوحى... بصرف النظر عن هذه المؤيدات؛ فإن مقتضى التصديق بما جاء في الكتاب الكريم وفي السنة المطهرة؛ أن يكون المسلمون على وضوح الرؤية في شأن غير المسلمين ـ واليهود منهم بخاصة ـ كيما تكون العلاقة متصورا فيها تلك الحقائق التي نلمح إليها، مما جاء في أولئك الأناسي الذين تعاني أمتنا منهم وممن يلوذ بهم ويسير في فلكهم ما تعاني، وأن تكون تلك العلاقة أيضا منضبطة بالموازين التي

هي انعكاس تلك الحقائق عند المؤمن، والتي لا بد من حسن تصورها والإيمان بها لوضع الأمور موضعها الطبيعي، مهما تمادى الزمن وتقلبت الأيام وازدحمت على طريق المسلمين الوقائع والأحداث، **وإلا فستظل الأمور تتدحرج من انتكاس إلى انتكاس أشد منه، حتى يعود المسلمون إلى إدراك الحقائق من منابعها الأصلية وإعداد القوة إيمانا وعلماً وعملاً، وأخذا بأسباب الجهاد في سبيل الله من شتى أطرافها.**

هذا: وقد وقفتنا بعض النصوص من القرآن والسنة ـ كما رأينا في صفحات قريبات ـ على مدى الجزم التي اتسمت به الأحكام التي أعطيت في شأنهم. وكان من صنيعهم لجوؤهم إلى الحيلة بنية التفلُّت من أحكام التوراة التي يزعمون أنهم مؤمنون بها كما أنزلت على موسى عليه السلام.

رأينا من ذلك قضية تتعلق بإقامة الحدود، وقضية تتعلق ببيع الشحوم التي حرمها الله عليهم؛ ففي الأولى كذبوا على رسول الله وحاولوا كتمان الموجود في التوراة، وفي الثانية احتالوا بتغيير اسم الشحوم باسم آخر فباعوها وأكلوا ثمنها حراماً وسحتاً في بطونهم وقال رسول الله ﷺ في ذلك: «لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجملوها فباعوها» وجملوها: أذابوها حتى أصبحت تسمى الودك وهو دسم اللحم والشحم.

أجل! دعا عليهم رسول الله باللعن ـ وهو الطرد من رحمة الله ـ أو أخبر عن أن الله لعنهم وطردهم من رحمته فهم المطرودون من رحمة الله المغضوب علهم ـ والعياذ بوجهه سبحانه ـ.

والنص القرآني في تحريم الشحوم عليهم هو ما جاء في الآية السادسة والأربعين بعد المائة من سورة الأنعام من قول الله تعالى: ﴿ **وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (١٤٦)** ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

قال العلماء: المقصود بكل ذي ظفر ما لم تفرق أصبعه من البهائم والطير؛ كالإبل والأنعام والأوز والبط. وما علق بالظهور فهو مستثنى من الشحوم التي حرمت ﴿ **حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ** ﴾ [الأنعام: ١٤٦] والحوايا: الأمعاء جمع حاوياء أوحاوية، وما اختلط بعظم هو شحم الإلية فإنه أحل لهم. فما علق بالظهور من الشحم أو حملته الأمعاء أو اختلط بعظم فهو حلال، وباقي الشحوم حرام. ولكنهم ـ كما أسلفنا من قريب ـ لم يقفوا عند حدود الله بل احتالوا وعبثوا فاستحقوا اللعنة والغضب من الله ومن رسوله عليه الصلاة والسلام.

ويلاحظ أن الآية الكريمة قد ختمت بما يدل على عدل الله المطلق، وأنه لم يظلم هؤلاء الناس فيما حرَّم عليهم؛ فهم الذين طغوا وبغوا فاستحقوا هذه العقوبة بسبب ما جنته أيديهم وما اقترفوه من آثام، يقول سبحانه: ﴿ **ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ** ﴾ فاسم الإشارة (ذلك) يعود إلى التحريم والباء في قوله سبحانه (ببغيهم) للسببية، والبغي هنا: الظلم والعدول عن الحق أي جزيناهم بسبب ظلمهم، فقد ظلموا أنفسهم وظلموا الحق فعدلوا عنه إلى الباطل، وإنا لصادقون في إخبارنا ومواعيدنا.

والحق أن النصوص القرآنية الواردة في شأن اليهود، تعطي تكاملاً في كل موضوع من الموضوعات المطروحة؛ لذا يحسن أن ينظر المؤمن نظرة تكاملية لمجموع النصوص في الموضوع الواحد.

ويبدو ـ والله أعلم ـ أن البغي الذي أشارت إليه الآية هنا في سورة الأنعام وهي سورة مكية، هو ما أشارت إليه مفصلاً سورة النساء وهي سورة مدنية. وذلك قول الله جل شأنه في الآيتين الستين بعد المائة والتي تليها: ﴿ **فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾** ﴾ [النساء: ١٦٠ - ١٦١]. قال أبو جعفر الطبري - رحمه الله -: يعني بذلك جل ثناؤه: فحرمنا على اليهود، الذين نقضوا ميثاقهم الذي واثقوا ربهم، وكفروا بآيات الله، وقتلوا الأنبياء، وقالوا البهتان على مريم، وفعلوا ما وصفهم الله في كتابه، طيبات من المآكل وغيرها كانت لهم حلالاً عقوبة لهم بظلمهم الذي أخبر الله عنه في كتابه. ثم نقل عن قتادة قوله: عوقب القوم بظلم ظلموه وبغي بغوه، حرمت عليهم أشياء ببغيهم وظلمهم.

ومما أوخذوا عليه ـ وكان عاملاً من عوامل تحريم طيبات أحلت لهم ـ صدُّهم عن سبيل الله كثيراً، فقد صدوا عباد الله عن دينه وسبله التي شرعها لعباده صدا كثيرا وكان صدهم عن سبيل الله كما دلت النصوص والوقائع، بقولهم على الله الباطل، وادعائهم أن ذلك على الله، وكتمانهم ما أنزل الله، وتبديلهم كتابه سبحانه، وتحريف معانيه عن وجوهه. قال أبو

جعفر: (وكان من عظيم ذلك جحودهم نبوة نبينا محمد ﷺ، وتركهم بيان ما قد علموا من أمره لمن جهل أمره من الناس) .

وكذلك أخذوا الربا وقد نهوا عنه، وأكلوا أموال الناس بالباطل . وأكل أموال الناس بالباطل: ما كانوا يأخذون من الرِّشى على الحكم كما جاء في سورة المائدة من قوله تعالى: ﴿ **وَتَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴿٦٢﴾ ﴾ [المائدة: ٦٢] وكان من أكلهم أموال الناس بالباطل، ما كانوا يأخذون من أثمان الكتب التي كانوا يكتبونها بأيديهم، ثم يقولون: هذا من عند الله، وما أشبه ذلك من المآكل الخسيسة الخبيثة، فعاقبهم الله على جميع ذلك ـ وهو المنزه عن الظلم ـ بتحريمه ما حرَّم عليهم من الطيبات التي كانت لهم حلالاً قبل ذلك .

وواضح أن العقوبة الإلهية، لم تقتصر على ما كان في الدنيا من تحريم طيبات أحلت لهم، مما رأينا تفصيله في سورة الأنعام، بل يضاف إلى ذلك العذاب الأليم في الآخرة، وذلك ما أشير إليه في ختام الآية الثانية والستين بعد المائة من سورة النساء ـ كما جاء ذكرها من قريب ـ بقوله تعالى: ﴿ **وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا** ﴾ .

وكنت أسلفت من قبل أن (من) هنا بيانية ـ كما يقول العلماء ـ وليست تبعيضية، فالله تعالى أعدَّ للكافرين بالله ورسوله محمد ﷺ من هؤلاء اليهود العذاب الأليم ـ وهو العذاب الموجع ـ من عذاب جهنم عنده يصلونها في الآخرة إذا وردوا على ربهم .

وهكذا يبدو التكامل واضحا بين ما جاء في سورة الأنعام ـ وهي سورة مكية ـ وبين ما جاء في سورة النساء بشأن ما حُرِّم على اليهود من الطيبات وكيف أن ذلك كان بظلمهم وبغيهم ـ وهي سورة مدنية ـ كما سنأتي على إيضاحه فيما نستقبل من الحديث إن شاء الله.

أحرص الناس على حياة

أسلفت في صفحات خلت، أن الوضوح والجزم كانا طابع القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة في الحديث عن اليهود. وهي مقولة قدمنا لها عدداً من النماذج.

ومن حِكم ذلك ـ والله أعلم ـ أن يكون المسلمون على الصراط السوي في تحقيق وجودهم الذاتي عقيدة وتشريعا وسلوكاً، وقدرة على الإنجاز الحضاري السليم، وأن لا يقعوا فريسة المكر الذي يمكره اليهود، وأن يكونوا بمنجاة من تقليدهم فيما انزلقوا إليه من انحراف، لكيلا يصيبهم ما أصابهم، والعياذ بالله تعالى.

ونحن الآن على موعد مع خطوة أخرى، نتلَمَّس من خلالها مزيداً من الدلالات الحكيمة في تعرية مواقف يهود، أو طوائف منهم ـ على ذلك المستوى من الوضوح ـ ونبيِّن العبرة من ذلك بالنسبة للأمة المحمدية، التي جعلها الله أمة وسطاً، وأولاها أمانة الشهادة على الناس. وما أحوج هذه الأمة ـ وهي على عتبة يقظة جديدة ـ أن تكون حفيَّة بالكلمة القرآنية تعي أبعادها، وتبذل قصارى جهدها لتكون على مستوى العمل والتدبر.

جاء في الآية الثالثة والأربعين بعد المائتين من سورة البقرة قول الله تبارك وتعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا**

يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ ﴾ [البقرة: ٢٤٣] وتدل الروايات أن هذه الآية الكريمة تحكي قصة قوم من بني إسرائيل كانوا في قرية يقال لها داوردان أو ذاورداب، وعددهم أربعة آلاف أو ثمانية آلاف أو أكثر ـ كما روي عن ابن عباس – رضي الله عنهما ـ فأصابهم الطاعون، فخرجوا من القرية هاربين من الموت وقالوا: نأتي أرضا ليس بها موت. ولكن فرارهم لم يغن عنهم شيئاً، فأماتهم الله، ثم مر عليهم نبي من الأنبياء فدعا ربه أن يحييهم فأحياهم.

وقد ذكر الحافظ ابن كثير في التفسير، ما روى وكيع بن الجراح في تفسيره بسنده إلى سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ ﴾ قال: كانوا أربعة آلاف خرجوا فراراً من الطاعون، قالوا: نأتي أرضا ليس بها موت، حتى إذا كانوا بموضع كذا وكذا، قال الله لهم: موتوا فماتوا، فمرَّ عليهم نبي من الأنبياء، فدعا ربه أن يحييهم فأحياهم، فذلك قول الله عز وجل: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ ﴾.

وأنت واجد أن في إحياء هؤلاء الناس بعد الموت، عبرة ودليلاً قاطعاً على وقوع المعاد الجسماني يوم القيامة؛ فالذي قدر على الإحياء هنا، قادر على الإحياء والبعث يوم الدين.

هكذا يتفضل الله على عباده، فيريهم الآيات الدالة على أنه قادر على

أن يحيي الموتى، ويقفهم بين يديه للحساب، ولكن أكثرهم لا يشكرون فيعتبرون، ذلكم قول الله جل وعلا في ختام الآية المشار إليها ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ أي فيما يريهم من الآيات الباهرة، والحجج القاطعة ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾ أي لا يقومون بشكر ما أنعم الله عليهم في دينهم ودنياهم، وما تفضل عليهم من تبيان الطريق التي تقودهم إلى الاعتبار واليقين بأنهم مبعوثون بعد الموت.

هذا: وقد كان من فعل اليهود المعنيِّين في الآية، أنهم لم يأخذوا بالأسباب أولا، وحسبوا أن فرارهم حذر الموت، يمنع وقوع الموت بهم... فجاءت الآية الكريمة لتدل على أنه لا ملجأ من الله إلا إليه، وأن هؤلاء القوم خرجوا من ديارهم فرارا من الوباء طلبا لطول الحياة، فعوملوا بنقيض قصدهم وجاءهم الموت سريعا أجمعين في آن واحد.

ويريد الله للمسلمين ـ كما أسلفت ـ أن يكونوا على المحجَّة البيضاء في مواجهة الوقائع، ولا يستسلموا للتقليد الأعمى، فيحلَّ بهم ما حلَّ بأولئك اليهود. لذا فإن الآية الكريمة ـ كما دلت السنة المطهرة ـ لا تتعارض مع الأخذ بالأسباب لتوقي الوباء النازل، بل إن الأخذ بأسباب الوقاية مطلوب وهو شيء غير الذي فعله من عناهم الله تعالى بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ...﴾ الآية.

فقد جاء في الحديث الصحيح، الذي أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما، واللفظ للبخاري، عن إبراهيم بن سعد قال: سمعت أسامة ابن زيد يحدث سعدا عن النبي ﷺ قال: «إذا سمعتم بالطاعون في أرض فلا

تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها» فقلت: أنت سمعته يحدث سعدا ولا ينكره؟ قال نعم.

ولقد وعى الصحابة - رضوان الله عليهم - وصية النبي ﷺ عندما علموا بها، ووقفوا عندها، حيث أخذوا بأسباب الوقاية مدركين أن ذلك لا يتنافى مع التوكل وصدق الإيمان بالقدر.

فقد روى أحمد والبخاري ومسلم، واللفظ للبخاري هنا أيضا عن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما -، أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - خرج إلى الشام، حتى إذا كان بسرْغ لقيه أمراء الأجناد - أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه - فأخبروه أن الوباء قد وقع بأرض الشام، قال ابن عباس: فقال عمر: ادع لي المهاجرين الأولين، فدعاهم فاستشارهم، وأخبرهم أن الوباء قد وقع في الشام، فاختلفوا، فقال بعضهم: قد خرجنا لأمر، ولا نرى أن نرجع عنه، وقال بعضهم: معك بقية الناس وأصحاب رسول الله ﷺ ولا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء، فقال: ارتفعوا عني، ثم قال: ادع لي من كان ههنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح، فدعوتهم، فلم يختلف منهم عليه رجلان، فقالوا: نرى أن ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء، فنادى عمر في الناس: إني مصبِّحٌ على ظهر، فأصبحوا عليه، فقال أبو عبيدة بن الجراح: أفِراراً من قدر الله؟ فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، نعم نفرُّ من قدر الله إلى قدر الله. أرأيت إن كانت لك إبل هبطت واديا له عُدوتان: إحداهما خصيبة، والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصيبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت

الجدبة رعيتها بقدر الله؟ قال: فجاء عبد الرحمن بن عوف ـ وكان متغيبا في بعض حاجته ـ فقال: إن عندي في هذا علماً، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه» فحمد الله عمرُ، ثم انصرف.

هذا وخروج عمر – رضي الله عنه – إلى الشام في الواقعة المشار إليها، كان سنة ثماني عشرة أو سبع عشرة للهجرة، والطاعون الذي وقع بالشام حينئذ هو طاعون عمواس. وسرْغ: مدينة افتتحها أبو عبيدة، ونقل الحافظ ابن حجر عن ابن وضاح أنها هي واليرموك والجابية متصلات، وبينها وبين المدينة ثلاث عشرة مرحلة. والعدوة المكان المرتفع من الوادي وهو شاطئه.

وأنت ترى كيف أن عمر – رضي الله عنه –، أجاب أبا عبيدة على ما حسبه من أن الدخول إلى بلد الطاعون فرار من قدر الله، أجابه بقوله: نفرٌّ من قدر الله إلى قدر الله.

وهكذا كشفت الكلمات القرآنية عن موقف أولئك اليهود ومحاولتهم الهروب من الموت حرصاً على الحياة دون إتيان الأمور من طرقها المعقولة في الأخذ بالأسباب.. وشاء الله لهذه الأمة أن لا تقع فيما وقعوا فيه، ودلنا رسول الله ﷺ على ما وصل إليه الإنسان بعد قرون وقرون من ضرورة الاحتراس والأخذ بأسباب التوقي في مواجهة الطاعون «إذا كان بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه، وإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه».

فاعتبروا يا أولي الأبصار

عرضنا فيما مضى لما ذكر الله عن جماعات من بني إسرائيل، كيف أنهم خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت عندما أصاب أرضهم الطاعون، فعلوا ذلك لشدة تعلقهم بالحياة، زاعمين أن ذلك ينجيهم من الهلاك دونما أخذ بالأسباب على الوجه المطلوب، فأماتهم الله ثم أحياهم ليستكملوا أجلهم، وكان في ذلك عبرة ودليل على أنه لن يغني حذر من قدر، وأنه لا ملجأ من الله إلا إليه، إذ إن هؤلاء اليهود خرجوا فراراً من الوباء طلبا لطول الحياة، فعوملوا بنقيض قصدهم، وجاءهم الموت سريعاً في آن واحد. والآية التي حملت إلينا ذلك عن أولئك الأناسي هي الآية الثالثة والأربعون بعد المائتين من سورة البقرة ذلكم قول الله تبارك وتعالى: **﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٢٤٣) ﴾**.

ونحن الآن على موعد مع الآيتين اللتين تليان الآية المذكورة، ننظر فيهما، ونسعد بالكشف عما يربطهما بها، استكمالا لما يمكن من العبرة بتلك القصة التي وقعت للألوف المومى إليهم من اليهود، لأن الكلمة القرآنية في مجال العبرة والدرس تحمل الحظ الوافر أبداً من التوجيه للمسلمين كيما يفيدوا مما حصل لغيرهم حينما وقعوا في المخالفة عن أمر الله، فلا يغفلوا فيقعوا في المخالفة كما وقعوا، بل يتخذوا من ذلك حافزا

لالتماس الصواب أينما كان، والعمل على إحكام السير في الطريق التي تمليها العقيدة الصحيحة، وتقتضيها شريعة الإسلام المباركة.

والآيتان اللتان نومئ إليهما هما قول الله جل وعز: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾[البقرة: ٢٤٤، ٢٤٥]

وهذه وقفة عند الآية الأولى بالقدر الذي يتسع له المقام ويوحي به الأسلوب الحكيم المعجز في القرآن الكريم.

تنزلت سورة البقرة ـ وهي سورة مدنية ـ والجهاد مفروض على المسلمين، وميادين القتال في سبيل الله، تزخر بأولئك المجاهدين الذين أيقنوا أن أنفسهم وأموالهم مباعة لله عز وجل، وهم مستبشرون ببيع الله الذي بايعوا به، ويأتي الحديث عن فئام من اليهود في الآية الثالثة والأربعين بعد المائتين من هذه السورة، ليكشف عن رغبتهم العشوائية في الحياة، وعملهم على مصادمة القدر، بصورة تخلو من أي شعور بمسؤولية العقيدة التي يزعمون أنهم بها مؤمنون... فيوجه الله المسلمين آمراً لهم بالقتال في سبيله، فالآجال بيد الله، والأعمار من القدر المقدور عند الله ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨] فليقدموا على القتال في سبيل الله تحت راية الكلمة الطيبة لا إله إلا الله؛ فالإقدام في قتال أعداء الله لا يقرب أجلا، والإحجام عن ذلك لا يؤخر أجلاً ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأعراف: ٣٤].

ها هم اليهود خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، ولكن ذلك

لم يغنهم شيئاً، فجاءهم الموت جميعاً بآن واحد بأمر الله، أجل جاءهم بأمر الله الذي لا تخفى عليه خافية. والذي فروا منه وقعوا فيه، ثم أحياهم الله الذي بيده الموت والحياة ليستكملوا آجالهم.

هكذا نرى أن قصة هؤلاء الألوف من بني إسرائيل، تساق مساق العظة والاعتبار، وتخرج الكلمة القرآنية بالحديث عن فعل اليهود إلى تثبيت الرغبة في الجهاد في نفوس أصحاب الرسالة الخاتمة ﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ** ﴾ [يوسف: ١١١].

وهكذا يتلو التالي قول الله تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (٢٤٣)** ﴾ [البقرة: ٢٤٣] يتلو التالي هذه الآية الكريمة ليقع بعدها مباشرة على قول الحكيم الخبير ﴿ **وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٤٤)** ﴾ [البقرة: ٢٤٤]. أجل: وقاتلوا في سبيل الله لإعلاء دينه، واعلموا أن الله سميع لأقوالكم عليم بأحوالكم ونياتكم، فيجازيكم. ويا نِعم ما يعطي الله المجاهدين الصابرين الصادقين. وإذا كانت الآية هنا صورة معبرة عن الأسلوب المعجز في القرآن، بالخروج من الكلام عن اليهود وصنيعهم فراراً من الموت ورغبة في الحياة على أي شكل، إلى دعوة المؤمنين أن يثبتوا على القتال في سبيل الله.

إذا كانت الآية هنا صورة عن ذلك؛ فإن المؤمنين قد سَمَت ـ بعون الله ـ نفوسهم إلى الحد الذي جعلهم يضعون هذا التوجيه وأمثاله موضع التنفيذ في حياتهم العملية حتى أصبح التسابق إلى ميادين الجهاد والتفاني في سبيل الله جزءاً من وجودهم الذاتي.

على أن القرآن الكريم قد أعطى هذه الحقيقة، حقيقة أن الأجل محتوم وأن الفرار من الموت لا يؤخره، وأن الإقدام على طلب الشهادة لا بد منه، أعطى هذه الحقيقة اهتماماً واضحاً؛ ففي شأن المنافقين ـ وما أوضح تأثرهم بأخلاق اليهود ـ نقرأ بدءاً من الآية السادسة والستين بعد المائة من سورة آل عمران قول الله جلت قدرته: ﴿ **وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لَّاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧) الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨)** ﴾ [آل عمران: ١٦٦ – ١٦٨].

أرأيت: ﴿ **قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾. وفي الآية السابعة والسبعين من سورة النساء نقرأ قول الله جلَّ وعز: ﴿ **أَوَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً (٧٧)** ﴾ [النساء: ٧٧] تلا ذلك قوله سبحانه: ﴿ **أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ** ﴾ [النساء: ٧٨].

ألا ما أعظم أن يستأنف المسلمون طريقهم إلى تدبر آيات الله، والاعتبار بما قصته عن اليهود في صنيعهم وخلائقهم ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ ﴾ إنهم إنْ فعلوا ذلك كانوا على الجادة واستطاعوا – بعون الله – أن يحققوا ذاتهم بعد ضياع أو ما يشبه الضياع، وأن يحولوا النكبات إلى نصر مبين، والحمد لله رب العالمين.

يحزن أنه لم يقتل في المعركة

أجدني ـ والحديث متابعة لاستلهام آيات من سورة البقرة، كانت أولاها عن واقعة ذات دلالة على تعلق اليهود العشوائي بالحياة ـ أجدني والأمر كذلك، مسوقا إلى التذكير مرة أخرى بنص تلك الآيات نفسها كيما تكون المتابعة أقرب إلى السلامة إن شاء الله.

والآيات هي قول الله تعالى في السورة المومى إليها وهي إحدى الزهراوين بدءاً من الآية الثالثة والأربعين بعد المائتين: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾** ﴾[البقرة: ٢٤٣ ـ ٢٤٥].

وقد رأينا في النقلة من الكلام على أولئك الفئام من اليهود الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف فراراً من الموت، فقوبلوا بنقيض ما أرادوا، إذ جاءهم الموت مرة واحدة ثم أحياهم الله ليستكملوا آجالهم.. رأينا في النقلة من الكلام على أولئك اليهود إلى الأمر بالقتال لإعلاء كلمة الله بقوله تعالى: ﴿ **وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ سِمة من سِمات الأسلوب الحكيم المعجز في القرآن الكريم؛ فكأن الكلمة القرآنية تنادي وتثبت في خلدهم وتصورهم، أنه ما دام لا يغني حذر من قدر، وأن الآجال بيد الله، فهي محتومة مقضية.. فليثبتوا على القتال في سبيل

الله، مهما اشتدت المخاطر وتفاقمت الصعاب فما عند الله خير وأبقى، ويا ما أجمل تلك الحياة التي تكتب للشهيد الذي يقضي في ساحة الجهاد. ورضي الله عن أبي بكر في قوله: «اطلب الموت توهب لك الحياة».

ويجدر بنا أن نتذكر، **والأمة الإسلامية تعاني ما تعاني من اليهود،** الذين ذكر الله في كتابه من قصصهم ما ذكر، ووصف من خلائقهم ما وصف، وأراد لهذه الأمة أن تقف موقف العبرة التي تدفع إلى الأخذ بالأسباب واستقامة العمل والسلوك... يجدر بنا أن نذكر أن الرعيل الأول، عندما تدبروا القرآن ووقفوا عند أمره ونهيه، وكانوا عند كلمة رسول الله ﷺ لأن طاعته من طاعة الله... استطاعوا أن يحققوا للأمة وجودها الذاتي تحت راية الكلمة الطيبة **لا إله إلا الله محمد رسول الله**، ولئن كان أولئك اليهود ـ كما دلت الآية ـ قد خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، فإن المسلمين الصادقين كانوا بجهادهم يستعذبون الموت في سبيل الله؛ لأنه طريقهم إلى حياة أفضل عند الله، ففي سورة آل عمران نقرأ قول الله تعالى: ﴿**وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾**﴾ [آل عمران: ١٦٩] وهم على خير في كل حال، ما داموا على صدق النية والإيمان بوعد الله، ذلكم قول الله جل شأنه في سورة النساء: ﴿**فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾**﴾ [النساء: ٧٤] بل كان بعضهم يحزن أن يموت على فراشه، فلا يقتل وهو يقارع أعداء الله في الميدان، قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسيره: (وروينا عن أمير الجيوش، ومقدم العساكر، وحامي حوزة

الإسلام، وسيف الله المسلول على أعدائه، أبي سليمان خالد بن الوليد – رضي الله عنه – أنه قال وهو في سياق الموت: (لقد شهدت كذا وكذا موقفاً، وما من عضو من أعضائي إلا وفيه رمية أو طعنة أو ضربة، وها أنا أموت على فراشي كما يموت البعير فلا نامت أعين الجبناء) يعني أنه يتألم لكونه ما مات قتيلاً في الحرب، ويتأسف على ذلك، ويتألم أن يموت على فراشه.

أما اليهود الذين يشهد العالم غطرستهم وعدوانهم على الحق وأهله بسبب ضعف الوجود الحقيقي للمسلمين وقعودهم عن الجهاد: فقد أشهدنا القرآن أن ما صنعه أولئك الذين خرجوا من ديارهم حذر الموت، لم يأتوا بجديد؛ فمن أبرز صفات اليهودي حرصه على الحياة وخوفه من الموت، وتلك حقيقة قررها الكتاب الكريم على صورة لا تقبل الاحتمال، ها نحن أولاء نقرأ في سورة البقرة بدءاً من الآية الرابعة والتسعين قول الله تباركت أسماؤه: خطاباً للنبي ﷺ بشأن يهود: ﴿ **قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴿٩٤﴾ ﴾ [البقرة: ٩٤] ثم نفى الله عنهم نفياً قاطعاً أن يفعلوا ذلك، لأنهم على علم بما هم عليه من الظلم، وما تجنيه أيديهم من الشر والفساد فقال سبحانه: ﴿ **وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ** ﴿٩٥﴾ ﴾ [البقرة: ٩٥].

ولا يقتصر الأمر على ذلك بل هم أحرص الناس على حياة، ومن الذين أشركوا، يود أحدهم لو يعمر ألف سنة، لعل الشقة تبعد بينه وبين

العذاب، ولكنه مهما عُمِّرَ فليس بمزحزحه من العذاب والله بصير بما يعمل هؤلاء الظالمون، فيجازيهم على أعمالهم بما يستحقون. وذلك ما نقرؤه بعد الآيتين السالفتين من قول الله سبحانه: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [البقرة: ٩٦].

ونظير ذلك ما نقرأ في الآيات السادسة والسابعة والثامنة في سورة مدنية أخرى هي سورة الجمعة من قول الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [الجمعة: ٦ - ٨].

ألا وإن الحقائق التي عرض لها القرآن ـ وهو يكشف عن سمات اليهود ـ أمانة في أعناق المسلمين، وإدراك ذلك وأداء حق الله فيه، كفيل ـ إذا صدقت العزائم واتخذت الأسباب ـ أن يغير مجرى الأحداث ويعيد الأمور إلى نصابها، وعندها يملي المسلمون ـ بعون الله ـ إرادتهم على التاريخ من جديد... وينحسر ما نرى من اتخاذ أمة المسلمين هزواً، وتنطُّع من ضربت عليهم الذلة والمسكنة، وتسربلوا غضب الله إلى يوم الدين.

غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا

النظرة المتدبرة في الآيات التي أسعدنا اصطحابها وهي تكشف عن صنيع اليهود المنافي للإيمان بالقدر واعتقاد أن الآجال بيد الله، وتدعو إلى الصدق في المواطن، والإخلاص في طلب الشهادة في سبيل الله... هذه النظرة المتدبرة الواعية.. تعطي ـ فيما تعطي ـ أن على المسلمين أن يعتبروا بما حصل لأولئك الناس الذين خرجوا من ديارهم حذر الموت فلم يغنهم ذلك شيئاً، وأن يتخذوا من ذلك حافزاً جديداً للقتال في سبيل الله، وصدق ما عاهدوا الله عليه، وهو حافز يضاف إلى ما في قلوبهم وعقولهم من دواع إيمانية تدفع بالمؤمن إلى ساحات الجهاد، وهو يستعذب الموت في سبيل الله ﴿ **وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴿٢٤٤﴾ ﴾.

[البقرة: ٢٤٤].

ونحن الآن على موعد مع آية أخرى تلت هذه الآية التي جاءت عقب قوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ...** ﴾ [البقرة: ٢٤٣] الآية، والآية التي نعنيها هي قول الله جل وعز: ﴿ **مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴿٢٤٥﴾ ﴾ [البقرة: ٢٤٥] فقد جاءت عقب قوله تعالى: ﴿ **وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴿٢٤٤﴾ ﴾

[البقرة: ٢٤٤].

والذي يبدو ـ والله أعلم ـ أنه لما كان اليهود حريصين على الحياة، حرصا يعميهم عن أبسط قضايا الإيمان، جاء تذكير المسلمين بالقتال في ضوء العبرة بما صنع اليهود حرصاً على الحياة... وكما أن الآجال بيد الله، فالأرزاق بيد الله أيضاً. ولما كان اليهود حريصين على المال حرصا يجعلهم يستهينون بكل ما له صلة بالعقيدة والأخلاق والسلوك، ذكَّر الله المؤمنين بأن يكونوا على المنهج السوي الذي يخالف ما عليه اليهود؛ فالمال مال الله، والعباد عباد الله، وهم مستخلفون في هذا المال؛ وإذن فلينفق المسلمون المال في سبيل الله، وليعلموا أن إنفاقهم في سبيل الله، قرض حسن لله عز وجل يضاعف عليه أضعافا كثيرة ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ [البقرة: ٢٤٥].

هذا: وإن بذل النفس وبذل المال، كل منهما صورة عن الشجاعة الحقيقية في النفس، ولما كا الأمر كذلك: فقد دعي أهل الإيمان إلى الشجاعة في بذل النفس إذ إن الآجال بيد الله، وإلى الشجاعة في بذل المال على الوجه المرضي عند الله؛ إذ إن قبض اليد لا يجلب رزقا ولا يزيده، كما أن بسطها قرضا حسناً لله لا يمنع رزقًا ولا ينقصه، بل يُضاعف الله ما ينفق في هذه السبيل أضعافاً كثيرة ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وهو سبحانه بيده الرزق يرزق من يشاء بغير حساب.

هذا: وكما يكون الجهاد بالأنفس، يكون بالأموال. وما أكثر الآيات التي أمرت المسلمين أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله.

وهكذا يبدو الترابط واضحاً بين الآية التي تحدثت عن تلك الطائفة من بني إسرائيل في صنيعهم المعوجّ التالف، وبين الأمر بالقتال والإنفاق في سبيل الله الذي سماه الله في مزيد من الترغيب: قرضاً حسناً لله.

وهذه المقولة التي نحومّ حولها، تقودنا إلى ما ذكره الله في كتابه الكريم عن خلائق اليهود بشأن المال وإنفاقه في سبيل الله، فقد روى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه لما نزل قول الله تعالى: ﴿ **مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً** ﴾ قالت اليهود: يا محمد لو كان غنياً ما استقرضنا وفي رواية أنهم قالوا: يا محمد أافتقر ربك فسأل عباده القرض؟ فنزل قول الله تعالى: ﴿ **لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾** ﴾.

[آل عمران: ١٨١، ١٨٢].

لقد كانت قولة فاجرة، وفرية عظيمة، فلذلك جاء التهديد والوعيد بقوله تعالى: ﴿ **سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا** ﴾ مقترنا بقوله جلت قدرته ﴿ **وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ** ﴾ أي هذا قولهم في الله من ناحية الفقر والغنى، وهذه معاملتهم أنبياء الله بدل أن يستجيبوا لدعوتهم، يقتلونهم، وسيجزيهم الله على ذلك شر الجزاء، ولهذا قال سبحانه: ﴿ **وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾** ﴾ يقال لهم ذلك تقريعا وتوبيخاً، وبيانا لعدالة الله المطلقة، وأن ما ينالونه من الجزاء، إنما كان بضلالهم وعدوانهم على الله وعلى أنبيائه عليهم الصلاة والسلام.

هذا: وعلى الصعيد العملي في علاقتهم بالمسلمين، بعد أن حيل بينهم وبين السيطرة الاقتصادية التي كانوا يتربعون على عرشها في المدينة وما حولها قبل الإسلام، وقلّت في أيديهم موارد المال الذي كانوا يجمعونه مما هبَّ ودبَّ.. على هذا الصعيد، قالوا والعياذ بالله: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ أي مقبوضة عن إدرار الرزق عليهم كناية عن البخل والعياذ بالله، فنزل قول الله جلت قدرته وسمت حكمته في سورة المائدة: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

[المائدة: ٦٤]

وإنها لآيات مثقلة بالكشف عن تلكم الخلائق الذميمة، والتناقض الفاضح بين دعوى الإيمان عند اليهود، وبين هذا النهج المخزي؛ فكراً وسلوكاً والعياذ بالله، كما أنها داعية أوضح دعوة وأبينها، إلى أن يأخذ المسلمون حذرهم، مهما امتد الزمن وتطاولت القرون، فلا يؤخذوا بزخرف القول، وبهرجة العناوين، ولا يتقاعسوا عن إعداد القوة من منابعها جميعاً، مهما تعددَّت المنابع والمآخذ، ولله عاقبة الأمور.

أين صنيعهم من صنيع أبي الدحداح؟

كان حصاداً مباركاً ما وقفتنا عليه آنفاً، تلكم الآيات الثلاث من سورة البقرة التي بدئت بقوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ...**﴾ وختمت بقوله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾.

أجل كان حصاداً مباركاً دلَّ ـ فيما دل ـ على سمتين بارزتين من سمات اليهود هما: الجبن والبخل، ولقد ساعد على هذا الفهم، ما يشير إليه ورود آيتي القتال والإنفاق في سبيل الله؛ بعد الحديث عن تلكم الألوف من يني إسرائيل الذين فروا من الموت، فعوقبوا بنقيض ما أرادوا. **ولا يغرنك ما يُرى من غطرسة اليهود وصلفهم اليوم، فالحقبة التي تمر بعلاقتهم بأمة الإسلام حقبة شاذة مرتبطة ارتباطا جذرياً بعدم الوجود الحقيقي للمسلمين، ولو كان للمسلمين ـ وهم أمة العقيدة والجهاد ـ وجود ذاتي على الوجه الذي تقتضيه طاعة الله ورسوله، لرأيت الحقيقة في خصال اليهود التي أخبر عنها القرآن الكريم عارية لا تحجبها عن الأنظار غاشية زيف ولا تمويه.**

ومهما يكن من أمر: فإن تدبُر آيات الكتاب الكريم التي تسوق العبرة في صنيع بني إسرائيل وغيرهم من الأعداء، كيما يكون المسلمون على بينة من أمرهم في الأحوال جميعها من السلم والحرب، وبخاصة في علاقتهم بهؤلاء القوم ومن لفَّ لفَّهم؛ إن تدبر آيات الكتاب على هذا الصعيد يتأكد وجوبه كلما حزب الأمر واشتدت الحاجة إلى المنار الهادي يضيء السبيل ويضع حداً للمتاهة والضياع.

هذا: وأنت واجد أن قول الله جل ثناوه: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ كان مصدر إثارة لكوامن البخل الدفين عند اليهود والحرص على المال دونما حدود أو قيود؛ فانطلقوا يسيئون الأدب مع الله وينطقون بالهجر من القول، وقد أشرت سابقا إلى ما روى ابن مردويه وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أنه قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ قالت اليهود: يا محمد أافتقر ربك فسأل عباده القرض؟ فأنزل الله: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أنه حدثه عن ابن عباس قال: (دخل أبو بكر الصديق بيت المدارس، فوجد من يهود ناساً كثيرة قد اجتمعوا على رجل منهم يقال له: فنحاص، وكان من علمائهم وأحبارهم، ومعه حبر يقال له أشيع، فقال له أبو بكر: ويحك يا فنحاص اتق الله وأسلم فواللّه إنك لتعلم أن محمداً رسول من عند الله قد جاءكم بالحق من عنده، تجدونه مكتوبا عندكم في التوراة والإنجيل، فقال فنحاص: والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من حاجة من فقر، وإنه إلينا لفقير، ما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنا عنه لأغنياء، ولو كان عنا غنياً ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم، ينهانا عن الربا ويعطيناً، ولو كان غنيا، ما أعطانا الربا. فغضب أبو بكر – رضي الله عنه –، فضرب وجه فنحاص ضرباً شديداً وقال: والذي نفسي بيده لولا الذي بيننا وبينك من العهد، لضربت عنقك يا عدو الله، فأكذبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين، فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال: يا

محمد أبصر ما صنع بي صاحبك، فقال رسول الله ﷺ ما حملك على ما صنعت يا أبا بكر؟ فقال: يا رسول الله إن عدوَّ الله قال قولاً عظيماً، يزعم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء، فلما قال ذلك غضبتُ لله مما قال، فضربت وجهه، فجحد فنحاصُ ذلك وقال: ما قلت ذلك، فأنزل الله فيما قال فنحاص: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾).

ويبدو أن هذه القولة الظالمة التالفة، قالها غير واحد من اليهود، فقد روى الطبري بسنده عن الحسن البصري أنه قال: لما نزلت: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ قال: عجبت اليهود فقالت: إن الله فقير يستقرض فنزلت ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾.

كما روى بسنده عن قتادة أنه قال: ذكر لنا أنها نزلت في حُيي بن أخطب لما أنزل الله ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ قال: يستقرضنا ربنا، إنما يستقرض الفقير الغني.

قال أبو جعفر رحمه الله: فتأويل الآية إذاً (سنكتب ما قالوا من الإفك والفرية على ربهم، وقتلهم الأنبياء بغير حق).

هذا وقد جنح الإمام الطبري إلى أن قوله تعالى: ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾ [آل عمران: ١٨٠] يدخل فيه دخولاً أوليًا اليهود الذين جاهروا الله العداء

عندما جاءهم الأمر بالزكاة، فوصفوه سبحانه بالفقر. قال عند تفسير هذه الآية (فوصف جل ثناؤه قول المشركين من اليهود الذي زعموا عند أمر الله إياهم بالزكاة أن الله فقير) ذلكم هو موقف أعداء الله اليهود من شرعة الله وأحكامه، ولا يكتفون بالمخالفة والعصيان، بل يتجاوزون ذلك إلى مقالة السوء والإفك الأسود والعياذ بالله.

وعلى النقيض: ما نجد من استجابة المسلمين لما جاء من ترغيب القرآن في الإنفاق في سبيل الله؛ ففي الوقت الذي كان انعكاس قوله تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ وما شرع في المال من الحقوق المالية عى نفسية اليهود المغرقة في المادية والشح أن قالوا: إن الله فقير ونحن أغنياء. تطالعنا المصادر الموثقة بما روى ابن أبي حاتم بسنده عن عبد الله بن مسعود أنه قال: «لما نزلت ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾ قال أبو الدحداح الأنصاري: «يا رسول الله وإن الله عز وجل ليريد منا القرض؟ قال: نعم يا أبا الدحداح، قال: أرني يدك يا رسول الله، قال: فناوله يده، قال: فإني قد أقرضت ربي عز وجل حائطي قال: وله حائط فيه ستمائة نخلة، وأم الدحداح فيه وعيالها، قال: فجاء أبو الدحداح فناداها يا أم الدحداح، قالت: لبيك، اخرجي فقد أقرضته ربي عز وجل».

وأدَع للقارئ الكريم أن يذهب ذهنه كل مذهب على صعيد التعليق وما يمكن أن يدعى ـ مجازاً ـ بالمقارنة.. وأين الثرى من الثريا؟ والحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

نقض العهد والنكوص عن القتال

كانت إيحاءات إيمانية تربوية كريمة تلك التي فاضت بها الآيات الثالثة والأربعون والرابعة والأربعون والخامسة والأربعون بعد المائتين من سورة البقرة والتي استنرنا بهداها فيما مضى. أجل: كانت إيحاءات تربوية كريمة تلقفها المسلمون وهم ينشئون المجتمع المسلم القائم على شريعة الله، ينشؤونه واقعا ينبض بالحركة والحياة، غير مقطوع عن العبرة بالماضي، ولا متجافٍ مع الدروس التي تستخلص من تاريخ بني إسرائيل وما حصل لهم من الوقائع.

والحق أن الإفادة مما حصل للماضين وخصوصاً بني إسرائيل عبر تحركهم في مواجهة رسالة السماء، ذخيرة لا تقتصر على حِقبة زمنية في حياة المسلمين، بل هي للجيل الأول الذي تولى ـ بعون الله ـ إنشاء الواقع المسلم، وهي في الوقت نفسه لكل الأجيال المتلاحقة، إنها ليومنا ولِغدنا كما كانت لأمسنا، يوم شهدت الإنسانية تنزل الوحي على الرسول عليه الصلاة والسلام برسالة الإسلام، بل إن صلتها بواقع الأمة اليوم لا تخفى على ذي بصيرة.

وبعد الذي رأينا من تلك الإيحاءات التي كان منها، أن على المسلمين أن يعتبروا بما حدث لأولئك القوم من بني إسرائيل الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فلم يغن عنهم الفرار من الموت شيئاً.

أجل: أن يعتبر المسلمون فلا يهنوا ولا يتخلفوا عن الجهاد حباً في

الحياة، ولا يهابوا الموت في سبيل الله؛ فالأجل واحد لا يقربه إقدام، ولا يؤخره إحجام، ولا ملجأ من الله إلا إليه، والأمور مقضية عنده سبحانه في كتاب مبين ﴿ **وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴿٢٤٤﴾ ﴾ .

[البقرة: ٢٤٤] .

كما أن على المسلمين أن يبذلوا المال في سبيل الله، ولا يتخلفوا عن الإنفاق حرصا على المال، فالأرزاق بيد الله، كما أن الآجال بيده سبحانه، والإنفاق في سبيل الله قرض لله، وهو الغني، يضاعفه للمقرض أضعافاً كثيرة ﴿ **مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴿٢٤٥﴾ ﴾ [البقرة: ٢٤٥] .

ونتابع الرحلة المباركة مع سورة البقرة في الحديث عن بني إسرائيل، لنجد الآيات بدءاً من الآية السادسة والأربعين بعد المائتين تقص علينا خبر حادثة أخرى مثقلة بالعظات والعبر؛ ذلكم قول الله جلَّ وعز ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ** ﴿٢٤٦﴾ ﴾ .

[البقرة: ٢٤٦]

إنها حادثة أخرى لبني إسرائيل تحمل تجربة ذات دلالة لمن يعقل ويتبصَّر؛ وقعت لهم من بعد موسى عليه السلام، وذلك بعد أن ضاع ملكهم، ووقعوا في شرك الذل لأعدائهم، وذاقوا الكثير من الويل، بسبب

نقضهم المواثيق، وانحرافهم عن هدي الله القويم... فقد تقدم الملأ من بني إسرائيل من ذوي الرأي والمكانة فيهم، إلى نبي لهم بعد أن دعاهم إلى الله وتوحيده في ذلك الزمان.. تقدموا إليه طالبين أن يختار لهم ملكاً يقودهم إلى المعركة مع أعداء دينهم، كي يقاتلوا في سبيل الله، وكان أعداؤهم ـ كما أسلفنا ـ قد سلبوا ملكهم وأموالهم، ومعها مخلفات أنبيائهم من آل موسى وآل هارون.

وأراد نبيهم أن يستوثق من ثبات نيتهم، وجديتهم فيما يطلبون من القتال فقال لهم: هل عسيتم إن كتب عليكم القتال، فأقام الله لكم ملكاً، ألاَّ تقاتلوا وتفوا بما التزمتم من القتال معه؟ ذلك لأنه إذا تقرر القتال، فهو فريضة مكتوبة، لا سبيل إلى النكول عنها. وهنا ذكروا مرة أخرى ما نالهم من أعدائهم في الماضي، حيث أخذت البلاد وسبيت الأولاد، وذلك من الحوافز التي تجعل القتال أمراً متيقناً لا تردد فيه. عند ذلك اشتدت حماستهم ـ بحسب الظاهر ـ للمواجهة واستنكروا ما قاله النبي لهم، فقالوا: ﴿**وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا؟**﴾.

ولكن ما لبثت فورة الحماسة أن همدت عند الاختبار الحقيقي، وحصل ما توقع النبي، فإن كثرة بني إسرائيل هؤلاء، عندما استجيب لطلبهم وكتب عليهم القتال؛ نكصوا على أعقابهم وتولوا مخالفين التزامهم، تاركين دعوى الرغبة في قتال العدو رماداً تذروه الرياح. ذلك ما أخبر عنه القرآن الكريم في ختام الآية التي نحن بصددها فقال تعالى: ﴿**فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ**﴾.

وهنا يطلعنا الكتاب الكريم على سمة خاصة من سمات بني إسرائيل في نقض العهد بلا حياء، والنكث بالوعد، دونما شعور بالمسؤولية، وعاقبة تفرق الكلمة، ثم في مداومة التفلت من الطاعة والنكوص عن التكليف، والتولي عن الحق الذي قامت الأدلة كلها عليه، وأقاموا الدنيا وأقعدوها مدعين تأييده والالتزام به.

ولقد أنكر الله عليهم ذلك، وحكم على ما صنعوه في التولي عن القتال بعد أن كتب عليهم، بأنه ظلم، وتوعدهم بالعقوبة على هذا الظلم. لقد ظلموا أنفسهم، وظلموا نبيهم، وظلموا الحق الذي خذلوه، وهم يعرفون أنه الحق، كل أولئك وهم يدعون أنهم أهل الحق، وأنهم حريصون على الجهاد في سبيل الله ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بَالظَّالِمِينَ﴾ عليم بهم يجزيهم بظلمهم ـ حيث خانوا العهد ونكلوا عن الجهاد ـ أسوأ مصير في الدنيا والآخرة.

ألا إن في هذا الذي تحدث عنه القرآن عن بني إسرائيل، لعظةً بالغة يفترض أن يتدبرها المسلمون، كيما يسهم هذ التدبر في تعليل الواقع من حيث العلاقة باليهود، والتبصُّر بأسبابه، ثم في المحاولة الجادة لتغييره بإذن الله، وعندها يفرح المؤمنون بنصر الله، ويتكشف لمن كان على بصره غشاوة، أن الحقائق القرآنية هي الحقائق التي لا يعتريها التحويل أو التبديل، لأنها من تنزيل الحكيم الحميد.

ولعل من الخير أن أذكّر بالآية الكريمة مرة أخرى حيث يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ

لَنا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ ﴾ والحمد لله الذي جعل في قصصهم عبرة لأولي الألباب.

يتبدلون اللجاجة بالطاعة

كانت لنا آنفاً وقفة متأملة عند الآية السادسة والأربعين بعد المائتين من سورة البقرة، التي كشفت من خلال واقعة عملية حدثت لملأ من بني إسرائيل عن سمة من سمات هؤلاء الفئام من البشر وهي: نقض العهد والنكث بالوعد، والتولي من ساحة الواجب، تفلتاً من الطاعة، ونكوصاً عن التكليف؛ فقد تولوا عن القتال إلا قليلاً منهم، بعد أن عاهدوا نبيهم عليه السلام بحملة شديدة ودعوى عريضة، الأمر الذي كان السبب في الحكم عليهم هنا بأنهم ظالمون.. ظالمون لأنفسهم، ظالمون لنبيهم، ظالمون للحق الذي يزعمون أبداً أنهم من أنصاره، ويدَّعون حرصهم على القتال في سبيل الله من أجل نصرته في مواجهة الباطل.

والآية الكريمة التي نعنيها، والتي كشفت عن ذلك بوضوح تام، هي قول الله تبارك وتعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ الآية.

ونتابع الرحلة مع الكلمة القرآنية السخية بالعطاء، لنرى ما آل إليه الأمر فيما بعد، وكيف كان موقف القلة التي ثبتت على إرادة القتال، هل تابعت الطريق، أم تعثرت فيما بعد؟ ها نحن أولاء نقرأ فيما جاء بعد الآية السابقة قول الله تبارك وتعالى: ﴿**وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً**

مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

أرأيت إلى هذه اللجاجة والجدل العقيم، تلكم واحدة من سمات بني إسرائيل أيضاً بدت من خلال هذه الحادثة، كما بدت من خلال عدد من الوقائع والحوادث.

لقد كان مطلبهم من نبيهم أن يبعث لهم ملكا يقاتلون في سبيل الله تحت لوائه. إنهم يريدون ـ على زعمهم ـ أن يقاتلوا في سبيل الله، ويريدون أن يكونوا تحت لواء الملك الذي طلبوا من النبي أن يبعثه لهم ﴿ **قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ ولكن هاهم أولاء يركبون متن اللجاجة، فينغضون رؤوسهم، ويلوون أعناقهم، ويجادلون فيما اختار الله لهم كما أخبرهم نبيهم. فلما قال لهم نبيهم: إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً استنكروا أن يكون طالوت ـ الذي اختاره الله لهم ـ ملكاً عليهم، ولمَ هذه المزاحمة الباردة لاختيار الله عز وجل؟ لأنهم ـ علىٰ زعمهم ـ أحق بالملك منه بالوراثة، فهو واحد من أجنادهم، وليس من بيت الملك فيهم. وفي الوقت نفسه لم يؤت سعةً من المال تعينه في منصبه، وتتيح لهم التغاضي عن أحقية الوراثة. **إنهم لا ينظرون إلى القضية من خلال أمر الله، وطاعة نبيهم، والوفاء بما قطعوا على أنفسهم من عهود، ولكنهم ينظرون من خلال التفلُّت المبطِّن من الطاعة، والحرص على الموازين الجاهلية التي ضربت على قلوبهم، وسخرت عقولهم للتنطع والهوى.**

وهكذا استبدلوا اللجاجة والمواربة والتعنت، بطاعة نبيهم فيما

جاءهم من أمر الله، فقالوا بشأن طالوت: ﴿ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ﴾ .

لقد كان الأولى بهم، طاعة وقول معروف، ولكنهم لم يفعلوا.. على أن النبي لم يترك الأمر في حدود ما ينبغي من التسليم المطلق دون تعليل.. ولكنه كشف لهم عن أحقية طالوت الذاتية وعن حكمة الله في اختياره لهم، ذلكم ما جاء في قول الله جل شأنه في بيان ذلك: ﴿ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧) ﴾ فهو سبحانه أعلم بما فيه المصلحة والخير لعباده، فقد اصطفاه عليهم واختاره لهم، هذه واحدة، وزاده بسطة في العلم والجسم، وهذه أخرى، والثالثة، أن الله يؤتي ملكه من يشاء.

أين الذي أرادوه من المعايير، من هذا الذي اقتضت حكمة الله أن يكون؟ ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾ . والأمر قبل ذلك وبعده، لله سبحانه، فهو مالك الملك، وصاحب التصرف الحكيم في ملكه لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون. ﴿ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ واسع الفضل يختص برحمته من يشاء، ليس لفضله حد، ولا لأحد عليه سلطان، وهو العليم الذي يعلم الخير أين يكون وبم يكون، ويعلم من يستحق ومن لا يستحق، ويعلم كيف توضع الأمور مواضعها...

وإذا كان الأمر كذلك، فما على العباد إلا الطاعة والامتثال، ولكن ذاك الملأ من بني إسرائيل أعرضوا وسلكوا سبيل التعنُّت والمراء. ولقد كان

من حكمة الله وسعة رحمته، أنه على الرغم مما بدر من هؤلاء من اللجاجة والجدال فيما اختار ـ جل شأنه لهم ـ شاء سبحانه أن يقدم لهم النبي ما يتسق مع ماديتهم المفرطة، التي تتطلع دائماً إلى الدليل المادي المحسّ، إذ لا بد لهم من أمر خارق للعادة، يحرك كوامن الإيمان في القلوب، ويردها إلى الثقة واليقين، كيما تستطيع المتابعة وتحمل أعباء الطريق؛ ذلكم ما جاء في قول الله جلّ وعز: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٤٨) ﴾ [البقرة: ٢٤٨].

إنها خارقة تحمل التكريم لطالوت، بأن يرد الله عليهم ببركة ملكه فيهم، ما سلبه منهم الأعداء، من المقدسات الممثلة في التابوت الذي يحفظون فيه مخلفات أنبيائهم من آل موسى وآل هارون. وقيل: كانت فيه نسخة الألواح التي أعطاها الله لموسى على الطور. قال الحافظ ابن كثير في تفسير الآية: (يقول لهم نبيهم إن علامة بركة ملك طالوت عليكم، أن يرد الله عليكم التابوت الذي كان أخذ منكم. وفي هذا التابوت سكينة من ربكم ووقار وجلال ورحمة وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة).

هكذا حمل لهم نبيهم آية من الله، علامة من الله أن تقع تلك الخارقة ويشهدوها، وهي مجيء التابوت بما فيه، تحمله الملائكة، فتفيض على قلوبهم السكينة والرضى، قال ابن جريج: قال ابن عباس: جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض، حتى وضعته بين يدي طالوت، والناس

ينظرون. لذلك كان مما قاله النبي لهم: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ إن هذه الآية تكفي دلالة قاطعة على بالغ حكمة الله، وصدق اختياره لطالوت إن كنتم حقاً مؤمنين.

والناظر في السياق، يبدو له أن الخارقة قد وقعت كما أراد الله تبارك وتعالى، فانتهى القوم منها إلى اليقين، وتوجهوا مع طالوت للقتال. ولله عاقبة الأمور.

فشربوا منه إلا قليلاً منهم

وقفتنا الآيتان السابعة والأربعون بعد المائتين والتي تليها من سورة البقرة، على ما وقع من بني إسرائيل من لجاجة في شأن طالوت الذي اختاره الله لهم ملكا يقاتلون معه في سبيل الله، وكيف أن نبيهم أقام عليهم الحجة التي تدفع ما توهموه مسوغاً لرفضهم الانقياد والرضى بطالوت، وانتهى بنا المطاف إلى ما كشفت عنه ثانية الآيتين، وهي الآية الثامنة والأربعون بعد المائتين، من أن النبي بين لهم أن العلامة الدالة على صحة ملكه، وحكمة الله البالغة في اختياره، أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة، وإن في هذه الخارقة دلالة قاطعة على صدق اختيار الله لطالوت إن كنتم مؤمنين.

وقد وقعت تلك الخارقة، كما دل على ذلك سياق الآيات، وكما روي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

ومع عطاء تلكم الآيات التي تكشف عن بعض من سمات بني إسرائيل، نتابع رحلتنا بدءاً بما جاء في الآية التاسعة والأربعين بعد المائتين من قول الله جل ذكره: ﴿ **فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً**

بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. بعد تلك الوقائع التي جرت والاختبارات التي تعرَّض لها القوم، أعد طالوت جيشه من أولئك القلة الذين لم يتولَّوا عن فريضة الجهاد، ولم ينقلبوا على أعقابهم خائنين للعهد مع نبيهم من أول الطريق.

ومن الواضح هنا أن النقلة جاءت مباشرة من قوله تعالى في ختام الآية السابقة: ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ إلى قوله جل شأنه في الآية التي تلي: ﴿ **فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ...** ﴾ الآية. وذلك على طريقة السياق القرآني في سياقه القصص وأسلوبه الفريد في العرض والأداء، حيث تراه هنا يترك فجوة بين المشهدين؛ إذ يطوي ما يبْدو جمالُ التعبير والسموُّ البلاغي في طيِّه، فيعرض المشهد الثاني مباشرة ـ كما يقول صاحب الظلال ـ رحمه الله ـ وطالوت خارج بالجنود. ﴿ **فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ** ﴾.

لقد أراد طالوت حين خرج في جنوده ومن أطاعه من ملأ بني إسرائيل الذين يريد أن يواجه بهم ـ وقد ذاقوا الهزيمة والذل مرة بعد مرة ـ أولئك الأعداء الذين أذلوهم وسلبوهم مقدساتهم، أراد أن يختبر مقدار احتمالهم فَطْمَ أنفسهم عما يشتهون، ومدى استعدادهم للعطاء في مواجهة المشقة والابتلاء.

فالقادر على أن يكون له سلطان على نفسه، يخضعها للإرادة ويدينها إن حادت عن الطريق السوي، في استعلاء على الضرورات والحاجات، وقدرة

على احتمال المشاق وما يولده الابتلاء من مصاعب... القادر على ذلك يكون - بإذن الله - قادراً على مواجهة العدو والانتصار عليه.

لقد قال طالوت للجنود لما فصل بهم وكانوا عطاشاً ـ كما تقول بعض الرويات ـ: إن الله مبتليكم ومختبركم بنهر. وهنا تبرز صورة الاختبار، فمن شرب منه فليس مني، أي فلا يصحبني اليوم في هذا الوجه، لأنه ليس من أهل ولايتي ولا طاعتي، ومن لم يطعمه فإنه مني، إلا من اغترف غرفة بيده أي فلا بأس عليه.

لقد واجههم ـ وهم في الطريق إلى عدوهم بهذا اللون من الاختبار ـ ليعلم من يصبر معه ويقوى على الاحتمال، ممن ينقلب على عقبيه، فيضعف أمام الرغبة، ويؤثر العافية. وكانت النتيجة ما أخبر الله تعالى عنه بقوله: ﴿ **فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ** ﴾.

قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: «من اغترف بيده رَوِي ومن شرب منه لم يرو». إنها تجربة تفيض بالتمحيص، والكشف عمن يصلحون للمهمة الملقاة على عاتق طالوت وعاتقهم، ممن لا يصلحون لذلك.

فالذين اغترف من يريد منهم، غرفة بيده، كان لهم أن بلَّ الكفُّ من الماء ظمأهم، ولكن ذلك لا يشعر بالرغبة في التخلف.. أما أولئك الذين شربوا بعد كل الذي حصل من التنبيه والإنذار: فقد حكموا على أنفسهم بأنهم لا يصلحون لحمل العبء.. **لقد سقطوا في الامتحان، وكان من الخير أن انفصلوا ـ على كثرتهم ـ عن الجيش الزاحف، لأن مثل هؤلاء لا**

يزيدون الصف إلا تشتتاً وخبالاً. أخرج الطبري بسنده عن البراء بن عازب قال: «كنا نتحدث أن أصحاب محمد ﷺ الذين كانوا يوم بدر ثلاثمائة وبضعة عشر، على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر، وما جازه معه إلا مؤمن» ورواه البخاري عن عبد الله ابن رجاء عن إسرائيل بن يونس عن أبي إسحاق عن جده البراء بنحوه، كما رواه الإمام أحمد في سنده ونسبه السيوطي لابن أبي شيبة وعبد ابن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل، ولهذا قال تعالى: ﴿**فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ**﴾ أي استقلوا أنفسهم وهم بهذا العدد القليل عن لقاء عدوهم لكثرتهم.. فشجعهم ـ كما يقول الحافظ ابن كثير ـ علماؤهم العاملون بأن وعد الله حق، فإن النصر من عند الله وليس عن كثرة عدد. ولهذا قالوا: ﴿**كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾.

غلبة الفئة القليلة بإذن الله

في صفحات قريبات، وقفتنا آيات من سورة البقرة، بدءاً من الآية السادسة والأربعين بعد المائتين، على بعضٍ من سمات بني إسرائيل في حبهم للّجاجة والجدل العقيم في أحكام دينهم، هروباً من الواجب، وفي خيانتهم العهود والمواثيق التي يقطعونها على أنفسهم. ومن ذلك ما قطعوه على أنفسهم لنبي لهم من دعوى الرغبة في الجهاد تحت راية ملك يُختار لهم، يضاف إلى ذلك: طلبهم للعافية من تحمل للمسؤولية وتفضيلهم شهوات أنفسهم، على ما يقتضيه العمل والجهاد؛ فهم لم يصبروا على الامتحان ـ إلا قليلاً منهم ـ وترتب على ذلك ما ترتب من نتائج..

وقد وضح ذلك كله، وتبيَّنت تلك السمات والخلائق من خلال الوقائع العملية والتجربة، حيث لم تبق إلا الفئة القليلة التي واتاها النصر على العدو.. وقد جاء الإعلان عن ذلك في قول الله تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...** ﴾ الآية.

هكذا بعد مراحل التجربة، وسقوط الأكثرين في الامتحان، وبقاء القلة المؤمنة، رأى هؤلاء أنفسهم، بعد أن تجاوزوا النهر، قلة أمام العدو ﴿ **فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ** ﴾ وقال

لهم علماؤهم المؤمنون بأن النصر من عند الله وليس بكثرة العدد والعدة، وأن الله مع الصابرين على الجهاد الصادقين في ابتغاء مرضاة الله. . . قالوا لهم: ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ وإنما كان ذلك؛ لأن هذه الفئة القليلة، هي التي ارتقت إلى رتبة الثبات في الصف، فحظيت بالاصطفاء والاختيار، بعد أن زُلزل من زُلزل. وسقط أمام الاختبار من سقط، إن هذه الفئة بعددها القليل هي المرشحة للغلبة في الحقيقة، لأنها تتصل بمصدر القوى بإخلاصها لله عز وجل، ولأنها تمثل القوة الغالبة، قوة من بيده الأمر كله، وهو القاهر فوق عباده، مخزي الظالمين، وقاهر الجبارين المستكبرين، الذين يجاهرونه بالعداوة، ويواجهون عباده المؤمنين بالطغيان والظلم والجبروت.

وما يجب الوقوف عنده: أن أولئك الأتقياء الذين يظنون أنهم ملاقو الله، كانوا على يقظة إيمانية ظهرت آثارها في تعليلهم النصر أنه بإذن الله، وأن الله مع الصابرين ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾.

وهكذا تكون الغلبة في معركة الحق مع الباطل لأولئك الصفوة الذين كانوا بإيمانهم أقوى من الامتحان، بل كان الامتحان صقلاً لأنفسهم وجسراً لثباتهم وصدقهم في المواطن. وبعد ذلك كله ـ ومع أخذهم بالأسباب ـ ما بُدٌّ من أن يثقوا الوثوق كله، أنهم منصورون بإذن الله وأنه سبحانه مع الصابرين.

والنتيجة التي أحرزتها الفئة القليلة المؤمنة بعون الله وتأييده، نقرؤها فيما ختمت به تلك الآيات التي أتت على القصة بكامل خطوطها

العامة، وبعض جزئياتها التي لا بد من ذكرها، نقرؤها في قوله جل شأنه: ﴿ **وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ** ﴿٢٥٠﴾ ﴾ [البقرة: ٢٥٠].

أرأيت: قيل لهم: ﴿ **كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾ فكان دعاؤهم عند مبارزة العدو ـ وقد استجابوا للموعظة والتذكير ـ ﴿ **رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ** ﴾ وكيف لا ينصر الله أولياءه وقد أخذوا بالأسباب كما أمر، وتوجهوا إليه بطلب التثبيت والنصر صادقين. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ **فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ** ﴿٢٥١﴾ ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وهكذا كانت النتيجة التي ترقبها المؤمنون ـ على قلة عددهم ـ وتيقنوها ﴿ **فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ** ﴾ لقد حلت الهزيمة بأولئك الأعداء على يد الفئة القليلة المؤمنة ولكن بإذن الله؛ الأمر الذي يدل على أن الله قد اختارها لتنفيذ مشيئته سبحانه بعد أن أثبتت أنها أهل للاصطفاء والاختيار، أجل: لقد هزموهم بإذن الله، لأن إرادته سبحانه هي النافذة في ملكه وسلطانه.

وشاء الله أن يقتل داود الفتى الصغيرُ، جالوتَ الملك القوي والقائد المخوف، وكان من قدر الله أن يتسلم داود الملك بعد طالوت ﴿ **وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ...** ﴾ فكان داود عليه السلام ملكاً نبياً.

وختمت الآيات ببيان الحكمة من صراع الحق مع الباطل فقال تعالى: ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وهكذا كلما امتد الزمن وأظلمت الوقائع في علاقة أمتنا بمن يزعمون زوراً وبهتاناً أنهم أتباع داود وشيعته؛ تبدت حاجة المسلمين أكثر وأكثر للإفادة مما قصه الله عن بني إسرائيل. فهل نحن معتبرون؟

جزاء بما كانوا يعملون

كلما ازدادت صلة المؤمن بالقرآن على الوجه المطلوب لهذه الصلة، من صفاء نية وإخلاص في التذكر والتدبر، بعد توافر الوسائل، وما يتطلبه فهم الكتاب العزيز. . ازداد هذا المؤمن إحساساً بأن عطاء القرآن ـ وهو كلام الحكيم الخبير ـ لا ينفد، وبأنه ـ حقاً ـ لا يبلى على كثرة الرد. ولا تسل عن عمق يقين هذا المؤمن الذي يتعاظم ويتعاظم بصدق قول الله تبارك وتعالى في خواتم سورة الكهف: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ [الكهف: ١٠٩] وقوله جل شأنه في سورة لقمان: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ [لقمان: ٢٧].

أقول هذا بين يدي الإشارة إلى قبس من من عطاء الآية الثانية والخمسين بعد المائتين من سورة البقرة والتي تبدو كأنها ـ والله أعلم ـ تعقيب على ما جاء من الكلام على بني إسرائيل بدءاً من الآية الثالثة والأربعين بعد المائتين وحتى ختام الآية الحادية والخمسين بعد المائتين، حيث عرضت الآيات لقصتين تحملان وافر التجربة لهؤلاء الفئام من الناس، ودلت على مواطن العظة والاعتبار.

والآية التي أعنيها هي قول الله تبارك وتعالى: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ ﴾ [البقرة: ٢٥٢].

وحرصاً على مشاركة القارئ الكريم في المتابعة، أسمح لنفسي بأن أذكّر بالآية الأولى، من القصة الأولى وهي قول الله جلَّ وعزَّ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ ﴾ [البقرة: ٢٤٣] كما أذكر بالآية الأولى من القصة الثانية وهي قوله تبارك وتعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ ﴾[البقرة: ٢٤٦].

وفي عود إلى مبتدأ الحديث، يبدو أنه ما بد من تلمس الحكمة ـ وحكمة الله بالغة ـ وراء التعقيب على قصتي بني إسرائيل بقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ ﴾.

[البقرة: ٢٥٢]

الخطاب في الآية للنبي ﷺ، وما ينال أمته من الخير بمضمون هذا الخطاب واضح لا مرية فيه. هذه آيات الله، تلك الآيات الرفيعة المقام في ذاتها، البعيدة الغايات في هدايتها، التي قصصناها عليك من أمر الذين ذكّرناهم بالحق، أي بالواقع الذي كان عليه الأمر المطابق لما بأيدي أهل الكتاب من الحق الذي يعلمه علماء بني إسرائيل.. وترى أن الله تعالى نسب التلاوة إلى نفسه ﴿ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ﴾ فهو سبحانه الذي يتلوها بهذا الحق، وهو الذي يملك حق تلاوتها وتنزيلها، وإنك يا محمد لمن المرسلين.

ولعل مما يكشف عن الارتباط الوثيق بين الآية الكريمة، وبين ما سبقها من تلكم الآيات التي عرضت تينك القصتين من قصص بني إسرائيل، ما تلهم التلاوة بالحق من معانٍ لعل منها: أن الله تعالى عرض من خلال كلٍ من القصتين، وما خاض بنو إسرائيل من التجربة، وإلى أي حد كانوا مع الحق أو الباطل... عرض بعضاً من خلائقهم وسمات سلوكهم المميزة، عرضا يتسم بكمال الإنصاف، لأنه من خلال الواقع، بحيث ترى كل جزئية من الجزئيات ـ فضلاً عن الكليات ـ ومعها دليلها. ولم يخل السياق من توجيه المؤمنين إلى مواطن العبرة، كي يكون لهم من تجربة من سبقهم في مضمار الزمن، رصيد يغني طريقهم وهم يشرفون بالإيمان، ويحملون عبء الرسالة الخاتمة التي كانوا بها خير أمة أخرجت للناس.

ولقد رأينا بعد القصة الأولى التي عبَّرت عن محاولة أولئك الألوف من بني إسرائيل، مواجهة القدر بقلة الأدب مع الله، فخرجوا من ديارهم، وهم ألوف حذر الموت، رأينا أنه بعد عرض القصة، جاء الخطاب الإلهي للمؤمنين، يقودهم إلى ميادين القتال في سبيله؛ إذ لا يغني حذر من قدر ولا ملجأ من الله إلا إليه فقال تعالى: ﴿**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾**﴾ [البقرة: ٢٤٤].

ولما كانت الخليقة الغالبة على بني إسرائيل، أنهم يجمعون إلى كونهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا، لذا يخافون أشد الخوف من الموت.. ولما كانوا يجمعون إلى ذلك، شدة تعلقهم بالمال والحرص على كسبه من حلّه ومن غير حلّه، تلا دعوة المؤمنين إلى القتال

في سبيل الله دعوتهم إلى الإنفاق في سبيل الله، لأن الأرزاق بيد الله كما أن الآجال بيد الله؛ فإذا كان الإقدام لا يقرب أجلاً، فإن الإنفاق في سبيل الله قرض لله عز وجل يضاعفه للمنفق أضعافاً كثيرة. والدعوة إلى هذا الإنفاق، حملها قول الله تعالى: ﴿ **مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴿٢٤٥﴾ ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

والذي يستوقف الناظر في آي الكتاب الكريم، أن هذا الذي نتحدث عنه في شأن بني إسرائيل، مما هو بعض من عطاء تلكم الآيات في سورة البقرة بدءاً من الآية الثالثة والأربعين بعد المائتين؛ هو من القرآن المدني، لأن سورة البقرة ـ وهي أطول سور القرآن ـ سورة مدنية، ومعنى ذلك أن الآيات، كان تتنزل بالكشف عن خلائق بني إسرائيل في طابعهم السلوكي، وموقفهم من الحق الذي نزلت به رسالة السماء، والمسلمون يجاورون اليهود، ويتبادلون معهم حالات السلم والحرب كما بين رسول الله ﷺ في الوثيقة التي كتبها لضبط علاقة المسلمين بهم عندما جاء المدينة مهاجراً في سبيل الله.

أليس لذلك من مغزى، يجب أن يكون الضياء على دروب شائكة طويلة، في علاقة أمتنا بهؤلاء الأناسي الذين امتحنت بهم البشرية وعاني منهم المسلمون منذ أطلت شمس الإسلام على جزيرة العرب؟! ﴿ **رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ** ﴿٨﴾ ﴾ [آل عمران: ٨].

من صور العدل الرباني فيهم

أسعدتنا من قريب صحبة الآية الثانية والخمسين بعد المائتين من سورة البقرة التي جاءت عقب الآيات التي عرضت لقصة أولئك القوم من بني إسرائيل، الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، ثم كان من فعل الله بهم ما كان... وقصة الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى، إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله، وكان من مراحل التجربة والنتائج بعد ذلك ما كان.

والآية التي نعنيها هي قول الله تبارك وتعالى: ﴿ **تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ** ﴿٢٥٢﴾ ﴾ [البقرة: ٢٥٢].

وقد وقَفَنا النظر في الآية الكريمة على بعض من قبسات الضياء تنمُّ عن مناسبة الآية لما قبلها، وعن الارتباط الوثيق بين مدلولها وبين تلكم الآيات التي عرضت للقصتين، وكشفت عما كشفت من سمات بني إسرائيل وخلائقهم في مواجهة قضايا الإيمان والحق، وما هو بسبيل ذلك من الأخلاق، ومنهج السلوك.

ونحن الآن على موعد مع قبس آخر من ضياء هذه الآية الكريمة؛ ففي قوله تعالى: ﴿ **تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ** ﴾ ما يشعر بأن العدل الإلهي موجود أبداً وراء كل كلمة من كلمات الله بشأن عباد الله، ومنهم بنو إسرائيل، الذين يظهر من خلال الحديث عنهم في القرآن الكريم، أن

الله لا يظلمهم مثقال ذرة، وأنه لا يبخسهم شيئاً لهم، موجوداً على الحقيقة، فلا محاباة، ولا ظلم، ولا تحيُّز، ولا حيف، فهو يذكرهم بما فيهم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر..

ولكن هؤلاء الفئام من البشر درجوا على مقابلة الإحسان بالإساءة، وعلى الوقوف من الحق وأهله موقف العناد والأذى والافتراء، وإن أوقعهم ذلك في خيانة العهود ونقض المواثيق، بل والاعتداء على الأنبياء ممتداً ذلك إلى القتل في بعض الأحيان!!

ها هم ـ كما دل الكتاب العزيز ـ قد تفضل الله عليهم بالآيات الدالة على قدرته، وأن الآجال والأرزاق بيده، وأراهم الحجج القاطعة والدلالات الدامغة، ولكن المحور العام في سلوكهم؛ أنهم لا يقومون بشكر ما أنعم الله عليهم في دينهم ودنياهم.

وننظر في الكلمات النورانية لنرى أن الآية الأخيرة من الآيات المتعلقة بالقضية الأولى، ختمت بقوله تعالى: ﴿ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ** ﴾ وهذا منتهى العدل الرباني إذ لم يقل هنا ـ وهو العليم بعباده ـ ولكن الناس لا يشكرون، بل أعطى الحكم على الأكثر، فجاء التعبير على هذه الصورة ﴿ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ** ﴾ وإذن فهنالك قلة تشكر، لم يظلمها الله، بل كان من عدله المطلق، ما جاء في دلالة كلامه في شأنها، وهو الحكيم الخبير.

ونتابع الرحلة المباركة، لنرى صورة أخرى من صور العدل الرباني في الحديث عن أولئك الملأ من بني إسرائيل، وما حصل لهم مع نبيهم الذي

طلبوا منه أن يبعث لهم ملكاً يقاتلون معه في سبيل الله ـ كما سبق ذكر ذلك ـ نعم: نرى هذه الصورة فيما دل عليه قوله تعالى: ﴿ **فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ** ﴿٢٤٦﴾ ﴾ [البقرة: ٢٤٦].

أرأيت؟ ﴿ **تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ** ﴾، إنه لما كتب على المتحدَّث عنهم من بني إسرائيل القتال، خان أكثرهم العهد، ونكصوا على أعقابهم، وتولوا وهم معرضون ناكلون عن الجهاد ولم يثبت منهم إلا القليل.

والذي دلنا على أن الأكثر هم الذين وقفوا هذا الموقف المخزي، وأن القليل منهم ظلوا على العهد قوله تعالى: ﴿ **فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ** ﴾. إنه العدل المطلق الذي لا يحابي ـ كما أسلفنا ـ ولا يحيف، ولكن هؤلاء الأناسي لا يزيدهم الإحسان إلا ضلالاً ورغبة في المكر والأذى، وخيانة العهود والمواثيق.

وماذا بعد ذلك: إنه لا يطول بنا المسير، حتى نقع على صورة ثالثة في الآيات التي نحن بصددها من العدل الرباني الذي نومئ إليه، ذلكم ما نجده في قول الله الذي لا تخفى عليه خافية: ﴿ **فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴿٢٤٩﴾ ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

إن أولئك القلة الذين ثبتوا على العهد في إرادة القتال، لم يثبتوا جميعاً للاختبار في أمر الشرب من النهر، فمع الإنذار الشديد من

طالوت، ذلك الإنذار الذي نجده في قوله تعالى: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾.. مع هذا الإنذار، لم يَقْوَ على عدم الشرب إلا القليل، أعلمنا هذا بعد قرون وقرون كلام الله، والله جل شأنه لا يظلم مثقال ذرة.. أجل أعلمناه قوله سبحانه: ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ﴾ وما من ريب في أن مقتضى العدل الإلهي، أن يعطي كل ذي حق حقه كاملاً غير منقوص. وهكذا أعطي هؤلاء القلة حقَّهم، فذكروا بوقفتهم الإيمانية في مواجهة الاختبار الشاق الذي طلب فيه الاستعلاء في تلك البرهة من الزمن على الحاجة بل والضرورة، وجاء الاستثناء الذي نرى: ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ﴾ الكل شربوا إلا هذه الفئة القليلة، ونظراً لضآلة العدد الذي ظل على العهد وصبر على الامتحان وثبت له، خاف هؤلاء على أنفسهم، فقالوا: لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده، فكان من تذكير العلماء العاملين إياهم ـ وما أقلهم ـ ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

هكذا تبدو هذه الوقائع التي قدمتها الآيات الكريمة، جديرة أن تزيد المؤمن ـ وهو يتلو كتاب الله ـ يقيناً على يقين بالعدل الرباني، عدل الخالق الحكيم الذي لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون.

ومن هنا نجد في الآيات التي نددت بخصال اليهود الذميمة ـ وما أكثرها ـ، أو ذكرت شيئاً مما عوقبوا به، أن بيان السبب في ذلك، كان مصاحباً للذم والعقوبة.

وذلك ما يجعلنا على حق اليقين، بأن ما حكم به على اليهود في كتاب الله

وبيانه من سنة النبي عليه الصلاة والسلام، هو منتهى العدل الإلهي، ناهيك عما فيه من العظة والدعوة إلى الاعتبار، ولا يظلم ربك أحداً، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

هل إلى مقارنة من سبيل؟!

كان من الخير - والرحلة مع بعضٍ من وقائع -: أن نصحب الآية الثانية والخمسين بعد المائتين من سورة البقرة وهي قوله تعالى: ﴿ **تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ** ﴿٢٥٢﴾ ﴾ [البقرة: ٢٥٢]. وكان مما استلهمناه من عطائها، في إطار العلاقة بما قبلها من الآيات التي تحدثت عن بني إسرائيل: أن هؤلاء الأناسي لم يظلمهم الله فيما قال عنهم، مثقال ذرة، وأن الكلمة القرآنية تنطق بما لهم وعليهم دونما حيف أو محاباة: فإن استقاموا على الطريقة - وما أقل ذلك فيهم - رأيت الثناء عليهم وذِكْرَهم بما كان من الطاعة والإحسان. وإذا شاقوا الله ورسله وكان شعارهم ﴿ **سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا** ﴾ جاء الذم والكشف عن مثالب الانحراف والدعوة إلى استئناف الطريق. وتحذير المسلمين - في الغالب - من الانزلاق فيما انزلقوا فيه.

والحق أن صور العدل الإلهي بشأنهم متعددة في القرآن الكريم، رأينا بعضاً منها فيما سبق.

وفي الطريق إلى عرض ما كان من العدل عند المخالفة، نستذكر قوله تعالى في الآية التاسعة والخمسين بعد المائة من سورة الأعراف: ﴿ **وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ** ﴿١٥٩﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥٩] فذكر الله هذه الجماعة بما فيها، ولم يبخسها شيئاً، كما نذكّر بقوله جلَّ شأنه في الآية الرابعة والعشرين من سورة السجدة ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا**

لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [السجدة: ٢٤] فهل هنالك عدل وراء هذ العدل!!

إنها المقولة التي تؤكد ـ كما أسلفت غير مرة ـ أنه كان من العدل أيضاً ما ذُكروا به من السوء، حين أساؤوا وظلموا وخالفوا عن أمر الله، ولم يدعوا سبيلاً من سبل المعاداة لله ولرسله ولعباده الصالحين، إلا سلكوه.

وليس قليلاً، ما نرى من النماذج التي يبدو فيها الأمران من الثناء والذم متجاورين، وكل منهما مرتبط بسببه أوثق ارتباط. ففي سورة الأعراف نفسها وبعد قوله تعالى: ﴿ **وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ** ﴾ نقرأ قوله جل شأنه في الآية الستين بعد المائة ـ والكلام على بني إسرائيل ـ ﴿ **وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾** ﴾ [الأعراف: ١٦٠] لقد أنعم الله عليهم بهذه النعم كلها، ورزقهم من الطيبات ولكنهم ظلموا بالمخالفة والعصيان، فكان ذلك ظلماً لأنفسهم يورثهم المساءة في الدنيا ويوم الدين ﴿ **وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴾. لقد خالفوا وكفروا، فكان هذا الظلم الشديد لأنفسهم، مع ما شاهدوه من الآيات البينات والمعجزات القاطعات وخوارق العادات. أجل حصل منهم ذلك، وكان المفترض أن يشكروا تلك النعم، وأن يقطع شكُّهم بما رأوا بأم أعينهم من

تلك الدلائل الباهرات التي تولد اليقين عند المنصفين، ولكنهم بدل ذلك، ازدادوا تعنتا وإصراراً على المخالفة والجحود.

ومن هنا تبين ـ كما يقول الحافظ ابن كثير ـ فضيلة أصحاب محمد ﷺ رضي الله عنهم على جميع أصحاب الأنبياء في صبرهم وثباتهم وعدم تعنتهم، مع ما كانوا معه في أسفاره وغزواته، ومنها عام تبوك في ذلك القيظ والحر الشديد والجهد، لم يسألوا خرْق عادة ولا إيجاد أمر، مع أن ذلك كان سهلاً على النبي ﷺ. ولكن لما أجهدهم الجوع سألوه تكثير طعامهم، فجمعوا ما معهم، فجاء قدرَ مبرك الشاة، فدعا الله فيه، وأمرهم فملؤوا كل وعاء معهم. وكذلك لما احتاجوا إلى الماء، سأل الله تعالى فجاءتهم سحابة فأمطرتهم فشربوا وسقوا الإبل وملؤوا أسقيتهم. ثم نظروا فإذا هي لم تجاوز العسكر، قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ فهذا هو الأكمل في الاتباع؛ المشي مع قدر الله، مع متابعة الرسول ﷺ.

وهذا الذي نشير إليه بشأن الطعام والماء، جاءت به النصوص الصحيحة والحمد لله. فقد روى الإمام أحمد بسنده عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: (لما كان يوم غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة، فقالوا: يا رسول الله لو أذنت لنا فننحر نواضحنا فأكلنا وادَّهنا؟ فقال رسول الله ﷺ: افعلوا، فجاء عمر فقال: يا رسول الله إن فعلت قلَّ الظهر، ولكن ادعهم بفضل أزوادهم وادع لهم فيها بالبركة لعل الله أن يجعل فيها البركة، فقال رسول الله ﷺ: «نعم. فدعا بنطع منبسطة ثم دعا بفضل أزوادهم، فجعل الرجل يأتي بكسرة؛ حتى اجتمع على النطع

من ذلك شيء يسير، فدعا رسول الله بالبركة ثم قال لهم: خذوا في أوعيتكم، فأخذوا في أوعيتهم حتى ما تركوا في المعسكر وعاء إلا ملؤوها، وأكلوا حتى شبعوا وفضلت فضْلةٌ فقال رسول الله ﷺ: أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله لا يلقى اللَّهَ بها عبدٌ غير شاكٌ فيحجب عن الجنة». ورواه مسلم عن أبي كريب عن الأعمش، ورواه أحمد من حديث سهيل عن أبيه عن أبي هريرة ولم يذكر غزوة تبوك بل قال: في غزوة غزاها.

وأخرج عبد الله بن وهب عن ابن عباس أنه قيل لعمر بن الخطاب – رضي الله عنه –: حدثنا عن شأن ساعة العسرة، فقال عمر: خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد فنزلنا منزلاً، وأصابنا فيه عطش، حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى إن كان أحدنا ليذهب فيلتمس الرجل، فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع، حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ثم يجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله إن الله قد عودك في الدعاء خيراً فادع الله لنا فقال: «أو تحب ذلك قال: نعم، قال: فرفع يديه نحو السماء فلم يرجعها حتى قالت السماء فأطلت ثم سكبت فملؤوا ما معهم ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر».

أين هذا الذي فعله أصحاب النبي ﷺ وهم في ساعة العسرة، يلفهم هذا الجهد الجاهد، والمشقة المضنية، والعسر الذي لا يكاد يدانيه عسر، حيث أخذوا بالأسباب وسألوا الرسول عليه الصلاة والسلام الدعاء، دون تعنت أو ضجر أو طلب معجزة مادية...؟

أين هذا مما صنعه بنو إسرائيل من تعنت، وسخط، ونكران للنعمة، وتمحل في طلب المعجزة، وإصرار على الجحود بعد ظهورها؟.

صلى الله على الرحمة المهداة، سيدنا محمد بن عبد الله، ورضي الله عن أصحابه الكرام، الذين آمنوا به صادقين. واتبعوا النور الذي أنزل معه مجاهدين مخلصين، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

التطلع إلى عبادة الأوثان

- ١ -

الرسالة التي أنيط بأمة الإسلام أداؤها في العالمين، هدايةً إلى الخير، وسيراً بالإنسان إلى ما فيه سعادته في الدنيا والآخرة.. هذه الرسالة، وتنوُّع الميادين التي يفترض أن تخوضها من أجل ذلك على صعيد الأمكنة والأزمنة والشعوب، وما يمكن أن يحفل به الطريق من عقبات يصنعها أهل الجهالة والضلالة.. كل أولئك، كان من شأنه ـ والله أعلم ـ أن تكوِّن أجيال هذه الأمة، بدءاً من الجيل الأول، على التبصُّر بالحقائق التي تجعلها على بصيرة من أمرها فيما يُطلب إليها عملهُ، كيما يكون العمل مسبوقاً بما يمهد لانتظامه، وربط الأسباب فيه بالمسبِّبات، والمقدمات بالنتائج.. وذلك من طريق المعرفة والاقتناع بما هو حق وما هو باطل، والإحاطة بما تنبغي الإحاطة به من مسالك الأمم والشعوب، وبخاصة ما كان من شأن بني إسرائيل، الذين امتحنت بهم البشرية وما تزال تمتحن.

وشاء الله ـ وهو الحكيم الخبير ـ أن يكون التعريف بهؤلاء الناس، وذكر قصصهم مع أنبيائهم ومع غيرهم من الناس، وبيان مواقفهم من الحق الذي جاءت به الرسل، والسمات التي تميز بها سلوكهم.. شاء الله جلت حكمته أن يكون ذلك مصاحباً للخطوات الأولى على طريق الدعوة؛ فقد شغل اليهود وبنو إسرائيل حيزاً كبيراً في القرآن الكريم ـ بدءاً من العهد

المكي ـ كما أسلفنا من قبل ـ مع أن المسلمين لم يكونوا على مجاورة لهم أو معايشة في هذا العهد، ولكن كان ذلك في العهد المدني.. وأنت ترى أنه ورد ذكرهم بإسهاب أو اقتضاب، تصريحاً أو تلميحاً، مع ربط ما كان يحصل لهم بأسبابه التي كسبتها أيديهم في خمسين سورة من كتاب الله عز وجل، والناظر في كتب السنة والسيرة المطهرة يجد فيضاً من الحديث عنهم أيضاً، ومن ذكر الوقائع والتحليل للسمات التي كانت توجه سلوكهم، وتقفهم حيث وقفوا من الدعوة ومن صاحبها عليه الصلاة والسلام والمسلمين.

وهكذا كان من حكمة الله، تكوين المسلمين من أول الطريق، على المعرفة بما لا بد من معرفته بهذا الصنف من البشر. ففي العهد المكي، حيث المسلمون فئة قليلة مستضعفة تعاني من العقبات الصوارم، ومحاولة الفتن عن الدين، والمتاعب التي تكاد لا تنتهي.. في هذا العهد، نجد القرآن الكريم يتنزل بالحديث عن اليهود وبني إسرائيل، ويعرض بمنتهى الدقة والموضوعية، لقصصهم قبل البعثة المحمدية، من لدن وجودهم في مصر، وبعثة موسى عليه السلام وبعدها، كما يشير بالتصريح حيناً وبالتلميح حيناً آخر إلى مواقفهم من دين الله، ورسله عليهم الصلاة والسلام، وموقف بعضهم من الدعوة الإسلامية في العهد الذي نذكّر به، وهو العهد المكي وما كان من جنوحهم عن الحق الذي نزل به القرآن، وتأييدهم للوثنية والوثنيين..

هذا بالإضافة إلى الآيات التي تحمل إشارات مطلقة، يدخلون في نطاقها عند ذكر أهل الكتاب عموماً ومواقفهم من هذه الدعوة.

ها إنك تقرأ في سورة الأعراف ـ وهي سورة مكية ـ بدءاً من الآية الثامنة والثلاثين بعد المائة قول الله جل ذكره: ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ﴾ [الأعراف: ١٣٨ ـ ١٤١].

لقد كان بنو إسرائيل يسامون الخسف في ظل الوثنية الجاهلية الرعناء عند فرعون وملئه، فيقتَّل أبناؤهم، وتُستحيَىٰ نساؤهم، فأنقذهم الله على يدي نبيهم وزعيمهم موسى عليه السلام، وكان ذلك الإنقاذ باسم الله الواحد رب العالمين، الذي لا رب غيره ولا معبود بحق سواه، وشق لهم البحر، وأخرجهم من ذلك البلاء العظيم الذي كانوا يسامون. وكان المفروض أن يكون لهم في ذلك درس يزيدهم إيماناً بعقيدة التوحيد، ويعمق في نفوسهم أن لا إله إلا الله، وأن عبادة غيره كفر وضلال مبين، ولكن ثبت أنهم كانوا على عكس ذلك، فما كادوا يقعون على مشهد من مشاهد الوثنية، حتى هفت نفوسهم إلى تلك الوثنية وعبادة غير الله. حصل ذلك منهم، كأن شيئاً مما يدعو إلى غيره لم يحدث لهم من قبل.

ها هي ذي كلمات القرآن تكشف عن صنيعهم هذا بأجلى صورة وأوضح بيان، ذلكم قول الله تعالى في الآية التي أثبتناها من قريب وهي الآية الثامنة والثلاثون بعد المائة من سورة الأعراف ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ

الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ .

فحين أنقذهم الله، وتجاوزوا البحر بعد أن رأوا من آيات الله وعظيم سلطانه وقدرته التي لا تُحَدُّ ما رأوا؛ وقعت أبصارهم على قوم وثنيين عاكفين على أصنام لهم يعبدونها ويقدسونها، قيل: كانوا مع الكنعانيين وقيل: كانوا من لخم. بدل أن يستنكروا هذا الذي رأوا ـ على الأقل ـ طلبوا من رسول رب العالمين موسى عليه السلام الذي أخرجهم ـ باسم الإسلام لله وتوحيده ـ من الأرض التي أصابهم فيها ما أصابهم من البلاء والأذى.. طلبوا من موسى أن يتخذ لهم وثناً يعبدونه من جديد **﴿ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾** .

ولم يكن عجباً من العجب، أن يغضب موسى لله، ويغار على ألوهيته أن يُشرك بها قومه بعد تلك الحقبة الطويلة من الصراع بين التوحيد والوثنية.. لم يكن عجباً أن يغضب موسى فيقول لهم: إنكم قوم تجهلون.

ونتابع في الصفحات القادمة – إن شاء الله –، دلالة هذا الموقف من بني إسرائيل، وبيان القرآن الكريم في شأنه. وكم في مثل هذه المواقف من هؤلاء عَبْر التاريخ من دروس وعِبَر، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

التطلع إلى عبادة الأوثان

- ٢ -

في إشارة إلى أن الكلام على بني إسرائيل واليهود، شغل في كتاب الله مكيه ومدنيه حيزاً متسعاً، ألمحت إلى أن حديث القرآن عن بني إسرائيل في العهد المكي ـ والمسلمون ما يزالون قلة مستضعفة مستهدفة للفتنة والأذى ـ ذو دلالة عميقة، تقف الأمة الإسلامية على ما يُعيرُه القرآن من أهمية بالغة لتكوين المسلمين، ـ بدءاً من أول الطريق ـ على المعرفة التي يكون لهم معها حضور في التاريخ، ويستجلون من خلالها سمات الأمم والشعوب، وحكمة الله في مصائرهم عطاءً أو منعاً نصراً أو خذلاناً.. وبخاصة ما كان من أمر بني إسرائيل، والتجارب التي مروا بها. وما أثمرت تقلباتهم الضالة على صعيد الفرد والمجتمع، وما أعقبت من نتائج عبر التاريخ.. وما تزال.

وكان أول ما أردنا الوقوف عنده مما نزل من القرآن المكي في شأنهم: آيات من سورة الأعراف ـ وهي سورة مكية ـ بدءاً من الآية الثامنة والثلاثين بعد المائة. والآيات التي نعني، هي قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ

﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ﴾.

[الأعراف: ١٣٨ – ١٤١]

وقد وقفتنا الآية الأولى على الموقف المخزي الذي وقفه هؤلاء النفر من بني إسرائيل، حين لم ينتفعوا بذلك التاريخ الذي قارب ربع قرن من الزمان، من الصراع بين وثنية فرعون ودعواه الألوهية، وبين كلمة التوحيد التي جاءهم بها من عند الله نبيهم موسىٰ عليه السلام، لم ينتفعوا بذلك ولا بما رأوا من الآيات الباهرات، قاطعة الدلالة على أن التوحيد هو الحق، وأن ما دونه هو الباطل، والتي كان منها إنقاذهم من ظلم فرعون وعسفه باسم الله الواحد رب العالمين، وإنزال العقوبة الإلهية الصارمة بأعدائهم.. أجل لم ينتفعوا بشيء من ذلك، وراحوا يستشرفون عبادة الأوثان؛ فحينما جاوزوا البحر، وقعت أبصارهم على قوم يعكفون على أصنام لهم يعبدونها ويقدسونها، فتحركت في نفوسهم نوازع الانحراف والعماية، فلم يستحيوا أن يطلبوا من موسىٰ عليه السلام، أن يجعل لهم، كما لهؤلاء الوثنيين آلهة، وأدرك موسى ما يعنيه ذلك من الجهالة والران على القلوب، فقال لهم: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾.

أرأيت إلى رواسب الانحراف العريق في نفوسهم، إن كل ما وقع لهم من البلاء، يُنزله بهم من يدعي الألوهية، فيقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم، وهو فرعون ـ ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ ـ يعينه على ذلك مَلَؤه وأشياعه الضالون. وما وقع من الإنقاذ باسم التوحيد، والتبرؤ من

الأنداد والأضداد بعد ذلك.. وما ظهر خلال هذا كله من الآيات والعظات.. كل أولئك لم يحل دون بني إسرائيل، ودون أن يتطلعوا إلى وثن يتخذونه إلهاً يعبدونه.. وإنه لأمر في غاية السوء، أن يقع منهم ذلك.. ولكن الأسوأ منه، والذي هو غاية الشناعة والانحراف: أن يطلبوا ما طلبوه من موسى عليه السلام.. موسى الذي أنقذهم ـ بعون الله وتأييده ـ من الوثنية التي شاءها فرعون حين أراد إجبارهم على اتخاذه إلهاً وعبادته واستذلهم بتلك الوثنية، حتى إن الملأ من قومه ليهيجونه على موسى ومن معه بقولهم: ﴿ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ﴾ [الأعراف: ١٢٧] ثم ماذا وراء هذا المطلب الموغل في الضلال المبين؟

إنهم لم يتخذوا بأنفسهم وثناً يعبدونه، ولكنهم تجاوزوا الحدود، إلى أن يطلبوا ذلك من نبيهم الذي يوحى إليه بأن لا إله إلا الله.

ولكن لا بدع، فهم بنو إسرائيل؛ وكأن الله تعالى أراد بحكمته البالغة أن يضع هذه الحقيقة عن اليهود أمام المسلمين بصورة مبكرة من عمر الدعوة، في رحلتهم الطويلة عبر تاريخ الإنسان، كيما يكونوا على المحجة البيضاء، وهم يخوضون معركة البقاء بين الوثنية والتوحيد.

وفي هذه الواقعة، إشارة إلى أنه إذا فسدت الطوية، وأظلمت القلوب وتبلد الحسُّ؛ استوى طول التجربة وقصرها؛ فهؤلاء الأناسي ما كادوا يخرجون من البحر، ويبصرون أولئك العاكفين على أصنامهم يعبدونها، حتى تحركت في أعماقهم نوازع الجهالة الجهلاء، وطلبوا ما طلبوا من موسى عليه

السلام، ناسين ـ لا أذكرهم الله ـ ما تعلموا خلال عشرين عاماً أو تزيد، منذ جاءهم موسى عليه السلام بالتوحيد، فقد ذكرت بعض الروايات أنه أمضى في مصر ثلاثة وعشرين عاماً، منذ أن واجه فرعون وأشياعه برسالته، إلى يوم الخروج من مصر، مجتازاً ببني إسرائيل البحر، بل نسوا ـ لا أذكرهم الله ـ معجزة اللحظة التي أنقذتهم من فرعون وملئه وأهلكت هؤلاء أجمعين، كما أخبر عن ذلك القرآن الكريم.

وتضعنا الكلمة القرآنية أمام الموقف الذي كان من موسى عليه السلام. لقد غضب من مقالة السوء التي نطقت بها ألسنتهم، غضب لربه جل وعلا، وغار على ألوهيته أن يشرك بها قومه، فكان أن قال لهم تلكم الكلمة المعبرة التي تليق بطلبهم العجيب قال: ﴿**إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ**﴾ ولم يحدد ماذا يجهلون. ذلك ليكون في اللفظ ـ والله أعلم ـ إطلاق يكون معه أكثر شمولاً. إنهم يجهلون: من الجهالة ضد المعرفة والعلم، وإنهم يجهلون: يقعون في الحماقة التي هي ضد العقل، فما كان لمقالة السوء التي قالوها أن تنبعث إلا من الغارقين في الجهالة والحمق إلى أبعد الحدود، ذلك لأن الانحراف عن طريق التوحيد إلى الشرك وليدُ الجهل والحماقة.

أما العلم والتعقل: فكلاهما يعود ـ إذا صدقت الوجهة ـ إلى الله الواحد الذي لا إله غيره ولا رب سواه، فما من علم ولا عقل بالمعنى الصحيح ـ بعيداً عن سلطان الهوى ـ يقود إلى غير هذا الطريق؛ لأن كل مسلك يجافي طريق التوحيد، لا يعدو أن يكون إعلاناً عن انحراف

صاحبه، مجافياً للفطرة، مخالفاً ما يقتضيه العقل السليم القائم بوظيفة التنوُّر والتفكر بآلاء الله في النفس وفي الكون ﴿ **قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ** ﴾ .

والحمد لله الذي أتم علينا النعمة بالإسلام، ونسأله جل شأنه الثبات على الحق الذي نزل به الكتاب. وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الخير في التوحيد الخالص

كان فيما حملت إلينا سورة الأعراف ـ وهي سورة مكية ـ من هداية في الكشف عن بعض من خصائص اليهود النفسية، وسمات الانحراف الأصلية فيهم، تلك الآية الكريمة التي تحكي تطلعهم إلى اتخاذ إله مع الله، يعكفون عليه ويقدسونه رغم ما رأوا من الآيات الدالة على قدرة الله وعظيم سلطانه، ورغم كونهم أُنقذوا من ظلم فرعون وشيعته باسم توحيد الله تعالى وإفراده بالعبودية وتنزيهه عن الشريك والمثيل. وقد أشرت من قبل إلى عمق الدلالة في قول الله تعالى على لسان موسى عليه السلام خطاباً للقوم: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ عندما طلبوا هذا المطلب المخزي ـ وكلُ ما هم فيه مع عدوهم، وما غمرهم من الآيات والعظات ـ؛ يوجب مزيد اليقين بوحدانية الله، وأنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير !!.

لقد كشف تطلعهم إلى اتخاذ إله مع الله، أنهم ما يزالون بعد تلك الأعوام الطويلة غارقين في الجهل والعماية، لم تستنر قلوبهم بكلمة التوحيد على الوجه الذي ينبغي، ولا حركت عقولهم وقائع ما جرى من صراع بين الكلمة الطيبة لا إله إلا الله، وبين الشرك، في معركة قادها نبيهم وزعيمهم موسى عليه السلام، في مواجهة مدعي الألوهية فرعون.. أجل إنهم قوم يجهلون.

والواقع أن موسى عليه السلام لم يكتف بقوله: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ ولكنه حاول أن يزيل الغشاوة عن العيون، ويبين لبني إسرائيل أن هؤلاء

الذي يعكفون على أصنام لهم، والذين تطلعتم إلى تقليدهم فطلبتم أن أجعل لكم إلهاً كما لهم آلهة. . . هؤلاء قوم ينتظرهم سوء العاقبة وبئس المصير، ذلكم قوله تعالى في أعقاب الآية السابقة: ﴿ **إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ إن ما هم فيه من شرك وعكوف على أصنام يتخذونها آلهة من دون الله الواحد سبحانه، وحياةٍ تقوم على هذا الانحراف عن الفطرة، والمجافاة للعقل السليم. . إن هذا كله متبر هالك باطل، اعتقاداً كان، أو عملاً وسلوكاً؛ فكيف تستشرفون ـ وقد أنعم الله عليكم بالتوحيد ـ تقليد قوم يسرحون ويمرحون في الضلالة، وما هم فيه هالك باطل لا يعقب إلا السوء والعذاب المهين في الآخرة، ولا ينتهي إلا إلى ما ينتهي إليه الباطل من هلاك ودمار؟!.

وهذ الذي حكاه القرآن الكريم على لسان موسى عليه السلام رَدّاً على ما كان من بني إسرائيل ﴿ **إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ** ﴾ ﴿ **إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ يحمل في طياته ـ وهو من القرآن المكي أي في فترة مبكرة من عمر الدعوة ـ تحذيراً لهذه الأمة أن تقع فيما وقع فيه أولئك الجهلة الوالغون في العماية وسوء التفكير. من أجل ذلك كان رسول الله ﷺ حريصاً كل الحرص على أن يحول دون المسلمين ودون أي تصرف يشبه من قريب أو من بعيد ما حصل من بني إسرائيل، أو يمكن أن يوصل إليه، أخرج ابن جرير الطبري في تفسيره للآية عن أبي واقد الليثي – رضي الله عنه –، أنهم خرجوا من مكة مع رسول الله ﷺ إلى حنين، قال: وكان للكفار سِدرة يعكفون عندها، ويعلقون بها أسلحتهم، يقال لها: (ذات أنواط) قال: فمررنا بسدرة خضراء عظيمة،

قال: فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط، قال: قلتم والذي نفسي بيده، ما قال قوم موسى: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨، ١٣٩] إنها السَّنَن «لتركبن سنن من كان قبلكم». وفي بعض الروايات ما يدل على أن أبا واقد - رضي الله عنه -، هو الذي طلب ذلك من رسول الله ﷺ، فقد روى الإمام أحمد عن أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين، فمررنا بسدرة فقلت: يا نبي الله اجعل لنا ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط، وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة ويعكفون حولها، فقال النبي ﷺ: «الله أكبر، هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، إنكم تركبون سنن من كان قبلكم».

وأنت واجد هنا أن النبي ﷺ استعظم ما طلب منه، وأراد حسم الموقف من أول الطريق، سداً للذريعة ولكيلا يسلك المسلمون سبيلاً تصل بهم إلى الهوة التي وقع فيها بنو إسرائيل. إذ قال صلوات الله وسلامه عليه: «الله أكبر هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة إنكم تركبون سنن من كان قبلكم» والسَّنَنُ بفتحتين: نهج الطريق.

ولعل من الخير أن أشير إلى أن الذين قالوا ما قالوا لرسول الله ﷺ، كانوا حديثي عهد بكفر، فكأنهم ما كانوا يتصورون أن في الأمر ما ينافي التوحيد، ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام ـ كما أسلفت ـ خاف أن يكون ذلك عنوان انحراف عن الصراط السوي، ونبَّه بحزم إلى عدم الوقوع في تقليد جهالة بني إسرائيل، حين قالوا لموسى: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة. فقد

روى أبو داود الطيالسي في سنده عن أبي واقد اللَّيثي قال: كنا مع رسول الله ﷺ بحنين ـ ونحن حديثو عهد بكفر ـ فمررنا على شجرة يضع المشركون عليها أسلحتهم يقال لها: ذات أنواط، فقلنا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال: الله أكبر قلتم كما قال أهل الكتاب لموسى عليه السلام: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة. ثم قال رسول الله ﷺ «إنكم ستركبون سنن من كان قبلكم» ورواية ابن إسحاق في السيرة تؤكد ما قلناه لأنها نصّت أيضاً على قول أبي واقد: (ونحن حديثو عهد بكفر).

وهكذا نرى أن أمتنا مدعوة أبداً إلى أن يكون لها وجودها الذاتي النابع من عقيدة التوحيد، فلا يصيبها ما أصاب أولئك الذين تطلعوا ـ وهم يدَّعون التوحيد ـ إلى اتخاذ إله يعبدونه من دون الله، فقال لهم موسى: إنكم قوم تجهلون. فالخير كل الخير في التوحيد الخالص، وإقامة الحياة الإسلامية على أساس منه، وشتان بين الظلمات والنور. والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

مقابلة النعم بالجحود

- ١ -

مرة أخرى نعود إلى متابعة العطاء في تلكم الآيات المكية من سورة الأعراف، حيث الكلام على بني إسرائيل في قالة السوء التي قالوها لموسى، بعد أن خرجوا من البحر، وما كان من جواب موسى عليه السلام من قوله كما أخبر القرآن الكريم: ﴿**إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ** ﴿١٣٨﴾ **إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ وكانت لنا في صفحة سابقة وقفة عند بعض من عطاء تلكم الكلمات المباركات. غير أن القرآن الكريم كشف لنا عن أن موسى عليه السلام لم يقتصر على هذا الذي رأينا، ولكنه قال شيئاً آخر، ألا ترى إلى ما جاء في أعقاب الآيتين المومى إليهما من قول الله تعالى إخباراً عن موسى عليه السلام: ﴿**قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾ [الاعراف: ١٤٠].

لقد فضلهم الله على العالمين في زمانهم، بأن اختارهم لحمل رسالة التوحيد، وذلك فضل عظيم من الله لا يدانيه فضل، ومنة كبرى لا تعدلها منة... وبدلاً من الشكر على ما منَّ الله به عليهم وتفضَّل، يطلبون إلى نبيهم الذي تقوم رسالته على التوحيد، أن يجعل لهم إلهاً غير الله، وهم مغمورون بنعمته وفضله، ولا تعوزُ حياتَهم آيةٌ من الآيات التي تدل أوضح دلالة، وأبلغها على أنه لا إله إلا الله الواحد الأحد الفرد الصمد، وأنه لا معبود بحق إلا هو سبحانه.

وجميل ما ذهب إليه شيخ المفسرين ابن جرير الطبري، من أن ذلك كان منهم جهلاً أيَّ جهل، فكان قول موسى عليه السلام: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ فيه شي من الإجمال، فجاءت الآية بما يدل على أن صنيعهم جهل وجهالة قال - رحمه الله - في تفسير هذه الآية: (يقول تعالى ذكره: قال موسى لقومه: أسِوى الله ألتمسُكم إلهاً وأجعل لكم معبوداً تعبدونه، والله الذي هو خالقكم فضَّلكم على عالمَي دهركم وزمانكم؟ يقول: أفأبغيكم معبوداً لا ينفعكم ولا يضركم تعبدونه، وتتركون عبادة من فضلكم على الخلق؟ إن هذا منكم لجهل) .

وتنتقل بنا الآيات إلى قول الله جل وعز: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾ [الأعراف: ١٤١] وقد جاءت هذه النقلة فكان الخطاب من الله لهم بقوله ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم﴾ على طريقة القرآن الكريم ـ كما يقول صاحب الظلال رحمه الله ـ في وصل ما يحكيه عن أولياء الله، بما يحكيه عن الله سبحانه، إذ يستطرد السياق ـ كما نرى ـ بخطاب من الله تعالى موصولٍ بكلام موسى عليه السلام موجه كذلك لقومه. ولا يخفى ما في مثل هذا الوصل في كتاب الله الكريم بين كلام الله جل شأنه وما يحكيه من كلام أوليائه، من التكريم والإشعار بما لهم من منزلة عنده سبحانه.

وهكذا نقرأ قول الله تعالى إخباراً عن موسى عليه السلام: ﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الأعراف: ١٤٠] ونقرأ عقب ذلك في الآية التي تلي قوله جل وعلا خطاباً لبني إسرائيل أيضاً: ﴿وَإِذْ

أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ﴾.

يقول الله تعالى لهم: واذكروا مع هذا الذي قلتموه لموسى بعد رؤيتكم من الآيات والعبر ما رأيتم، وبعد النعم التي سلفت مني إليكم، والأيادي التي تقدمت فعلكم ما فعلتم، من هذا القول المخزي عن التوحيد إلى طلب أن يكون لكم إله تعبدونه من دون الله.. اذكروا نعمتي عليكم إذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب، أي خلصتكم منهم وأنقذتكم من أيديهم صحبة موسى عليه السلام، وقد كانوا يسومونكم أي يوردونكم ويذيقونكم سوء العذاب، أقبح العذاب وأسوأه.

وآل فرعون هم الذين كانوا على منهاجه وطريقته في الكفر بالله من قومه، وإنما يعملون ما يعملون بإرادته وموافقته، بل بأمره. وقد نسب التقتيل والاستحياء إليهم، لأنهم كانوا يباشرونه بأنفسهم.

هكذا كان أمر فرعون، بأن يقتل كل ذكر يولد من بني إسرائيل، وأن تترك البنات، وذلك بعد رؤيا رآها ـ كما يقول المفسرون ـ فيها إنذار بزوال ملكه على يد بني إسرائيل. وأمر باستعمالهم في مشاق الأعمال وأرذلها.

وبعد هذا التذكير بما أنعم الله عليهم من النجاة من آل فرعون، حيث كانوا يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿ **وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ** ﴾ البلاء هنا هو النعمة، كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وروي عن السدي في قوله: ﴿ **وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ** ﴾ أما البلاء: فالنعمة، ومثل ما روي عن مجاهد قال: نعمة

عظيمة. من أجل ذلك قال الطبري - رحمه الله -: أما قوله ﴿ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ فهو يعني: وفي الذي فعلنا بكم من إنجائكم مما كنتم فيه من عذاب آل فرعون إياكم، على ما وصفت، بلاء لكم عظيم أي نعمة عظيمة عليكم في ذلك.

وإنما فسر البلاء في الآية التي نحن بصددها، وفي أمثالها من الآيات هذا التفسير؛ لأن أصل البلاء في كلام العرب الاختبار والامتحان، ثم يستعمل في الخير والشر، لأن الامتحان والاختبار قد يكون بالخير كما يكون بالشر. كما جاء في سورة الأعراف﴿ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ ﴾ [الأعراف: ١٦٨] وفي سورة الأنبياء نقرأ قوله تعالى: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ [الانبياء: ٣٥] والأكثر في الشر أن يقال: بلوته أبلوه بلاءً. وفي الخير: أبليته أُبليه إبلاءً وبلاءً. قال زهير بن أبي سلمى:

جزى الله بالإحسان ما فعلا بكم وأبلاهما خير البلاء الذي يبلو

فجمع بين اللغتين، لأنه أراد فأنعم الله عليهما خير النعم التي يختبر بها عباده.

هذا: ويفترض للنعمة أن تذكر فتشكر، ولكن اليهود دائماً يستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير. ثبتنا الله بقوله الثابت، وعافى أمتنا من الوقوع في تقليد هؤلاء المغضوب عليهم، ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾.

[آل عمران: ١٤٧]

مقابلة النعم بالجحود

- ٢ -

كفران النعمة والتطلُّع إلى اتخاذ إله من دون الله عز وجل، مع توافر الدواعي الواضحة للشكر والثبات على الإيمان: ظاهرة من ظواهر السلوك عند اليهود كما عرفنا: ظاهرة دل عليها كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين ولا من خلفه، وأكدتها الوقائع. وقد رأينا نموذجاً لذلك فيما قصَّ علينا القرآن المكي في سورة الأعراف عن بني إسرائيل يوم بدَّلوا نعمة الله كفراً، ولم يبالوا أن يطبلوا من نبيهم موسى عليه السلام أن يجعل لهم إلهاً يعبدونه من دون الله، معْرِضين عما يجب عليهم من شكر الله على نعمة تفضيلهم على أهل زمانهم بالتوحيد، وإنجائهم من آل فرعون الذين كانوا يسومونهم سوء العذاب، وإهلاك عدوهم.

وفي متابعة لاستلهام الكلمة القرآنية الهادية في شأن هذه الظاهرة التي تنمُّ عما يتسم به سلوكهم من الإتيان بالنقيض، واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير.. أود الإشارة إلى أن ما أنعم الله به على بني إسرائيل من إنقاذهم على يد موسى عليه السلام من فرعون وآله وشيعته، حيث كانوا ينزلون بهم الأهوال قد ورد ذكره في القرآن الكريم مكيِّه ومدنيِّه غير مرة.

ولعل الحكمة في ذلك ـ والله أعلم ـ أن يعي المسلمون ومن ورائهم من يعقل من الناس؛ حقيقة هؤلاء القوم الذين نراهم ـ على دعاواهم

العريضة في الصلة بالسماء ـ يقابلون نعم الله بالجحود والكفران، وبدل أن يزدادوا بما يرون من الآيات البينات، إيماناً بوحدانية الله تعالى وقدرته وسلطانه، وأن العبادة لا تجوز إلا له سبحانه.. بدل ذلك، ينكصون على أعقابهم، ويستشرفون التمرغ في أوحال الوثنية، واتخاذ الند والمثيل لله في الطاعة والإذعان.. ولعل من الحكم ـ فيما وراء ذلك ـ أن يكون المسلمون ـ وهم حملة الرسالة الخاتمة ـ على أكمل وجه من وضوح الرؤية في تجنب كل ما يمكن أن يوقع فيما وقع فيه أولئك المبطلون الجاحدون.

هذا: وتعدد المواطن التي ورد فيها التذكير بالإنجاء من فرعون وآله وشيعته، توبيخاً وتأنيباً لمن يتمرغون في إثم الكفران والجحود من بني إسرائيل، صحبه ـ في الكتاب المعجز ـ تنوع الصور في الأسلوب، وفق ما يقتضيه منهج الهداية الرباني؛ فالذي رأيناه في سورة الأعراف المكية: خطابٌ من الله تعالى لبني إسرائيل أن يذكروا إذ أنجاهم بقدرته ـ سبحانه ـ على يد موسى **﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾** وننتقل إلى سورة إبراهيم ـ وهي سورة مكية أيضاً ـ لنرى أن التذكير بالنعم وقع أيضاً من موسى عليه السلام لقومه، ذلكم قول الله جل شأنه: **﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾﴾** [إبراهيم: ٦] فهنا نجده تعالى يخبر عن موسى عليه السلام، أنه ذكّر بني إسرائيل بأيام الله عندهم ونعمه عليهم، إذ أنجاهم من آل فرعون وما كانوا يسومونهم من العذاب والإذلال، حيث كانوا يذبحون من وجد من أبنائهم،

ويتركون إناثهم، فأنقذهم الله تحت عنوان التوحيد الخالص لله من ذلك. وهذه نعمة عظيمة هي فضل من الله وعظيم نعمته. ولهذا قال: ﴿ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ أي وفي ذلكم نعمة عظيمة منه عليكم في ذلك ـ كما أشرت في وقفة سبقت ـ وهي نعمة من واجبكم أن تقابلوها بالإذعان والشكران.

ومن الممكن أن يكون المقصود بالبلاء ـ كما يرى بعض المفسرين ـ ما كان يفعله قوم فرعون، فيكون التأويل:

(وفيما كان يصنعه بكم قوم فرعون من تلك الأفاعيل بلاء أي اختبار عظيم).

على أية حال: يحتمل أن يكون المراد ـ كما يرى الحافظ ابن كثير رحمه الله ـ هذا وهذا، كقوله تعالى في سورة الأعراف ـ والكلام على بني إسرائيل ـ ﴿ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ ﴾.

ولا يقف الأمر عند القرآن المكي. ذلكم ما نقرأ في سورة البقرة المدنية من التذكير بالإنجاء من آل فرعون مع التذكير بنعمة إغراقهم، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [البقرة: ٤٩، ٥٠].

ونمضي مع سورة إبراهيم لنقرأ بعد الآية التي أوردناها قوله عز وجل: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧]

جاءت هذه الآية الكريمة بعد التذكير ـ كما رأينا ـ بنعمة إنجاء الله إياهم من ظالميهم: فرعون وقومه.

هكذا: وإذ تأذن ربكم: آذنكم وأعلمكم ربكم بوعده لكم. أو: آلى ربكم وأقسم بعزته وجلاله وكبريائه كما في قوله تعالى في سورة الأعراف متوعداً اليهود بسبب ظلمهم وانحرافهم: ﴿ **وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ** ﴾ [الأعراف: ١٦٧].

ومضمون ما أعلم الله به أو أقسم عليه في سورة إبراهيم، والآية التي نحن بصددها ﴿ **لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ** ﴾ ـ والله أعلم ـ لئن شكرتم نعمتي لأزيدنكم منها وأبارك لكم فيها، ولئن كفرتم النعم وسترتموها وجحدتموها باستخدامكم إياها في المجاهرة بعدائي ـ وأنا المنعم المتفضل ـ والانحراف عن الصراط السوي، إن عذابي لشديد؛ وذلك بالعقاب على هذا الكفران في الدنيا والآخرة.

ثم أعلن موسى في قومه أن الله غني عن شكرهم، محمود على صنيعه فيهم ـ وإن كفر من كفر ـ فإذا شكروا، فالخير لهم ولا حاجة لله فيه، وإذا كفروا، فالشر عائد عليهم لا محالة، نجد ذلك في قوله تبارك وتعالى بعد الآية السابقة: ﴿ **وَقَالَ مُوسَى إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ** ﴿٨﴾ ﴾ [إبراهيم: ٨].

موسى عليه السلام ـ وهو النبي الموحى إليه ـ يقرر هذه الحقيقة في خطاب لليهود، الذين لم يشكروا نعمة الله عليهم بإنقاذهم من آل

فرعون، بل راحوا يتبعون أهواءهم، ويطلبون إلهاً يعبدونه من دون الله. هذه الحقيقة هي: أن الله غني عن عباده، وهو الحميد المحمود على كل حال، شكر من شكر، وكفر من كفر. فلو أن من في الأرض جميعاً كفروا النعمة كما كفر اليهود، فإن ذلك لا يغير من تلك الحقيقة شيئاً، ولذلك جاء التأكيد باللام بعد التأكيد بـ (إن) في قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾.

الحمد لله الذي هدانا للمعرفة الحقة، ونسأله تعالى أن يفتح القلوب لما جاء في الكتاب والسنة عن المغضوب عليهم اليهود، كيما يوظف ذلك في معركة متنوعة الميادين الظاهرة والباطنة هنا وهناك، وهي ميادين قد يطول أمدها.. ويطول، ولله الأمر من قبل ومن بعد..

لا يـذكـرون أيـام الله

أشرت فيما سبق إلى أن واقعة إنجاء الله لبني إسرائيل من فرعون وقومه الذين كانوا يسومونهم سوء العذاب وألوان الإذلال، لما أنها قد أعقبت عند اليهود كفرانهم للنعمة، واستبدالهم الرغبة في اتخاذ إله يعبدونه من دون الله، قد تكرر ذكرها في القرآن الكريم مكيِّه ومدنيِّه، وليس الأمر مقصوراً على سورة الأعراف المكية، الأمر الذي يؤكد أن ما صنعه هؤلاء البغضاء إلى الله ـ وقد فضلهم الله على أهل زمانهم بكلمة التوحيد ـ هي ظاهرة تعكس ما ينطوي عليه اليهود من رغبة عارمة في الجحود، وحرص على اتباع الهوى ولو أوقع ذلك في الشرك والعياذ بالله.

وقد رأينا أن من المواطن التي ذكرت فيها تلك الواقعة سورة إبراهيم، وهي سورة مكية، ذلكم قوله تعالى إخباراً عن موسى عليه السلام فيما قال لقومه بشأنها: ﴿ **وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَى إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾** ﴾ [إبراهيم: ٦ ـ ٨].

وقبل أن نمضي إلى موطن آخر ذكرت فيه الواقعة المشار إليها، أراني مسوقاً إلى التذكير بأن موسى عليه السلام ـ في خطابه لقومه بهذا الشأن ـ كان ممتثلاً لأمر الله عز وجل فقد أُمِر ـ فيما أُمر به ـ أن يذكِّرهم بأيام الله.

ويومُ نجاة بني إسرائيل من فرعون وقومه؛ من أيام الله التي كان عليهم أن يضعوها موضعها من العبرة وفقه الحوادث، فيستعلن شكر الله فيهم، ويزدادوا إيمانًا بعد الذي رأوا من الآيات التي لا تدع ريبة لمستريب، في أن الله واحد لا شريك له ولا مثيل، وأنه القاهر فوق عباده، ومن ذلك أنه أغرق فرعون وشيعته، وأنجى بني إسرائيل على يد موسى الذي قامت دعوته فيهم على التوحيد.

ولكن بني إسرائيل كانوا على النقيض من ذلك، فكشفت النعمة العظيمة، والآيات الكبار، عن الدخَل الذي تنطوي عليه نفوسهم، فلم يكن منهم بعد ذلك إلا أن استبدلوا السوءى بالحسنى.

والآية التي أمرت موسى عليه السلام بتذكيرهم بأيام الله هي قول الله تعالى في الآية الخامسة من سورة إبراهيم: ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝** ﴾ [إبراهيم: ٥] ففي هذه الآية الكريمة يقول ربنا جل جلاله: وكما أرسلناك يا محمد وأنزلنا عليك الكتاب لتدعو الناس بدعوة الحق، وأن تخرجهم من الظلمات إلى النور، كذلك أرسلنا موسى إلى بني إسرائيل بآياتنا ﴿ **أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ** ﴾ أي أمرناه قائلين: ادع هؤلاء القوم إلى الخير ليخرجوا من ظلمات ما كانوا فيه من الجهل والضلال إلى نور الهدى وبصيرة الإيمان ﴿ **وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ** ﴾ وأيام الله: أياديه ونعَمه عليهم في إخراجهم من أسر فرعون وقهره وظلمه ودعوة الناس إلى عبادته، وإنجائه إياهم من عدوهم وفلْقه لهم البحر، وتظليله إياهم بالغمام، وإنزاله عليهم المن والسلوىٰ، إلى غير ذلك من النعم، روى

ذلك الطبري عن مجاهد وقتادة وغير واحد. وهو ما روى الإمام أحمد في المسند عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ قال: «بنعم الله». ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث محمد بن أبان. وفي رواية عن مجاهد ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ قال: بالنعم التي أنعم بها عليهم، أنجاهم من آل فرعون، وفلق لهم البحر، وظلَّل عليهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى. أما ابن زيد: فروى عنه ابن جرير أنه قال: أيامه التي انتقم فيها من أهل معاصيه من الأمم، خوَّفهم بها وحذرهم إياها، وذكرهم أن يصيبهم ما أصاب الذين من قبلهم.

هذا: وقد ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ إن في الأيام التي سلفت بنعمة الله على بني إسرائيل، حين أنقذهم الله من يد فرعون وأنجاهم مما كانوا فيه من العذاب المهين، لعبراً ومواعظ لكل صبار أي في الضراء، كما قال قتادة: «نعم العبد إذا ابتلي صبر، وإذا أعطي شكر». وما قاله قتادة قبس مما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كلَّه خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سرّاء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضرّاء صبر، فكان خيراً له» [رواه مسلم وغيره].

وتأولها الطبري - رحمه الله - فقال: ﴿لَآيَاتٍ﴾ لعبراً ومواعظ ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ لكل ذي صبر على طاعة الله، وشكر له على ما أنعم عليه من نعمته.

ومهما يكن من أمر: فإنا إذا تأملنا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ وما سبقه من قوله جل شأنه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا

أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ نجد أن الأقوال جميعها مما تحتمله الآية الكريمة، لأن كلاً من الصبر والشكر مطلوبان، سيما إذا توافرت الدواعي الملحة، لأنهما مظهر من مظاهر العبودية الصادقة لله عز وجل. وعلى عكس ذلك تماماً كان سلوك اليهود، وما يزال، وما أشبه الليلة بالبارحة.

وهكذا نجد في خاتمة المطاف: أن الآيات الأربع في سورة إبراهيم، بدءاً من الآية الخامسة، تقفنا ـ مع مضموناتها العميقة بعيدة المدى في شأن بني إسرائيل ـ على صورة من صور التكامل المعجز بين الآيات في الموضع الواحد، بحيث يؤدي ـ بجانب عرض الوقائع ـ ما شاء ربنا جل شأنه من الهداية وإنارة السبيل، ولعل في ذكر الآيات الكريمات كلها جملة واحدة، ما يعين على إدراك ذلك بصورة أوفى إن شاء الله ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَى إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾ [إبراهيم: ٥ ـ ٨].

اللَّهم يوماً من أيامك تردُّ فيه الأمة إلى دينها، لتأخذه بقوة وصدق، وتنصرها على عدوك وعدوها، نصراً يفرح به المؤمنون، ويُخزى به المنافقون. لك الحمد في الأولى والآخرة، أنت مولانا، فانصرنا على القوم الكافرين.

ومن يَحْلِلْ عليه غضبي فقد هوى

قادنا الحديث عن منة الله تعالى على بني إسرائيل بإنقاذهم من فرعون وشيعته، الذين كانوا يسومونهم سوء العذاب، وما جاء في شأن ذلك في سورة الأعراف، وهي من السور المكية، . .قادنا الحديث عن ذلك إلى ما ورد بشأن هذه الواقعة في سورة إبراهيم، ووقفتنا الآيات في السورتين على ظاهرة الكفران والجحود عند بني إسرائيل ورغبتهم الجامحة دائماً في الخروج على الحق والفضيلة، طاعة للأهواء وانقياداً لتسويلات النفوس المريضة الهابطة.

وتنقلنا الخُطا على هذه الساحة، إلى سورة مكية أخرى هي سورة «طه»، لنجد القرآن الكريم يتحدث عن تلكم النعمة العظيمة، نعمة نجاة القوم على يد موسى في عداد غيرها من النعم، ولكن بعد عرض سريع وافٍ كلَّ الوفاء لما حصل من خرق العادة لموسى ـ بإذن الله ـ وهلاك فرعون ومن معه ونجاة بني إسرائيل.

والآيات التي نومي إليها في سورة «طه»، هي قول الله تبارك وتعالى بدءاً من الآية السابعة والسبعين: **﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لاَّ تَخَافُ دَرَكًا وَلا تَخْشَى ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى ﴿٧٩﴾ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى ﴿٨٠﴾ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي**

وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴿٨٢﴾ ﴾ [طه: ٧٧ - ٨٢].

والملاحظ أنه جاء التذكير بمجموعة من النعم في مقدمتها ما كان من نجاة بني إسرائيل - بإذن الله - على يد موسى، وهلاك فرعون وجنوده، حيث كان موسى، ومن معه ينظرون إلى الطاغية وإلى جنده قد غرقوا في صيحة واحدة لم ينج منهم أحد، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [البقرة: ٥٠]، وذكرت هذه النعمة في مقدمة ما ذكر في قوله تعالى: ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ... ﴾ ووليها ما كان من نعمة الله في مواعدة موسى وبني إسرائيل بعد هلاك فرعون جانب الطور الأيمن، وهو الذي كلمه الله تعالى عليه، وسأل فيه الرؤية، وأعطاه التوراة هنالك ﴿ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ ﴾.

وفي غضون ذلك، عبد بنو إسرائيل العجل، وهو ما سيأتي ذكره في سورة «طه» التي نسعد بصحبتها من قوله تعالى: ﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ ﴾ [طه: ٨٨ - ٨٩] والذي نسي هو السامري، إذ ترك ما كان عليه من إسلام الوجه لله عز وجل.

وجاء بعد ذلك التذكير بالنعمة الثالثة، وهي نعمة إنزال المنِّ والسلوىٰ عليهم ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى ﴾. ثم جاء الأمر بأن يأكلوا من طيبات ما رزقهم الله دونما طغيان ولا تجاوز للحدود التي شرعها الله، وإلا حلَّ

عليهم الغضب، ومن يحلل عليه غضب الله فقد هوى. على أن باب التوبة مفتوح لمن كانت توبته نصوحاً وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى. ذلكم قول الله تبارك وتعالى: ﴿ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى ﴾.

والواقع أن اليهود لم يدعوا مهواة تتسبب في إنزال غضب الله عليهم، إلا انغمسوا في حمأتها، فحلَّ عليهم غضب الله، وأصابتهم لعناته جل جلاله، إلى يوم الدين.

ها نحن أولاء نقرأ في سورة «المائدة» في شأن هؤلاء المغضوب عليهم، قول الله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ (٦٠) وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ (٦١) وَتَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٢) ﴾ [المائدة: ٦٠ – ٦٢].

وكان من سوء الصنيع، سكوت الربانين والأحبار فيهم عن ارتكاب هذه الموبقات؛ وذلك ما كشفت عنه الآية التي تلي وهي قوله تعالى: ﴿ لَوْلا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (٦٣) ﴾ [المائدة: ٦٣].

وأنت ترى أن هاتين الآيتين الأخيرتين، تثبتان أن من جملة موبقاتهم التي تنزلت بسببها لعنات الله على رؤوسهم، وتسربلوا غضبه، أن كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان، وأكل السحت، والله تعالى يقول لهم

بعد أن أنزل عليهم المنَّ والسلوىٰ ﴿ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴾ .

لقد طغى القوم، فحلَّ عليهم غضب الله وهَوَوْا في جحيم الشقاء وكانوا من الخاسرين. ونقرأ في الآية الحادية والستين من سورة البقرة قول الله سبحانه ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٦١) ﴾ [البقرة: ٦١] . كما نقرأ في سورة آل عمران قوله جل ذكره: ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (١١٢) ﴾ [آل عمران: ١١٢] وإذا كانت هاتان الآيتان من سورتي البقرة وآل عمران تنبئان كلتاهما بوضوح أن اليهود باؤوا بغضب من الله: ففي سورة البقرة أيضاً ما هو أشد من ذلك، وهو أنهم باؤوا بغضب على غضب والعياذ بالله، ذلكم قول الله جل شانه: ﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٩٠) ﴾ [البقرة: ٩٠] .

وفي سورة الممتحنة نُهي المؤمنون أشد النهي عن موالاة اليهود وجاء التعْبير عن ذلك في الآية التي اختتمت بها السورة وهي قول الله جل ذكره: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ (١٣) ﴾ [الممتحنة: ١٣] والمقصود بالقوم الذين غضب الله عليهم: اليهود، وفيما علمنا الله تعالى من

دعائه في سورة الفاتحة من قوله تباركت أسماؤه: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾ ﴾ [الفاتحة: ٦ - ٧] المغضوب عليهم هم اليهود، والضالون هم النصارى.

ولقد رأينا اقتران الغضب عليهم مع اللعن، وهو الطرد من رحمة الله في الآية التي أوردناها من سورة المائدة آنفاً، وفي كتاب الله كثير من المواطن التي ورد فيها لعنهم، وبعدد من الصيغ.

وأنت ترى أنه كلما ذكرت هذه العقوبة، اقترن ذكرها بالسبب الذي من أجله كانت تلك العقوبة، وهذا محض العدل الرباني، فالله لم يظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون، وما أكثر ما اقترفوا واجترحت أيديهم من ضلالات، نالهم بسببها الإبعاد والطرد من رحمة الله القادر القاهر، الرحيم الرحمن.

ففي سورة البقرة يطالعنا قول الله تعالى في شأنهم: ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [البقرة: ٨٨] ونقرأ في سورة النساء قوله عز وجل: ﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٤٦﴾ ﴾ [النساء: ٤٦]. أرأيت!! ﴿ بِكُفْرِهِمْ ﴾ بسبب كفرهم.

وعلى هذا السنن من ذكر طردهم من رحمة الله، مع بيان السبب في ذلك، نقرأ في سورة المائدة قول الله جل وعز: ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي

إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

[المائدة: ٧٨، ٧٩].

ألا ما أكثر العبر التي يفيض بها الكتاب والسنة النبوية المطهرة وبخاصة عند الكلام على هؤلاء الأناسي الذين باؤوا بغضب على غضب، فهل نحن معتبرون؟ وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحابته أجمعين.

يستبدلون الكفران بالشكر

كانت رحلة مباركة زاخرة بالكثير من العبر والعظات، تلك التي سعدنا معها بوقفات عند عدد من الآيات الكريمات في سور مكية هي: «الأعراف» و«إبراهيم» و«طه». وكان محور الهداية في تلكم الآيات التذكير بما مَنَّ الله به على بني إسرائيل من النجاة من آل فرعون وشيعته، الذين كانوا يذبحون أبناءهم ويتسحيون نساءهم، وإغراق عدوهم. وقد تكرر في الآيات، وهذا - والله أعلم - من الإعجاز التربوي - قوله جل شأنه: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾.

والحق أن التذكير بالنعم التي يفترض أن تذكر فتشكر، والتنديد بمواقف أصحابها المجافي للحق، ولما يجب أن يكون؛ كما يحمل الحكم على صنيع من استبدلوا الجحود والكفران بالشكر الخالص - وهم هنا بنو إسرائيل الذين منَّ الله عليهم بجانب النجاة من فرعون وملئه بإغراق الله له ولأشياعه -. الحق أن هذا التذكير كما يحمل الحكم على المخالفين عن أمر الله ورسله بما يستحقون، يحمل الدعوة إلى الاعتبار والعمل على عدم الوقوع فيما وقع فيه أولئك المغضوب عليهم.

وموقع أمتنا من هذه الحقيقة يتجلى في أن تلكم الآيات بما تدل عليه من وقائع، وبما تحمله من مضمونات؛ هي من آيات كتابها الكريم الذي أنزله الله على نبيها محمد ﷺ؛ فالدعوة إلى التنبه واليقظة والبعد عن

كل ما يمت إلى صنيع اليهود بصلة آكد وآكد.. وأهل الخشية يذكرون، ويعتبرون ذلك من مقتضيات صدق الإيمان وإخلاص العبادة لله عز وجل.

والمتتبع لآي الكتاب الكريم، يجد أن التذكير بتلكم النعم التي قابلها بنو إسرائيل بالجحود والكفران، لم يقتصر على الآيات المكية، كما سبقت الإشارة من قبل، بل امتد إلى العهد المدني، حيث خوطب اليهود في عهد الرسول ﷺ بما أُنعم على آبائهم من قبل، تذكيراً لهم بنعمة الله تعالى ليؤمنوا بمحمد ﷺ ويكونوا من المسلمين.

ذلكم ما يتلو التالي في سورة البقرة ـ وهي أطول السور المدنية ـ بدءاً من الآية السابعة والأربعين قول الله جل وعز: ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [البقرة: ٤٧ ـ ٥٢].

والخطاب ـ كما أسلفت من قريب ـ في قوله تعالى ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ لليهود الذين كانوا بين ظهراني مهاجر النبي ﷺ، لأن الطينة واحدة، والتوجه واحد، والذين وجدوا منهم في عصر النبي عليه الصلاة والسلام راضون كل الرضىٰ عما كان عليه آباؤهم من المجافاة للدين، وإغضاب رب العالمين، مع أن

التذكير بالنعم التي تفضل الله بها على الآباء، يفترض أن ترتفع بالأبناء ـ أن لو عقلوا ـ إلى مستوى الإيمان الصادق، والشكر الذي ينعكس على التصرفات والسلوك.

هذا وقد جاء التذكير بعد قوله سبحانه: ﴿ **اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ** ﴾، بواحدة من تلك النعم وهي أنه فضلهم على العالمين فقال: ﴿ **وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ** ﴾ والمقصود أنه فضَّل أسلافهم على عالمي زمانهم، كما أشرنا في وقفة سبقت. قال الإمام الطبري في تفسيره (جامع البيان): ويعني بقوله: ﴿ **وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ** ﴾ أني فضلت أسلافكم؛ فنسب نعمه على آبائهم وأسلافهم، إلى أنها نعم منه عليهم، إذ كانت مآثر الآباء مآثر للأبناء، والنعم عند الآباء، نعماً عند الأبناء، لكون الأبناء من الآباء.

وهذا التعبير في قوله تعالى: ﴿ **وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ** ﴾ قد خرج مُخرج العموم والمراد به الخصوص؛ لأن المعنى: (وأني فضلتكم على عالم كنتم بين ظهرانيه وفي زمانه) وقد أورد ابن جرير – رحمه الله – عدداً من الروايات عن قتادة وأبي العالية ومجاهد وابن زيد، تكشف عن أن الآية خرجت مخرج العموم ولكن أريد بها الخصوص. فقد روى قتادة أنه قال: فضلهم على عالم ذلك الزمان. ورُوي عن أبي العالية ﴿ **وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ** ﴾ قال: بما أُعطوا من الملك والرسل والكتب على عالم من كان في ذلك الزمان، فإن لكل زمان عالماً.

ورُوي عن مجاهد أنه قال: على من هم بين ظهرانيْه، كما رُوي عن

ابن وهب أنه قال: سألت ابن زيد عن قول الله: ﴿ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ قال: عالم ذلك الزمان، وقرأ قول الله ﴿ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الدخان: ٣٢] قال: هذه لمن أطاعه واتبع أمره، وقد كان فيهم القردة ومن هم أبغض خلقه إليه، وقال لهذه الأمة: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠] قال: هذه لمن أطاع الله، واتبع أمره، واجتنب محارمه.

قال الحافظ ابن كثير بعد أن أشار إلى هذه الروايات: (ويجب الحمل على هذا، لأن هذه الأمة أفضل منهم لقوله تعالى خطاباً لهذه الأمة: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ [آل عمران: ١١٠]).

ومما يؤكد أن الآية مرادٌ بها الخصوص الذي نذكره، من أن التفضيل كان على عالمي زمانهم، ما جاء في المسانيد والسنن كما عند أحمد والترمذي والحاكم وغيرهم – عن معاوية بن حيدة القشيري أنه قال: قال رسول الله ﷺ: (أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله عز وجلّ) وروى الطبري بسنده عن بهز ابن حكيم عن أبيه عن جده أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « ألا إنكم وفَّيتم سبعين أمة » قال يعقوب في حديثه: أنتم آخرها وقال الحسن: « أنتم خيرها وأكرمها على الله ».

ثم إن إبراهيم الخليل عليه السلام: قبلهم. وهو أفضل من جميع

أنبيائهم، ومحمد صلوات الله وسلامه عليه: بعدهم. وهو أفضل من الخلق جميعهم وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة عليه الصلاة والسلام.

ولعل من الخير أن نذكر هنا بأن أمتنا ـ وهي خير أمة أخرجت للناس ـ عندما تخلت عن موقعها القيادي، ومالت عن الصراط الذي به تتبوأ تلك المنزلة العظيمة، من الخيرية العامة والشهادة على الناس: حلَّ بها ما حلَّ وأن الذين ضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب على غضب يهددونها في عقر دارها ويسيطرون على المسجد الأقصى ثالث الحرمين، فهل إلى تذكرة تعيد الأمور إلى نصابها من سبيل؟ اللَّهم إنك المعين على ذلك والقادر عليه. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وأضلَّهم السَّامريّ

- ١ -

ظاهرة تطلع اليهود إلى اتخاذ إله من دون الله، بُعَيْد إنعام الله جل شأنه عليهم بتجاوز البحر، وإنقاذهم من فرعون وشيعته الظالمين، مضافاً إلى ذلك إصرارهم على الانحراف عن التوحيد مع دعوىٰ الإيمان.. كل أولئك وما هو منه بسبيل في سلوكهم، يدل ـ فيما يدل ـ على خراب النفوس وعمى القلوب التي في الصدور، ويشي بوجوب الاحتراس والحذر الشديدين من دعاوىٰ يهود ووعودهم، والتنبه إلى الانحراف الجذري المتأصل، وما تنطوي عليه الصدور من باطنية عمياء، لا تدع في الشر والإفساد زيادة لمستزيد. لقد قال لهم موسى عليه السلام: إنكم قوم تجهلون. وكشف عن حقيقة من أرادوا تقليدهم، وما أرادوا تقليدهم فيه؛ ذلكم ما جاء في قول الله تبارك وتعالى على لسانه ﷺ: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ [الأعراف: ١٣٩].

وفي متابعة للرحلة مع تلكم الخلائق، نسعد باصطحاب كلمات هاديات من العهد المكي أيضاً، تكشف لنا عن موقف آخر، لأولئك الناس أشد ضلالاً وأعتى.

وذلك أنهم خانوا العهد من بعد موسى، حين ذهب إلى الجبل للمناجاة، فعبدوا إلها من دون الله، حيث اتخذوا من حليِّهم عجلاً جسداً

له خوار... وعكفوا على عبادته، متعامين عن أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً، اتخذوه وكانوا ظالمين.

ذلكم ما نقرأ في سورة الأعراف، وفي أعقاب الآيات التي كشفت عن موقف بني إسرائيل الذي ألمحنا إليه في صدر هذا الحديث، من قول الله تبارك وتعالى في الآية الثانية والأربعين بعد المائة: ﴿ **وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ** ﴿١٤٢﴾ ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

ففي هذه الآية الكريمة، يمنُّ الله تعالى على بني إسرائيل، بما حصل لهم من الهداية بتكليمه موسى عليه السلام، وإعطائه التوراة وفيها أحكامهم وتفاصيل شرعهم، فذكر تعالى أنه واعد موسى ثلاثين ليلة، قال المفسرون: فصامها موسى عليه السلام وطواها، فلما تم الميقات، استاك بلحاء شجرة، فأمره الله جل شأنه أن يكمل العشرة أربعين، والأكثرون على أن الثلاثين هي ذو القعْدة، والعشرَ عشرُ ذي الحجة، رُوي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقاله مجاهد ومسروق وابن جريح.

فلما تم الميقات، وعزم موسى على الذهاب إلى الطور، كما قال تعالى في سورة طه: ﴿ **يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى** ﴿٨٠﴾ ﴾ [طه: ٨٠] فحينئذ استخلف أخاه هارون على بني إسرائيل، ووصاه بالإصلاح، ونهاه عن اتباع سبيل المفسدين بموافقتهم على المعاصي. وهذا تنبيه، وتذكير من موسى عليه السلام، يدل على مقدار تخوفه مما يمكن أن يصنع بنو إسرائيل، وما

يريده من أخيه من الحيطة بشأن ذلك، وإلا فهارون عليه السلام نبي شريف كريم على الله، لا يحيد عن الطريق التي تتناسب مع وجاهته وعظيم فضله، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء.

هكذا تم الميقات، وذهب موسى عليه السلام للمناجاة، بعد أن استخلف أخاه ووصاه، وكان ما كان من الخير في تلكم المناجاة.

وتمضي بنا الآيات في تلك السورة المكية، سورة الأعراف، فإذا بها تكشف للمسلمين ـ في تلك الحقبة المبكرة من عمر الدعوة ـ عما وقع فيه قوم موسى من الضلال والعتو عن أمر الله في غيبة نبيهم عليه السلام. ذلكم ما نجده في الآية السابعة والأربعين بعد المائة من قول الله تبارك وتعالى: ﴿ **وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ** ﴿١٤٨﴾ ﴾ [الأعراف: ١٤٨].

والعجل المشار إليه، اتخذه لهم السامري من حُليٍّ القبط الذي كانوا استعاروه منهم، فشكل لهم منه عجلاً ثم ألقى فيه القبضة من التراب التي أخذها من أثر فرس جبريل عليه السلام، فصار عجلاً جسداً له خوار، كما جاء تفصيل ذلك في سورة طه. والخوار: صوت البقر.

وواضح أن الآية ـ كما تكشف عن ضلال من ضل في عبادة العجل والعياذ بالله ـ كذلك تحمل الإنكار الشديد عليهم في ضلالهم بهذا المعبود وذهولهم عن خالق السماوات والأرض ورب كل شيء ومليكه، أن عبدوا معه عجلاً جسداً له خوار. لا يكلمهم ولا يرشدهم إلى خير ﴿ **أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً** ﴾ وجاء في سورة طه ﴿ **أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ**

يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ ﴾ [طه: ٨٩] لقد استغرقتهم الضلالة المثيرة، فعموا وصمُّوا عن أبسط ما يدل عليه العقل السليم، إذ كيف يستقيم مع هذا العقل المدَّعى، أن يعبدوا من دون الله الخالق القادر، ما لا يكلمهم ولا يهديهم إلى خير، بل لا يرجع إليهم قولاً، ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً.. ولكن أين الرؤية؟ لقد غطَّى على أعين بصائرهم عمى الجهالة والضلالة.. من أجل ذلك عموا وصموا ووقعوا في تلك المهواة، نعوذ بالله منها ومن أهلها. روى الإمام أحمد وأبو داود عن أبي الدرداء - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال: «حبك الشيء يعمي ويُصم».

من أجل ذلك، حكم الله عليهم بالظلم فيما صنعوا، فقال سبحانه: ﴿ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴾. إذ لم يكن لهم أي عذر في ذلك الإنحراف، وأين العذر مع وجود الأدلة القاطعة بأن الله هو الخالق القادر الحكيم، والآيات الباهرة بأنه لا معبود بحق سواه جل جلاله، فعندما ينصرف المرء عن الأدلة الواضحة وضوح الشمس في رابعة النهار، ويهمل عقله، ويغرق في اتباع الهوى، يكون ظالماً لنفسه وللحقيقة لا محالة.. وهؤلاء المغضوب عليهم، أعرضوا عن كل ما يدعو إلى الثبات على الإيمان، وعبدوا ما صنعه لهم السامري من دون الله.

هذا: وكان من عدالة الله تبارك وتعالى، أن أخبر القرآن الكريم عن أولئك الذين ندموا على ما فعلوا، وشعروا بأنهم ضلوا، فتوجهوا إلى الله بطلب المغفرة والرحمة، نقرأ في ذلك قوله تعالى بعد الآية السابقة:

﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ [الأعراف: ١٤٩]. فسبحان من حكمه العدل ولا يظلم ربك أحداً.

.. وأضلَّهم السَّامريّ

- ٢ -

كنا في الصفحات السالفات مع آيات من سورة الأعراف، دلَّت على ما يؤكد زلزلة القلوب وعمى البصائر عند بني إسرائيل، يوم خانوا العهد، ووقعوا في عماية الشرك في غيبة موسى عليه السلام عنهم ـ مستخلفاً أخاه هارون فيهم ـ حين ذهب إلى الجبل للمناجاة الكريمة التي أكرمه بها ربه سبحانه وتعالى، حيث اتخذوا من بعده عجلاً جسداً له خوار، عبدوه من دون الله. ذلكم قول الله تباركت أسماؤه: ﴿ **وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢)** ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

وما جاء في الآيتين الثامنة والأربعين بعد المائة والتاسعة والأربعين بعد المائة من قول الله جل شأنه: ﴿ **وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٨) وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٤٩)** ﴾ [الأعراف: ١٤٨ – ١٤٩].

وهذه الآيات البينات تقودنا ـ وهي تكشف عن ذلك الموقف الناقض للإيمان بالله بعد أن ذهب موسى عليه السلام إلى المناجاة ـ إلى متابعة ما حصل والإحاطة بأطراف القضية من هنا وهناك، وها هي الآيات التي

تضع أيدينا على الحقيقة؛ ففي أعقاب الآية التاسعة والأربعين بعد المائة، يطالعنا قول الله تبارك وتعالى: ﴿ **وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾** ﴾ [الأعراف: ١٥٠ - ١٥١].

موسى عليه السلام ـ وهو صاحب رسالة عمادها توحيد الله تبارك وتعالى وإفراده بالعبودية ـ أغضبه أشد الغضب صنيعُ بني إسرائيل في اتخاذهم العجل معبوداً يعبدونه، وقال لهم بعد أن رجع إليهم ـ وهو على هذه الحال ـ: ﴿ **بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي** ﴾: بئس ما صنعتم من عبادة العجل بعد أن ذهبت إلى الجبل للمناجاة وتركتكم.

ومما يجدر ذكره، أن موسى عليه السلام قد أعلمه الله بما وقع فيه القوم من الضلالة العمياء وهو على الطور، وذلك ما نجده في سورة طه. يقول الله تعالى إخباراً عن نفسه جل شأنه: ﴿ **قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾** ﴾ [طه: ٨٥] وإخباراً عما قاله عليه السلام للقوم: ﴿ **أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ** ﴾ أي استعجلتم مجيئي إليكم وهو مقدَّر من الله تبارك وتعالى وكل شيء عنده بحسبان؟ وألقى الألواح غضباً عليهم لعبادتهم العجل. وإلقاء موسى الألواح لهذا السبب ـ وهو الغضب على قومه ـ هو ما عليه الأكثرون. وقرر الإمام الطبري أنه الأولى بالصواب من القول.

ولم يكن عجباً من العجب، أن يعتب موسى على أخيه هارون بادئ

ذي بدء قبل أن تتكشف له الأمور ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾ ـ وقد أوصاه من قبل وشدَّد في الوصية ـ ﴿يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ خوفاً أن يكون قصَّر في نهيهم، فكان من جواب هارون عليه السلام، ما دلَّ على أنه لم يقصِّر في نهي بني إسرائيل عن الولوغ في الضلال الذي جرَّهم إليه السامريُّ. ولكنهم ـ بدل أن يستمعوا إليه وينتهوا عما نهاهم عنه ـ استضعفوه وكادوا يقتلونه. وهذه واحدة من رزاياهم وما أكثرها.

وهكذا كان الأمر في غاية الوضوح، كما جاء في الآية الكريمة على لسان هارون عليه السلام خطاباً لأخيه موسى ﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

لقد طلب هارون من أخيه ـ عليهما السلام ـ بناءً على ما كشف له عن موقفهم المخزي، أن لا يسوقه سياقهم ويجعله معهم؛ فهم في وادٍ وهو في وادٍ.

والناظر في هذا الحوار بين هارون وموسى: يجد أن خطاب هارون لموسى قد امتزج بندى الرقة والاستعطاف، حيث قال: ﴿ابْنَ أُمَّ﴾ ليكون أرق وأنجع عند أخيه موسى عليه السلام، وإلا فهو شقيقه لأمه وأبيه، مع ملاحظة أن عتب موسى على هارون، قد يكون لأنه ترك اتباعه وأقام في الموضع الذي ترك القوم فيه، وكان منهم ما كان، كما قال جل ثناؤه مخبراً عن قيل موسى له: ﴿أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَا بْنَؤُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾ [طه: ٩٣ ـ ٩٤].

وقد اتضح أنه لما تحقق موسى براءة أخيه من التقصير كما قال تعالى في سورة طه: ﴿ **وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠)** ﴾ [طه: ٩٠] لما تحقق عليه السلام ذلك ـ ورسل الله سادة المنصفين ـ دعا ربه تعالى لنفسه ولأخيه جميعاً بالمغفرة والرحمة ﴿ **قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥١)** ﴾ [الأعراف: ١٥١].

وجميل ما نرى عند الطبري شيخ المفسرين في تأويل هذه الآية، إذ قال ـ رحمه الله ـ: (يقول تعالى ذكره: قال موسى لما تبين له عذر أخيه وعلم أنه لم يفرط في الواجب الذي كان عليه من أمر الله في ارتكاب ما فعله الجهلة من عبدة العجل: ﴿ **رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي** ﴾ مستغفراً من فعله بأخيه، ولأخيه من سالف سلف بينه وبين الله: تغمد ذنوبنا بستر منك تسترها به ﴿ **وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ** ﴾ يقول: وارحمنا برحمتك الواسعة عبادَك المؤمنين، فإنك أنت أرحم بعبادك من كل من رحم شيئاً).

وهنا ما بد من الإشارة إلى قاعدة نورانية نجدها في السنة المطهرة، تتعلق بإلقاء موسى الألواح، بعد أن عاد إلى قومه غضبان أسفاً، وهي أنه ليس المعاين كالمخبَر؛ فقد أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: « يرحم الله موسى ليس المعاين كالمخبَر، أخبره ربه عز وجل أن قومه فتنوا بعده فلم يلق الألواح، فلما رآهم وعاينهم ألقى الألواح ».

فصلاة الله وسلامه على نبينا محمد رحمة العالمين ومعلم الناس الخير،

وعلى سائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين. ونسأله تعالى أن يهيء لأمة الإسلام من أمرها رشداً. وأن يردها إلى الطريق الذي تضيء شعابه في كل زمان ومكان هداية الكتاب الكريم والسنة المطهرة، كيما تتجاوز الواقع إلى ما يجب أن يكون، وتتعامل مع أعداء الله ـ وفي مقدمتهم اليهود ـ بالطريقة الواجب اتباعها، والله ولي الصابرين المجاهدين.

اتَّخذوهُ وكانُوا ظالمينَ

من سمات القرآن الكريم، في الرفعة التي لا تدانىٰ، والحكمة التي لا تجارىٰ، أنه قد يتعدد ذكر قصة من القصص فيه، إيجازاً أو تفصيلاً، ويلمح الناظر المتبصر من خلال ذلك، أن لهذه القصة ـ حيث ذكرت، وعلى أي وجه كان ذكرها ـ مكانها الطبيعي على محور الهداية بما يتناسب كل التناسب مع هذا المحور؛ ذلك لأن القرآن الكريم كتاب هداية قبل كل شيء، فأيان كانت الحكمة في إيراد تلك القصة تفصيلاً أو بإيجاز، بالتصريح أو التلميح، وجدناها ترد في كلام الحكيم الخبير، على الوجه المناسب، وتلك ـ والله أعلم ـ لمحة من لمحات الإعجاز البياني في هذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي يتجدد معه على المدى، صدق الحقيقة التي استعلن بها الوحي قبل أربعة عشر قرناً أو تزيد، حيث قال الله جل ثناؤه: ﴿ **قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً (٨٨)** ﴾ [الإسراء: ٨٨].

كان عليَّ أن أسوق هذه الكلمات بإيجاز لا يحتمل المقام أكثر منه، بين يدي العزم على اصطحاب ما جاء في سورة طه المكية، في شأن واحدة من مخازي بني إسرائيل وضلالاتهم، وهي اتخاذهم العجل معبوداً يعبدونه من دون الله، بعد أن سعدنا بصحبة ما جاء في هذا الشأن من آيات كريمات في سورة الأعراف، وذلك رغبة في المزيد من عطاء الكلمة

القرآنية على محور الهداية، وهي تعرض للقصة أو الواقعة في أكثر من موطن.

ولما كانت السورتان من القرآن المكي، وكان الحديث عن بني إسرائيل فيهما يؤكد ما أشرنا إليه سابقاً من أن الكلام على أجداد اليهود، والكشف عن ذميم خصالهم وما كان من ضلالاتهم، وأسباب الغضب عليهم في هذه الحقبة المبكرة من عمر الدعوة الإسلامية، له دلالته في أن الأحفاد على نهج الأجداد وأن العصا من العُصيَّة، وأن اليهوديَّ هو اليهوديُّ لا يصرف عن ذلك زمان ولا مكان. ثم في عظم الأمانة التي يحملها المسلمون في مواجهة خطر اليهود على أمة الإسلام والإنسانية جمعاء، فكأن الله أراد أن يضع أيدي المسلمين منذ العهد المكي ـ وهم قلة مستضعفة ـ على تلك الحقائق التي ما كادت أقدامهم تطأ أرض المدينة مهاجرين، حتى تكشفت من الأحفاد بأخزى الصور وأشدها عتواً وإيغالاً في الضلال، وإن كان شيء من دس اليهود ومكرهم قد بدأ حتى في العهد المكي من وراء ستار، والمسلمون لما يهاجروا إلى المدينة، ولما يبتلوا بمجاورة اليهود عليهم لعائن الله.

والآيات التي نشير إليها من سورة الأعراف هي ما جاء في الآية الثانية والأربعين بعد المائة من قول الله تبارك وتعالى: ﴿ **وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢)** ﴾ [الأعراف: ١٤٢] وما جاء في الآيات الأربع بدءاً من الآية الثامنة والأربعين بعد المائة من قوله تعالى: ﴿ **وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا**

يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾ ﴾ [الأعراف: ١٤٨ - ١٥١] وقد وقفتنا هذه الآيات المباركات، على أن موسى عليه السلام قد ذهب إلى الجبل للمناجاة، بعد أن تم ميقات ربه أربعين ليلة، وقد استخلف أخاه هارون في قومه قبل ذهابه، وأوصاه بالإصلاح وعدم اتباع سبيل المفسدين. كما وقفتنا على اتخاذ بني إسرائيل في غيبة موسى، عجلاً جسداً له خوار عبدوه من دون الله، متعامين عن أنه لا يكلمهم، ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً ولا يهديهم سبيلاً، ومخالفتهم لهارون وعدم الاستجابة له ومحاولتهم قتله بعد أن استضعفوه، ثم كيف أن موسى عليه السلام عتب على هارون في أول الأمر ولما عرف الحقيقة، دعا الله لنفسه ولأخيه بالمغفرة والرحمة فقال: ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ .

أما الآيات التي ألمحنا إليها من سورة طه: فهي ما نجده بدءاً من الآية الثالثة والثمانين من قول الله تبارك وتعالى خطاباً لموسى عليه السلام: ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴿٨٤﴾ ﴾ [طه: ٨٣ - ٨٤].

لما تم الميقات أربعين ليلة، سارع موسى عليه السلام مبادراً إلى الطور واستخلف على بني إسرائيل أخاه هارون، كما أسلفنا من قبل، لهذا قال الله جل ثناؤه ﴿**وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي**﴾ يعني هم قادمون ينزلون قريباً من الطور. ثم عَلَّل موسى عليه السلام استعجاله، بأنه طلبٌ لمزيد من الرضى من مولاه سبحانه ﴿**وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى**﴾ أي لتزداد عني رضا.

وبعد الآيتين المشار إليهما، نقرأ قول الله تبارك وتعالى: ﴿**قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾**﴾ [طه: ٨٥] حيث أخبر ربنا جل جلاله نبيه موسى عليه السلام بما كان بعده من الحدث في بني إسرائيل، والعماية الضالة التي وقعوا فيها، وهي اتخاذهم العجل الذي صنعه لهم السامري معبوداً من دون الله.

وفي الكلام على رجوع موسى عليه السلام غضبان أشد الغضب على قومه، بعد أن أعلمه الله تعالى بما حصل في غيبته وهو يسعد بمناجاته سبحانه وتعالى وما دار من الحوار بين موسى وبين قومه، ومحاولتهم تسويغ عملهم بما يكاد يكون أقبح من فعلتهم التي ضلُّوا فيها عن سبيل الحق وأعرضوا عن الدليل وخانوا العهد.. في الكلام على ذلك كله ـ وقد وقفنا على جملة منه سورة الأعراف بما يتناسب مع الغرض الذي سيقت لأجله القصة هناك ـ.. في الكلام عن ذلك كله نقرأ قول الله تعالى في أعقاب الآيات السابقة: ﴿**فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن**

رَبُّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ ﴾ [طه: ٨٦ - ٨٩].

لقد غضب موسى من قومه أشد الغضب وحُق له أن يغضب، فهو فيما هو من المناجاة، والاعتناء بأمرهم وتسلم التوراة التي فيها شريعتهم، وفيها شرف لهم وذكر في الناس، أن لو صدقوا في اتباعها والعمل بأحكامها.. إذا بهم قد عبدوا غير الله. وكل عاقل له لبٌ وحزمٌ يعلم بطلان ما هم فيه، وما شاب عقولهم وأذهانهم من سلطان الهوى والخبال، لذلك جاء التعبير القرآني ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ والأسف شدة الغضب، والتغيظ به على من أغضبه، وإذا كان الأسف يأتي بمعنى الحزن أيضاً: فأي مانع يمنع من أن يكون موسى قد أغضبه ما حصل أشد الغضب، وأحزنه، فرجع إلى قومه وهو على هذه الحال.

ولقد أنكر عليهم موسى أن يفعلوا ما فعلوا وهو الخبال بعينه، وقد وعدهم الله وعداً حسناً ـ ووعده الصدق ـ أن يعطيهم التوراة. فهل طال عليهم العهد؟ أم أرادوا بملء اختيارهم أن يحل عليهم الغضب بعبادتهم العجل فأخلفوا موعده وتركوا المجيء بعده؟ ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾.

ألا إن هذه الحقائق أمانة في الأعناق، تدعو إلى مزيد من الاعتبار، وفهم واقع هؤلاء الناس في ضوئها، كيما يكون المسلمون ـ وهم على خط المواجهة المتعددة الميادين، المتشبعة المسالك ـ على وضوح في الرؤية، ودقة في وزن الأمور، وتقدير الوقائع، فيصدقوا الله مجاهدين صابرين، ليصدقهم بالنصر والتمكين، وهو ـ سبحانه ـ لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

كادوا يقتلون هارون

في رحلتنا القصيرة مع سورة طه ـ إحدى سور القرآن المكي ـ حملنا اصطحاب بعض آياتها التي تتحدث عن موقف بني إسرائيل الموغل في الوثنية والشرك ـ إلى قبس من عطائها على صعيد السلوك اليهودي، حيث أجاب موسى عليه السلام، عما أعجله عن قومه، وأنه كان طلباً لمزيد الرضى من مولاه عز وجل، وحيث أعلمه الله جل شأنه أن قومه فُتنوا من بعده وأضلهم السامري، بأن صنع لهم عجلاً جسداً له خوار عبدوه من دون الله، ناهيك عن إخلافهم الموعد الذي ضربوه معه عليه السلام، وتركهم المجيء بعده.

وكان آخر ما وقفتنا عليه الآيات، ما نطقت به الآية الأخيرة من رجوع موسى غضبان أسفاً على قومه بعد أعلمه الله بصنيعهم، وتطلعهم الهابط إلى كل ما هو ضلال وعتو عن أمر الله. وكان من تأنيبه الشديد لهم قوله ـ كما جاء في الآية الكريمة ـ: ﴿ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴾.

ونتابع الرحلة مع الآيات التي تتحدث عن هذا الموقف من بني إسرائيل في سورة طه، وعلى النسق الذي استضأنا به، ونحن نسعد باصطحاب نظائرها من سورة الأعراف، لنرى قيمة العذر الذي تعللوا به لانحرافهم المخزي، وموقفهم من تذكير هارون عليه السلام إياهم، بأن

ربهم الرحمن وأن عليهم أن يطيعوه ويتبعوا أمره، حيث أصروا على أن يظلُّوا عاكفين على معبودهم الجديد حتى يرجع إليهم موسى... ثم ما دار من الحوار بين موسى وهارون عليهما السلام، وما صرح به السامري بشأن صنيعه الذي جرَّ إليه بني إسرائيل.

ولننظر في الآيات الكريمات بدءاً من الآية السابعة والثمانين حيث يقول الله جل ثناؤه: ﴿**قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾**﴾ [طه: ٨٧ – ٨٨].

إنهم يقولون لموسى، معتذرين عن إخلافهم الموعد باللحاق به وعكوفهم على عبادة العجل: ما أخلفنا موعدك بقدرتنا واختيارنا، ولكنَّ ما حصل؛ كان من السامري الذي صاغ من الحلي عجلاً جسداً له صوت يسمع، حيث انقلب كذلك، بسبب التراب الذي كان قبضه من أثر جبريل، فقال السامري وأتباعه من أولئك الضُّلال الذي افتتنوا بالعجل وعبدوه: هذا إلهكم وإله موسى، فنسي موسى ربه هنا وذهب يتطلبه.

أرأيت إلى هذا العذر البارد، والقولة المنكرة المستقبحة!! أين الإيمان بالله؟ واليقين بأنه رب كل شيء ومليكه، وأنه هو الخالق الحي القيوم الذي لا يجوز أن تعنوا الوجوه إلا له؟ من أجل هذا بيَّن سبحانه قُبْحَ اعتذارهم بما اعتذروا به، فقال رداً عليهم، وتفزيعاً لهم وبياناً لفضيحتهم أنفسهم، وسخافة عقولهم فيما ذهبوا إليه من التعلُّل الهابط، الذي يتنافى كل التنافي مع الدليل الساطع والحق الصراح، أجل، قال سبحانه رداً عليهم:

﴿ أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا ﴾ وهذا يذكرنا بما جاء في سورة الأعراف من قوله جل ثناؤه: ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٨) ﴾ [الأعراف: ١٤٨].

والحق أن الذي يؤكد إصرارهم على استحسان ما غمرتهم به الفتنة العمياء، من عبادة ذلك العجل الذي صنعه لهم السامري، موقفهم من نصح هارون عليه السلام، وتذكيره إياهم بأنهم قد فتنوا بهذا المعبود، وأن ربهم الرحمن، ولا معبود بحق سواه جل شأنه. لقد أمرهم ونهاهم وذكرهم ـ وله عليهم واجب الطاعة إذ أنه يذكرهم بكلمة الله ـ ولكن كان من نتيجة تكليمه إياهم أداءاً للأمانة المنوطة به من الله، وإنفاذاً لوصية أخيه موسى.. كان من نتيجة ذلك، إعلانهم ـ ويا خيبة ما أعلنوا ـ أنهم لن يبرحوا عاكفين على هذا المعبود، الذي اتخذوه من دون الله حتى يرجع إليهم، ذلكم قول الله جل وعزَّ: ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠) قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى (٩١) ﴾ [طه: ٩٠، ٩١].

ويجيء العتاب من موسى لهارون، ويكشف هارون لموسى عن الحقيقة وأنه ـ والحمد لله ـ كان عند أداء الأمانة، وإنفاذ الوصية على الوجه الذي ينبغي، ففي أعقاب قوله تعالى: ﴿ قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴾ نقرأ قول الله جل ثناؤه بدءاً من الآية الثانية والتسعين: ﴿ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣) قَالَ

يَا بْنَؤُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ ﴾ [طه: ٩٢ - ٩٤].

ويبدو - والله أعلم - أن خشية هارون عليه السلام من أن يقول له أخوه إذا تبعه وتركهم: فرَّقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي، كان جزءاً مما اعتذر به هذا النبي الكريم؛ فقد رأينا في سورة الأعراف - من قبل - ما يعطي التكامل في موضوع الاعتذار، والإحاطة بما لابس موقف القوم الجافي للحق من هارون، إذ كادوا يقتلونه، وعنادهم في الإصرار على الباطل؛ فمما جاء في الآية الخمسين بعد المائة من السورة المومى إليها - وقد رأينا ذلك من قبل - قول الله تعالى على لسان هارون يخاطب أخاه موسى: ﴿ **قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾** ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

وهكذا ترى أن هنالك تردياً في حمأة الوثنية، وإصراراً عليه - إلا من رحم ربك - ووقفة ظالمة من تذكير النبي تصل إلى حد أنهم كادوا يقتلونه، إذ لم يكتف هؤلاء المغضوب عليهم بالمخالفة والعناد والإصرار على ما فتنوا به من عبادة العجل، وعدم الامتثال لنبيهم في أمره ونهيه، بل كادوا يجعلون من إنهاء حياته، آخر لون من ألوان الحوار معه.. وإذا كان هذا مع نبي من أنبيائهم فماذا أنت قائل فيما وراء ذلك؟

أقول بعد هذا: كم تكون أمتنا أمة الإسلام مجافية لمورد القوة، والتفسير الدقيق للتاريخ، حين تغفل عن مثل هذه الحقائق في حياة أولئك الأناسي، وهي تعيش مع اليهود واقعاً هو حلقة في سلسلة من

الأذى، نسيجها من جانبهم وجانب من يشايعونهم محادَّة الله ورسله، والعدوان على الحق حيث كان، ناهيك عن الحرب المعلنة على المسلمين حيناً، والمستخفية الماكرة أحياناً، في كل ميدان من الميادين ـ لا تستثن حقبة من حقب التاريخ ـ وما أسوأ عواقب الغفلة!! ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

سوء العاقبة.. ودعوة إلى الاعتبار

ليس من مكرور القول أن نشير إلى أن الاعتبار بالقصة والإفادة مما تعطي من دروس، غرض أساسي من أغراض القصص في القرآن الكريم، كما قال الله تعالى: ﴿ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٦] وكما قال سبحانه: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾.

[يوسف: ١١١]

وإن مما يدعو للتفكر والتذكر والاعتبار بشكل أكثر عمقاً، ما جرى عليه الكتاب المعجز، من العناية عند سياق القصص، بإبراز ما ترتب على عمل ما، أو موقف من المواقف؛ حين وزن التصرفات جميعاً بمعيار الحق.. ما ترتب على ذلك من مثوبة وموعدة بالخير العطاء، إن كان ما حصل، يتحرك في نطاق الاستقامة والاستمساك بالحق، ومن عقوبة ووعيد بسوء المصير، إن كان ما حصل، يتحرك في نطاق الضلال عن سبيل الله، ومظاهرة الباطل على الحق.

قادني إلى التذكير بهذه الحقيقة ـ وهي مشهودة لمن يحسن النظر في سياق القصص القرآني ـ ما كان من تعرية دقيقة لموقف بني إسرائيل الشركي ووعيد شديد عليه، وهو الموقف الذي تمثل في افتتانهم ـ أخزاهم الله ـ بالعجل الذي صنعه السامري وعكوفهم ـ وهارون عليه السلام بين ظهرانَيهم ـ على عبادته من دون الله، ثم ما كان من مماراتهم في الحقيقة وجدلهم بالباطل ليدحضوا به الحق، حتى كادوا يقتلون هارون عليه

السلام الذي أخلص في تنبيههم، وبيَّن لهم طريق الرشد من طريق الغي، وحذَّرهم من الضلال أشد التحذير.

والمتتبع لآي الكتاب بشأن هذه الواقعة التي أريد للمسلمين أن يعتبروا بها، واجد أن التنديد بما حصل، والإيذان الصريح بالعقوبة الصارمة عليه في الدنيا والآخرة، لم يقتصر إبرازهما على القرآن المكي، بل تجاوزه إلى القرآن المدني؛ ففي سورة الأعراف وهي سورة مكية نقرأ في الآية الثانية والخمسين بعد المائة قول الله جل ثناؤه: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ** ﴿١٥٢﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥٢] على أن الآية التي تلي تؤذن بأن باب التوبة مفتوح لمن صدق في العودة إلى الله. والآية الكريمة هي قول الله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥٣].

أما عن القرآن المدني: فإنا نقع على عدد من الآي في سورتي البقرة والنساء: ففي سورة البقرة نقرأ في الآية الحادية والخمسين قول الله جل ذكره: ﴿ **وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ** ﴿٥١﴾ ﴾ [البقرة: ٥١] كما نقرأ في الآية الرابعة والخمسين قوله سبحانه: ﴿ **وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** ﴿٥٤﴾ ﴾ [البقرة: ٥٤]. وتطالعنا الآية الثانية والتسعون من السورة نفسها بقوله جل ذكره: ﴿ **وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن**

بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [البقرة: ٩٢] يتلوها قوله سبحانه: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [البقرة: ٩٣].

وننتقل إلى سورة النساء، لنجد الآية الثالثة والخمسين بعد المائة، تنطق بقول الله تبارك وتعالى خطاباً للنبي عليه الصلاة والسلام ـ وهو خطاب يحمل على طريق الدعوة ومشاقها ما يحمل من تسلية وإيناس ـ: ﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ ﴾[النساء: ١٥٣]

وبعد هذا: لا بد من الإشارة إلى أن العناية التي أعطيت لموضوع انحراف بني إسرائيل بعبادة العجل، وما لابس ذلك من ضلالات، والتي نشهدها على حد سواء في المكي والمدني من الذكر الحكيم كلام رب العالمين.. أن هذه العناية تشي بالأهمية البالغة المعطاة لنظافة الطريق ـ طريق أهل الإيمان في الدعوة إلى الله ـ من شوائب الشرك ومخالفة ما جاء به المرسلون، فضلاً عن الوقوع فيه والعياذ بالله؛ فالجماعة المسلمة ـ وهي تشق طريقها إلى إنشاء المجتمع المسلم وقيادته بشريعة الله ـ حجرُ الزاوية في منهجها الرباني إلى ذلك: التوحيد الخالص، والبعد عن كل ما يتنافى مع العبودية الحقة لله عز وجل في كل شأن من الشؤون، مهما طال الأمد، وتبدلت الظروف وتعددت ألوان الصوارف التي يقيمها وينسج حبائلها

شياطين الإنس والجن. وملاذ المسلمين أبداً كيما يكونوا على الصراط السوي، مؤهلين لمواجهة التحديات في ضوء المنهاج الرباني: إحكام الصلة المتدبرة الواعية بكتاب الله وبيانه من سنة النبي عليه الصلاة والسلام.

هذه واحدة: وفي حديث موصول بما أشرنا إليه في صدر هذه الكلمات من مكانة الاعتبار والتذكر في نطاق الغرض من القصص القرآني، تأتي الثانية، حيث نجد في الكتاب الكريم ما يضع أيدينا على ذلك.

ذلكم ما نقرأ في أعقاب ما جاء بشأن الموقف الشركي الذي اجترحه بنو إسرائيل بعبادة العجل، بعد أن غادرهم موسى إلى المناجاة، وما أحاط ذلك من تصرفات كلها إثم وضلال من مثل خيانة العهد، وعدم الانصياع لتذكير هارون، والإصرار عناداً واستكباراً على الموقف الظالم.. نعم.. ما نقرأ في أعقاب ذلك كله، بدءاً من الآية التاسعة والتسعين من سورة طه، من قول الله جل ثناؤه خطاباً للنبي عليه الصلاة والسلام وهو المؤتمن على البيان: ﴿ **كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا** (٩٩) ﴾ [طه: ٩٩] والذكر هنا هو القرآن الكريم.

فالتذكر والاعتبار تحقيقاً لغرض القصة في القرآن: يضمن ـ بعون الله ـ الطريق الواضحة التي يتجنب أصحابها ما وقع فيه الآخرون من زلل وانحراف. والمعتصم الأول هو الفرقان ﴿ **وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا** ﴾ والمعرض عن القرآن بترك تدبره والعمل به، موقع نفسه في الهلاك لا محالة، وذلك نجده في الآية التي تلي وهي قوله تعالى: ﴿ **مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا** (١٠٠) **خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا** (١٠١) ﴾.

[طه: ١٠٠ – ١٠١].

وواضح أن الضمير في (عنه) عائد إلى الذكر وهو القرآن، والوعيد يشمل الفرد والجماعة، إذ إن (مَنْ) في قوله تعالى : ﴿مَنْ أَعْرَضَ﴾ تفيد العموم لأنها من أدواته، لهذا نرى أنه بعد أن جاء الضمير بالمفرد في قوله جل شأنه : ﴿فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾ جاء التصريح بالجمع في قوله سبحانه بعدها : ﴿خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً﴾ .

اللّهم اهدنا سواء السبيل، وارزقنا حسن الاعتبار بما ورد في شأن أعداء الله، وضوابط الموالاة والمعاداة في كتابك الكريم وسنة نبيك المصطفى عليه الصلاة والسلام؛ فما من عاقل يرتاب في أن ذلك واحد من الأسلحة التي ما بد من توافرها بين يدي المعركة الفاصلة، والله المستعان، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم

أشرت سابقاً إلى أن مما يؤكد الأهمية المعطاة للتذكر والاعتبار بالقصة القرآنية، في إطار الغرض من إيراد القصص عموماً في كتاب الله الكريم، ما يقترن بالعمل الخيِّر، من مثوبة ووعد حسن، وما يقترن بعكسه، من عقوبة ووعيد. وعلى هذا السنن؛ كان ما صاحب التعرية الدقيقة لما حصل من بني إسرائيل ـ بعد أن غادرهم موسى إلى المناجاة ـ من عبادة العجل، وما اجترحوا من سلوكٍ مداره الإثم والضلال.. على هذا السنن، كان ما صاحب تلك التعرية من تنديد بذلك الموقف وما اقترن به، ومن إنذار بالعقوبة في الدنيا والآخرة، وذلك ضمن آيات كريمات نجدها في مدني القرآن كما نجدها في مكيِّه، على شيء من التفاوت في الأسلوب الذي يدل على حكمة الله في إيراد الواقعة، أو الإشارة إليها على أكمل ما يكون التناسق مع محور الهداية في الكتاب العزيز.

وبعض هذه الآيات، اقتصر من قريب على ذكره. وموعدنا في الصفحات القادمات، وقفة يسيرة عند كل منها، تسعف ـ قدر المستطاع ـ في تجلية القضية المشار إليها، كما تكشف عن ثقل الأمانة الملقاة على عاتق الأمة المحمدية في التذكر العميق، والتدبر الواعي لما عوقب به أولئك الفئام من بني إسرائيل، يوم حادوا عن الصراط السوي، واستبدلوا الضلالة العمياء والجهالة الجهلاء، بهدىٰ الله وما جاء به المرسلون. والآيات التي نلمح إليها هي ما جاء في سورة الأعراف وهي سورة مكية، وما جاء في سورتين مدنيتين هما: سورة البقرة وسورة النساء.

ونبدأ بما جاء في سورة الأعراف من قول الله تبارك وتعالى في الآية الثانية والخمسين بعد المائة: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢)** ﴾[الأعراف: ١٥٢].

هكذا نجد الآية الكريمة، صريحة في التنديد بالذين اتخذوا العجل إلهاً يعبدونه من دون الله، وأن جزاءهم على ذلك عقوبتان هما غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا؛ فإنهم لم يتخذوا العجل معبوداً من دون الله فحسب، بل افتروا على الله الكذب زاعمين أن هذا العجل هو إلههم وإله موسى، وأن موسى نسي إلهه وتركه عند ذهابه إلى المناجاة ﴿ **فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ (٨٨)** ﴾.
[طه: ٨٨].

أما الغضب الذي نال بني إسرائيل في تلك الضلالة العمياء عبادة العجل: فهو أن الله تعالى لم يقبل لهم توبة، حتى قتل بعضهم بعضاً كما جاء في سورة البقرة من قول الله جل ثناؤه: ﴿ **وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٤)** ﴾ [البقرة: ٥٤].

وأما الذلة: فما أعقبهم ذلك من الهوان والصغار في الحياة الدنيا. وهذا مشهود عبر التاريخ ومشهور. أما ما هم عليه الآن من تعالٍ وغطرسة: فينطبق عليه قول الشاعر: «خلا لك الجو فبيضي واصفري».

وأنت ترى كأن العقوبة الأولى، كان من لازمها العقوبة الثانية، فغضبُ الله عليهم، بأن لم يقبل لهم توبة إلا بأن يقتل بعضهم بعضاً؛

كان هوانا لهم وصغاراً تمرغوا في حمأته وذلة أذلهم الله بها في الدنيا. قال الإمام الطبري - رحمه الله -: (فكان أمر الله إياهم بما أمرهم به من قتل بعضهم أنفس بعض عن غضب منه عليهم بعبادتهم العجل. فكان قتل بعضهم بعضاً هواناً لهم وذلة أذلهم الله بها في الحياة الدنيا. ولما كان عملهم افتراءاً على الله إذ كذبوا عليه، وأقروا بألوهية غيره وعبدوا وثناً من دونه زاعمين أنه هو إلههم وإله موسى عليه السلام، فقد ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾).

وفي هذا تذكير أيُّ تذكير للجماعة المسلمة أن تقع ـ لا قدر الله ـ بشيء مما وقع به أولئك الأناسي من بني إسرائيل. فكما جزى هؤلاء الذين اتخذوا العجل إلهاً؛ من إحلال الغضب بهم، والإذلال في الحياة الدنيا على كفرهم بربهم، وردتهم عن دينهم بعد إيمانهم بالله، كذلك يجزي كل من افترى على الله الكذب، فكذب عليه، وأقر بألوهية غيره وعبد شيئاً سواه من الأوثان ـ مهما كان لونها وحقيقتها ـ بعد إقراره بوحدانية الله، وبعد إيمانه به وبأنبيائه ورسله. ومنجاته من ذلك أن يتوب عن غيِّه توبة نصوحاً كما أمره ربه سبحانه، ذلكم قوله تعالى في الآية التي تلي: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأعراف: ١٥٣].

وبعد هذا الذي رأينا من مكي القرآن في سورة الأعراف ـ وقد نزل في أعقاب الكلام على صنيع اليهود في عبادة العجل وما صحب ذلك من المآثم ـ ننتقل إلى تلكم الآيات المدنية التي نقع عليها ـ كما ذكرنا آنفاً ـ في سورتي البقرة والنساء.

ففي الآية الحادية والخمسين من سورة البقرة، يطالعنا التنديد بضلال بني إسرائيل في عبادة العجل، الذي اتخذوه بعد الذي أنعم الله عليهم بمواعدة موسى أربعين ليلة، والحكم عليهم بأنهم ظالمون. ذلكم قوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ** ﴿٥١﴾ ﴾ [البقرة: ٥١] نعوذ بالله من المقت. لقد ظلموا أنفسهم بما سلكوا من سبيل الغضب والذلة، وظلموا الحقيقة بما افتروا على الله وتجاوزوا الحق إلى الباطل، والهدى إلى الضلال.

أما الآية الرابعة والخمسون من السورة نفسها ـ وقد أشرنا إليها من قريب ـ: فتكشف عن الطريق التي أمرهم الله بسلوكها، كي يتوب عليهم من ظلم أنفسهم بما وقعوا فيه من تلك المهواة المنكرة. والآية الكريمة هي قول الله تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** ﴿٥٤﴾ ﴾ [البقرة: ٥٤].

ولا تطول بنا الرحلة، حتى نقع على لون آخر من التنديد، وذلك بالكشف عن أن بني إسرائيل اتخذوا العجل من بعد ما جاءهم موسى بالبينات وذلك من أعتى أنواع الضلال، إذ ليس لهم عذر بعد تلك البينات فيما ولغوا فيه من الإثم حين عبدوا ـ بعد أن غادرهم موسى إلى الطور ـ عجلاً جسداً له خوار لا يرجع إليهم قولاً ولا يهديهم سبيلاً. ومن هنا كانوا بحق ضلالاً ظالمين. نقرأ في ذلك ما جاء في الآية الثانية والتسعين من قول الله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ** ﴿٩٢﴾ ﴾ [البقرة: ٩٢].

وفي تقريع بالغ الشدة يكشف عن خيانة العهد وكفران النعم، وعن أن هؤلاء القوم، ديدُنهم أن يقولوا: سمعنا وعصينا، وأن حب العجل قد خالط حبات قلوبهم، كما يخالط الشراب؛ فهم واقعون في التناقض بدعواهم الإيمان بالتوراة وعبادتهم العجل.. في تقريع على هذه الشاكلة، نقرأ في الآية التي تلي قول الله جل ذكره: ﴿ **وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٩٣)** ﴾ [البقرة: ٩٣].

حتى إذا غادرنا سورة البقرة إلى الآية الثالثة والخمسين بعد المائة من سورة النساء وجدنا الكلمة القرآنية تضيء للنبي ﷺ طريقه في مواجهة أهل الكتاب، وهو يدعو إلى الله، وتسليه بأن ما يسأله أهل الكتاب ـ وبخاصة اليهود ـ من أن ينزل عليهم كتاباً من السماء، قد سأل من يُنسبون إليهم ما هو أكبر من ذلك؛ وهو قولهم: ﴿ **أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً** ﴾ فأخذتهم الصاعقة بظلمهم، ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات.. فليس جديداً ما يواجهونه به من المكر والحيلة ومحاولة التعجيز. ﴿ **يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُّبِينًا (١٥٣)** ﴾ [النساء: ١٥٣].

وإني داع ـ ونحن نعاني ما نعاني، من مرض الغفلة في تعاملنا مع اليهود وأعوانهم، والانصراف عن اللغة المناسبة المنتجة، كما فعل رسولنا عليه الصلاة والسلام: اللَّهم اجعلنا من الذين إذا ذكِّروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً..

التجرؤ على رب العالمين.. والجزاء

- ١ -

ذكّرت غير مرة بما للحديث في القرآن الكريم ـ والمكي منه بخاصة ـ عن بني إسرائيل، وتعرية مواقفهم الضالة سواء منها ما يتصل بالعقيدة، أو ما يتصل بالسلوك، ودعوة المسلمين إلى التذكر والاعتبار بما حصل لهم بسبب زيغهم وانحرافهم؛ من بالغ الدلالة على أهمية ذلك في تلك الحقبة المبكرة من عمر الدعوة، والذي يعطي ـ فيما يعطي ـ أن المسلك الموسوم بالانحراف المتأصل في النفوس، هو الذي ينتظم أجيال اليهود المتعاقبة دونما استثناء، وأن على المسلمين أن يكونوا أبداً على علم بذلك وذُكر منه من أول الطريق، فقد كشف لهم القرآن عن كثير من المعلومات البالغة الأهمية على هذه الساحة ـ وهم ما يزالون في العهد المكي فئة مستضعفة في مواجهة أهل الشرك ـ ولما هاجروا إلى المدينة حيث أصبح قياد المجتمع بأيديهم، وحيث أصبح اليهود طرفاً حاقداً له دعاواه العريضة في مرحلة الصراع.

وفي سياق الحديث عن ذلك من قبل، مثّلت بآيات من سورتين مكيتين هما سورة الأعراف وسورة طه، حيث وقفنا على موقفين ظالمين من مواقف بني إسرائيل يتصلان اتصالاً مباشراً بالعقيدة، ناهيك عن التناقض الصارخ بين الدعوة والسلوك أولهما: طلبهم من موسى عليه

السلام بعد أن جاوز الله بهم البحر ورأوا قوماً يعكفون على أصنام لهم، أن يجعل لهم إلهاً كما لهم آلهة ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ [الأعراف: ١٣٨ - ١٣٩].

ثاني الموقفين: اتخاذهم - إبان ذهاب موسى عليه السلام إلى المناجاة - عجلاً جسداً له خوار معبوداً من دون الله، وعصيانهم هارون عليه السلام، إذ لم يستجيبوا له فيما أمرهم به وما نهاهم عنه، بل لجوا في طغيانهم حتى كادوا يقتلونه، كما نرىٰ في سورة الأعراف.

وفي الموضع نفسه نقرأ في سورة طه، ما يكشف عن أن السامري هو الذي جرهم إلى فتنة العجل، وأن هارون أدى واجبه كاملاً غير منقوص، ولكنهم هم الذين أصروا على التمسك بالطريق الضالة التي سلكوها معرضين كليا عن أي من كلمات الهداية والخير.

ونعود إلى سورة الأعراف، لنرى صورة أخرى من عمى القلوب على ساحة الباطل المستهتر، تصدر عن بني إسرائيل بعد كل الذي جرى، لتكون حلقة في تلك السلسلة العفنة من أفاعيلهم وسوء صنيعهم على صعيدي العقيدة والسلوك. والصورة التي أعنيها هي تهديدهم موسى عليه السلام - بعد أن أيقنوا بأن الله يكلمه - بأنهم لن يؤمنوا له حتى يريهم الله جهرة، وهو مطلب يعبر عما في النفوس من الشك الفاضح والاضطراب.

ففي الآية الخامسة والخمسين بعد المائة من هذه السورة نقرأ قول الله تباركت أسماؤه: ﴿ وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

تخبرنا الآية الكريمة أن موسى عليه السلام اختار من قومه سبعين رجلاً لميقات وقَّته له ربه، ثم ذهب بهم إليه ليعتذروا ـ كما يقول العلماء ـ عن عبادة العجل، فلما أتوا المكان المحدد لذلك، وأيقنوا أن الله يكلم موسى عليه السلام، ما كان منهم إلا أن نطقوا بكلمة الضلالة مستهترين، فقالوا: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، فأخذتهم الصاعقة، وهي المراد بالرجفة في الآية التي نحوّم حولها. فلما أخذتهم الصاعقة، ماتوا. فقام موسى عليه السلام يبكي ويدعو الله فكان مما قاله: ﴿ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ ﴾ أخرج الإمام الطبري بسنده عن السدي قال: (إن الله أمر موسى عليه السلام أن يأتيه في ناس من بني إسرائيل، يعتذرون إليه من عبادة العجل، ووعدهم موعداً، فاختار موسى قومه سبعين رجلاً على عينه، ثم ذهب بهم ليعتذروا. فلما أتوا ذلك المكان قالوا: لن نؤمن لك يا موسى حتى نرى الله جهرة، فإنك قد كلمته فأرناه! فأخذتهم الصاعقة، فماتوا، فقام موسى يبكي ويدعو الله ويقول: «رب ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم، لو شئت أهلكتهم من قبلُ وإياي»).

هكذا فعلوا، بعد أن أيقنوا بأن الله يكلّم نبيهم موسى، فبدل أن يزدادوا إيماناً، ويكون منهم تذوق لحلاوة هذا الإيمان، تحولوا إلى النقيض فقالوا لموسى: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥].

والذي يثير الدهشة، أن عدداً من الروايات، ومنها الرواية التي أثبتنا عن السدي، تصرح بأن الذين فعلوا ذلك هم خيارهم؛ لأنهم هم السبعون الذين اختارهم موسى عليه السلام، الأمر الذي يدل على أن سوء الطوية هو الأصل عند هؤلاء الناس، وعندما يطالبون بالدليل، ويتظاهرون بالمزيد من الرغبة في إعمال العقل، يكون ذلك صورة فاضحة من صور التعنت والرغبة في المراء، وإلا: فأين الذي حصل من تشوفهم إلى صنم يعكفون عليه تقليداً لمن رأوهم يفعلون ذلك، بعد أن أنقذهم الله من فرعون وشيعته، وجاوز بهم البحر؟ أين هذا من الإيمان وفعل المؤمنين، بل أين تقع عبادتهم العجلَ؛ من دعوى الإيمان والأدلة الناطقة بوجود الله وحكمته وقدرته؟؟.

وأخيراً وليس آخراً: كيف نعلّل صنيعهم الباطل الذي يتمثل بقولهم لموسى بعد أن أيقنوا أن ربه يكلمه: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾.
وهذه من يقولها؟ يقولها السبعون الذين اختارهم موسى..

حقا إنه التعنت الذي لا تعنت بعده، والعناد الذي لا يدانيه عناد، مع الدعوى العريضة بأنهم أهل التوراة وأهل الإيمان.

وقد حرص القرآن على تنبيه المسلمين على أن ما يصنعه اليهود في عصر النبي عليه الصلاة والسلام حلقة في سلسلة ما صنعه أسلافهم من

قبل. أليس ذلك درساً بالغ الخطورة لأمتنا في كل عصر، كيما تحسن التعامل مع مدهم أحفاد أولئك الأجداد، فلا فرق؟! ولكن تختلف الأساليب، فتأخذ حِذرها وتكون على الجادة في حياتها، آخذة الكتاب بقوة، محسنة التنهيج وإحكام خطوات التنفيذ على صعيد العلاقة بأعداء الله ظلمة الحق والإنسان؟

التجرؤ على رب العالمين.. والجزاء

- ٢ -

كانت لنا فيما سبق وقفة عجلى عند واحد من مواقف بني إسرائيل الضالة التي لها شديد الصلة بالعقيدة والسلوك. وهي وقفة هدى إليها قبس من عطاء الآية الخامسة والخمسين بعد المائة من سورة الأعراف المكية، فقد دلت الآية فيما دلت ـ والقرآن يفسر بعضه بعضاً ـ على أن موسى عليه السلام اختار من قومه سبعين رجلاً على عينه، ليقوموا بأمر جلل، هو الاعتذار إلى الله تبارك وتعالى من عبادة العجل. ولما أتوا المكان الموعود، وكلّم موسى ربه سبحانه، زاغوا عن الحق، وهددوا موسى بأنهم لن يؤمنوا له حتى يروا الله عياناً علانية، وذلك ما عبروا عنه بقولهم: (لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فإنك قد كلمته فأرناه) ولما نطقوا بكلمة السوء هذه، أخذتهم الرجفة ـ وهي الصاعقة ـ جزاء ظلمهم، وما أكثر ما كانوا يظلمون، فقام موسى يبكي ويدعو الله تبارك وتعالى.

والآية الكريمة التي أعنيها هي قول الله جل ثناؤه: ﴿ **وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾** ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

وقد أشرت فيما سبق إلى أن صدور ما صدر عن هؤلاء الذين اختارهم موسى، أمر يستوقف الناقد المتبصّر، لأنه اختارهم على عينه للقيام

بالاعتذار، إذ دلالة ذلك، أن الأخيار من بني إسرائيل، كان عندهم هذا الاستعداد للزيغ الذي يتنافى مع أبسط قضايا الإيمان، وهذا واضح فيما نقل الطبري عن السدي رحمهما الله. يؤكد هذه الرواية، وما روى شيخ المفسرين أيضاً عن محمد بن إسحق أن موسى عليه السلام، سلك في طريقة الانتقاء، أن اختار السبعين الخيِّر فالخيِّر وقال: انطلقوا إلى الله فتوبوا مما صنعتم، واسألوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم، وصوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم، فخرج بهم إلى طور سيْناء، لميقات وقَّته له ربه.

وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم. فقال السبعون ـ فيما ذكر لي ـ حين صنعوا ما أمرهم به، وخرجوا معه للقاء ربه، لموسى: اطلب لنا نسمع كلام ربنا! فقال: أفعل: فلما دنا موسى من الجبل، وقع عليه عمود الغمام، حتى تغشَّى الجبَلَ كله، ودنا موسى فدخل فيه، وقال للقوم: ادنوا، وكان موسى إذا كلمه الله وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه، فضرب دونه بالحجاب ودنا القوم، حتى إذا دخلوا في الغمام، وقعوا سجوداً، فسمعوه وهو يكلم موسى، يأمره وينهاه، افعل ولا تفعل!! فلما فرغ الله من أمره انكشف عن موسى الغمام، فأقبل إليهم، فقالوا لموسى: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، فأخذتهم الرجفة ـ وهي الصاعقة ـ فافتُلتت أرواحهم، فماتوا جميعاً، وقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه، ويقول: لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي، قد سفهوا، أفتهلك من ورائي من بني إسرائيل).

هذا: ويبدو أن تعميق حسِّ المسلمين بما جبل عليه اليهود من انحراف، وتطلع إلى كل ما هو زيغ وعدوان على مقتضيات الإيمان، كان لا بد له من تعدد المواطن التي تذكر فيها هذه الحقيقة، على الأسلوب المعجز الذي اقتضته حكمة الله، فلم يقتصر في الحديث عما نطقت به أفواه القوم من كلمة الضلال: ﴿**لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً**﴾ خطاباً لموسى، على القرآن المكي، ولكن جاء ذلك أيضاً في القرآن المدني، حيث المسلمون على خط المواجهة مع اليهود الذي يزعمون أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنهم الشعب المختار قرباً إلى الله من بين الشعوب.

فما رأيناه مجملاً في أمر الكلمة المشار إليها، والتي خرجت من أفواههم تهديداً لموسى عليه السلام، وكشفت عن دخيلة نفوسهم، نرى النص عليه مفصلاً في سورتي البقرة والنساء، مع ما يرى من تفصيل في سورة الأعراف لواقعتي الاختيار ودعاء موسى عليه السلام.

يتضح ذلك بما نقرأ في الآية الخامسة والخمسين من سورة البقرة من قول الله جل ثناؤه: ﴿**وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (٥٥)**﴾ [البقرة: ٥٥].

ومعنى الآية ـ كما نرى ـ واذكروا إذ قلتم يا موسى لن نصدقك ولن نقر بما جئتنا به، حتى نرى الله جهرة ـ عياناً علانية برفع الساتر بيننا وبينه، وكشف الغطاء دوننا ودونه، حتى ننظر إليه بأبصارنا ـ فقد ورد عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال ﴿**حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً**﴾ قال: علانية، وروي عن الربيع وقتادة: ﴿**حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً**﴾ عياناً. وعن ابن زيد: ﴿**حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً**﴾ حتى يطلع إلينا.

ونقرأ في الآية الثالثة والخمسين بعد المائة من سورة النساء قول الله تعالى: ﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ ﴾.

[النساء: ١٥٣].

لقد كان من تعنت اليهود: أن سألوا رسول الله ﷺ أن يسأل ربه أن ينزل عليهم كتاباً مكتوباً من السماء، آية معجزة يعجز جميع الخلق عن أن يأتوا بمثلها شاهدة له عليه الصلاة والسلام بالصدق، آمرة لهم باتباعه. وفيما ورد عن السدي ومحمد بن كعب القرظي، ما يرجح أن هذا هو سبب نزول الآية، ورأى الطبري أنه أولى الأقوال بالصواب، وتابعه على ذلك كثيرون.

هكذا سأل اليهود محمداً ﷺ ما سألوه تعنتاً، وفراراً من الإيمان به، فجاء التوبيخ والتقريع من الله عز وجل لهم في مسألته إياه ذلك، وحملت الكلمة القرآنية تسلية النبي ﷺ عن صنيعهم في عصره، بفعل أسلافهم وأجدادهم القدماء. ﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً ﴾.

فلئن سألك هؤلاء أن تنزل عليهم كتاباً مكتوباً من السماء، كي يصدقوك.. فإنهم لن يؤمنوا لو جئتهم بذلك، ولسوف يخالفون أمر الله كما خالفه أسلافهم بعد كل ما رأوا من الآيات؛ فقد سأل أسلاف هؤلاء اليهود وأوائلهم، موسى عليه السلام أعظم مما سألوك، من تنزيل كتاب عليهم من السماء، فقالوا له: أرنا الله جهرة أي عياناً نُعاينهُ وننظر إليه.

وهكذا جاء التصريح بقصتهم مع موسى عليه السلام وقولهم: ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾، لكيلا يكون تعنت اليهود في عصره عليه السلام، أمراً مستهجناً عنده، ولا مدعاة للأسى؛ فذلك ديدن الأجداد قبل الأحفاد، بل إن الأسلاف قد سألوا موسى أكبر مما سأل هؤلاء اليهود المعاصرون. والتسلية عن صنيع الأحفاد بما صنع أسلافهم من قرون وقرون، لها دلالتها في توعية المسلمين اليوم، وتنبيههم على حقيقة هؤلاء الناس المعاصر منهم ومن تدحرج في التاريخ قبل قرون وقرون، لكيلا تشتبه عليهم الأمور، ويلبس الحق بالباطل؛ فاليهود هم اليهود، وأعداء الأمس هم أعداء اليوم. وبواعث الحقد والرغبة في الأذى دائماً في ازدياد. يعينهم على ذلك اهتزاز وجودنا الذاتي، ورفدهم بمعاونة آخرين وآخرين!!.

اللَّهم ارزقنا عميق التدبر، وصادق الاعتبار.. فما أشبه الليلة بالبارحة!!

للذين يتبعون الرسول النبي الأمي

- ١ -

من وقائع السلوك المنحرف عند اليهود والتي عرض لها القرآن المكي ـ كما أشرت سابقاً ـ ليكون المسلمون ـ والله أعلم ـ على وضوح في الرؤية ـ وهم يحملون دعوة الله ويصارعون الوثنية والطغيان ـ. من هذه الوقائع: ما حصل من أولئك الذين اختارهم موسى على عينه ـ وكانوا سبعين رجلاً ـ كي يدعوا الله ويتوبوا إليه مما حصل من عبادة العجل؛ إذ قالوا بعد أن سمعوا كلام الله وهو يأمر موسى وينهاه: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، فأخذتهم الصاعقة بصنيعهم هذا.

وأعقب ذلك أن قام موسى عليه السلام يبكي ويدعو الله ويقول: رب ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم.

والسورة المكية التي عرضت لهذه الواقعة هي سورة الأعراف إذ نقرأ في الآية الخامسة والخمسين بعد المائة قول الله تبارك وتعالى: **﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾** [الأعراف: ١٥٥].

وما جاء في دعاء موسى من قوله: إن هي إلا فتنتك: أي ابتلاؤك

واختبارك وامتحانك، وقد روي هذا التفسير عن ابن عباس وسعيد بن جبير وأبي العالية وربيع بن أنس، وغير واحد من علماء السلف والخلف. قال الحافظ ابن كثير: ولا معنى له غير ذلك، يقول إن الأمر إلا أمرك، وإن الحكم إلا لك، فما شئت كان، تضل من تشاء، وتهدي من تشاء، ولا هادي لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، فالملك كله لك، والحكم كله لك، لك الخلق والأمر.

ولئن كانت هذه الآية المكية، لم تصرح بما اجترحوه ـ من قولهم: أرنا الله جهرة ـ واقتصرت على ذكر أن الرجفة أخذتهم، إن التصريح بذلك جاء في القرآن المدني ـ ولله الحكمة البالغة في الإجمال هنا والتفصيل هناك. ذلكم ما نقرأ في الآية الخامسة والخمسين من سورة البقرة من قول الله جلت حكمته خطاباً لليهود: ﴿ **وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾** ﴾.

ويرد هذا التصريح في سورة النساء أيضاً، حيث نقرأ في الآية الثالثة والخمسين بعد المائة قول الله تباركت أسماؤه: ﴿ **يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾** ﴾ [النساء: ١٥٣].

وأنت واجد أن الله تبارك وتعالى، قد شاء بحكمته أن ينبه المسلمين منذ العهد المكي، على أن الهالة التي أحاط بها اليهود أنفسهم، من كونهم أكثر الناس فهما وإدراكاً، وأنهم أبناء الله وأحباؤه، والمنتفعون

برسالة السماء ـ كما كان يشاع في جزيرة العرب ـ كل أولئك لا يرقى بهم إلى أن يكونوا في منزلة الرضى عند الله عز وجل، لما أنهم ظلموا وطغوا وبغوا، وناصبوا رسل الله العداء، وكانوا على الخط العدواني في مواجهة الحق أبداً، بل انحطوا بسبب انحرافاتهم، إلى أن يكونوا في الدرك الأسفل من غضب الله وعقابه فباؤوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين.

أما المؤهلون لمنزلة الرضا عند الله عز وجل والمكانة السامية في العالمين: فهم المسلمون الذين يسلمون وجوههم لله على المنهج الأوفى، فيتبعون الرسول النبي الأمي محمداً عليه الصلاة والسلام، ولا يحيدون ولا يظلمون، حيث تكون فعالهم صورة صادقة لدعاواهم وأقوالهم على ساحة الإيمان والعمل والجهاد، لا كما فعل اليهود إذ كانوا على تناقض صارخ، بين دعواهم الإيمان، وبين سلوكهم المخزي في الماضي والحاضر، كما كشفت عن ذلك آيات الكتاب الكريم، ونصوص السنة النبوية المطهرة. يصحب ذلك الواقع الذي لا يبخل بالشهادة والتأييد.

إنها قضية كبرى، يوجه القرآن الكريم منذ العهد المكي إلى تبيُّنها، وإدراك أبعادها على طريق الدعوة الميمونة والمنهج والهدف.. الدعوة التي يراد لها أن تنتصر، وأن تتجاوز حدود الجزيرة إلى الناس جميعاً.. نعم.. يوجه إليها القرآن الكريم من أول الطريق لأن اليهود هم اليهود، وإن كانت المعركة لم تظهر ملامحها الكاملة إلا بعد الهجرة، وهذا التبكير في تنبيه المسلمين وهم ما يزالون فئة قليلة مستضعفة في مكة، لا ريب في دلالته على أن هذا الكتاب العزيز من عند الله.

ها هي سورة الأعراف المكية، تضع أيدينا على القضية المشار إليها ـ على صورة بالغة الدقة والوضوح. وقد جاء ذلك في أعقاب دعاء موسى عليه السلام الذي دعا به مناجياً مولاه بعد أن أخذت الصاعقة أولئك الذين اختارهم لميقات ربه سبحانه. والآيات في ذلك هي قول الله تعالى: ﴿ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥٥ ـ ١٥٧] ثم قال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

أما بعد: أليس في عرض القضية المشار إليها على هذه الصورة الجلية في العهد المكي ـ والمسلمون قلّة مستضعفون ـ ما يوجب على هذه الأمة أن تكون على المحجة، وعياً لها وإدراكاً لأبعاد ذلك، والعمل بمقتضاه؟ أجل لا بد من ذلك، كيما تسقط الأقنعة، وتظهر الحقيقة جلية، لا

يتغشاها المكر المبطّن، والتمويه الزائف على ساحة الصراع مع من حلت عليهم اللعنة وباؤوا بغضب على غضب، فاليهود السابقون واليهود اللاحقون سواء، وليس ثمة مفارقة بين هؤلاء وأولئك إلا في اختلاف أحقاب الزمان.

وهنالك يمكن - بعون الله - تجاوز واعٍ قوي للواقع الأليم، إلى واقع يحمل الخير والعزة الإيمانية والتمكين، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾﴾ [النور: ٤٤].

للذين يتبعون الرسول النبي الأمي

- ٢ -

أشرت من قريب إشارة سريعة إلى قضية كبرى وجّه إلى الانتفاع بدلالتها وإدراك أبعادها القرآن الكريم في العهد المكي، تلك القضية هي أن منزلة الرضى عند الله عز وجل، والمكانة القائمة على الحق في العالمين، هي لأولئك الذين يتبعون النبي محمداً عليه الصلاة والسلام، يعزرونه وينصرونه ويستقيمون على المنهج الذي سلكه بهم، فتراهم في سلوكهم على كل صعيد، صورة حية صادقة لما آمنوا به وأعطوا المواثيق من أنفسهم على العمل بمقتضاه.. وهذا ما يجعلهم أهلاً لرحمته وعطائه. وما داموا على تلك الاستقامة، فلهم الخير والعزة والتمكين.

أما أولئك اليهود، الذين يشهد سلوكهم أبداً بالتناقض الصارخ بين دعواهم الإيمان برسالة السماء، وبين أعمالهم وتصرفاتهم على كل صعيد: فليسوا من ذلك في شيء، بل باؤوا بانحرافهم وظلمهم بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين.

ولقد جاءت هذه الحقيقة ـ والله أعلم ـ لتبيِّن من هم أهل لرحمة الله ومرضاته، ولتنفي مزاعم اليهود التي كانوا يشيعونها في جزيرة العرب من كونهم أكثر الناس فهماً وثقافة، وإدراكاً، وأنهم المنتفعون حقاً ـ لا سواهم ـ من الدين والكتاب المنزل من عند الله. وكم تعالوا وتغطرسوا

وكان منهم الصلف واحتقار الآخرين بسبب أنهم ـ على حد زعمهم ـ أبناء الله وأحباؤه.

وموطن الكشف عن هذه القضية الكبرىٰ، والتي يبدو إدراكها من قبل المسلمين، ذا أهمية بالغة في الإسهام بتغيير الواقع، ما ورد في سورة الأعراف ـ وهي سورة مكية ـ في آيات كريمات أتينا على ذكرها في صفحات سبقت، وما بد من العودة إليها الآن تجلية للقضية من خلالها إن شاء الله. وتلك الآيات هي قول الله تبارك وتعالى في السورة المشار إليها: ﴿ **وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾** ﴾.

ثم قال جل شأنه خطاباً لنبيه عليه الصلاة والسلام، وللأمة من ورائه في بيان لعموم رسالته ووجوب الإيمان به، وأن ذلكم هو طريق الفلاح: ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا**

إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ .

هكذا نرى في هذه الآيات أنه بعد دعاء موسى عليه السلام بقوله : أنت ولِيّنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين، ﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف: ١٥٦]: تبنا ورجعنا، يأتي قول الله تبارك وتعالى : ﴿ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾ الآيات .

فرحمة الله الرحيم الرحمن، وسعت كل شيء، كما جاء في الحديث الذي رواه أحمد ومسلم عن سلمان الفارسي – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ قال : « إن لله عز وجل مائة رحمة فمنها رحمة يتراحم بها الخلق وبها تعطف الوحوش على أولادها وأخر تسعة وتسعين إلى يوم القيامة » ولم يرض رسول الله ﷺ من ذلك الأعرابي ـ كما ثبت في الحديث الصحيح ـ ما دعا به من قوله : اللهم ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا أحداً فقال له عليه الصلاة والسلام – كما روى البخاري وغيره –: « لقد تحجرت واسعاً » .

ولكن الله تعالى، بعد أن أثبت هذه الحقيقة، حقيقة أن رحمته وسعت كل شيء، أبان سبحانه وتعالى ـ وهو الحكيم الخبير ـ أنه سيكتبها منّة منه وإحساناً لأولئك الذين يتصفون بصفات معينة، مدارها على الإيمان وصدق الاتباع ـ قولاً وعملاً وسلوكا ـ لمحمد عليه الصلاة والسلام فيما جاء به من رسالة الإسلام وحياً من الله عز وجل ولأتباعه الصادقين .

وهذا واضح في قوله جل وعلا: «فسأكتبها» والضمير يعود للرحمة. والصفات التي ذكرت تدل دلالة واضحة على هذا الذي ذكرنا، من أن المقصود أمة محمد عليه الصلاة والسلام؛ فأنت ترى ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ إنهم يتقون الشرك والعظائم من الذنوب ويأخذون أنفسهم بتقوى الله تعالى، ويؤتون الزكاة فيزكون أنفسهم وأموالهم، وتراهم في كل حركة من حركاتهم في هذه الحياة مصدقين بما جاء من عند الله.

ثم جاء التفصيل بعد هذا الإجمال، فأوضحت الآية الثالثة، أن عماد القضية الإسلام واتباع الرسول عليه الصلاة والسلام، وجاء وصفه بالأمية، ليكون آكد في بيان أنه محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه، فقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

أرأيت: بعد الكشف في الآيات السابقات غير مرة عن صنيع اليهود في تطلعهم الدائم إلى الوثنية بل وقوعهم في عبادة غير الله، واحتيالهم الدائب على أحكام الله، يحاولون التفلت منها والعبث بمدلولاتها، بعد هذا كله نقع على هذه المقولة العظمى التي تضع حداً ـ على صعيد الفكر والمعرفة ـ لغطرسة أولئك المدَّعين الذين يخالف سلوكهم دعاواهم

العريضة كل المخالفة، فعذاب الله يصيب به من يشاء. أما رحمته: فهي لأولئك الذين يتبعون الرسول النبي الأمي، فيعملون بمقتضى الرسالة التي بلغها للناس وتراهم لا يتراجعون عن ميدان من الميادين، فيه نصرة هذا النبي الكريم وشد أزره، نصرة للحق وطلباً لمرضاة الله ومرضاة رسوله عليه الصلاة والسلام.

وما على المسلمين اليوم ـ وقد تداعى عليهم الأعداء في الداخل والخارج ـ إلا أن يستأنفوا طريق الوصول إلى تمثل تلك الحقيقة إيماناً وعملاً وسلوكاً، موقنين بنصر الله إن هم نصروه. ولله عاقبة الأمور.

أقيموا اليهودي عن أخيكم

مما وقفتنا عليه سورة الأعراف في أعقاب آيات تحدثت عن بني إسرائيل، أنه بعد أن أخذت الرجفة أولئك الذين اختارهم موسى عليه السلام لطلب المغفرة من الله، والعفو عما بدر من عبادة العجل، وقف موسى يدعو ربه قائلاً: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥ – ١٥٦].

وتطلع علينا مقولة مباركة تضع الأيدي على حقيقة ناصعة في شأن أمة محمد عليه الصلاة والسلام؛ فعذاب الله يصيب به من يشاء، ولكن رحمته سيكتبها لأولئك الذين يؤمنون بآيات الله، وتزين سلوكهم تقوى الله، أولئك الذين يتبعون الرسول النبي الأمي محمداً عليه الصلاة والسلام، الذي بشرت به التوراة والإنجيل، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويسير بهم إلى حيث السعادة في الدنيا والآخرة، فيحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم وذلك أثر من آثار رحمة الله التي كتبها لهم، أما العاقبة الموعودة من الله ـ والله لا يخلف وعده ـ لأولئك الذين آمنوا بذلك الرسول وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه: فهي الفلاح في الدنيا ويوم الدين؛ فهم المفلحون أبداً ما داموا على تلك الطريق، إيماناً ونصرة لما جاء به النبي

عليه صلوات الله وسلامه عليه، يدل على ذلك ما جاء بعد قول الله تباركت أسماؤه على لسان موسى عليه السلام: ﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ قوله جل شأنه: ﴿ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥٦ – ١٥٧].

أرأيت إلى هذا الوضوح فيما خصت به أمة محمد عليه الصلاة والسلام: ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ ﴾.

أخرج الطبري في تفسيره «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» عن نوف الحميري أنه قال: لما اختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقات ربه قال الله لموسى: أجعل لكم الأرض مسجداً وطهوراً، وأجعل السكينة معكم في بيوتكم، وأجعلكم تقرؤون التوراة عن ظهر قلوبكم، يقرؤها الرجل منكم والمرأة والحر والعبد والصغير والكبير. فقال موسى لقومه: إن الله قد جعل لكم الأرض طهوراً ومسجداً. قالوا: لا نريد أن نصلي إلا في الكنائس! قال: ويجعل السكينة معكم في بيوتكم. قالوا: لا نريد إلا أن تكون كما كانت في التابوت! قال: ويجعلكم تقرؤون التوراة عن ظهر

قلوبكم، ويقرؤها الرجل منكم والمرأة، والحر والعبد، والصغير والكبير قالوا: لا نريد أن نقرأها إلا نظراً! فقال: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ إلى قوله ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

ولقد كانت الآيات التي نحن بصددها ـ شأن القرآن كله ـ محط أنظار المؤتمنين على فهم الكتاب الكريم ونقل دلالاته إلى المسلمين، فأدركوا من خلالها، ما خص الله به هذه الأمة، وما تحمل رسالتها من حقوق وواجبات، الأمر الذي ينبه المسلمين أبداً، أن يكونوا على طريق المعرفة والعمل والجهاد وتحقيق إنسانية الإنسان، وأن لا يقعوا فيما وقعت فيه يهود من المخالفة والجحود، وبذلك يسلم لهم على الدوام ما فضلهم الله به على غيرهم، ويثبتون قولاً وعملاً، أنهم ما يزالون جديرين بذلك، والفضل لله سبحانه أولاً وآخراً، وجزى الله رسولنا النبي الأمي محمداً عليه الصلاة والسلام خير الجزاء وأعلى مقامه في الآخرين.

فعن عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – في قوله تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ أنه قال: أمة محمد ﷺ. وروى الطبري مثل ذلك عن سعيد بن جبير والسدي الذي قال: هؤلاء أمة محمد ﷺ.

وفي بيان المراد بالنبي الأمي في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ﴾ وأنه محمد عليه الصلاة والسلام قال قتادة: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ تمنتها اليهود والنصارى، فأنزل الله شرطاً بيناً وثيقاً فقال: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ﴾ وهو

نبيكم ﷺ، كان أمياً لا يكتب. أجل إنه الشرط البين الوثيق. من هنا قال شيخ المفسرين أبو جعفر - عليه رحمة الله -: (وهذا القول إبانة من الله جل ثناؤه عن أن الذين وعد موسى نبيه عليه السلام أن يكتب لهم الرحمة التي وصفها جل ثناؤه بقوله ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ هم أمة محمد ﷺ، لأنه لا يُعلم لله رسول وصف بهذه الصفة - أعني الأمي - غير نبينا محمد ﷺ وبذلك جاءت الروايات عن أهل التأويل).

هذا: والنبي الأمي المقصود في الآية، جاء ذكره وبيان أوصافه والبشارة به في التوراة والإنجيل، وجاءت الآية الكريمة صريحة بذلك فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ﴾ والقوم بعامة، وأحبارهم والرهبانيون فيهم بخاصة، يعلمون ذلك حق العلم، ولكنهم يجحدون بغياً على الحق، وحسداً من عند أنفسهم.

روى الإمام أحمد في مسنده قال: حدثنا إسماعيل عن الحريري عن أبي صخر العُقيلي أنه قال: حدثني رجل من الأعراب قال: «جلبت حلوبة إلى المدينة في حياة رسول الله ﷺ، فلما فرغت من بيعي قلت: لألقين هذا الرجل، فلأسمعن منه، قال: فتلقاني بين أبي بكر وعمر يمشون، فتبعتهم حتى أتوا على رجل من اليهود، ناشرٍ التوراة يقرؤها يعزي بها نفسه عن ابن له في الموت كأجمل الفتيان وأحسنها. فقال رسول الله ﷺ: أنشدك بالذي أنزل التوراة هل تجد في كتابك هذا صفتي ومخرجي؟ فقال برأسه هكذا، أي لا!! فقال ابنه: إي والذي أنزل التوراة

إنا لنجد في كتابنا صفتك ومخرجك، وإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله. فقال الرسول عليه الصلاة والسلام: أقيموا اليهودي عن أخيكم، ثم تولى كفنه والصلاة عليه» قال الحافظ ابن كثير: هذا حديث جيد قوي له شاهد في الصحيح عن أنس.

سبحان الله!! ناشد الرسول ﷺ اليهودي الأب بالله، فكذب زاعماً أنه لا يجد في التوراة صفة رسول الله ومخرجه، وأشرق في قلب اليهودي الابن المريض نور الهداية، فصدق في بيان الحقيقة، ونطق بالشهادتين، وبذلك أصبح أخاً للمسلمين، وعندما فاضت روحه إلى بارئها، أمر رسول الله ﷺ بتنحية أبيه الكافر عنه «أقيمو اليهوديَّ عن أخيكم».

«أقيموا اليهوديَّ عن أخيكم» وعاها التاريخ، وأصبحت ـ بدلالتها وأبعادها ـ أمانة في أعناق المسلمين.

ألا ليت لهواة التحوُّل عن هذا النبع السلسبيل، عيوناً ترى وقلوباً تعي. وهنيئاً لذلك الشاب ما أكرمه الله به من الصدق والنطق بالكلمة الطيبة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» حتى أصبح أخاً للمسلمين. هنيئاً له هذا الفضل العظيم، بأن يأمر سيد العالمين بإزاحة أبيه اليهوديِّ الكافر عنه، لأن النسب الحقيقي، قد تبدل بين الأب الذي ظلَّ على يهوديته، وبين الابن الذي أكرمه الله بالإسلام.

وما أعظمه درساً، أن يتولى الرسول صلوات الله وسلامه عليه كفنه والصلاة عليه بعد أن انضم إلى قافلة الهدى والخير، وأصبح في عداد من يكتب الله لهم الرحمة إن شاء الله. إن في ذلك لعبرة لمن يخشى، ونوراً لمن ينصف الحقيقة من نفسه على الدوام.

لا تقولوا مثلهم.. سمعنا وعصينا

أشرت غير مرة فيما مضىٰ من القول، إلى أن الكلام على اليهود في الكتاب والسنة، أخذَ حيِّزًا مرموقاً، كيما تكون الأمة ـ والله أعلم ـ على قدْرٍ من التنبه إلى ما يدفع عنها الأذى، ويعود عليها وعلى الإنسانية بالخير، إن هي تبصرت فيما ورد في هذا الشأن، وعملت على الإفادة منه؛ والحِكَمُ وراء ذلك أيضاً كثيرة وفيرة.

وأود أن أؤكد الآن، ما تعنيه المساحة التي أعطيت للتحذير من تقليد أهل الكتاب بعامة، واليهود بخاصة، من الوقوع في ارتكاب ما ارتكبوه؛ فالناظر في كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام: يطالعه من ذلك الشيء الكثير. جاء ذلك صريحاً في بعض المواطن، ويفهم بالدلالة والفحوى في مواطن أُخر.

وعلى هذا المحور: نقرأ في سورة البقرة بعضاً مما جاء في شأن بني إسرائيل وإعراضهم عن الحق، ومخالفتهم لما جاء به موسى عليه السلام، في خطاب لليهود في عصر النبي ﷺ، حتى كأنهم هم الذين فعلوا ذلك، لأن الطينة واحدة، والمنهج المنحرف واحد، والخَلَفُ راض بصنيع من سلف. نقرأ في هذه السورة المباركة قول الله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا**

وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [البقرة: ٩٢، ٩٣].

هكذا كان موقفهم مما أمروا به ومما نهوا عنه، أمروا أن يأخذوا ما آتاهم الله بقوة ويسمعوا؛ فما كان منهم إلا أن قالوا: سمعنا وعصينا، أجل كان هذا شعارهم في مواجهة أحكام الله، وما جاءهم من موسى عليه الصلاة والسلام.

وفي ضوء ما يؤكده المنهج القرآني، من تحذير الأمة المسلمة، من الوقوع فيما وقع فيه هؤلاء الأناسي: نقع في السنة المطهرة على التحذير من الوقوع فيما وقعوا فيه من قولهم: ﴿ **سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا** ﴾ وأن الواجب مواجهة ما يأتي عن الله ورسوله ﷺ بقول: ﴿ **سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا** ﴾ قولاً وعملاً، دونما تحول عن السلوك المتَّسق مع السمع والطاعة؛ وذلك عنوان الإيمان الصادق الذي لا تشوبه شائبة.

ونظل مع سورة البقرة، لنقرأ في خواتمها قول الله تعالى: ﴿ **لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾** ﴾ [البقرة: ٢٨٤] ففي هذه الآية يخبر الله جل شأنه أن له ملكَ السماوات الأرض وما فيهن وما بينهن، وأنه العليم بما فيهن، لا يُحجَب علمه عن الظواهر، ولا تخفى عليه خافية من السرائر والضمائر، مهما دقَّت وأمعنت في الخفاء، كما أخبر سبحانه أنه سيحاسب عباده على ما فعلوه، وما أخفوه في صدورهم كما قال تعالى: ﴿ **قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي**

السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ [آل عمران: ٢٩] وكما قال جل شأنه: ﴿ **يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾** ﴾ [طه: ٧] والآيات في ذلك والأحاديث كثيرة جداً.

وقد أخبر في هذه الآية التي نحن بصددها من سورة البقرة، بما هو زيادة على العلم، وهو المحاسبة على ذلك، وكان تخوُّف الصحابة - رضي الله عنهم - شديداً من هذا؛ فقد ثبت أنه لما نزلت هذه الآية، اشتد ذلك عليهم - رضي الله عنهم -، وخافوا منها، لما تحمله من محاسبة الله لهم على جليل الأعمال وحقيرها. ولا يخفى أن هذا من عميق إيمانهم وإيقانهم، ومخافتهم الصادقة من الله عز وجل، قال الإمام أحمد - رحمه الله - في مسنده: حدثنا عفان قال: حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم قال: حدثني أبو عبد الرحمن - يعني العلاء - عن أبيه عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنه قال: «لما نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿ **لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ اشتد ذلك على أصحاب رسول الله، فأتوا رسول الله ﷺ ثم جثوا على الركب وقالوا: يا رسول الله كُلِّفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية، ولا نطيقها. فقال رسول الله ﷺ: أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير. فلما اقترأها القوم وذلَّت بها ألسنتهم، أنزل الله في إثرها ﴿ **آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ...** ﴾ فلما فعلوا

ذلك، نسخها الله فأنزل الله ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾.

وأصل الحديث في أن الآية التي تلي، نسخت حكم التي قبلها: موجود عند البخاري: ورواه مسلم متفرداً به من حديث يزيد بن زريع عن روح بن القاسم عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة، فذكر مثله. ولفظه: «فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل الله عز وجل: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] قال: ﴿وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ قال: نعم، ﴿رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ قال: نعم ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ قال: نعم» وفي رواية أخرى للإمام أحمد من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: «لما نزلت هذه الآية ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ قال: دخل قلوبَهم منه شيء. لم يدخل قلوبَهم من شيء غيره. قال: فقال رسول الله ﷺ: «قولوا سمعنا وأطعنا وأسلمنا»؛ فألقى الله الإيمان في قلوبهم، فأنزل الله ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ﴾ ورواه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة وأبي كريب وإسحاق بن إبراهيم ثلاثتهم عن وكيع وزاد «﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قال: قد فعلت. ﴿رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ قال: قد فعلت: ﴿رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ قال: قد فعلت: ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ قال: قد فعلت. وفي رواية للترمذي مثله وقال: فأنزل الله ﴿آمَنَ الرَّسُولُ

بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ الآية وزاد فيه ﴿ **وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا...** ﴾ ».

هكذا خاف الصحابة، من أن لا يطيعوا شيئاً تنزَّل في كتاب الله تعالى، وهم حريصون على العمل بما يتنزل ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وخاف رسول الله أن يقعوا فيما وقع فيه اليهود والنصارى من قولهم: سمعنا وعصينا. فقال لهم: « قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير » فقالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير. فرحمهم الله بصدقهم. قال تعالى: ﴿ **آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥)** ﴾ [البقرة: ٢٨٥] ونسخ حكم الآية الأخرى بقوله تعالى: ﴿ **لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا** ﴾ إلى آخر الآية.

وهذه الواقعة ـ في دلالتها على الاحتراس من الوقوع في الهوّة السحيقة التي وقع فيها أهل الكتابين بعامة واليهود بخاصة ـ تتجاوز حدود الزمان والأشخاص، لتكون درساً للأمة الإسلامية، في أن تبنيَ وجودها الذاتي على هدي الكتاب العزيز والسنة النبوية المطهرة، وأن تحذر شديد الحذر من الوقوع في شرك التقليد لمن أعمى الله بصائرهم، وزادهم غضباً على غضب، وهم في الآخرة هم الأخسرون.

لُعنوا... بما عصوا وكانوا يعتدون

من مقومات الوجود الذاتي لأمتنا ـ كما تدل النصوص ـ البعد عن التقليد الأعمى بعامة، وعن تقليد من يتمرغون في غضب الله، وتحكمهم الأهواء الضّالة بخاصة. من معالم ذلك ما وقفتنا عليه خواتم سورة البقرة بدءاً من قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ..﴾ إلى آخر السورة حيث شق على الصحابة أن تكون هنالك محاسبة، حتى على ما تخفيه السرائر والضمائر، فهرولوا سراعاً ـ وهم الوقافون عند حدود الله والمثنيّ عليهم في القرآن الكريم ـ إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام، وشكوا ضعفهم عن تحمل هذا الأمر الخطير؛ لأنهم خافوا سوء العاقبة والعياذ بالله. ولكن الرسول ـ ويا نعم المربي هو ـ خاف عليهم أن ينزلقوا في تقليد اليهود والنصارى، فيقولوا في مواجهة أمر الله ورسوله: سمعنا وعصينا، وأن عليهم بوصفهم مؤمنين مصدقين بأن ما عند الله هو الخير ـ أن يقولوا: سمعنا وأطعنا وسلّمنا؛ وذلكم هو الموقف الذي يقتضيه الوجود الذاتي لخير أمة أخرجت للناس.

لقد حذرهم الرسول الكريم أن يقعوا في تقليد المغضوب عليهم والضالين، ودلّهم على ما هو الأقوم والأهدى سبيلاً. وكانوا ـ رضوان الله عليهم ـ عند الذي وجههم إليه رسول الله عليه الصلاة والسلام، فقد أعلنوا ما يدل على صدق إيمانهم بالله وملائكته وكتبه ورسله وقالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، فأثنى الله عليهم، وخفف

عنهم، وزادهم من فضله، ونزل ما نسخ الحكم الذي جاءت به الآية السابقة.

ودلَّ على ذلك من السنة: ما ثبت من الروايات عند أحمد والبخاري ومسلم والترمذي وغيرهم، والتي أوردنا بعضها من قبل. ومن الخير أن نثبت الرواية ـ كما جاءت عند الإمام مسلم ـ ففيها ما يعطي هذه القضية الكبرى ما يعين على مزيد من التبيُّن.

فقد روى بسنده عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أنه قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿ **لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** (٢٨٤) ﴾ [البقرة: ٢٨٤] اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فأتوا رسول الله ﷺ ثم جثوا على الركب وقالوا: أي رسولَ الله، كلفنا من الأعمال ما نطيق، الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها، فقال رسول الله ﷺ: أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير؛ فلما اقترأها القوم، وذلَّت بها ألسنتهم أنزل الله في إثرها ﴿ **آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ** (٢٨٥) ﴾ [البقرة: ٢٨٥] فلما فعلوا ذلك، نسخها الله تعالى فأنزل الله عز وجل ﴿ **لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا** ﴾. قال: نعم ﴿ **رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا** ﴾ قال: نعم، ﴿ **رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا**

بِهِ﴾ قال: نعم ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

ونتابع الرحلة مع مقولة التحذير من سلوك السبيل المعوجة الظالمة، التي سلكها أهل الكتاب ـ وبخاصة اليهود ـ لتطالعنا الآية الخامسة بعد المائة من سورة آل عمران بقول الله جل ثناؤه خطاباً للمسلمين: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥)﴾ [آل عمران: ١٠٥].

والذين نُهى المسلمون عن التشبه بهم؛ تفرقاً واختلافًا في دين الله، وأمرِه ونهيه ـ من بعد ما ظهرت لهم حجج الله على الحق، فعدلوا عن ذلك إلى الباطل، ونقض العهود والمواثيق، والمخالفة عن أمر الله ورسوله.. هؤلاء الذين نُهي المسلمون عن الانزلاق فيما انزلقوا فيه، هم اليهود والنصارى. وهذا ما عليه جمهور المفسرين. وقد جاءت الرويات عن أهل التأويل بذلك، فقد روى ابن جرير الطبري بسنده عن الربيع في قوله تعالى: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ قال: هم أهل الكتاب، نهى الله أهل الإسلام، أن يتفرقوا ويختلفوا، كما تفرق واختلف أهل الكتاب، قال الله عز وجل: ﴿وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

كما روى أبو جعفر – رحمه الله – عن الحسن مثل ذلك حيث قال: هم اليهود والنصارى.

فالمراء والخصومات في دين الله، مع الإعراض عن البينات والأدلة، كل أولئك يكون سبباً في الهلاك؛ لأن حقيقة الدين تُحجَب عن أولئك

المعرضين المتمارين المتخاصمين، ويقوم بديلاً عنها الهوى والضلال، وينتج عن ذلك أن يحلَّ الاختلاف والفرقة، محل الاجتماع ووحدة الكلمة؛ وتسوء العاقبة في الدنيا والآخرة، قال ابن عباس – رضي الله عنهما – في تفسير الآية التي نسعد بصحبتها: «أمر الله جل ثناؤه المؤمنين بالجماعة، فنهاهم عن الاختلاف والفرقة، وأخبرهم أن من قبلَهم هلكوا بالمراء والخصومات في دين الله».

في ضوء تلك الروايات: قال شيخ المفسرين – رحمه الله –: (يعني بذلك جل ثناؤه: ولا تكونوا يا معشر الذين آمنوا ﴿كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا﴾ من أهل الكتاب ﴿وَاخْتَلَفُوا﴾ في دين الله وأمره ونهيه ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ من حجج الله فيما اختلفوا فيه، وعلموا الحق، فتعمدوا خلافه، وخالفوا أمر الله ونقضوا عهده وميثاقه جراءة على الله، ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ﴾ يعني ولهؤلاء الذين تفرقوا واختلفوا من أهل الكتاب، من بعد ما جاءهم من البينات «عذاب» من عند الله «عظيم» ثم قال أبو جعفر: يقول جل ثناؤه: فلا تتفرقوا يا معشر المؤمنين في دينكم تفرُق هؤلاء في دينهم، ولا تفعلوا فعلهم، وتستنُّوا في دينكم بسنتهم، فيكون لكم من عذاب الله العظيم، مثل الذي لهم).

ويبدو أن ما نهي عنه المؤمنون، من أن يكونوا كاليهود والنصارى الذين اختلفوا من بعد ما جاءهم البينات، لا يقتصر على العقائد، ولكنه يشمل التزام الأحكام التي يكلف المؤمنون أن يعملوا بها، ويطوّعوا سلوكهم لها، فلا يختلفوا ذلك الاختلاف الذي تنحسر معه تلك

الأحكام عن المجتمع. يتضح ذلك إذا لاحظنا، أن الآية الكريمة التي تحومُ حول معانيها وهي قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾. قد سُبقت بقوله جل وعلا في الآية الرابعة بعد المائة من سورة آل عمران: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٤]. وذلك بعد الذي تقدم من وجوب الاعتصام بحبل الله الذي جعلهم بنعمته إخواناً، بعد أن كانوا أعداءاً متفرقين.

من هنا نجد أن الله تبارك وتعالى، يريد لهذه الأمة أن تتوحَّد على الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، وأن تجتمع أبداً على تحكيم شريعة وقعت فيما وقع فيه أولئك الذين دبَّت فيهم الفرقة والاختلاف، من بعد ما جاءهم البينات، وأولئك لهم عذاب عظيم.

في ضوء هذا الشمول: نقرأ ما جاء في سورة المائدة ـ بدءاً من الآية الثامنة والسبعين من قول الله جل ذكره ـ: ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [المائدة: ٧٨ – ٧٩].

هكذا يخبر ربنا تبارك وتعالى، أنه منذ دهر طويل، لَعن الكافرين من بني إسرائيل، فيما أنزله على داود نبيه عليه السلام، وعلى لسان عيسى بن مريم عليه السلام، وذلك بسبب عصيانهم واعتدائهم على خلقه، دون خوف من الله أو مراقبة ليوم الحساب، قال العوفي عن ابن عباس – رضي الله عنهما –: لعنوا في التوراة والإنجيل وفي الزبور وفي الفرقان.

ثم بين الله حالهم فيما كانوا يعتمدونه في زمانهم، من أمر إبراز المخالفة عن أمر الله، وعدم التناهي عن المجاهرة الظالمة بالمنكرات والمعاصي، فقال تعالى: ﴿ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ يستعلن المنكر في المجتمع، فلا ينهى عن ناهٍ، ولا يغار على دين الله وشرعه غيور. فلا بدع أن تحقَّ عليهم اللعنة من قديم، على لسان داود وعيسى ابن مريم عليه السلام، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون.

ولنا عودة إلى مزيد من عطاء هاتين الآيتين إن شاء الله، مع الإشارة إلى أن هذه الكلمات النورانية، تحمل التحذير البالغ للمسلمين أن يقعوا فيما وقع فيه بنوا إسرائيل، كما تشعر ببعض من أسباب الواقع الذي تعيشه أمتنا، وذلك واضح ـ كما سنرى بعون الله ـ في صريح هدي النبي عليه الصلاة والسلام.

واقعنَا.. وتقليدهم فيما لُعنوا من أجله

ما يزال الحديث موصولاً بالكلام على ما به يتحقق الوجود الذاتي للأمة، وذلك بأن تكون على الجادة في التزام ضوابط الشرع، والبعد عن كل ما يوقع فيما وقع فيه كفرة أهل الكتاب؛ أولئك الذين لا يرجون لله وقاراً، وأن تقليد من خالفوا عن أمر الله، وتجافت أعمالهم عن دعوىٰ أنهم أهل كتاب سماوي، مرفوض رفضاً باتاً، والمخالفة عن ذلك، لا تحمد عقباها في قليل أو كثير. والعهد قريب باصطحاب قول الله تبارك وتعالى في سورة آل عمران: ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴿١٠٤﴾ **وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴿١٠٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٤ ـ ١٠٥]. وواضح ما تحمل الآيات من مقومات لذاتية الأمة ووجودها الحقيقي، وما يجب أن تحذره من التردي فيما تردى فيه اليهود والنصارىٰ من تفرق واختلاف يسببان الهلاك في الدنيا والعذاب العظيم في الآخرة.

وليس بدعاً أن يقود الحديث عن ذلك ـ والآيتان الكريمتان، يشمل التحذير فيهما ما يكون من أمر العقائد، وما يكون من أمر التكاليف والأحكام ـ إلى ما جاء من خصال ذميمة لكفار بني إسرائيل ـ لعنوا من أجلها ـ هي على النقيض مما أمر به المسلمون؛ فقد أمر المسلمون بالوحدة على كلمة الله، والدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن

ذلك طريق الفلاح، إذ إن الدعوة إلى الخير، تبليغ لرسالة الإسلام التي تحمل الهداية والنور للعباد. وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حفظ لكيان المجتمع المسلم والدولة المسلمة، وعاقبة ذلك التمكين والمنعة في الدنيا، والفوز العظيم في الآخرة.

والخصال الذميمة التي نعنيها بشأن بني إسرائيل، والتي كانت سبباً في لعنهم وطردهم من رحمة الله: هي ما جاء في سورة المائدة، بدءاً من الآية الثامنة والسبعين، من قول الله تبارك وتعالى: ﴿**لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ...**﴾ الآيتان. فالعلاقة ـ والله أعلم ـ وثيقة بين ما جاء في قوله تعالى: ﴿**وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ...**﴾ الآية، وما جاء في الآية التي تليها من النهي عن التشبه بأولئك الذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم... العلاقة وثيقة بين الآيتين الكريمتين في سورة آل عمران، وبين ما جاء عن الذين كفروا من بني إسرائيل في سورة المائدة؛ فإذا انزلق المسلمون إلى ما انزلق فيه أولئك الكفرة اليهود، فمعنى ذلك أنهم واقعون في الفرقة والاختلاف؛ على ساحة العقيدة، وعلى ساحة ما خوطبوا به من تكاليف.

فإذا كان الذين كفروا من بني إسرائيل، قد لعنهم الله منذ أمد طويل ـ على لسان نبيه داود ونبيه عيسى بن مريم عليهما السلام، بسبب عصيانهم، واعتدائهم على الناس بشتى صنوف الاعتداء والأذى.. ـ فالتحذير قائم للأمة المسلمة أن تقع فيما وقع فيه هؤلاء، أو أن تسلك أيَّ سبيل توصل إلى هذه الحمأة الآسنة والعياذ بالله ﴿**لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ**

بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ .
ذلك اللعن بسبب عصيانهم، واعتدائهم على الخلق.

والطامة الكبرى: أنهم كانوا يرضون بالمعصية والانحراف عن دين الله، فلا يتناهون عن منكر، ولا يأتمرون بمعروف. وهنا ـ كما هو واضح ـ يكاد يكون التحذير لأمة الشهادة على الناس من الانحدار، إلى ما انحدر إليه هؤلاء المغضوب عليهم، أشد وأشد؛ لأن الله تعالى خاطب المسلمين بقوله: **﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾**. وأولئك الأناسي كانوا يسلكون المسلك النقيض، الأمر الذي أودى بهم إلى غضب الله والطرد من رحمته.

وهكذا يحمل هذا البيان عن هذا الصنف من الناس، والسبب الذي جعل اللعنة تحلّ عليهم، تحذيراً أيّما تحذير وتنبيها أيّما تنبيه، فإذا ارتكبت الأمة ما ارتكبوه ـ ولبئس ما كانوا يفعلون ـ فذلكم هو البلاء المبين.

روى الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي، نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا، فجالسوهم في مجالسهم، قال يزيد: وأحسبه قال: في أسواقهم، وآكلوهم وشاربوهم فضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ولعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم **﴿ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾** وكان رسول الله ﷺ متكئاً فجلس فقال: لا والذي نفسي بيده حتى تأطروهم على الحق أطراً».

وأنت ترى في هذا الحديث: كيف أن النبي ﷺ حدد الطريق للمسلمين؛ فذاتية الأمة ووجودها الحقيقي، في أن تكون على الجادة؛ وقوفاً عند أمر الله ورسوله، وأن تكون بعيدة كل البعد عما وقع فيه أولئك المغضوب عليهم؛ والرسول ﷺ بعد أن ذكر ما ذكر عن بني إسرائيل، قال بلغة الجزم والردع، بادئاً بالقسم: «لا والذي نفسي بيده حتى تأطروهم على الحق أطراً».

وانظر إلى شديد اهتمامه بهذه القضية التي تبدو بالغة الخطورة، انظر إلى ذلك من خلال قول راوي الحديث: «وكان رسول الله ﷺ متكئاً فجلس» فقال: «لا والذي نفسي بيده حتى تأطروهم على الحق أطراً» وقال أبو داود: حدثنا عبد الله بن محمد النضيلي قال: حدثنا يونس بن راشد عن علي بن بذيمة عن أبي عبيدة عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ «إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل: كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا، اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد، فلا يمنعه من ذلك أن يكون أكيلَه وشريبَه وقعيدَه. فلما فعلوا ذلك، ضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ثم قال: ﴿**لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ...**﴾ إلى قوله: ﴿**فَاسِقُون**﴾ ثم قال: «كلا والله لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطراً، أو لتقصرنَّه على الحق قصراً».

ومما يؤكد حرص الرسول ﷺ على الذي نرى، والحيلولة دون الأمة ودون أن تتشبه باليهود، فيأخذها من العواقب الوخيمة ما أخذهم، ما نجد في روايات أخر؛ كالذي روى ابن أبي حاتم بسنده إلى ابن

مسعود أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: «إن رجلاً من بني إسرائيل، كان إذا رأى أخاه على الذنب الذي نهاه عنه تعذيراً. فإذا كان من الغد لم يمنعه ما رأى منه أن يكون أكيله وخليطه وشريكه ـ وفي رواية وشريبه ـ. فلما رأى الله ذلك منهم، ضرب قلوب بعضهم على بعض، ولعنهم على لسان نبيين كريمين داود وعيسى بن مريم. ذلك بما عصَوا وكانوا يعتدون، ثم قال رسول الله ﷺ: والله لتأمرنَّ بالمعروف ولتنهونَّ عن المنكر ولتأخذنَّ على يد المسيء ولتأطرنَّه على الحق أطراً، أو ليضربنَّ الله قلوب بعضكم على بعض أو ليلعننَّكم كما لعنهم».

ترىٰ هل نملك الشجاعة الأدبية في النقد الذاتي، فننظر في الأسباب الحقيقية التي أوصلت أمتنا إلى ما وصلت إليه؟ وما هي النسبة بين الواقع، وبين ما أراد رسول الله ﷺ ـ وهو الذي لا ينطق عن الهوى ـ أن تكون عليه أمة الإسلام من استمساكٍ بالحق الذي نزل به الكتاب، وبعدٍ عن تقليد من حلَّ عليهم غضب الله ولعنته إلى يوم الدين؟.

المكابرة وقسوة القلب

في متابعة لما يعين على مزيد من الإدراك للأهمية البالغة، التي أعطاها الإسلام للوجود الذاتي للأمة، وتحذيرها من تقليد أهل الكتاب، والوقوع فيما وقعوا فيه من الضلالة والعماية، وبخاصة اليهود، سعدنا فيما مضى بصحبة آيتين من سورة آل عمران وآيتين من سورة المائدة. فأما آيتا سورة آل عمران: فهما بدءاً من الآية الرابعة بعد المائة قول الله تباركت أسماؤه: ﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥)** ﴾.

[آل عمران: ١٠٤ – ١٠٥].

وأما آيتا سورة المائدة: فهما بدءاً من الآية الثامنة والسبعين قول الله جل ذكره: ﴿ **لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩)** ﴾ [المائدة: ٧٨ – ٧٩].

والنظر في تلكم الآيات الكريمات، يقود إلى تبيّن الارتباط الوثيق، بين ما جاء في سورة آل عمران، وبين ما جاء في سورة المائدة، وذلك على ساحة الكشف عن حماة الضلال الفكري والسلوكي، التي وقع فيها أولئك الذين بدّلوا نعمة الله كفراً، وتحذير المسلمين من سلوك أيّ سبيل توصل إلى ما وصلوا إليه؛ من تفرق واختلاف في الدين، من بعد ما

جاءهم البينات، فحقت عليهم كلمة الله بالعذاب العظيم، والانحراف عن طاعة الله والولوغ في معاصيه، والاعتداء على الناس، والتحول عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ كالذي حصل من بني إسرائيل ـ فكان سبباً في لعنهم وطردهم من رحمة الله تعالى في الدنيا والآخرة، إذ إن المسلمين، مطلوبٌ منهم أن يكونوا على غير تلك الشاكلة، مطلوب منهم ـ وهذا غاية التكريم ـ أن تكون منهم أمة يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، وذلك طريق فلاحهم في الدنيا، ويوم الدين ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾.

أما الوقوع في مهواة التقليد، تقليدِ اليهود الظاهرين منهم والأخفياء؛ بما ارتكبوا ويرتكبون من ضلالات، على صعيد العقيدة والعمل والسلوك: فتلك طريق تتنافى مع الطريق الموصلة إلى الفلاح، وهي طريقٌ، من ركائزها: حملُ أمانة الإسلام بصدق وعزيمة، والدعوةُ إليه رسالةً تُسعد بني الإنسان في دنياهم وآخرتهم، وتصون المجتمع عن الأذى؛ وذلك بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كيما تكون شريعة الله هي المحكَّمة الآمرة الناهية، ومنهجُ السلوك النابعُ من كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، هو المنهجُ الذي ينتظم حركة المسلمين.

ونخطو خطوة أخرى مع المقولة المباركة، مقولة التحذير من اتباع السبل التي سلكها المغضوب عليهم والضالون، فنالهم من لعنات الله وعقابه وغضبه ما نالهم... نخطو خطوة أخرى، لنقرأ في سورة «الحديد» تحذيراً بالغاً من الوقوع في أمر يتصل بأعمال القلوب، وحركة

النفس من داخلها، ألا وهو قسوة القلب ـ والمعاذ الله ـ وهي الطامة التي حاقت بأهل الكتاب من اليهود والنصارى؛ فالمطلوب من أهل الإيمان: أن يعملوا على أن تكون قلوبهم خاشعة أبداً لذكر الله وما نزل من الحق، لكيلا يصيبهم ما أصاب اليهود والنصارى الذين أوتوا التوراة والإنجيل، فطال عليهم الأمد، فاغوتهم الشياطين، وقعدت بهم أهواؤهم وشهواتهم عن العمل الصالح والخشوع لذكر الله، فرانت على قلوبهم القسوةُ وكثير منهم فاسقون؛ ذلك لأن القسوة إذا رانت على القلب، وأحكمت سلطانها عليه، فلا خير يرتجى، والفسقُ والخروج على دين الله كائن لا محالة. وما نعنيه من سورة الحديد هو ما جاء في الآية السادسة عشرة من قول الله تبارك وتعالى: ﴿ **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ** (١٦) ﴾ [الحديد: ١٦].

يقول ربنا جل شأنه: أما آن للمؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكر الله، أي أن تلين عند الذكر والموعظة، وسماع القرآن بوعده ووعيده، وترغيبه وترهيبه فتفهمَه فهمَ تدبرٍ وتذكُّر، وتسمع له وتطيعه. وجاء النهي للمؤمنين بعد هذا، عن أن يتشبهوا بالذين حُمّلوا الكتاب من قبلهم من اليهود والنصارى، فلما طال عليهم الأمد، زاغوا عن طريق الهدى فأزاغ الله قلوبهم، فبدلوا كتاب الله الذي بأيديهم، واشتروا به ثمناً قليلاً، ونبذوه وراء ظهورهم، وأقبلوا على العبث الذي اخترعوه من عند أنفسهم، والآراء المختلفة الضالة والأقوال المؤتفكة التي قُوامها مجافاة الحق، والانحراف عن منهج الله.

ولم يقفوا عند هذا الحد، بل اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، حيث أحل لهم أولئك الأحبار والرهبان الحرام، وحرموا لهم الحلال؛ فظلوا على طاعتهم، بل وتقديسهم.. هنالك قست قلوبهم، فأصبحت كالحجارة أو أشدَّ قسوة، فلا يقبلون موعظة، ولا يتأثرون بتذكير، ولا تلين تلك القلوب بوعد ولا وعيد ﴿ **خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴿٧﴾ ﴾ [البقرة: ٧].

والمؤمنون ـ وقد اختارهم الله للجلّى بحمل رسالة الإسلام ـ كان من رحمته سبحانه، أن ينبههم في وقت مبكر إلى مكامن الخطر كي يجتنبوها، وبذلك يكونون في منجاة مما انزلق إليه الآخرون، فكان ما كان من قسوة القلب والضلال والإضلال، قال الإمام مسلم في كتاب التفسير من صحيحه: حدثني يونس بن عبد الأعلى الصدفي قال: أخبرنا عبد الله بن وهب قال: أخبرني عمرو بن الحارث عن سعيد بن أبي هلال عن عون بن عبد الله عن أبيه، أن ابن مسعود قال: ما كان بين إسلامنا، وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية ﴿ **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ** ﴿١٦﴾ ﴾ إلا أربع سنين. ورواه ابن أبي حاتم.

ومقالة «ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية، إلا أربع سنين» لم تقتصر على عبد الله بن مسعود ـ كما هي رواية مسلم وابن أبي حاتم ـ بل يرويها لنا ابن ماجه في سننه على أنها من مسند عبد الله ابن الزبير – رضي الله عنهما –؛ قال رحمه الله في باب « الحزن والبكاء» من كتاب « الزهد » هناك: حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم قال: حدثنا محمد

ابن أبي فُديك عن موسى بن يعقوب الزَّمعي عن أبي حازم، أن عامر بن عبد الله بن الزبير أخبره أن أباه أخبره «أنه لم يكن بين إسلامهم وبين أن نزلت هذه الآية، يعاتبهم الله بها، إلا أربع سنين، ﴿ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ . قال البوصيري في كتابه «مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه»: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات.

والحق أن هذه الكلمة الهادية، التي توجه المؤمنين إلى خشوع القلب، ليكون يقظاً للتذكر والتدبر، حيث ينعكس ذلك على الجوارح، فتستقيم على مرضاة الله، والتي تحذرهم من أن يكونوا كاليهود والنصارىٰ، في سلوكهم الذي أدى إلى أن تكون قلوبهم قاسية، لا تلين لوعد ولا وعيد، ولا تنتفع بموعظة أو تذكير.. الحق أن هذه الكلمة الهادية ـ كما انتفع بها المسلمون الأولون ـ تضع المسلمين اليوم على الطريق التي هي أقوم، وتأخذ بأيديهم إلى معرفة الداء، كيما يعالجوه بالناجع من الدواء...

فإذا كان الصحابة المثنيُّ عليهم في القرآن والحديث، عوتبوا بهذه الآية، فكيف بنا نحن ـ والأمور على ما هي عليه ـ؟ روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن المبارك أنه قال: حدثنا صالح المري عن قتادة عن ابن عباس أنه قال: إن الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة من نزول القرآن فقال: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ .

ألا إن القرآن يعلّمنا، أن المعالجة الحقيقية للواقع الأليم الذي لا نغبط عليه: تبدأ من هنا، فماذا نحن فاعلون؟

طال عليهم الأمد فقَست قلوبهم

ليس من مكرور القول، التذكير بضرورة التبصر الدائم، فيما حملت إلينا نصوص الكتاب العزيز والسنة المطهرة، من بالغ التحذير لأمتنا، أن تضل سبيلها، فتقع فيما وقع فيه أهل الكتاب ـ وبخاصة اليهود الذين يقفون لها بالمرصاد ـ سواء كان ذلك على ساحة العقيدة، أو الاحتكام إلى شرع الله، أو السلوك، ومن ورائه الحركة النفسية وأفعال القلوب.

ومن البداهة بمكان، أن يقود الحديث عن التبصُّر والتذكر على هذه الساحة؛ إلى ما جاء في سورة الحديد ـ كما سبق ـ من عتاب للمؤمنين، وتنبيه لهم في شأن خشوع القلوب لذكر الله، وما نزل من الحق، كيما يحصل التدبر الصادق، والتذكر المفضي إلى العمل المرضيِّ لله ولرسوله عليه الصلاة والسلام، ومن تحذيرهم، أن يكونوا كاليهود والنصارى الذين أوتوا الكتاب من قبل، فطال عليهم الأمد، فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون.

وما جاء في سورة الحديد ـ وهي سورة مدنية ـ هو قول الله جل ذكره في الآية السادسة عشرة: **﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾** وقد بيّن سبحانه في الآية التي تلي، أن العودة الصادقة إلى الله كفيلة ـ بفضله تعالى ـ أن تنتقل بالمؤمنين من

الواقع الذي يخشى معه قسوة القلب، إلى الخشوع المطلوب؛ فالله جلت حكمته قادر أن يرد القلوب إلى الخشوع، قدرتَه على أن يحيي الأرض بالنبات والعطاء، بعد أن لا يكون بها حياة، ولا عود، ولا نبت ولا مطر. ذلكم قوله تبارك وتعالى: ﴿ **اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴿١٧﴾ ﴾ [الحديد: ١٧].

ويبدو ـ والله أعلم ـ أن عناية الكلمة القرآنية بتنبيه المؤمنين على خطر قسوة القلب، التي حلت بأولئك الذين أوتوا الكتاب، فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم، وأن على المسلمين أن يكونوا شديدي الاحتراس من الوقوع في تلك الهاوية.. يبدو أن هذه العناية ترجع إلى أن القلب، إذا اعترته هذه القسوة، ورانت عليه، فلا خير يرتجىٰ منه ما دام على هذه الحال. فلا امتثال لأمر الله يحجز عن المخالفة، ولا تقوىٰ ترد عن معصية، أو عبث بأحكام الدين، واتخاذ آيات الله هزواً، ولا تذكُّر عند التذكير، ولا سماع لذكر الله ينعكس على السلوك، وحركة الإنسان في هذه الحياة.

وعلى السنن الذي سلكه القرآن في الهداية، بأسلوبه المعجز، نجد في الآية الثانية والعشرين من سورة الزمر، تقريراً لحقيقةٍ، مفادُها: أنه لا يستوى من شرح الله صدره للإسلام، فهو على نور من ربه، ومن هو قاسي القلب بعيد عن الحق لا ينفعل بالكلمة الهادية، ولا يتأثر بالموعظة التي تنير السبيل، وقد جاءت هذه الحقيقة على طريقة الاستفهام الإنكاري، لتثير العقل السليم، وتدعه يحكم ـ بعيداً عن الهوى والعناد ـ؛ إذ كيف يستوي هذا وذاك، ذلكم قول الله تبارك وتعالى:

﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الزمر: ٢٢]. ثم بيّن ربنا جلّت حكمته، أن المؤمنين الصادقين، ليسوا كأولئك الجاحدين المعاندين من اليهود والنصارى، الذين أوتوا الكتاب، فطال عليهم الأمد، فقست قلوبهم، وكثير منهم فاسقون، ولكنهم - بصدق إيمانهم وخشيتهم لله - تقشعر جلودهم عند سماع الذكر الحكيم، كلامِ الجبار المهيمن العزيز الغفار سبحانه، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله، لما يرجون ويؤملون من لطفه ورحمته - وهو الرحيم الرحمن، الذي سبقت رحمته غضبه - نقرأ في ذلك قول الله جل ذكره في الآية التي أعقبت سابقتها: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الزمر: ٢٣].

هذا: وفي كتاب الله العزيز، ما يبين بوضوح أن قسوة القلب سمة من سمات اليهود المتأصلة فيهم، وإليها يعود الكثير من ضلالاتهم التي طبعت تحركهم في ميادين العقيدة والشريعة، ومنهج الأخلاق والسلوك؛ ففي سورة البقرة: بعد أن كشفت الآيات عما كان من تعنتهم، وتشددهم على أنفسهم في تعيين البقرة التي أبلغهم موسى عن الله، أن عليهم أن يذبحوها، من أجل معرفة القاتل الذي حاول ذووه أن يلقوا التبعة على غيره، في جريمة وقعت يومذاك، وما كان من سوء أدبهم معه عليه السلام، مع أنه قال لهم: إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة، هكذا على الإطلاق دون تحديد.

في هذه السورة المباركة... نقرأ في أعقاب الكلام على ذلك التعنت والتشدد في أمر البقرة وسوء الأدب الذي صدر من أولئك الأناسي، مع نبيهم عليه السلام، قول الله تبارك وتعالى خطاباً ليهود، وذلك بدءاً من الآية الثانية والسبعين: ﴿ **وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾** ﴾ [البقرة: ٧٢ - ٧٤].

لقد شاهد بنو إسرائيل الكثير من آيات الله الدالة على قدرته وحكمته سبحانه؛ ومن هذه الآيات العظام: إحياء الموتى، فقد أحيا القتيل الذي قتله بعضهم. وادّارؤوا فيه ـ اختلفوا فيه ـ كلٌّ يحيل القتل على غيره، ويدعي البراءة، فأحياه الله عندما ضُرب ببعض البقرة التي ذبحوها. وبعد أن عيَّن قاتله، وقبضه الله إليه، جحدوا وأنكروا؛ صحيح أن الذين جحدوا وأنكروا هم القتلة، ولكن الخطاب جاء عاماً؛ فخصوص السبب لا يمنع عموم اللفظ عند الأكثرين؛ إذ إن الآخرين لم ينكروا على الجاحدين، ورضوا بما حصل منهم. ثم إن آية إحياء الموتى واحدة من آيات كثيرة، رأوها، فلم يتَّعظوا ولم تعنُ وجوههم للحق؛ فقال الله تقريعاً لبني إسرائيل، وتوبيخاً لهم على ما شاهدوه من آيات الله تعالى وإحيائه الموتى: ﴿ **ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً** ﴾.

وهكذا تدل الكلمة القرآنية أوضح دلالة، على أن أولئك المغضوب عليهم، صارت قلوبهم مع طول الأمد، قاسية بعيدة عن الخير، لا تتأثر

بموعظة ولا تلين لتذكير بالله واليوم الآخر ـ وكل هذا بعد الذي شاهدوه من الآيات والمعجزات ـ فهي كالحجارة التي تستعصي على اللين، أو أشد قسوة من الحجارة، فإن من الحجارة ما يتفجر منه العيون بالأنهار الجارية، ومنها ما يشقق فيخرج منه الماء ـ وإن لم يكن جارياً ـ ومنها ما يهبط من رأس الجبل من خشية الله.. فأين قلوب بني إسرائيل، من تلك الحجارة التي لها ما لها من هذه الخصائص؟ ذلكم قوله جل شأنه في تتمة الآية: **﴿ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾**.

أما بعد: فإن على المسلمين أن يدركوا تمام الإدراك، أن طريقهم ينبغي أن تكون مختلفة كل الاختلاف، عن طريق أولئك الذين يذكّرنا هذا الذي نقرأ في سورة البقرة، من قسوة قلوبهم، وبما رأينا من قبل في سورة الحديد، من قوله تعالى: **﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦) ﴾**.

ولئن كان الواجب، عدمَ سلوك الطريق التي تؤدي ـ بسوئها ـ إلى قسوة القلب، إن رسول الله ﷺ علّمنا ـ بجانب ذلك ـ أن نلجأ إلى الله سبحانه في أن يجنبنا ـ بمنّه وكرمه ـ كل ما هو من قسوة القلب، وعدم خشوعه، بسبيل. أخرج الترمذي بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ قال: «كان رسول الله ﷺ يقول: اللّهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع، ودعاء لا يسمع، ومن نفس لا تشبع، ومن علم لا ينفع. أعوذ بك من هؤلاء الأربع».

ثم أين نحن مما صح عنه ﷺ، من جعله القلب موئل التقوى ومكانها، وذلك قوله – كما روى أحمد ومسلم والترمذي وغيرهم –: «التقوىٰ ههنا» وأشار إلى صدره ثلاث مرات؛ فإذا قسا هذا القلب من طول الأمد، فأين تكون التقوى؟؟ أين تكون وقد استُبدل الذي هو أدنى ـ وهو القسوة ـ بالذي هو خير ـ وهو تلك المنقبة العظيمة ـ؟.

وذلك هو الخسران المبين؛ لأن القلب إذا أصيب بذلك: فسد، وأصبح عاطلاً عن التوجُّه إلى الخير، وانعكس ذلك على فعل الجوارح، ففسد عملها بفساده، كما بيّن ذلك إمام المعصومين عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

قلوب كالحجارة أو أشد قسوة.. فاعتبروا

كانت لنا من قريب، رحلة قصيرة مع الكلمة القرآنية الهادية في سورة الحديد، تعاتب المؤمنين، وتدعوهم إلى أن تخشع قلوبهم لذكر الله، وما نزل من الحق، وتحذرهم بالغ التحذير، أن يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل ـ وهم اليهود والنصارى ـ فطال عليهم الأمد، فقست قلوبهم، وكثير منهم فاسقون. واقتضانا الأمر ـ والمقولة مقولة التحذير من التشبه بأولئك الكافرين الذين طال عليهم الأمد فقست قلوبهم ـ اقتضانا الأمر، أن نحط الرحال عند آيات كريمات من سورة البقرة، كشفت بجلاء عن أن القسوة التي أشير إليها في سورة الحديد، هي سمة من سمات اليهود المتأصلة فيهم، فهم لشدة القسوة التي ترين على قلوبهم، لا يخشعون لتذكير، ولا يتأثرون بموعظة، ولا ينتفعون بما يرون من الآيات والمعجزات الدالة على قدرة الله وحكمته، ومظاهرِ علمه المحيط سبحانه وتعالى.

لقد قست منهم القلوب، وغلظت وجفت، حتى باتت كالحجارة أو أشدَّ قسوة، فإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء، وإن منها لما يهبط من خشية الله، وكان لتلك السمة المهلكة انعكاساتها الصارخة على سلوك اليهود، ونظرتهم إلى أمور الدنيا والدين، فهم لا يرجون لله وقاراً، ولا يفتؤون يرتكبون كل موبقة، بغية الوصول إلى ما يريد لهم الهوى والشيطان.

والآيات التي حملت إلينا هذه الحقيقة، جاءت بعد الكلام على تعنت بني إسرائيل، وتشددهم البارد في أمر البقرة التي أمروا بذبحها، وأن يضربوا القتيل ببعضها لمعرفة القاتل، في جريمة قتل جرى النزاع والاختلاف بشأن المقتول فيها، حيث حاول البعض دفع تهمة القتل عن صاحبهم، وإلقاء التبعة على آخرين غيرهم.

تلكم الآيات: هي قول الله تبارك وتعالى، خطاباً لليهود في عصر النبي ﷺ، لأنهم على سنن أجدادهم الذين فعلوا ذلك: ﴿ **وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾** ﴾ [البقرة: ٧٢ - ٧٤].

النفس التي قتلوها: تنازعوا فيها، فصار كل فريق يلقي التبعة على الآخرين، فهؤلاء يقولون: أنتم قتلتموه، وأولئك يقولون: بل أنتم الذين قتلتموه، ولكن الله الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء مُظهرٌ ما كانوا يكتمونه ويخفونه ذلكم قوله تعالى: ﴿ **وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ** ﴾. أي والله معلن ومظهر ما كنتم تسرونه، من قتل القتيل الذي قتلتم، ثم ادَّارأتم: أي تنازعتم واختلفتم فيه.

وأمَرَ الله بأن يضرب القتيل ببعض البقرة التي أمروا بذبحها، فذبحوها، وكان ذلك، فأحيا سبحانه بقدرته القتيل، فنطق باسم القاتل،

وبالسبب الذي من أجله قتله، ثم قبضه الله إليه ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ .

ولكن ماذا بعد هذه الخارقة، وهي إحياء الميت، وجعله ينطق باسم قاتله، وبالسبب الذي من أجله قتله؟ لقد كان اللَّجاج والعناد، وكان الكذب وقسوة القلب، والعياذ بالله تعالى. أخرج الطبري في تفسيره « جامع البيان » بالسند عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال: لما ضرب المقتول ببعضها، يعني بعض البقرة، جلس حيّاً، فقيل له: من قتلك؟ فقال: بنو أخي قتلوني، ثم قُبض. فقال بنو أخيه حين قُبض: والله ما قتلناه، فكذبوا بالحق إذ رأوه فقال الله: ثم قست قلوبكم - يعني بني أخي الشيخ المقتول - فهي كالحجارة أو أشد قسوة.

وفي « تفسير القرآن العظيم » للحافظ ابن كثير: قال العوفي في تفسيره عن ابن عباس، لـمّا ضرب المقتول ببعض البقرة جلس أحْيا ما كان قط، فقيل له: من قتلك؟ قال: بنو أخي قتلوني، ثم قبض، فقال بنو أخيه حين قبضه الله: والله ما قتلناه، فكذبوا بالحق بعد أن رأوه، فقال الله ثم قست قلوبكم من بعد ذلك - يعني بني أخي الشيخ - فهي كالحجارة أو أشد قسوة.

وواضح أن المراد بقوله تعالى: « من بعد ذلك »: من الأمر الخارق الذي حصل، وهو إحياء الموتى، وقد روى الطبري عن قتادة في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ ﴾ يقول: من بعد ما أراهم الله مِنْ إحياء الموتى، وبعد ما أراهم من أمر القتيل ما أراهم، فهي كالحجارة أو أشد قسوة.

هكذا يجيء التعبير عن تلك القلوب بغاية الوضوح.. فكأنه جل شأنه يقول: ثم جفَّت قلوبكم وصلُبت ـ بعد إذ رأيتم الحق فتبينتموه وعرفتموه ـ عن الخضوع له، والعمل بما يوجبه حقُّ الله عليكم، فقلوبكم كالحجارة صلابة وغلاظة ويُبساً وشدة، أو أشد قسوة، قال شيخ المفسرين: يعني: قلوبهم عن الإذعان لواجب حق الله عليهم، والإقرارِ له باللازم من حقوقه لهم، أشد صلابة من الحجارة.

ولعل هذه الصورة، تتضح أكثر وأكثر: إذا أتينا على ما قاله العلماء عن معنى (أو) في قول الله جل شأنه ﴿كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ فالإجماع منعقد على أن (أو) هنا ليست للشك، فذلك من المحال، تعالى الله سبحانه عن ذلك علواً كبيراً. ولذلك وردت عن علماء العربية والتفسير عدة أقوال في ذلك؛ من هذه الأقوال: أن (أو) في قوله «أو أشد قسوة» بمعنى الواو، والتقدير كالحجارة وأشد قسوة، كما قال تعالى في سورة الإنسان ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإنسان: ٢٤] بمعنى: وكفوراً، وكما قال جرير بن عطية:

نال الخلافَة أو كانت له قدراً كما أتى ربَّه موسى على قدر

يعني: نال الخلافة وكانت له قدراً.

وقال بعضهم: (أو) في هذا الموضع بمعنى (بل) ويكون التقدير: فهي كالحجارة، بل أشد قسوة، كما قال جل ذكره في سورة الصافات: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الصافات: ١٤٧] بمعنى بل يزيدون. وقال آخرون: المعنى: فقلوبهم لا تخرج من أحد هذين المثَلين:

إما أن تكون مثْل للحجارة في القسوة، وإما أن تكون أشد منها قسوة.

ومن هنا يكون التأويل على هذا المعنى: ثم قست قلوبكم؛ فبعضها كالحجارة قسوة، وبعضها أشد قسوة من الحجارة. وهكذا ترى أنها أوجهٌ من القسوة اتسمت بها قلوب أولئك المغضوب عليهم. والمؤمنون منهيُّون أشد النهي، محذَّرون أبلغ التحذير؛ عن سلوك أي سبيل قد تصل بهم من قريب أو من بعيد، إلى ما وصل إليه اليهود من تلك القسوة، بعد ظهور الآيات والمعجزات، ومنه إحياء الموتى، لأن قسوة القلب ـ كما أسلفنا من قبل ـ تنعكس آثارها على تصرفات الجوارح، حتى تصبح العلاقة بالدين، كأنها دعوىٰ بلا دليل. ومسلكُ اليهود في الماضي والحاضر: صورة واضحة لذلك.

من هنا نرى النبي ﷺ قد ربىٰ أمته على الابتعاد عن كل ما يوقع في قسوة القلب، فكان من هديه عليه الصلاة والسلام قوله فيما أخرج ابن مردويه من رواية ابن عمر – رضي الله عنهما –: «لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة في القلب وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي» وأخرجه الترمذي. وروى البزار عن أنس مرفوعاً: «أربع من الشقاء: جمود العين، وقساوة القلب، وطول الأمل، والحرص على الدنيا».

وصلى الله وسلم وبارك على معلم الناس الخير، الذي أدىٰ الأمانة، وبلّغ الرسالة ونصح الأمة، وجاهد في سبيل الله حتى أتاه اليقين.

أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ

وقفتنا نصوص الكتاب العزيز والسنة النبوية المطهرة في صفحات قريبات، على عدد من النماذج التي حملت تحذير المسلمين، من التردي فيما تردى فيه أهل الكتاب اليهود والنصارى، وبعضُهم أولياء بعض ـ من انحراف عن دين الله وطاعة للهوى والشيطان، حيث أورث ذلك ما أورث من قسوة في القلب، وجفوة عن الحق، وما يُنتظر من سوء العاقبة في الآخرة: أشدُّ وأنكىٰ.

وقد رأينا في ذلك، ما جاء في سورة الحديد، من قول الله تبارك وتعالى عتاباً للمؤمنين، ونهياً لهم عن تقليد اليهود والنصارى: ﴿ **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ** (١٦) ﴾ [الحديد: ١٦].

وقد وقفتنا آيات كريمات، من سورة البقرة، على أن قسوة القلب ـ ذلك الداء العضال الذي يودي بصاحبه إلى المهالك في الدنيا والآخرة؛ اعتقاداً وسلوكاً ـ سمة من سمات اليهود والنصارى المتأصلة فيهم، ولا يعجز الناظر في تصرفاتهم قديماً وحديثاً، أن يقع على الكثير الكثير من الصور التي تثبت ذلك وتؤكده. والآيات التي نعنيها من هذه السورة المباركة: ما جاء بعد الكلام عن تعنت يهود في إنفاذ أمر الله لهم، من طريق موسى عليه السلام بذبح بقرة!!

وأود أن أشير هنا، إلى أنه مما يستوقف الناظر المتأمل، أن آيات الكتاب الكريم قد وجهت المسلمين ـ وهم يحملون رسالة الحق والخير ـ إلى أن عليهم أن يكونوا على يقظة تامة، بشأن هؤلاء اليهود، فيفيدوا من الحقائق التي يكشف عنها القرآن في شأنهم، وما يبينه من الخصال المتأصلة فيهم.. وأنهم إن فعلوا ذلك ـ وفروا على أنفسهم كثيراً من العنت في العلاقة بقُساة القلوب، ولم يقعوا في شرك الاغترار بهم، أو التشبه بشيء من فعالهم وسلوكهم.

والآيات التي رأينا، والتي وصفت من قسوة القلوب عند اليهود، بعد الذي رأوا من الآيات والمعجزات ما وصفت؛ فهي كالحجارة أو أشد قسوة.. أجل أشد قسوة؛ فإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء، وإن منها لما يهبط من خشية الله... هذه الآيات المباركات، أعقبها قول الله تعالى خطاباً للمؤمنين، وتنبيهاً لهم أن يكونوا شديدي الحذر: ﴿ **أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٧٦) أَوَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٧)** ﴾ [البقرة: ٧٥ ـ ٧٧].

يعني ربنا تبارك وتعالى: أفتطمعون يا أصحاب محمد، أي أفترجون يا معشر المؤمنين بمحمد ﷺ والمصدقين بما جاءكم به من عند الله، أن يصدقكم اليهود بما جاء به نبيكم ﷺ وأن ينقادوا لكم بالطاعة، وهم

يسيرون على نسق آبائهم الذين شاهدوا من الآيات البينات ما شاهدوه، ثم قست قلوبهم من بعد ذلك؟ وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه، يتأولونه على غير تأويله، ويكذبون على الله فيه، من بعد ما عقلوه، أي فهموه على الجلية، ومع هذا يتعمدون مخالفته على بصيرة، وهم يعلمون أنهم مخطئون فيما ذهبوا إليه من تحريفه وتأويله، ولكنه العناد وقسوة القلب، وحدِّث عن عقابيل ذلك ولا حرج.

أخرج الطبري بسنده عن ابن زيد في قوله تعالى: ﴿ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ ﴾ قال: هي التوراة التي أنزلها عليهم يحرفونها، يجعلون الحلال فيها حراماً، والحرام فيها حلالاً والحق فيها باطلاً، والباطل فيها حقاً. إذا جاءهم المُحِقُّ برشوة أخرجوا له كتاب الله، وإذا جاءهم المُبْطِلُ برِشوة، أخرجوا له ذلك الكتاب - الكتاب المحرف - فهو فيه محق. وإن جاء أحد يسألهم شيئاً ليس فيه حق ولا رشوة ولا شيء، أمروه بالحق، فقال لهم: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [البقرة: ٤٤] وقال أبو العالية: عمدوا إلى ما أنزل الله في كتابهم، من نعت محمد ﷺ فحرفوه عن مواضعه.

وهكذا يكشف القرآن للمسلمين - بطريقة غاية في الوضوح والجزم - عن أن هؤلاء اليهود الذين كانوا في عصر النبي ﷺ، قد سبقت لآبائهم أفاعيل سوء وعناد، وانحراف عمدي عن جادة الحق، وهم - أي الأبناء - على ذلك السنن - حَذْوَ القُذَّةِ بالقُذَّةِ - فكيف تطمعون في إيمانهم. أولئك عرفوا الحق وحاولوا تأوليه على غير وجهه، وتحريف الكلم عن

مواضعه وهؤلاء أيضاً عرفوا الحق وحاولوا طمس معالمه، وكذبوا بمحمد عليه الصلاة والسلام، مع علمهم بتبشير التوراة به، وأن عليهم أن يؤمنوا بما جاء به من عند الله عز وجل.

وجميل ما وجه إليه الإمام القرطبي، من أن الآية الكريمة، تدل أيضاً على أن العالم بالحق، المعاندَ فيه، بعيد من الرشد، لأنه علم الوعد والوعيد، ولم ينهه ذلك عن عناده.

هذا: ولعلنا لا نبعد النجعة، إذا رأينا أنه ربما كان من آثار قسوة القلب والبعد عن الله عند اليهود، ما كان منهم من النفاق؛ حيث كان فريق منهم يتظاهرون بالإيمان، تحقيقاً لمصالح يتوهمونها، وإذا خلا بعضهم إلى بعض، كان الأمر غير ذلك. فبعد قوله تعالى: ﴿ **أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴿٧٥﴾ ﴾. نقرأ قوله جل ذكره وتباركت أسماؤه: ﴿ **وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ** ﴿٧٦﴾ **أَوَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ** ﴿٧٧﴾ ﴾.

إن قدراً مشتركاً من الخبث والضلال، قائم بين النفاق، وبين ما يسلكه أهل العلم والمعرفة فيهم؛ من التحريف المتعمّد لما يسمعون من كلام الله، مع علمهم أنهم على الباطل، في تحريفهم ما حرَّفوا، وهم مقرون ظالمون.

فالنفاق ـ بإرادة مُريبة، وإصرار على تحقيق ما يمكرون من أجله

بالمسلمين ـ سلاح يستخدمونه في معركة، يخوضونها مع الحق وأهله.

وقل مثل ذلك ـ مع اختلاف الصورة لا غير ـ في تلك العملية الظالمة التي تتمثل في كونهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه ـ من بعد ما عقلوا تأويله وأدركوا مراميه ـ وهم يعلمون أنهم في تحريفهم ما حرفوا من ذلك، مبطلون كاذبون؛ فالنسب واضح كل الوضوح بين الأمرين.

ونعود مرة أخرى، إلى التذكير بأهمية ما نبه عليه القرآن، من أن الاطمئنان إلى هؤلاء المتَّسمين بتلك السمات في التعامل مع كلام الله وعباد الله، ضربٌ من العبث العابث، بعد أن تبيّن ما فعله الآباء منهم والأجداد؛ فكلهم يسير على سنن الضلال نفسه، بل قد يتوافر للأحفاد، ما لم يتوافر للأجداد من وسائل الأذىٰ وتعميق الانحراف، كالذي نراه في العصر الحاضر على صعيد المواجهة معهم، ومع من يمالئهم، وهم الظالمون المغتصبون المفترون.

وإني إذ أتمنىٰ أن يزداد تبصرنا بهذه الحقيقة، كيما يقف المسلمون على اليابسة في تعاملهم مع يهود في حالات الحرب والسلم ـ أن لو أُعيدوا إلى السِّلم ـ أود التذكير بكلام شيخ المفسرين الطبري حول قوله تعالى: ﴿ **أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ...** ﴾ الآية. قال ـ رحمه الله ـ: (وذلك إخبار من الله جل ثناؤه عن إقدامهم على البهت، ومناصبتهم العداوة له، ولرسوله ﷺ وأن بقاياهم ـ في مناصبة العداوة لله ولرسوله ﷺ بغياً وحسداً ـ على مثل الذي كان عليه أوائلهم في عصر موسى عليه الصلاة والسلام).

اللَّهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، وأنر بصائرنا كي لا نقعَ في شرك المخادعة، والتزوير، ولا تنطليَ علينا حيل المخادعين والمزورين؛ فإنه دائما: وراء الأكمة ما وراءها، ورحم الله شيخ المفسرين أبا جعفر، فقد قال ما قال استنباطاً من الآية الكريمة ـ وقد توفي سنة عشر وثلاثمائة للهجرة ـ فما بالك لو شهد ما نحن فيه اليوم!! إن في ذلك لعبرة لمن يخشى!! والحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه.

أيُّ نفاق وأيُّ مكر؟!

أسعدتنا من قريب، صحبة آيات كريمات من سورة البقرة، أيأسَ الله فيها المؤمنين، من أن يقف اليهود موقف التصديق والإيمان برسالة النبي محمد عليه الصلاة والسلام. كيف وهم أحفاد أولئك الذين قست قلوبهم، من بعد ما رأوا الآيات البينات، فهي كالحجارة أو أشد قسوة، وتراهم يترسَّمون خطاهم، ويسلكون نهجهم، في ارتياد مسالك الضلال والانحراف، وفي الوقت نفسه: يسمعون كلام الله، ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه، وهم يعلمون... ولا تسل عن نفاقهم؛ والنفاق شرٌّ كله، في كل زمان ومكان.

والآيات التي نعنيها، هي قول الله تبارك وتعالى، بدءاً من الآية الخامسة والسبعين في السورة المشار إليها: ﴿ **أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٧٦) أَوَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٧)** ﴾ [البقرة: ٧٥ - ٧٧].

ونحن الآن، على موعد لاصطحاب الآيتين الأخيرتين، بدءاً من قوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا...** ﴾ الآيتين؛ ذلك أن نفراً من اليهود لجؤوا في عدائهم لرسول الله وأصحابه، إلى هذا النوع من السلاح، وهو النفاق؛ فإذا لقوا محمداً عليه الصلاة والسلام، قالوا: آمنا بالذي

جئت به، وإذا لقوا أصحابه، قالوا: آمنا بما آمنتم به، وإن صاحبكم لصادق؛ روى الطبري بسنده عن ابن عباس – رضي الله عنهما –: ﴿ **وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ** ﴾ وذلك أن نفراً من اليهود كانوا إذا لقوا محمداً ﷺ قالوا: آمنا، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم. وفي رواية أخرىٰ عن ابن عباس أيضاً ﴿ **وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا** ﴾ يعني المنافقين من اليهود، كانوا إذا لقوا أصحاب محمد ﷺ قالوا: آمنا.

على أن رواية ثالثة، تكشف عن تعدد الوقائع في هذا الذي يفعلون، كما تكشف عن شيء من دخيلة أنفسهم فيما يقولون؛ إذ كان نفر منهم يقولون للصحابة ـ من يلقون منهم ـ: آمنا بصاحبكم، ولكنه إليكم خاصة؛ ذلكم ما جاء في رواية عن عكرمة أو عن سعيد ابن جبير ـ كما يقول الطبري ـ عن ابن عباس – رضي الله عنهما – ﴿ **وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا...** ﴾ أي بصاحبكم رسول الله ﷺ ولكنه إليكم خاصة.

وهكذا تدل الروايات في تفسير الآية الكريمة. أن ذلك خبر من الله جل شأنه عن الذين أيأس أصحابَ محمد ﷺ من إيمانهم من يهود بني إسرائيل، الذين هم أحفاد أولئك الذين قست قلوبهم، وران عليها الضلال، ولا يحيدون عن طريقهم قيد أنملة، والذين كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون... وليس ذلك فحسب، بل هم الذين ـ إذا لقوا الذين صدَّقوا بالله، وبمحمد عليه

الصلاة والسلام، وبما جاء به من عند الله ديناً قيماً للناس كافة ـ قالوا: آمنا، أي صدَّقنا بمحمد وبما صدَّقتم به وأقررنا بذلك. أخبر الله عز وجل عنهم أنهم تخلقوا بأخلاق المنافقين، لأن المد الإسلامي المبارك، حوَّل ميزان القوى، فلم يعد الأمر لصالحهم وفق مقاييسهم الآثمة، فلجأ فريق منهم إلى النفاق، وإن كانت بعض الروايات قد صرحت بأنهم كانوا يقولون للصحابة: آمنَّا بصاحبكم ولكنه إليكم خاصَّة.

غير أن هذا الذي كان يفعله المنافقون من اليهود، من التظاهر بالإيمان، لم يَرُقْ لرؤسائهم وأصحاب الكلمة فيهم، لما أن النطق بكلمة الإيمان: اعتراف بما جاء في التوراة من نعت محمد ﷺ، وأمرهم بالإيمان به حين يبعث؛ فإذا عرف المسلمون ذلك، احتجوا به عليهم، ولذلك كانوا يقولون لهم: أفلا تعقلون؟ فقد ورد عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿ وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أي تقرُّون بأنه النبي الذي كنا ننتظره ونجده في كتابنا، اجحدوه ولا تقرّوا لهم به، يقول الله تعالى: ﴿ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾؟ وقال الحسن البصري: (هؤلاء اليهود كانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قال بعضهم: لا تحدثوا أصحاب محمد ﷺ بما فتح عليكم في كتابكم ليحاجُّوكم عند ربكم فيخصموكم). وروي التصريح بنعت محمد ﷺ عن أبي العالية وقتادة في معنى ﴿ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ أي بما أنزل الله عليكم في كتابكم من نعت محمد ﷺ، فإنكم إذا فعلتم، ذلك احتجوا عليكم ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾.

وهكذا لم ينكروا عليهم النفاق لذاته، ولكنهم أنكروا أن يكون ذلك سبباً في إعطاء المسلمين ذريعة الاحتجاج عليهم، لأنه كشفٌ عما في كتابهم من نعت محمد ﷺ وأمرٌ لهم بالإيمان به حين يبعث. يؤكد ذلك ما ورد من أن النبي ﷺ قال لبني قريظة الذين نقضوا العهد وخانوا الأمانة: قال لهم ـ وقد قام تحت حصونهم ـ: «يا إخوان القردة والخنازير ويا عبدة الطاغوت» فقالوا: من أخبر بهذا الأمر محمداً؟ ما خرج هذا القول إلا منكم. القائلون هم سدنة الضلال فيهم، والمخاطبون هم أولئك الذين كانوا ينافقون.

ولكن يبدو أن مكر يهود، هداهم إلى أن يظل أمر النفاق سارياً لتحقيق أغراض؛ منها معرفة أخبار المسلمين وما يدور في المدينة، على أن تؤخذ الحيطة، ويعودَ هؤلاء المنافقون، فيصرحوا بالكفر لدى رؤسائهم وقومهم، وذلك عندما حدد النبي عليه الصلاة والسلام صفة من يسمح له بدخول المدينة، وأنه لا يجوز أن يدخلها إلا مؤمن. يوجهنا إلى ذلك، ما ورد عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، فيما رواه ابن وهب عنه في دلالة الآية الكريمة حيث قال: كانوا إذا سئلوا عن الشيء قالوا: أما تعلمون في التوراة كذا وكذا؟ قالوا: بلى! قال: وهم يهود، فيقول لهم رؤساؤهم الذين يرجعون إليهم: ما لكم تخبرونهم بالذي أنزل عليكم فيحاجوكم به عند ربكم؟ أفلا تعقلون؟ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخلَن علينا قصبة المدينة إلا مؤمن». فقال رؤساؤهم من أهل الكفر والنفاق: اذهبوا فقولوا: آمنا واكفروا إذا رجعتم. قال: فكانوا يأتون المدينة بالبُكَرِ ويرجعون إليهم بعد العصر، وقرأ قول الله: ﴿**وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ**

أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [آل عمران: ٧٢].

وكانوا يقولون إذا دخلوا المدينة: نحن مسلمون، ليعلموا خبر رسول الله ﷺ فإذا رجعوا، رجعوا إلى الكفر فلما أخبر الله نبيه ﷺ، قطع ذلك عنهم فلم يكونوا يدخلون. وكان المؤمنون الذين مع رسول الله ﷺ يظنون أنهم مؤمنون. فيقولون لهم: أليس قد قال الله لكم كذا وكذا؟ فيقولون: بلى. فإذا رجعوا إلى قومهم ـ يعني الرؤساء ـ قالوا ﴿**أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ...**﴾ الآية.

البُكَرَ: جمع بُكْرَة. جاء في «المصباح المنير»: البُكْرَةُ من الغداة: جمعها بُكَرٌ مثل غُرفةٍ وغُرَف.

أرأيت إلى هذه السمة من سمات اليهود؟ إذا قويت شوكتهم، لأسباب من هنا وهناك، كان منهم ما نرى وما نسمع في واقعنا اليوم. وإذا شعروا بالضعف، لجؤوا إلى أسلحة أخرى؛ من أبرزها النفاق، كما ظهر ذلك في عهد النبي ﷺ، وإن كانت يقظة المسلمين يومذاك، قد حالت دون تحقيق ما يريدون... ثم كانت الحرب العلنية، ونصر الله عباده المؤمنين عليهم إلى أن حُكم بجلائهم عن جزيرة العرب.

ألا إن آيات الكتاب الكريم، ونصوص السنة المطهرة والسيرة النبوية الكريمة، حافلة بأخبار هؤلاء المنافقين قساة القلوب، على الوجه الذي ينبغي أن يكون نبراساً في ترشيد العلاقة بهم، إيماناً صادقاً ويقظة لكل شاردة وواردة، وجهاداً في سبيل الله تتمثَّل فيه اللغة المناسبة التي لا

لغة سواها لنصرة الحق وأهله، على الباطل وسدنته ومظاهريه. وذلك ما تؤكده الوقائع يوماً بعد يوم.

والله المسؤول أن يزيل الغشاوة عن الأعين، ويردّ الأمة ردّاً جميلاً واعياً إلى ما جاء في كتابه الكريم، وسنة نبيه المصطفى ﷺ، وما نطقت به وقائع التاريخ ـ بدءاً من السيرة العطرة ـ حتى يوم الناس هذا.. وصدق ربنا جل شأنه إذ يقول: ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ** ﴿٦٩﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً

من خلال الكلمات القرآنية الهادية في شأن اليهود، وما ران على قلوبهم من القسوة، التي كان لها انعكاساتها على تصرفاتهم، حيث بات الانحراف الضالُّ في السلوك، وتحريف الكلم عن مواضعه، سمةً مميزة لهم ـ كل أولئك بعد الذي عاينوا من الآيات والمعجزات التي منها إحياء الموتى بإذن الله ـ. من خلال الكلمات الهاديات المباركات، يتبدى للناظر الفهِم: تحذير المؤمنين أن يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل، فطال عليهم الأمد، فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون كما جاء في سورة الحديد. كما يتبدىٰ له، تيئيس الله المؤمنين من أن يطمعوا في إيمان اليهود، بعد الذي بدا من قسوة قلوبهم، فهي كالحجارة أو أشد قسوة؛ وكان هذا الداء المردي من بعد ما ظهر لهم من الآيات التي لا تدع ريبة لسمتريب، في أن الله الذي بيده ملكوت السماوات والأرض، هو القاهر فوق عباده، وهو المحيي المميت، وأنه لا يُسأل عما يفعل وهم يُسالون.

وانضم إلى هذا، أنه كان فريق منهم يسمعون كلام الله، ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون. وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا: أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون. قال الله تعالى: ﴿**أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ** ﴿٧٧﴾﴾ [البقرة: ٧٧] وذلك ما رأيناه في سورة البقرة.

وليس بدعاً ـ والحديث عن القلوب القاسية عند يهود بني إسرائيل،

وما كشف الكتاب العزيز عن آثار ذلك في حياتهم وسلوكهم، وما كان من توجيه المسلمين إلى المنهج السليم الذي يضمن الذاتية وعدم تقليد أولئك المغضوب عليهم ـ. . ليس بدعاً أن يقودنا هذا الحديث إلى حقيقة أعلنها القرآن الكريم، وهي أن قسوة القلب: كانت مما عاقب الله به يهود بني إسرائيل، على نقضهم الميثاق الذي واثقوا الله عليه، وخيانتهم أمانة الدين التي اؤتمنوا عليها؛ ذلكم ما نجده في سورة المائدة من قول الله تبارك وتعالى في الآية الثانية عشرة منها: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾ [المائدة: ١٢] ثم قال جل شأنه: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [المائدة: ١٣].

هكذا أخبر الله عز شأنه عن بعض غدرات اليهود وخياناتهم، وجراءتهم على ربهم، ونقضهم ميثاقهم الذي واثقهم عليه بارئهُم، مع نِعَمِه التي أفاضها عليهم وخصهم بها، ومكارمه التي لم ينهدوا إلى شكرها.

لقد أخذ ميثاقهم، أن يكونوا على الصراط السوي؛ اتباعاً للدين، وعملاً بما جاءهم به رسلهم من عند الله، وبعث منهم اثني عشر نقيباً ـ

عرفاء على قبائلهم ـ بالمبايعة بالسمع والطاعة لله ولكتابه ولرسوله. ووعدهم بأن يكون معهم بالنصر والمعونة، إن هم استقاموا على الطريقة؛ إقامةً للصلاة وإيتاءً للزكاة، وتصديقاً للرسل فيما يجيئونهم به من الوحي، ونصرتَهم ومؤازرتهم على الحق، وإنفاقاً في سبيل الله ابتغاء مرضاته، وأنهم إن فعلوا ذلك، كان لهم حسن العاقبة من تكفير السيئات ودخول جنات تجري من تحتها الأنهار. ومن خالف هذا الميثاق بعد عقده وتوكيده، فسلك السبيل المعوجة، حتى كأنه ليس هنالك من ميثاق، فقد أخطأ الطريق الواضح وعدل عن الهدى إلى الضلال ورضي لنفسه العماية، بديلاً عن القلب المبصر، والنور المبين.

ولأمر ما، جاء ذلك كله مفصلاً في الآية التي أوردناها آنفاً مبدوءاً بالقسم فقال جل شأنه: ﴿ **وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا...** ﴾ وليس ذلك فحسب. بل جاء الترغيب العظيم بالعمل والاستقامة بهذا الوعد من الله، ولا يخلف الله وعده فقال سبحانه: ﴿ **إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ** ﴾.

سبحان الله أيُّ ترغيب هذا الذي نرى؟ وأيُّ وعد كريم من رب كريم، ما نقرأ؟ ولكن اليهود هم اليهود. ثم جاء الوعيد لمن كفر بعد ذلك، الأمر الذي يعطي صورة التكامل في منهج الهداية، فالبشارة لمن آمن واستقام، والنذارة لمن جحد، وتنكب طريق الاستقامة والهدى، ذلكم قوله تعالى: ﴿ **فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ** ﴾. قال الإمام الطبري في

تفسير ذلك: (يقول عز ذكره: فمن جحد منكم يا معشر بني إسرائيل، شيئاً مما أمر به، فتركه، أو ركب ما نهيته عنه، فعمله بعد أخْذي الميثاق عليه بالوفاء لي بطاعتي، واجتناب معصيتي: فقد ضل سواء السبيل. يقول: فقد أخطأ الطريق الواضح وزلَّ عن منهج السبيل القاصد) .

ولكن بني إسرائيل لم يحل دونهم، ودون أن يركبوا متن الضلال ويتخذوا سبيل الغيِّ سبيلاً، وعدٌ ولا وعيدٌ؛ فلا وعدُهم بكل ذلك الخير والمثوبة، بعد أخذ الميثاق، وبعثِ اثني عشر نقيباً، ولا وعيدُهم بأن نقضَ الميثاق والجنوح عن الهدى، ضلالٌ عن سواء السبيل: غيَّر من واقعهم النفسي أو السلوكي؛ فكان أن نقضوا الميثاق الذي أعطوا الله عهدهم عليه، وتعدُّوا حدود الدين، وجاهروا الله سبحانه بالعداوة، والمخالفةِ عن أمره. وبدل أن يطيعوا، ويفعلوا ما يقربهم إلى خالقهم، كانوا على النقيض من ذلك بإصرار مهين. من أجل ذلك، حق عليهم العقاب، فكان اللَّعن، وكانت قسوة القلب، وترتب على ذلك ما ترتب من أمور عظام؛ جاء ذلك صريحاً في الآية التي تلت؛ فبعد قوله سبحانه في ختام الآية السابعة: ﴿ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ نقرأ قوله جل وعلا: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

وأنت ترى، أن الكلام واضح في ترتيب المسبَّب على السبب، فبسبب نقضهم ميثاقهم: لعنهم الله، وأبعدهم عن رحمته، وجعل

قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه.. وهكذا ـ كما أشرنا في صدر هذا الحديث ـ كانت تلك القسوة في عداد ما عاقبهم الله به على نقضهم الميثاق، وهي قسوة رانت على قلوبهم، فأصبحت تلك القلوب ـ لغلظها وقساوتها ـ لا تتأثر بموعظة، ولا تتحرك لكلمة هدىً، بل يعبث أصحابها بكلام الله.

والذين لُعنوا، وجُعلت قلوبُهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه، هم أجداد أولئك الذين عانت منهم دعوة الإسلام ما عانت في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام وبعده، وعانى هو نفسه ـ فداه أبي وأمي ـ منهم ما الله به عليم. وما تزال أمتنا ـ كما ينطق الواقع المضني ـ تعاني منهم وممن يقع في حبائلهم.

ومن أسلحتهم على أرض الواقع: غفلة أو تغافل القادرين، عن الحقائق التي حملها الخبر الصادق إلى الأمة في شأنهم.

ولئن كانوا ـ وما يزالون ـ على السنن الذي أوضح الكتاب العزيز، وأكدته الوقائع في سيرة الرسول ﷺ، وما كان من شأنهم معه، ناهيك عن تحرك الأفعوان بسمومه عبر التاريخ... لئن كان الأمر كذلك: إنه لكبير حقاً: إعراض المسلمين عن الحق الصراح في منابع وجودهم الفكري والحضاري، وغفلتهم، أو تغافلهم عما يجب على وجه الحقيقة، وأن يؤخذوا بزخرف المصطلحات والمعايير التي تشم منها رائحة يهود..

ألا إن أخذ الحذر ـ كما أمر الله ـ واجب حتم، لا يماري فيه إلا من رانت الغفلة على قلبه، أو كان جاهلاً بأبجديات التاريخ.. ولله عاقبة الأمور.

يعبثون بكلام الله.. سابقهم ولاحقهم

من الحقائق التي أبرزها القرآن وكشف عنها بوضوح: حقيقة أن مرض القلوب الذي بات سمةً من سمات يهود بني إسرائيل، كان مما عاقبهم الله به على نقضهم الميثاق الذي واثقوا الله عليه، وهو أن يكونوا على الصراط السوي، عملاً بالدين، واستقامة على الطريق التي يقتضيها الإيمان. وذلك ما نجده في العديد من المواطن، ومنها ما جاء في سورة المائدة من قول الله جل وعز: ﴿ **وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ...** ﴾ الآية، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ **فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴾.

وأجدني مسوقاً إلى التذكير بما كان أن أشرت إليه من قبل، من أن الآية الثانية، وهي التي نصت على العقوبة، كشفت عن ترتيب المسبّب على السبب وذلك في قوله تعالى: ﴿ **فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ** ﴾ الآية. فبنقضهم ميثاقهم، أي: بسبب نقضهم ميثاقهم.. قال العلماء: وفي الكلام محذوف اكتفي بدلالة الظاهر عليه؛ وذلك أن معنى الكلام: فمن كفر بعد ذلك منكم، فقد ضل سواء السبيل، فنقضوا الميثاق، فلعنّاهم ﴿ **فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ** ﴾ فاكتفى بقوله: ﴿ **فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ** ﴾ من ذكر «فنقضوا» وهذا من بلاغة القرآن التي لا تجارىٰ.

وهكذا فإن الله ـ وهو الحكيم العليم ـ لم يظلمهم شيئاً، ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم، بنقضهم الميثاق، فحَلَّت عليهم اللعنة، وجعل الله قلوبهم قاسية بعيدة عن التوفيق، ليس فيها قطرة من ندى الخير، فلا تخشع لذكر الله، ولا تلين لموعظة، ولا تتأثر بكلمة من كلمات الحق.

هذا: وبسبب من قسوة تلك القلوب، هان على أصحابها أن يحرفوا الكلم عن مواضعه؛ فتراهم يغيِّرون ويبدلون، ويتأولون كلام الله على غير وجهه، كل أولئك من أجل أن يتخلوا عن مسؤولية الكلمة، ويُعفوا أنفسهم من العمل بما أنزل الله.

وليس ذلك فحسب، بل إن فريقاً منهم كانوا يكتبون بأيديهم غير الذي أنزل الله عز وجل على نبيهم، ثم يقولون للجهلة من الناس الذين لا يفرقون بين الحق والباطل: هذا كلام الله المنزل على موسى، والتوراة الموحىٰ بها إليه. ونقرأ في سورة البقرة وعيداً شديداً لهذا الصنف من اليهود، وذلك في قوله تعالى: ﴿ **فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ** (٧٩) ﴾ [البقرة: ٧٩].

وكما قلت ـ غير مرة ـ: لما كان الأبناء على نهج الآباء؛ قسوة قلب، واستشرافاً للضلال، وافتراء على الله، واحتيالاً على أوامره ونواهيه، راضين كلّ الرضى عن صنيعهم.. فكثيراً ما يجيء الخطاب للأبناء، باستنكار ما فعل الآباء والأجداد. وقد يجيء الكلام عن الآباء، كأنهم أتوا ما فعله الأبناء. ولنترك للإمام الطبري أن يكشف عن هذه الحقائق التي تدلّ

عليها تلكم الكلمات النورانية، وهي تتحدث عمن نقضوا الميثاق، فحلت عليهم اللعنة، وجعلت قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه، وضلوا سواء السبيل. قال – رحمه الله –: يقول عز وجل: (وجعلنا قلوب هؤلاء الذين نقضوا عهودنا من بني إسرائيل قاسية، منزوعاً منها الخير، مرفوعاً منها التوفيق، فلا يؤمنون ولا يهتدون. فهم لِنَزع الله عز وجل التوفيق من قلوبهم والإيمان، يحرفون كلام ربهم الذي أنزله على نبيهم موسى صلى الله عليه وسلم، وهو التوراة، فيبدلونه، ويكتبون بأيديهم غير الذي أنزله الله عز وجل على نبيهم، ثم يقولون لجهال الناس: هذا هو كلام الله الذي أنزله على نبيه موسى ﷺ والتوراة التي أوحاها إليه).

ثم أشار شيخ المفسرين إلى مخاطبة الأبناء بصنيع الآباء والكلام على الآباء، كأنهم أتوا ما أتى الآباء، لما أن المنهاج متحد في الكذب على الله، والجراءة على نقض المواثيق، وخيانة العهود، فقال – رحمه الله –: (وهذا من صفة القرون التي كانت بعد موسى من اليهود ممن أدرك بعضهم عصر نبينا محمد ﷺ. ولكن الله عز ذكره أدخلهم في عداد الذين ابتدأ الخبرَ عنهم ممن أدرك موسى منهم؛ إذ كانوا من أبنائهم، وعلى منهاجهم في الكذب على الله، والفرية عليه، ونقض المواثيق التي أخذها عليهم في التوراة).

ومما نجد في الآية الكريمة: أن تحريف الكلم عن مواضعه، ليس الموبقةَ الوحيدة التي اقترنت بقسوة القلوب عند القوم ـ والعياذ بالله ـ فنحن نقرأ فيها قول الله عز وجل شأنه: ﴿وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾. جاء ذلك بعد

قوله تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ﴾. والحظ هنا: النصيب، فقد روى الطبري عن السدي أنه قال: ﴿ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ يقول: تركوا نصيباً. والمعنى: تركوا أمر الله رغبة عنه، فتركهم الله؛ إنه تبارك وتعالى لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون. فهؤلاء اليهود: تركوا أمر الله إيّاهم بالإيمان والطاعة، مع قيام الأدلة ووضوح الآيات، فلم يفعلوا، فجازاهم الله بأن تركهم. روى أبو جعفر بسنده عن الحسن البصري – رحمه الله – عنه أنه قال: (تركوا عُرىٰ دينهم ووظائف الله تعالى التي لا يقبل العمل إلا بها. ووظائف الله هنا: فروضه التي ألزمها عباده في الإيمان به وطاعته وإخلاص النية له سبحانه). وإذا تصورنا القسوة التي رانت على قلوبهم، فجعلتها لا تخشع لذكر الله، ولا تستجيب لكلمة الله، وجدنا ذلك الذي حصل منهم ـ مما دل عليه قوله تعالى: ﴿ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ ـ امتداداً طبيعياً لتلك القسوة. نقل الحافظ ابن كثير – رحمه الله – عن بعضهم قوله في معنى هذه الكلمات المباركات: (تركوا العمل فصاروا إلى حالة رديئة، فلا قلوب سليمة، ولا فطر مستقيمة، ولا أعمال قويمة).

والحق أن الآية الكريمة، تذكرنا بما جاء في الآية السابعة والستين من سورة التوبة بشأن المنافقين حيث وصفوا ـ فيما وصفوا به ـ أنهم نسوا الله فنسيهم؛ ذلكم قول الله تبارك وتعالى: ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٦٧) ﴾ [التوبة: ٦٧]. أرأيت!! نسي المنافقون ذكر الله، فعاملهم معاملة من نسيَهم. وعند الكلام على المنافقين في سورة

المجادلة، نقرأ قول الله في الآية التاسعة عشرة: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [المجادلة: ١٩].

والجسور الظالمة ممتدة أبداً بين المنافقين واليهود عبر التاريخ، بدءاً من عصر النبي عليه الصلاة والسلام؛ فالقلوب قاسية جافة لا تخشع ولا تتعامل مع كلمة الخير، والانحراف متأصل في النفوس.

أما بعد: فإن الحقيقة الناطقة في السمات التي تطبع سلوك اليهود في الماضي والحاضر. هي ـ كما نرى ـ حقيقة قرآنية، لا يسع مؤمناً جهلها أو تجاهلها.

ولكم نكون منصفين مع تلك الحقيقة، ومع الصدق فيما يجب أن يكون عليه الموقف مع اليهود، ومن ينصر باطلهم... لكم نكون منصفين وقّافين عند حقنا الذي لا مرية فيه، إذا نحن اتخذنا من ذلك على وجه العموم، ومما تعطي المقدمات فيه من نتائج على وجه الخصوص، منهجاً مدروساً بعناية، ينير السبيل إلى تغيير الواقع الذي يغشىٰ بظلامه الأمة، وتجاوزه إلى واقع جديد، تعلو فيه كلمة الله ويفوز أهل الحق بالنصر والتمكين، ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾ [الروم: ٤، ٥].

ينسون ربّهم.. وينقضُون الميثاق

في عود على بدء، مع الحديث عن العقوبة التي عاقب الله بها يهود بني إسرائيل؛ على نقضهم الميثاق الذي واثقوا الله عليه، وانحرافهم عن الصراط السوي. . نتابع الرحلة المباركة، مع كلمات مباركات من سورة المائدة، جاءت في شأن هؤلاء القوم الذين لم يظلمهم الله، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون؛ ذلك بأنهم في مواقفهم من الدين الموحىٰ به من عند الله، يجنحون إلى خيانة العهد، ونقض الميثاق، ولا يعبؤون بوعد ولا وعيد، ولا يلتفتون إلى ما يريهم الله من الآيات الواضحات البينات، والعبرِ الناطقة بالحق، أن لو كانوا من أهل الاعتبار.

من أجل هذا: حلّت بهم النقمة، فجعل الله قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه، ونسوا حظاً مما ذكروا به، وكثيراً ما لجأ أحفادهم إلى خيانة رسول الله عليه الصلاة والسلام؛ فكان ذلك عنوان التطابق بين الأحفاد والأجداد؛ إذ الداء العضال واحد.

ولا تسل ـ وقسوة القلب تعمي البصيرة ـ عن جراءتهم على تحريف الكلم عن مواضعه، وتأوليه على غير وجهه، وهكذا فسدت فهومهم، وساء تصرفهم في آيات الله، وتأولوا كتابه على غير ما أنزله، وحملوه على غير مراده، وقالوا عليه ما لم يقل، بل عمدوا، إلى كتابة كلام من عندهم، وادعاء أنه من التوراة التي أنزلت على موسى عليه الصلاة والسلام.

وليس بدعاً من الانتفاع بالعبر والدروس، وربط النتائج بالمقدمات من

صنيع هؤلاء القوم، أن يقود الكلام على نسيانهم حظاً مما ذكروا به، إلى ما ذكر الله من شأن أحوال المنافقين في سورة التوبة من قوله سبحانه وتعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [التوبة: ٦٧]. الأمر الذي يدل على أن النسيان المشار إليه: خصلة بغيضة يشترك فيها اليهود والمنافقون؛ ففي شأن اليهود: نقرأ في سورة المائدة قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [المائدة: ١٣]. وفي شأن المنافقين: نقرأ هنا في سورة التوبة: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾. أي عاملهم معاملة من نسيهم كما في قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الأعراف: ٥١]. وقوله تعالى في سورة السجدة: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ [السجدة: ١٤]. وقوله في سورة الجاثية: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الجاثية: ٣٤]. وختمت الآية في سورة التوبة بقوله عز وجل: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾. أجل وبصيغة التأكيد: هم الفاسقون: أي الخارجون عن طريق الحق، الداخلون في طريق الضلالة... وما أكثر السمات الضالة التي تجمع دائما بين اليهودي والمنافق... والمهم أن يحذر المسلمون ويتنبهوا إلى هذه الحقيقة.

هذا وفي سورة طه: صورة تزيد الأمر وضوحاً في شأن نسيان الله وآياته ـ وهو خصلة من خصال اليهود والمنافقين ـ وتبعث في نفس المؤمن

الكثير من الخوف والرهب، من أن يجنح ـ لا سمح الله ـ عن الطريق السوي، ويقع فيما وقع فيه أولئك الجانحون الضائعون، من الإعراض عن ذكر الله: فتحقَّ عليه عقوبة ذلك، بأن ينساه الله من رحمته وعونه في الدنيا والآخرة. ذلكم قول الله تباركت أسماؤه: ﴿ **وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى ﴿١٢٦﴾ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴿١٢٧﴾** ﴾ [طه: ١٢٤ – ١٢٧].

هذا، وبالإضافة إلى النسيان الذي أومأنا إليه، دلت الآية الثالثة عشرة من سورة المائدة، أن اليهود ما يزالون يعاودون الخيانة لرسول الله ﷺ والمسلمين، فبعد قوله تعالى: ﴿ **فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ** ﴾. جاء قوله سبحانه خطاباً للنبي عليه الصلاة والسلام: ﴿ **وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ** ﴾. هكذا يخاطب الله صاحب الرسالة صلوات الله وسلامه عليه، مقرراً خصلة من خصال اليهود، ومحذراً المؤمنين، فيقول سبحانه: ولا تزال يا محمد تطلع من اليهود، الذين أنبأتك نبأهم من نقضهم ميثاقي ونكثهم عهدي، وانحرافهم عن الصراط السوي، مع الوعد والوعيد، ومع أياديَّ عندهم ونعمتي عليهم... لا تزال تطّلع على مثل ذلك من الغدر والخيانة والكذب والفجور، إلا قليلاً منهم؛ فالقليل منهم لم يخونوا، والأكثر يخونون، ويكذبون، ويفجرون.

والخائنة: الخيانة. وقد روى الإمام الطبري عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ قال: على خيانة وكذب وفجور، ويبدو أن المراد من الخيانة هنا، ما هموا به من الفتك بالرسول ﷺ - وإن كان اللفظ عاماً -، وقد حصل ذلك غير مرة. والهمُّ بالفتك بالرسول ﷺ من قبل اليهود أو غيرهم، هو ما أشارت إليه الآية الحادية عشرة من سورة المائدة: ذلكم قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ [المائدة: ١١]. فقد روى العوفي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في هذه الآية: «أن قوماً من اليهود صنعوا لرسول الله ﷺ ولأصحابه طعاماً ليقتلوهم، فأوحى الله إليه بشأنهم، فلم يأت الطعام، وأمر أصحابه فلم يأتوه» رواه ابن أبي حاتم. وجاء في «تفسير القرآن العظيم» عند الحافظ ابن كثير قوله: وقال أبو مالك: نزلت في كعب بن الأشرف وأصحابه حين أرادوا أن يغدروا بمحمد ﷺ في دار كعب بن الأشرف. رواه ابن أبي حاتم أيضاً، وكعب بن الأشرف من رؤوس اليهود - كما هو معلوم - وهذا ما نجده عند الطبري حيث روى بسنده عن أبي مالك في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ [المائدة: ١١]. قال: نزلت في كعب بن الأشرف وأصحابه حين أرادوا أن يغدروا برسول الله ﷺ. وذكر محمد بن إسحاق بن يسار ومجاهد وعكرمة وغير واحد، أنها نزلت في شأن بني النضير؛ حين أرادوا أن يلقوا على رأس رسول الله ﷺ الرحى، لما جاءهم يستعينهم في دية العامريين، ووكلوا عمرو بن جحش بن كعب

بذلك، وأمروه ـ إن جلس النبي ﷺ تحت الجدار، واجتمعوا عنده ـ أن يلقي تلك الرحى من فوقه، فأطلع الله النبي ﷺ على ما تمالؤوا عليه، فرجع إلى المدينة وتبعه أصحابه فأنزل الله هذه الآية. وقال مجاهد وغيره: يعني بذلك تمالؤهم على الفتك بالنبي ﷺ.

على هذا تكون الخيانة تمالؤ اليهود ـ قاتلهم الله وشركاءَهم في الإثم ـ على اغتيال النبي ﷺ ـ وإن تعددت الصور ـ إذ سمُّوه أيضاً؛ فالآية الكريمة، تدل على تعدد وقائع الخيانة بقوله تعالى: ﴿**وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ**﴾ [المائدة: ١٣]. على أن هنالك رواية أخرجها الحاكم في المستدرك وصححها عن جابر بن عبد الله – رضي الله عنهما –، تجعل سبب النزول قصة أعرابي يدعىٰ غوث بن الحارث، دفعه قوم من العرب إلى اغتيال الرسول عليه الصلاة والسلام، ومنع الله نبيه عليه الصلاة والسلام مما أراده ذلك الأعرابي، وفي القصة طول.

والله المسؤول أن يبصر الأمة بشأن أولئك العاتين عن أمر ربهم، الذين لا يؤمن لهم جانب، كيف وقد قال الله لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿**وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ...**﴾ والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

قضايا ثلاث

واليهود.. هم اليهود

كانت رحلة مباركة، تلك التي سعدنا من خلالها بصحبة عدد من آي الكتاب الحكيم، كان من مضموناتها: مجموعة قضايا بالغة الأهمية في حياة المسلمين، والحفاظ على وجودهم المتميز بالإسلام؛ عقيدة وشريعة وسلوكاً.. بعيداً عن تيه الضياع، والتقليد الأعمى لأولئك الذين أوتوا الكتاب من يهود ونصارى، فطال عليه الأمد، وجنحوا عن الصراط السوي، فقست قلوبهم وانقلبوا على أعقابهم، فكانوا من الخاسرين.

كان مبدأ الرحلة، تذكيرَ المؤمنين بالعمل أبداً، على أن تخشع قلوبهم لذكر الله، كيما ينعكس ذلك على الجوارح، فتكون الاستقامة والتوجه الصادق إلى الله، بتقواه وإخلاص العبودية له.. وتحذيرَهم من أن يصيبهم ما أصاب أولئك الذين أوتوا الكتاب من قبل، فطال عليهم الأمد، فقست قلوبهم؛ وقسوة القلب إيذان بالانحراف والضلال، وقلوب العباد بيد الله وهو سبحانه القادر على تليينها وعطفها إلى الحق، فهو الذي يحيي الأرض بعد موتها، وما على العباد إلا أن يصدُقوا في حسن التوجه إليه.

وهذا الذي أشير إليه ـ بخطوطه العامة ـ وقفتنا عليه آيتان كريمتان من سورة الحديد، هما قول الله تبارك وتعالى: ﴿**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ**

عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الحديد: ١٦، ١٧].

وعلى هدي الكلمة القرآنية المعطاء، قادنا الحديث عن هذه القضية، إلى أن يهود بني إسرائيل، قد رأوا من الآيات البينات والمعجزات الباهرات ما رأوا ـ ومنها إحياء الموتى بإذن الله ـ وبدل أن ترق قلوبهم وتنفسح لبشاشة الإيمان أن تخالطها، قست وجفّت؛ فهي كالحجارة أو أشد قسوة. ولما كان الأمر كذلك: كان الطمع في إيمانهم، موضع عتب على المسلمين. كيف وقد كان من آثار تلكم القسوة العمياء التي رانت على القلوب، أن فريقاً منهم كانوا يكتبون كلاماً من عندهم، ثم يزعمون للجهلة الذين لا يفرقون بين الحق ونقيضه: أن هذا الكلام كلام الله، وأنه التوراة التي أنزلها الله على موسى عليه الصلاة والسلام.

ولم يقتصر الأمر على هاتين الموبقتين.. بل هنالك النفاق الذي يقصد إلى تتبع ما يزعمون أنه ثغرات عند المسلمين، والاطلاع على أسرار المجتمع المسلم، ومحاولة العمل على خلخلة الصف، من طريق المكر والتزوير الفكري والدّس اليهودي الآثم، فإذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض، كان العتب والتأنيب، إذ يقول لهم زعماؤهم: ﴿ **أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ؟!** ﴾ [البقرة: ٧٦].

وكان مصدر العطاء لهذه القضية، التي نلمح إليها بخطوطها العريضة أيضاً، ما جاء في سورة البقرة بعد الكلام عن تعسف بني

إسرائيل، وتنطعهم في شأن البقرة التي أمروا بذبحها من قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [البقرة: ٧٢ – ٧٤]. هذا عن الشق الأول للقضية الثانية، أما عن الشق الثاني: فهاكم ما جاء بعد ذلك من الآيات التي تنبه وتحذر، وتأخذ بيد المسلمين إلى ساحة اليقظة التي تحول دونهم ودون أن يؤخذوا بظواهر الأمور بدلاً عن حقائقها، أو أن ينطلي عليهم النفاق وإظهار العدو غيرَ ما يبطن. كيما يكونوا قادرين بعد ذلك كله على الحكم الكلي؛ نتيجة الاستقراء المبصر للجزئيات والتصرفات.

والآيات التي هي مصدر العطاء لهذا الشق الثاني للقضية، والتي تلت ما أثبتناه قريباً، هي قول الله جلت قدرته: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [البقرة: ٧٥ – ٧٧].

أما القضية الثالثة التي كانت على طريق الرحلة: فهي ما أعلنته الكلمة القرآنية الهادفة بجلاء لا يحتمل اللبس، أن ما مُنيَ به يهود بني إسرائيل: من قسوة القلب وغلظ الأكباد ـ وقد جر ذلك عليهم من الوبال

ما جرّ، لما أنه كان طريقهم إلى العماية واستبدال الذي هو أدنىٰ بالذي هو خيرـ. . أن ما مُنوا به من ذلك كله، كان عقوبةً من الله لهم، انضمت إلى اللعن، وهو الطرد من رحمة الله، جزاء ما اجترحوا من نقض الميثاق الذي واثقوا الله عليه، فالقلوب القاسية لا تخشع لذكر الله وما نزل من الحق، ولا تتاثر بموعظة، ولا تستجيب لتذكير. . ومن هنا كان التمادي في الضلالة: معاداةً لرسول الله، ومظاهرةً للباطل على الحق، وتعدياً لحدود الله، وتراهم أبداً ـ كما هو واقع أجيالهم القديم منها والحديث ـ سادرين في الغي، وفي طغيانهم يعمهون، ومن مظاهر ذلك، أنهم يحرفون الكلم عن مواضعه، ونسوا حظاً مما ذكروا به، فعاقبهم الله بأن حجب عنهم رحمته ـ نسوا الله فنسيهم ـ كل هذا مع الخيانة الدائمة من أكثرهم للرسول عليه الصلاة والسلام.

وقبسُ الهداية لهذا الذي أومأتُ إليه واكتفيتُ بالإلماحة، تذكيراً بما سبق، كان مصدره ما جاء في سورة المائدة من قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٢) ﴾ [المائدة: ١٢]. ونقرأ بعد هذا في الآية التي تلي، قول الله عز وجل: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣) ﴾ [المائدة: ١٣].

تلكم هي القضايا الثلاث، والآيات الكريمات التي كانت دلالاتُها طريقَنا إلى تبَيُّنِها ـ والكلام على يهود بني إسرائيل ـ أردت أن أُذكِّر بها من طريق اللمحة العابرة، بعد أن عرضت لها مفرَّقةً في صفحات قريبات، وذلك بغية الحفاظ على التماسك بين تلكم القضايا قدر المستطاع.

ولعل من الخير، أن أجدد التذكير بما نجد في الكتاب والسنة، من خطاب اليهود في عصر النبي ﷺ، كأنهم هم الذين اقترفوا ما اقترف أجدادهم الأولون، بل وتوجيه الكلام أحياناً على أنه للآباء، مع أن الفاعلين هم الأحفاد، كما في قوله تعالى: ﴿ **وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ** ﴾ كل أولئك لأن النهج ـ كما أسلفت ـ واحد، والمنطلقات الفاسدة الضالة واحدة، ولأن المتأخرين راضون كل الرضى عما فعل سابقوهم من الآباء والأجداد.

وفي خطوة تصلنا بالواقع المعاصر: أليس في ذلك كله درس أيُّ درس لأمة الإسلام أن تضع نصب عينيها في تعاملها مع أعداء الله، ومن يظاهرهم على الباطل، تلك الحقيقة التي أعلنها كتاب الله وبيانه من سنة رسول الله: وهي أن اليهود هم اليهود مهما اختلفت الأزمنة وتعددت العناوين، وأن يكون ذلك باعث يقظة على ساحة الفكر والاقتناع؛ فالصهيونية مثلاً، مخلب أزرق من مخالب اليهود. والوقائع المتجددة كل يوم، أوضح دليل على ما نقول، ولن تغير الزخارف من الحقيقة شيئاً.

ولقد عني علماؤنا الأولون، أيَّما عناية بتبيان العلاقة المشار إليها بين الآيات، كيما يكون المسلمون أبداً على بينة من أمرهم؛ ها نحن نرى

الإمام الطبري ـ وهو يحاول ترجيح ما قال ابن عباس بأن المقصودَ بالميثاق في قوله تعالى خطاباً للمؤمنين: ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ ﴾ [المائدة: ٧]. العهدُ الذي عاهدهم به، حين بايعوا رسوله محمداً ﷺ على السمع والطاعة له في المنشط والمكره.. ها نحن نراه يعلل ذلك بقوله: لأن الله ـ جلَّ ثناؤه ـ ذكر بعقب تذكرة المؤمنين ميثاقَه الذي واثقهم به، ميثاقه الذي واثق به أهل التوراة ـ بعد ما أنزل كتابه على نبيه موسى عليه الصلاة والسلام، فيما أمرهم به ونهاهم فيها ـ فقال: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴾ [المائدة: ١٢]. الآيات بعدها، منبهاً بذلك أصحاب محمد رسول الله ﷺ على مواضع حظوظهم من الوفاء لله بما عاهدهم عليه، ومعرِّفَهم سوء عاقبة أهل الكتاب، في تضييعهم ما ضيعوا من ميثاقه الذي واثقهم به في أمره ونهيه، وتعزير أنبيائه ورسله، زاجراً لهم عن نكث عهودهم، فيُحِلَّ بهم ما أحلّ بالناكثين عهودَهم من أهل الكتاب قبلهم.

هذا: ومما يزيد الأمر توكيداً، أن الآية التي ذكَّرت المؤمنين بالميثاق والسمع والطاعة: ختمت بصورة من الوعيد، هو قوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ ﴾ [المائدة: ٧]. اتقوا الله أيها المؤمنون، فخافوه أن تبدِّلوا عهد الله وتنقضوا ميثاقه الذي واثقكم به، أو تخالفوا ما ضمنتم له بقولكم: سمعنا وأطعنا، بأن تضمروا له غير الوفاء بذلك في أنفسكم، اتقوا الله وخافوا أن تبدلوا أو تنقضوا؛ فإن الله مطلع على ضمائر صدوركم، وعالم بما تخفيه نفوسكم، لا يخفى عليه شيء من ذلك، فيُحلَّ بكم من عقوبته ما لا قبل لكم به، كالذي حلَّ بمن

قبلكم من اليهود؛ من اللعن والمسخ وصنوف النقمة، وتصيروا في معادكم إلى سخط الله وأليم عقابه.

ألا وإن خصوص السبب لا يمنع عموم اللفظ ـ عند الجمهور كما سبق ـ فأنت واجد ـ وأنت تتلو هذه الآيات ـ كأنها تتنزَّل غضة طرية اليوم، لتقول لأمة الإسلام محذرة منذرة: استيقظوا، تنبهوا.. إن الخطوة المتقدمة على طريق التمكين والنصر على أعداء الله وأعداء الحق، وإنقاذ الأقصى الذي بارك الله حوله، وكل أرض مغتصبة من أرض الإسلام... إن الخطوة المتقدمة على هذه الطريق ـ التي لها ما لها من التكاليف ـ تبدأ من تمثُّلٍ إيماني لهذه الحقائق وأمثالها، وتوظيف ذلك على صعيد الواقع العملي في ساحات المواجهة والتحدي ـ وما أكثرها وأوفر شعابها ـ والله المستعان.

والنّصارى.. شركاؤهم في الإثم

في متابعة لبعض ما جاء في الكتاب والسنة من توجيه المسلمين ـ وهم أصحاب الرسالة الخاتمة وأمة الشهادة على الناس ـ إلى أن يكون لهم وجودهم المتميز بارتباطهم بمنابع الهداية، وأن يأخذوا حذرهم أبداً من الغفلة عن بواطن الأمور، ومن الوقوع فيما وقع فيه أهل الكتاب الذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات، والذين أوتوا الكتاب فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون.

في متابعة لهذا الهدي الرباني: نحن على موعد، مع الإشارة إلى أن ما رأينا من الضلالة العمياء التي رانت على القلوب في يهود بني إسرائيل ـ وكانت عقوبة مضمومةً إلى لعنهم وطردهم من رحمة الله ـ جزاء ما اقترفوا من نقض الميثاق الذي عاهدوا الله عليه.. مرتبط ـ والله أعلم ـ تمام الارتباط بقضية التحذير الجازم، تحذير المسلمين من الانزلاق إلى أية مهواة انزلق إليها اليهود أو النصارى؛ فالمسلمون ملزمون بالوفاء بعهد الله وميثاقه، وأن يكونوا على الصراط السوي: نشداناً للحق، وإقامة للعدل، وإلا أصابهم ما أصاب أولئك المغضوب عليهم والضالين الذين نقضوا ميثاق الله الذي واثقهم به، فحلّ بهم ما حلّ من اللعن وقسوة القلب وغلظ الأكباد، فكان ذلك سداً منيعاً دونهم، ودون أن تنالهم رحمة الله في هذه الدار، أو في الدار الآخرة، يوم يقوم الناس لرب العالمين، وكفى بالله حسيباً.

وقد سُبقت الآيتان اللتان عرضتا للميثاق، ونقضه، وعقوبة يهود بني إسرائيل على ذلك النقيض، وهما الآية الثانية عشرة من سورة المائدة المبدوءة بقوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا...** ﴾ [المائدة: ١٢]. والآية الثالثة عشرة المبدوءة بقوله جل شأنه: ﴿ **فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً...** ﴾ [المائدة: ١٣]. سبقت الآيتان بتذكير المؤمنين بنعمة الله وميثاقه الذي واثقهم به، وأن تكون تقوى الله نصب أعينهم. وأمرهم بأن يكونوا قوامين لله شهداء بالقسط، وأن يدوروا مع الحق حيث دار، ويقيموا العدل دون تأثر بأي عارض مهما كان شأنه.

ولكن قبل الإتيان بالنص، أود التذكير بأن الحديث في الآيتين الماضيتين في شأن العهد ونقضه، لم يقتصر على يهود بني إسرائيل، بل امتد ذلك الحديث إلى النصارى ـ كما أشرنا إلى تلك الحقيقة المقررة بشأن الفريقين آنفاً ـ فبعد قوله تعالى في الآية الثالثة عشرة من سورة المائدة ـ والضمائر عائدة إلى يهود بني إسرائيل ـ: ﴿ **فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣)** ﴾ [المائدة: ١٣]. بعد هذه الآية الكريمة، نقرأ قول الله تباركت أسماؤه: ﴿ **وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١٤)** ﴾ [المائدة: ١٤].

هكذا ترى: بعد الحديث عن أولئك، يجيء قوله تعالى: ﴿ **وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى** ﴾ الآية. أي ومن الذين ادعوا لأنفسهم أنهم نصارى

متابعون المسيح ابن مريم عليه السلام ـ وليسوا كذلك ـ أخذنا عليهم العهود والمواثيق على متابعة الرسول ﷺ والوقوف عند الحق الذي جاء به، ومناصرته ومؤازرته، واقتفاء آثاره، وعلى الإيمان بكل نبي يرسله إلى أهل الأرض، ففعلوا كما فعل اليهود، فخالفوا عن أمر الله واستبدلوا الكفر ومناهضة الرسول عليه السلام، بالإيمان به ومتابعته ومناصرته، والسير وفق هديه، ولهذا قال تعالى: ﴿**فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ**﴾. ثم جاء التهديد والوعيد للنصارى، بما ارتكبوه من الكذب على الله ورسوله، وما نسبوه إلى الرب ـ عز وتقدس، وتعالى عن قولهم علوا كبيراً ـ فقال تعالى: ﴿**وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ**﴾. وسبحان الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

أما النص الذي ما بدٌّ من ذكره، وهو المتعلق بما يجب أن يكون عليه المسلمون، وتبدو العروة التي تربط بينه وبين ما كنا بصدده من الآيات قائمة ـ والله أعلم ـ على تنبيه المسلمين إلى ما يجب، ووضع أيديهم على مكامن الخطر التي أوقعت أولئك الكافرين فيما أوقعتهم فيه.. أما ذلك النص: فهو ما تطالعنا به تلكم الآيات التي تبدأ بالآية السابعة من السورة نفسها سورة المائدة، ذلكم قول الله تبارك وتعالى خطاباً للمؤمنين: ﴿**وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾**﴾ [المائدة: ٧، ٨]. وفي أعقاب ذلك، نقرأ

قوله جل شأنه: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [المائدة: ٩ - ١١].

يذكّر الله تعالى عباده المؤمنين، نعمتَه العظمىٰ عليهم، في شرعه لهم هذا الدين العظيم، وإرساله إليهم هذا الرسول الكريم الموحى إليه بالقرآن، وما أخذ عليهم من العهد والميثاق؛ في مبايعته على الاقتداء بهديه ومناصرته ومؤازرته، والقيام بأمور دينه الذي دعا إليه، وإبلاغه عنه وقبوله منه. وفي ذلك جاء قوله تعالى: ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾. والمقصود بالميثاق ـ كما روي عن ابن عباس والسدّي ـ ميثاق الله الذي واثق به المؤمنين من أصحاب الرسول ﷺ، وهو البيعة التي كانوا يبايعون عليها رسول الله ﷺ عند إسلامهم؛ كما قالوا: بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله. وقال الله جل شأنه: ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [الحديد: ٨]. وقيل: هذا تذكير لليهود بما أخذ عليهم من المواثيق والعهود في متابعة محمد ﷺ والانقياد لشرعه، روى ذلك علي بن طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقيل: الميثاق تذكار بما أخذ ربنا تبارك وتعالى من العهد على ذرية آدم حين استخرجهم من صلبه وأشهدهم على أنفسهم ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

وقد روي ذلك عن مجاهد ومقاتل بن حيان.

ورجح الإمام الطبري القول الأول، وهو التذكير بنعمة الهدى إلى الإسلامِ والبيعةِ التي كانوا يبايعون عليها رسول الله ﷺ . وإذن : فأوفوا لله أيها المؤمنون بميثاقه الذي واثقكم به، ونعمته التي أنعم عليكم، في ذلكم بإقراركم على أنفسكم بالسمع له والطاعة فيما أمركم به، وفيما نهاكم عنه، يوفِ لكم بما ضمن لكم الوفاء به ـ إذا أنتم وفيتم له بميثاقه ـ من إتمام نعمته عليكم، بالتمكين لكم في الأرض، ونصركم على عدو الله وعدوكم، وبإدخالكم جنتَه، وإنعامكم بالخلود في دار كرامته، وإنقاذكم من عقابه وأليم عذابه.

والذي دعا شيخ المفسرين إلى ترجيح القول المشار إليه، هو ما جاء بعد ذلك بشأن ميثاق الله الذي واثق به أهل التوراة؛ الأمر الذي يؤكد ما ذكرنا آنفاً عن العلاقة بين هذه الآيات وبين قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا . . .** ﴾ الآيات بعدها.. ولهذه المسألة مزيد بيان إن شاء الله.

احــذروا

مهلكات اليهود والنصارى

هذه متابعة للرحلة المباركة التي زانها النظر في مجموعة من الآي في سورة المائدة، تحمل ما تحمل من توجيه المسلمين إلى المنهج الأقوم، وتباعد بينهم وبين التقليد لأولئك اليهود الذين غضب الله عليهم، وكانوا من الخاسرين. فالمقطع الأول من تلكم الآيات ـ ويبدأ بالآية السابعة وينتهي بانتهاء الحادية عشرة: يخاطب المؤمنين بعدد من الأمور المهمة كان في مقدمتها: ما أمرهم به، من أن يذكروا نعمة الله عليهم، وميثاقه الذي واثقهم به، فبايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام، وفضله الذي عمهم به حيث قالوا: سمعنا وأطعنا، فلم يخونوا الأمانة، ولم ينكثوا العهد.. وأن عليهم أن يتقوا الله في كل شاردة وواردة، ومن ذلك: هذا الذي يذكرهم به، إن الله عليم بذات الصدور.

أما المقطع الثاني: فيبدأ بالآية الثانية عشرة وينتهي بانتهاء الرابعة عشرة، وقد تضمنت الآيات هنا ـ فيما تضمنته ـ تنديداً بما كان من بني إسرائيل، من مخالفة عن أمر الله، ونقض للميثاق الذي واثقوا الله عليه، بأن يكونوا على الطريق التي دعاهم إليها نبيهم الموحى إليه موسى عليه الصلاة والسلام.. وعندما وقعوا في هذه المهواة الضالة، أحلَّ الله به نقمته وغضبه، فطردهم من رحمته، وجعل قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه، ونسوا حظاً مما ذكروا به... وجاء أحفادهم ليؤكدوا حقيقة

انحرافهم، فسلكوا نهجهم الظالم المنحرف، وكانوا على رضىً تامٍ بسوء صنيعهم... وكان من شنيع فعالهم: أنهم لا يتوقفون ـ إلا قليلاً منهم ـ عن خيانة الرسول عليه الصلاة والسلام، فهو لا يزال يطلع على خائنة منهم بين الحين والحين.

والناظر في الآيات، بدءاً من الآية السابعة حتى ختام الآية الرابعة عشرة، وهو على ذكر من أن الآيات في المقطع الأول: جاءت تخاطب المؤمنين، وأن باقيَ الآيات جاءت تتحدث عن يهود بني إسرائيل، وصنيعهم كما عرضت في الآية الأخيرة للنصارى وصنيعهم... الناظر في الآيات متدبِّراً متبصِّراً، ما بدٌّ من أن يلاحظ العلاقة الواضحة، التي تقوم على تذكير المؤمنين وتنبيههم على عدد من القضايا ـ كما أسلفنا ـ وفي مقدمتها أن يذكروا نعمة الله وميثاقه الذي واثقهم به، إذ قالوا: سمعنا وأطعنا، لكيلا يقعوا فيما وقع فيه يهود بني إسرائيل، ومن يشاركهم الإثم، من نقض الميثاق مع الله وخيانة الأمانة، والإعراض عن الحق؛ الأمرُ الذي عاد عليهم بالنقمة والغضب، فقست قلوبهم وراحوا يعبثون بآيات الكتاب المنزل، ويحرفون الكلم عن مواضعه، فيؤولونه على غير وجهه، وقد يفترون على الله الكذب، بأن ينسُبوا إليه كلاماً قالوه هم من عند أنفسهم، ونسوا حظاً مما ذكروا به، وتراهم مقيمين مقعدين على طريق الخيانة للنبي ﷺ، ونكث العهد معه ـ إلا قليلاً منهم ـ على حينِ كان يعاملهم بالصدق والاستقامة والوضوح.

وقد آن لنا أن نورد الآيات التي نلمح إليها، سواء ما يتعلق بالمسلمين، وما يتعلق باليهود، كيما يزداد الأمر وضوحاً، ويتبيَّن للمسلم ـ وهو ينظر

فيها مجتمعةً ـ مدى دلالاتها على تحذير المسلمين من أي تهاون بالذاتية والأصالة، ودعوتهم إلى الارتباط الصادق بمنبع الهداية كما جاء بها النبي ﷺ، وأن يأخذوا حذرهم من أي لون من ألوان التقليد الأعمى؛ لأولئك المغضوب عليهم الذين استحوذ عليهم الشيطان، فكان انحرافهم سبباً للسخط وقسوة القلب والطرد من رحمة الله. وكان لذلك ما له من آثار سيئة وعقابيل، قال ربنا جل شأنه خطاباً للمؤمنين: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ [المائدة: ٧ ـ ١١].

ثم قال سبحانه وتعالى مبيناً ما صنع يهود بني إسرائيل ومن بعدهم الموالون المدّعون أنهم نصارى، وما حلّ بهم من النقمة، جزاء الانقلاب على الأعقاب، ونقض الميثاق، قال جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ

فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المائدة: ١٢ – ١٤].

لا تقولوا راعنا.. ماذا قبلها؟

يقودنا الحديث عن تنبيه القرآن المؤمنين على أن يأخذوا حذرهم ـ على كل صعيد ـ من أن يستحوذ عليهم الشيطان والهوى، فيقعوا فيما وقع فيه يهود بني إسرائيل ـ الأجداد منهم والأحفاد ـ من انحراف عن الصراط السوي فكراً وعملاً وسلوكاً.

يقودنا هذا الحديث ـ الذي يبدو محورَ الهداية في عدد من آيات سورة المائدة التي مرت بنا من قبل ـ إلى ما نجد في سورة البقرة من نهي صريح للمؤمنين في عهد النبي ﷺ، عن استخدام كلمة كان اليهود يستخدمونها ـ عند مخاطبة الرسول الكريم ـ مصطلحاً لهم، يريدون به أمراً سيئاً على غير ما يتبادر من ظاهر اللفظ؛ والكلمة هي قولهم: «راعنا» ونهي المسلمون عن استخدامها، والاستعاضة عنها بكلمة «انظرنا».

فإذا كان التحول عن الذاتية وأصالة التعبير، إلى التقليد حتى في المصطلح الذي اتخذه اليهود في خطابهم للنبي عليه الصلاة والسلام، يجابَه بالنهي الصريح، والأمر باستعمال البديل، فكيف بالتقليد الأعمى عندما يكون على صعيد المنهج في المعتقد، والعمل والسلوك، مما له تَعَلُّقٌ وصِلَةٌ بشيء من أمور العقيدة، أو الشريعة، أو الأخلاق؟؟. إنه الوجود الذاتي للأمة المسلمة التي لا يكون على الحقيقة، إلا مع الارتباط الواعي بأصول الهداية ومنابعها الخيِّرة، والإفادة من توجيهات القرآن والسنة

المطهرة، في شأن الموقف الذي يجب اتخاذه من اليهود والنصارى، بناء على ما يتصفون به من الخلائق التي تبدّت ملامحها معرّاةً دونما لبس أو احتمال، ولا تزال الوقائع تؤكد ذلك يوماً بعد يوم، الأمر الذي يزيد المؤمن يقيناً على يقين، بأن هذا القرآن كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأن محمداً ﷺ ـ وهو الصادق المصدوق ـ رسول من عند الله العليم الخبير، بل هو إمام وخاتم النبيين عليهم الصلاة والسلام.

والكلمات الهاديات التي نعنيها: هي ما جاء في الآية الرابعة بعد المائة من سورة البقرة المشار إليها.. من قول الله تبارك وتعالى خطاباً للمؤمنين: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ** (١٠٤) ﴾ [البقرة: ١٠٤] تلا ذلك قوله تعالى: ﴿ **مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** (١٠٥) ﴾ [البقرة: ١٠٥].

وقبل النظر في الآيتين الكريمتين، وتبيُّنِ ما لهما من دلالة على ساحة القضية التي نحوِّم حولها، وهي أن يكون المسلمون على اليابسة؛ استشعاراً لوجودهم الذاتي، وارتباطاً بما جاءهم عن الله وعن رسوله عليه الصلاة والسلام، بعيداً عن تقليد اليهود والانزلاق فيما انزلقوا فيه من ضلال وعدوان على الحق... قبل النظرة التي لا يحتمل أكثر منها المقام، أود الإشارة إلى أن هاتين الآيتين، سُبقتا بتعرية واضحة لموقف اليهود من الأنبياء، وكيف أنهم ناكثون للعهود أبداً، يعطون العهد اليوم، وينقضونه

غداً. يكفرون بمحمد خاتم النبيين ـ والفطرة السليمة تقضي بأن يصدقوا بما جاء به ويتبعوه. وكتابهم ـ لو صدقوا ـ يأمرهم بالإيمان به، بعد أن أوضح لهم صفاته وما به يعرفونه. وكان لأجدادهم ذلك الموقف المخزي، من سليمان عليه السلام، حيث اتهموه بالكفر، وولّوا ظهورهم للحقيقة، واستشرفوا للسحر والباطل، بل اتبعوا ذلك واستبدلوه بالحق والمنهج الرشيد، فكأن الحكمة في السياق القرآني هنا، توحي بأن هؤلاء اليهود ـ وهم على هذه الصفة ـ من سبق منهم ومن لحق ـ هم الذين ينهى الكتاب الكريم أمة الإسلام عن تقليدهم، وسلوك أي سبيل، قد تجر إلى منهجهم المعادي لله ولرسله وللمؤمنين.

هؤلاء نحن أولاء ـ بدءاً من الآية التاسعة والتسعين ـ نقرأ قول الله جل ذكره فيهم وفي عدوانهم على الحق، ومظاهرتهم الكفر على الإيمان:

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [البقرة: ٩٩ ـ ١٠٣].

هكذا يتصدّر هذه الآيات، ما يدل على أن كفر اليهود بمحمد ﷺ، كان كفراً في مواجهة الحق الذي له أدلته الواضحة، وبراهينه اليقينية في نفسه، وفيما بين أيديهم من كتاب، أن لو صدقوا مع الله ومع أنفسهم.
﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ والخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام، أي أنزلنا إليك يا محمد علامات واضحات دالات على نبوتك، وتلك الآيات هي ما حواه كتاب الله الذي أنزله إلى محمد ﷺ من خفايا علوم اليهود، ومكنون سرائر أخبارهم، وأخبار أوائلهم من بني إسرائيل، والنبأ عما تضمنته كتبهم التي لم يكن يعلمها إلا أحبارهم وعلماؤهم، وما حرَّفه أوائلهم وأواخرهم ـ كما يقول الإمام الطبري ـ وبدّلوه من أحكامهم التي كانت في التوراة، فأطلعها الله في كتابه الذي أنزله على نبيه محمد ﷺ، فكان في ذلك من أمره، الآيات البينات لمن أنصف نفسه، ولم يدْعه إلى إهلاكها الحسد والبغي.

وبصرف النظر عما بين أيديهم من صفات محمد ﷺ، يجد العاقل أن الإيمان بما جاء به رسول الله ﷺ ـ وقد قام الدليل ووضحت الحجة ـ هو ما تدعو إليه الفطرة السليمة ـ كما ذكرت آنفاً ـ. يقول شيخ المفسرين ـ رحمه الله ـ: (إذ كان في فطرة كل ذي فطرة صحيحة تصديق من أتى بمثل الذي أتى به محمد ﷺ من الآيات البينات التي وصفت، من غير تعلم من بشر، ولا أخذ شيء منه عن آدمي).

ولكن اليهود ـ وقد رانت على قلوبهم ظلمة الحسد والبغي ـ ما كانوا يلقون بالاً لواحدةٍ من تلكم العلامات الدالات على نبوة محمد

عليه الصلاة والسلام، ولا يعيرون سمعاً لأية كلمة من كلمات الحق.
أخرج الإمام الطبري بسنده عن ابن عباس – رضي الله عنهما – في معنى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ يقول: «فأنت تتلوه عليهم وتخبرهم به غُدوة وعشية، وبين ذلك، وأنت عندهم أمي لم تقرأ كتاباً، وأنت تخبرهم بما في أيديهم على وجهه.

يقول الله: ففي ذلك لهم عبرة وبيان، وعليهم حجة لو كانوا يعلمون، ولكن الذي كان منهم، هو الجحود المطلق: الجحود الذي يكشف عنه ما روي عن ابن عباس أيضاً أنه قال: قال ابن صوريا الفطيوني لرسول الله ﷺ: يا محمد ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل عليك من آية بينة فنتبعك بها، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ﴾. أجل وما يكفر بتلك الآيات الدالة على صدق نبوة محمد ﷺ وما يجحد بها، إلا الخارجون عن دائرة الحق، التاركون لما فرض الله عليهم، من الإيمان بتلك الآيات البينات.

اللَّهم اهدنا سواء السبيل، وأنر بصائرنا، لنكون أشد تمسكاً بالحق الذي نزل به كتابك في شأن أولئك المغضوب عليهم، عسى أن نتجاوز الواقع الأليم، إلى واقع يحمل بشائر النصر والتمكين. وأنت ـ جل ثناؤك ـ المحمود على كل حال.

الذاتية.. والالتزام الدقيق

الحديث موصول بما جاء في القرآن الكريم، على ساحة الهداية، في شأن الابتعاد عن تقليد اليهود في أقوالهم وأفعالهم، والحذر من الوقوع في أحابيلهم الماكرة؛ كالذي نرىٰ في سورة البقرة بدءاً من الآية الرابعة بعد المائة من قول الله جلّ وعز: خطاباً للمؤمنين: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾**﴾ [البقرة: ١٠٤ ـ ١٠٥].

ونحن اليوم، على موعد مع اصطحاب الآيتين الكريمتين، لنبين ـ قدر المستطاع ـ مواطن الهداية في دلالتهما على الطريق، التي على المسلمين أن يسلكوها، كيما يكون لهم التميُّز الواضح، بتطويع السلوك لمنهج الإسلام، وأن لا يقعوا فريسة التقليد الأعمى، والتشبه بالمغضوب عليهم أو الضالين ولو بالكلمة يقولونها، والمصطلح الذي يخفي وراءه ما يخفي عندهم.

ولعل من الخير أن نبادر إلى القول: بأن الروايات في أسباب النزول، تدل على أن المؤمنين قد نهوا عن أن يقولوا: «راعنا» في خطابهم للنبي عليه الصلاة والسلام.

ولكن ما هو السبب الذي من أجله، نهىٰ الله المؤمنين أن يقولوا في

خطابهم لصاحب الرسالة صلوات الله وسلامه عليه: «راعنا»؟ هنالك عدد من الروايات يأتي في مقدمتها: أن هذه الكلمة كلمةَ «راعنا» كانت مصطلحاً لليهود، يقولونها على وجه الاستهزاء والمسبَّة، ذلك أنهم كانوا يختارون من الكلام ما فيه تورية لما يقصدونه من التنقيص استهزاءً وسخرية ـ عليهم لعائن الله ـ فإذا أرادوا أن يقولوا: اسمع لنا قالوا: «راعنا»، ويورُّون بالرعونة والرعونة أمر غير محمود، أو يقصدون دلالتها في لغتهم؛ حيث قيل. إن المعنى عندهم: (اسمع لا سمعت)، وكل أولئك من الخبث المتأصل في النفوس، والحقد الذي يدفعهم، حتى إلى العبث بالألفاظ، واتخاذها مصطلحاً بائراً يروون به غليلهم وحقدهم الدفين، فتراهم يظهرون أنهم يريدون المعنى العربي، مبطنين ما يقصدون من الاستهزاء والشتم الذي هو معنى اللفظة في لسانهم، مستعينين بالتورية عما يريدون. من أجل ذلك جاء النهي الصريح للمؤمنين عن أن يقولوا: «راعنا» وأن يقولوا بدلاً عنها في خطابهم للنبي عليه الصلاة والسلام: «انظرنا».

أخرج الطبري بسنده عن قتادة أنه قال: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا** ﴾ قولٌ كانت تقوله اليهود استهزاءً، فزجر الله المؤمنين أن يقولوا كقولهم. كما أخرج عن عطية: «لا تقولوا راعنا» قال: كان أناس من اليهود يقولون: أرعنا سمعك، حتى قالها أناس من المسلمين، فكره الله لهم ما قالت اليهود فقال: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا** ﴾ كما قالت اليهود.

وفي رواية أخرىٰ عن قتادة أنه قال في معنى الآية: كانوا يقولون راعنا سمعك، فكان اليهود يأتون فيقولون مثل ذلك مستهزئين، فقال الله: ﴿ **لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا** ﴾.

ولئن كانت هذ الروايات، تشير بأصبع الاتهام إلى اليهود ـ عموماً ـ إن هنالك رواية تصرح بأن الكلمة المشار إليها كانت كلام يهودي بعينه، يقال له: رفاعة بن زيد، كان يكلم النبي ﷺ على وجه السبِّ، وكان المسلمون أخذوا ذلك عنه بحسب ما يعطيه ظاهر اللفظ، فجاء التنبيه والزجر، ونهوا عن قيل تلك الكلمة للنبي ﷺ. هذه الرواية نقع عليها عند شيخ المفسرين – رحمه الله – منسوبة إلى السدّي حيث روى عنه بسنده أنه قال: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا** ﴾. كان رجل من اليهود ـ من قبيلة من اليهود ـ يقال لهم: «بنو قينقاع» كان يدعى رفاعة بن زيد بن التابوت، كان يأتي النبي ﷺ، فإذا لقيه فكلّمه قال: أرعني سمعك واسمع غير مُسْمَع، فكان المسلمون يحسبون أن الأنبياء كانت تفَخَّم بهذا، فكان ناس منهم يقولون: اسمع غير مُسمَع كقولك: اسمع غير صاغر وهي التي في النساء: ﴿ **مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ** ﴾ [النساء: ٤٦]. يقول: إنما يريد بقوله: طعناً في الدين، ثم تقدم إلى المؤمنين ـ أي أمرهم ـ فقال: ﴿ **لا تَقُولُوا رَاعِنَا** ﴾.

والناظر في هذه الرواية التي تدل على أن فرداً من اليهود، كان يفعل تلك المساءة، مع الروايات الأُخر التي تدل على أنهم ـ بعمومهم ـ كانوا

يفعلون ذلك، لا يجد تعارضاً بينها، لما أن من الممكن أن يكون ذلك الكافر الضُلّيل، قد بدأ ذلك، وتبعه الآخرون، أو أن له ميزة خاصة في القدرة على إظهار غير ما يبطن؛ فكان أن أُفرد بالرواية عنه.

ومهما يكن من أمر: فإنه على تعدد المرويات في سبب النزول، يقودنا النظر في الآيات المتعلقة بذلك ـ ومنها ما جاء في سورة النساء، كما رأينا من قريب ـ إلى أن فعلة اليهود ـ والله أعلم ـ هي المحور في الموضوع؛ وهو ما أشرنا إليه في صدر هذا الكلام، من أن الروايات في سبب النزول، يأتي في مقدمتها: أن كلمة «راعنا» كانت مصطلحاً سيئاً لليهود في خطابهم للنبي ﷺ، ينطقون به، ويورُّون عما في دخيلة نفوسهم من الانتقاص والاستهزاء.

والملاحظ أن قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ يأتي له مزيد من البيان في سورة النساء، يوضح بأن اليهود هم أصحاب المصطلح في الكلمة التي نهي المؤمنون أن يقولوها في خطابهم للنبي عليه الصلاة والسلام، والذي نعنيه من سورة النساء الآية السادسة والأربعون؛ وقد ورد أكثرها في رواية السدي من قريب، ذلكم قول الله تبارك وتعالى: ﴿ **مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (٤٦)** ﴾ [النساء: ٤٦].

فهذه الآية الكريمة واضحة الدلالة بالنص الصريح، على أن اليهود يصدر عنهم ذميم الفعل والقول، لأن كلمة «من» هنا في قوله تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ لبيان الجنس كقوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠]، فهم يحرفون الكلم عن مواضعه؛ يتأولونه على غير تأويله، ويفترون على الله، فيفسرونه بغير مراده عز وجل، فيقولون للنبي ﷺ: سمعنا ما قلته يا محمد ولا نطيعك فيه، واسمع غير مسمع وراعنا؛ أي اسمع لا سمعت؛ هكذا يقولون، ـ عليهم غضب الله ولعناته ـ يقولون ذلك ليّاً بألسنتهم وطعناً في الدين، يعني بسبِّهم النبي ﷺ ـ فداه أبي وأمي وبعثه المقام المحمود في الآخرين ـ.

وهكذا تبدو العلاقة بين ما جاء في سورة البقرة، وبين ما جاء في سورة النساء، والقرآن يُفسِّر بعضه بعضاً؛ فما جاء مجملاً في سورة البقرة بقوله تعالى: ﴿لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا﴾ جاء صريحُ بيانه في سورة النساء، وأن اليهود هم الذين كانوا يلوون ألسنتهم بقالة السوء ـ مع نفاقهم ـ طعناً في الدين وانتقاصاً من صاحب الرسالة، ومزاولةً لحرب شرسة غيرِ معلنة، ولكن الوحيَ كان لهم بالمرصاد، فتنزلت الآيات البينات، تكشف عن خبيئة تلك النفوس، التي أنهكها المكر وحب الفساد والإفساد. وحملت الكلمة الهادية نهيَ المؤمنين عن تقليدهم فيما يقولون، وأن يكونوا متبصرين يقظين ـ حتى في الكلمة ينطقون بها ـ ولذلك ماله من الآثار الطيبة، على صعيد ما يراد للأمة من الذاتية المستنيرة، والالتزام الإيمانيِّ الدقيق.

ليّاً بِألْسِنَتِهِمْ.. وَطَعْنًا فِي الدِّينِ

كان من فضل الله على أمة الإسلام، أن وجهها من بداية الطريق إلى ما به يكون وجودها الذاتي المتميز، كيما تكون أبداً ـ وهي تنقاد لأحكام دينها القويم وتحتكم إلى المنهج الرباني ـ في موقف العطاء والتأثير، لا في موقف التقليد والتأثر غير المحمود.

وهذا الوجود المتميز، ليس جاهلية ولا تعالياً أجوف، ولكنه ثمرة خيِّرة من ثمرات الهداية التي جاء بها محمد عليه الصلاة والسلام عن ربه عز وجل، ودُعوا هم ـ بحكم إيمانهم بها وكونها رسالة للعالمين ـ أن يبلغوها الناس، فيحملوا إليهم عطاءها، ويكونوا الأسوة العملية الصالحة، لمن يدعونهم إليها، ويحملون إليهم ذلك العطاء.

ومن خلال هذه المقولة الدقيقة: يتبدى كمال الاتساق بينها، وبين ما درج عليه القرآن الكريم، كيف أنه كان لا يني ينبه المسلمين على أن يكونوا أبداً على النبع الأصيل، نوراً وهداية في كتاب ربهم وسنة نبيهم عليه الصلاة والسلام.... وأن يحذروا أيةَ بادرة من بوادر التقليد الأعمى، لمن ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، أو الغفلة عن أضاليلهم المزخرفة ـ وبخاصة اليهود الذين غضب الله عليهم، وجعل منهم القردة والخنازير، والذين بسببٍ من نقضهم المواثيق مع الله ورسوله، وانحرافهم العمدي عن جادة الحق، وعبثهم العابث بكلام

الله، حيث تأويله على غير وجهه وتحريفُه عن مواضعه ـ حكم الله عليهم باللعن والطرد من رحمته سبحانه وتعالى.

ومن الآيات التي أضاءت سبيل هذه القضية الكبرىٰ في حياة المسلمين، وهم يجاهدون في شتى الميادين لبناء المجتمع المسلم.. ما جاء في سورة البقرة من نهي المؤمنين عن أن يقولوا في خطابهم للنبي ﷺ: «راعنا»، لما أن اليهود كانوا ينطقون بها، ولا يريدون ما يدل عليه ظاهر لفظها، ولكن يريدون معنى سيئاً يبطنونه، يحمل الانتقاص والاستهزاء، وهم يخاطبون من جحدوا نبوته وحقدوا عليه، محمداً عليه الصلاة والسلام.

وما نعنيه هنا في هذا الإطار هو قول الله تبارك وتعالى في الآية الرابعة بعد المائة من سورة البقرة: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ وما بعدها.

وقد أوردت الروايات التي تدل على أن نهي المؤمنين عن أن يقولوا في خطابهم للنبي عليه الصلاة والسلام: «راعنا» إنما كان بسبب استخدام اليهود للكلمة مصطلحاً سيئاً، يتصل بدخيلة نفوسهم، وما تنطوي عليه من الحقد والمكر، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله.

وآكد من هذا في الدلالة على أن اليهود حقاً، هم الذين كانوا يعمدون إلى تلك التورية بالكلمة، فيظهرون أنهم يريدون معناها العربي، مبطنين دلالتها السيئة في لغتهم، وما به يروون تعطشهم الدائم إلى أذى النبي عليه الصلاة والسلام والمسلمين، ولو بالكلمة يقولونها، والمصطلح يستخدمونه على وجه الباطنية، والخبث...

آكـد من هذا: مـا جـاء في سـورة النسـاء من التـصـريح بأنهم هـم أصحاب تلك الفعلة الخبيثة، إذ جاء ذكر ذلك، ضمن عدد من خصالهم الذميمة التي كشف عنها القرآن الكريم، كيما يكون المسلمون – وهم يحملون رسالة الهداية للناس أجمعين، ويخوضون معارك التحدي – على بينة من أمرهم ويأخذوا حذرهم ذلكم قول الله العليم الخبير: ﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ... ﴾ الآية..

فأنت ترىٰ أن هذه الخلال الآثيمة جميعها، قد اجتمعت لهم بلا استثناء، فهم يحرفون الكلم عن مواضعه، ويقولون للنبي عليه الصلاة والسلام، دونما ذرة من الحياء: سمعنا ما قلته يا محمد ونحن عاصون لا نطيعك فيه، وهذا أبلغ في كفرهم وعنادهم، إذ إن السماع هنا سماعُ علم وإدراكٍ؛ فهم يقولون عن كتاب الله من بعد ما عقلوه وهم يعلمون، ما جرَّ عليهم في ذلك من الإثم والعقوبة، كما جاء التصريح بذلك في آيات أخر؛ منها قوله تعالى خطاباً للمؤمنين بشأن اليهود:

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [البقرة: ٧٥].

وليس ذلك فحسب: فهم يقولون له صلوات الله وسلامه عليه: «واسمع غير مسمع» قال ابن عباس: أي اسمع ما نقول لا سمعت، وهو ما رجحه الإمام الطبري على ما روي عن مجاهد والحسن، وجنح إليه الحافظ ابن كثير من أن المعنى: «واسمع غير مقبول منك» قال الحافظ ابن

كثير: وهذا استهزاء منهم واستهتار، عليهم لعنة الله. ويقولون كذلك: «راعنا» يقولونها لياً بألسنتهم وطعناً في الدين، وهنا يكشف القرآن خبيئتهم، فهم يقولونها، ليّاً بألسنتهم وطعناً في الدين، إنهم لا يريدون ظاهر الكلمة، بل يوهمون أنهم يقولون أرعنا سمعك بقولهم «راعنا» والذي يريدونه على الحقيقة الرعونة أو معنىً آخر في لغتهم، ولهذا قال سبحانه عن هؤلاء المغضوب عليهم، الذين يريدون بكلامهم خلاف ما يظهرونه: ﴿ لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾ يعني بسبهم النبي ﷺ.

وهكذا تتبدى العلاقة ـ كما ذكرتُ آنفاً ضمن المنهج الرباني المتكامل، بين ما جاء في سورة البقرة، من نهي المؤمنين عن قول «راعنا» وبين ما جاء في سورة النساء، بأن الذين كانوا يلوون ألسنتهم بهذه الكلمة، هم اليهود، وأن على المسلمين ـ وقد أراد الله لهم أن يكونوا مصدر العطاء والتأثير على ساحة الهداية والحق ـ أن يكون لهم وجودهم المتميز بالإسلام، وأن يربؤوا بأنفسهم عن تقليد من يظهرون غير ما يبطنون، لياً بألسنتهم وطعناً في الدين، أو أن يغفلوا عن تلك الحرب غير المعلنة، المصحوبة بالنفاق والتمويه.

ومما يجب أن يستوقف المؤمن ـ وهو يعمل على الإفادة من هدي الكتاب الكريم ـ أن الآية الكريمة، لم تقتصر على نهي المؤمنين عن أن يقولوا: راعنا، ولكنها قدمت البديل، وكان البديل أن يقولوا: «انظرنا» ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا﴾ أرأيت!! إنه الدرس العظيم على طريق الدعوة أن يقدم البديل الطيب عن الأمر المطلوب تركه، وإلا كان الضياع وكانت

الفوضى. وختمت الآية بقوله تعالى: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. أي وللكافرين بي وبرسولي ـ والذين يحملهم جحودهم، على الأقوال والأفعال التي تنمُّ عن مدى الحقد والكراهية للإسلام ونبي الإسلام صلوات الله وسلامه عليه ـ العذاب الشديد الموجع.

ولكم يشفي نفسَ المؤمن، أن يرى الأمة، وقد تنبهت من رقادها، فاتخذت من هذه الآية ونظائرها في كتاب الله ـ والكتاب كله هداية ونور ـ نبراساً يضيء طريقها في مواجهة التحديات التي يشهرها اليهود وأعوانهم صباح مساء، أو يخفونها تحت ستار من المخادعة والمكر. إنها إن فعلت ذلك: سلمت لها ـ بعون الله ـ منطلقات المواجهة، وأمنت ـ بفضله سبحانه ـ مكر الليل والنهار من قبل أعداء تتلون عناوينهم، وتتعدد ميادين ما يبيتون من الأذى ـ دونما إخلال باتباع سنن الله في عمارة الأرض، وبناء الحضارة السليمة القويمة، امتداداً لما كانت عليه الحال أيام النصر والتمكين، والله محيط بالكافرين.

وَاسْمَعُوا.. وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ

من إعجاز الكتاب الكريم ـ وما أصدق إعجازه وأكمله ـ ما يرى من تكامل المنهج الرباني في تربية الأمة المسلمة، وتنبيهها على ما فيه سلامة الوجهة في أداء رسالتها، والحذر مما يقوم في وجهها من المعوقات. ومن ذلك: الكشف عن خبيئة يهود أيام التنزيل، في عصر النبي عليه الصلاة والسلام، وهم الذين كانوا في ضواحي المدينة وفي خيبر، يكفرون، وينافقون إذا لزم الأمر، ولا يدعون باباً من أبواب الأذى إلا ولجوه، وقد رأينا من قبل ما هتكت الآيات في سورتي البقرة والنساء، من مكرهم، وما كشفت عن حقيقة ما يقصدون في قولهم لرسوله ﷺ: «راعنا» وكيف أمر المسلمون أن لا يخاطبوا رسولهم بهذه الكلمة، وأن يقولوا بدلاً عنها «انظرنا».

والحق أن في هذا التوجيه الرباني الكريم ﴿لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا﴾ قطعاً لدابر التقليد لأولئك المغضوب عليهم، قطعاً يمتد إلى كل تقليد يخالف عن الصراط السوي، وينير للأمة سبيل التحرك الإيجابي في تقويم البيدل الصالح عن المحظور الفاسد؛ وهكذا نجد ـ مع النهي عن تلك الكلمة غير المرضية، لما تحمل من عفن فكري أرادته يهود ـ الأمر بما هو بديل طيب عنها.

وإنه لدرس عميق الدلالة في حركة الحياة، يحسن أن يدرك أبعادَه دعاةُ الإسلام، ويعملوا له، وذلك بأن يجدُّوا ويجتهدوا في تقديم البديل

الصالح، لما يدعون إلى تركه والتخلي عنه، سيراً مع أحكام الشريعة الغراء.

وهكذا تكون الكلمات المشرقة بالهداية ـ والقرآن كله نور وهدى ـ نبراساً في الحذر كل الحذر، من تقليد اليهود فيما هدفوا من ورائه، إلى الأذى بالكلمة ومدلولها الخبيث، وفي الحذر كل الحذر، من أي لون من ألوان التقليد المتّسم بالانحراف عن سبيل الهدى، وأن يكون الدعاة ـ وهم يقومون بواجب الدعوة إلى الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» والأخذ بمقتضاها ظاهراً وباطناً، وإلى تحكيم شريعة الله في شؤون الفرد والمجتمع والأمة ـ. أن يكونوا ـ وهم يقومون بهذا الواجب المبارك الميمون ـ على وعي تام بأن حركة الحياة التي لا تتوقف، توجب أن يكونوا على علم بالواقع ومعطيات التاريخ، وما به من قوام الفرد والجماعة على الصعيد الإنساني... الأمر الذي يوجب ـ ما أمكن ـ حرصاً واعياً متنامياً على تقديم الحلول، لما يرى أنه مشكلات على طريق التحويل، الذي يرضى عنه الإسلام النابع من الأصول في كتاب الله وسنة رسوله، وفهوم أئمة الهدى الذين جمعوا إلى العلم، أمانة العمل وصدق الوجهة، في ابتغاء مرضاة الله عز وجل.

وقل مثل ذلك: فيما يجب لمواجهة القضايا الطارئة التي يفرزها التطور العملي في حياة الناس... والإسلام كفيل بذلك والحمد لله.

وبهذا ينتفي عن هؤلاء الدعاة، أن يكون عملهم أشبهَ بالدعوة إلى العزلة عن المجتمع، وعدمِ المتابعة لحركة الحياة.

هذا: ومعنى «انظرنا» وهي الكلمة التي أرادها الله عوضاً للمسلمين عن كلمة «راعنا» وهم يخاطبون رسول الله عليه الصلاة والسلام، وهو معلمهم وإمامهم وهاديهم إلى الحق... معنى «انظرنا» فهِّمنا، بيِّن لنا يا رسول الله وزدنا إيضاحاً لما تقول لنا وتعلمنا. فكأن الله تعالى يقول: وقولوا أيها المؤمنون لنبيكم ﷺ: انظرنا وارقبنا، نفهم ونتبين ما تقول لنا وتعلمنا. وهذا المعنى المشار إليه أخرجه الطبري في أكثر من رواية عن مجاهد إذ يقول – رحمه الله – في تلك الروايات: (وقولوا انظرنا: فهِّمنا، بين لنا يا محمد..) من هنا رجح شيخ المفسرين قراءة «انظرنا» بوصل الألف على قراءة «أنظرنا» بقطع الألف التي هي بمعنى «أخِّرنا» كما قال الله جل ثناؤه في سورة ص: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [ص: ٧٩] أي أخرني.

وإنما كان هذا الترجيح لقراءة «انظرنا» لأن أصحاب رسول الله ﷺ إنما أمروا بالدنو من رسول الله ﷺ والاستماع منه، وإلطافِ الخطاب له ـ على عكس ما فعل اليهود عليهم لعائن الله ـ لا بالتأخر عنه، ولا بمسألته تأخيرهم عنه.

هذا: وقد انضم إلى التوجيه القرآني في هذه القضية المتعلقة بذاتية المسلمين، وأن يكونوا أبداً على المنهج الأقوم، قولاً وفعلاً، وحسن أدب مع الرسول عليه الصلاة والسلام في الخطاب، وأيِّ نوع من أنواع التعامل، بعيداً عن التقليد والتشبه باليهود... انضم إلى ذلك، ما ختمت به الآية الكريمة، من دعوةِ المؤمنين إلى أن يسمعوا ويعوا قوله، ويحفظوا ما يوجه

إليـهم، كي يعـملوا به على الوجـه المرضي، ومن التـوعـد للكافـرين بالله ورسوله، بالعذاب الأليم، ويدخل في ذلك دخولاً أوليا من كانت تصدر عنهم تلك الأذية لرسول الله عليه الصلاة والسلام.

هذا: وعلى تعدد القضايا التي حملتها الآية الكريمة، فقد كان من إعجاز القرآن: أن ذلك كله جاء في غاية الوضوح وعمق البيان. لا تقولوا كذا... ولكن قولوا كذا؛ فالذي يعلنه التوجيه الرباني من خلال ما دلت عليـه الآية ـ والله أعلم ـ يا أيهـا الذين آمنوا لا تقـولوا لنبـيكـم راعـنـا سمـعك، وفرّغه لنا، نفهمك وتفهم عنا ما نقول، ولا تقعوا في شرك التقليد لليهود، بذلك أو بغيره مما أرادوا... ولكن قولوا: انتظرنا وترقبنا، حتى نفهم عنك ما تعلّمنا وتبينهُ لنا. واسمعوا منه ما يقول لكم، فعوه واحفظوه وافهموه، ثم أخبرهم سبحانه، أن لمن جحد منهم ومن غيرهم آياتِه وخالف أمرَه ونهيَه، وكذب رسوله، العذابَ الموجع في الآخرة. فقال: وللكافرين بي وبرسولي عذاب أليم. والأليم: الموجع.

على أن هذه العظة البالغة، لا ينتهي أمرها وإن بدأت يومذاك؛ فما أكثر ما يواجه الأمةَ من نفثات المصدورين بعدائها المبطَّن، ومن دعوات مشبوهة ـ باسم التحديث والتطوير ـ إلى اتباع مناهج علمانية ضالة في الفكر والتقويم الحضاري، وفلسفة التاريخ والاعتقاد!!

والآن.. وبعد الذي وقفَنا عليه هذا المعلمُ الهادي من معالم الكتاب العزيز، تجدر الإشارة إلى أن الذي وُجِّه إليه المؤمنون من ترك كلمة «راعنا» والاستعاضة عنها بكلمة «انظرنا»، جاء نظيره تنبيهاً لليهود وتوبيخاً

لهم، كيما يرجعوا ـ أن لو كانوا مؤمنين ـ عن تلك القباحات التي كانوا يرتكبونها من تحريفهم الكلم عن مواضعه، وسوء أدبهم البالغ، مع من أمروا بالإيمان به، وقام الدليل على صدق نبوته وهو محمد عليه الصلاة والسلام؛ كل أولئك مع البيان الواضح، أنهم لوا أقلعوا عن ذلك، وبدّلوا حسناً بعد سوء، كان ذلك خيراً لهم وأقوم. ولكن بسبب كفرهم وعنادهم، لعنهم الله وطردهم من رحمته، فلا يؤمنون إلا قليلاً.

جاء ذلك في ختام الآية التي نومئ إليها من سورة النساء، ذلكم قوله تعالى: ﴿ **وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴿٤٦﴾ ﴾ [النساء: ٤٦].

إنها إشراقة المنهج بعد أن بيّن الله أنهم يحرفون الكلم عن مواضعه، ويقولون للرسول ﷺ: لا سمعت، وراعنا، يلوون ألسنتهم بذلك مستهزئين بمن رفع الله ذكره وأعلى قدره في العالمين، طاعنين في الدين الذي جاء به من عند الله... بعد أن بيَّن الله تعالى ذلك من خلائقهم، قال الله سبحانه: ﴿ **وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ** ﴾. أي لو أن هؤلاء اليهود قالوا لنبي الله: سمعنا يا محمد قولك، وأطعنا أمرك، وقبلنا ما جئت به من عند الله، اسمع لنا وانظرنا نفهم عنك ما تقول لنا، لكان ذلك خيراً لهم من عند الله، يعني أعدل وأصوب في القول؛ ولكن الله أخزاهم، فأقصاهم وأبعدهم من الرشد واتباع الحق بسبب جحودهم وكفرهم القائم على العناد وإنكار الحق؛ فلا يؤمنون إيماناً نافعاً، كما قال تعالى: ﴿ **فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ** ﴿٨٨﴾ ﴾ [البقرة: ٨٨].

ولقد كان المؤمنون عند الذي وجههم إليه الكتاب العزيز، فوقفوا عند الذي أرشدتهم إليه الهادية، وظل اليهود على جحودهم، وموقفهم المخزي من رسول الله، والدين الذي جاء به. والمهم اليوم: أن تتضافر الجهود، من أجل أن تكون قنوات العطاء في حياة الأمة، متصلة بالهدي الرباني في الكتاب والسنة، كيما تسقط الأقنعة وتنحسر الغفلة، ويسود اليقين بأن يهود اليوم هم في ضلالهم وعدائهم لنا، أحفاد أولئك الذين لعنهم الله بكفرهم ومكرهم، فأضلهم وأعمى أبصارهم. إن في ذلك لعبرةً لمن يخشىٰ.

يكرهون لكم الخير..
والله يختص برحمته من يشاء

لعل من الخير بمكان، أن نعاود التذكير، ونحن ندير الحديث عن اليهود في ضوء القرآن والسنة؛ كيما نضع أيدينا على مكامن الخطر التي دلّ عليها كتاب الله، وبينتها السنة المطهرة، ونفيدَ من إدراك ذلك على صعيد الواقع، ومواجهة الأحداث اليومية والتحديات التي تصدر عن هؤلاء الأناسي، ومن لفَّ لفَّهم وظاهر باطلهم، على حق أمتنا التي ما عرفت إلا صدقَ التعامل مع الآخرين، ولكن الآخرين يقابلونها بالإحسان إساءة، وبالرحمة عدواناً وتنكيلاً... أقول: لعل من الخير - إن شاء الله - ونحن ندير الحديث في هذا الإطار، أن نعاود التذكير بحقيقة، كشف عنها القرآن في أكثر من موطن، وهي أن موقف الكفار ـ وفي مقدمتهم اليهود والمشركون ـ هو الموقف الظالم المعادي الذي لا يتغيّر ـ ما أتيحت ظروف العدوان على هذه الأمة ـ ولا يتبدل. وليس ذلك مقصوراً على ميدان دون آخر؛ إذ ترى الحرب المعلنة والخفية في الميادين جميعها، فليأخذ المسلمون حذرهم، وليُعِدُّوا ما استطاعوا من قوة، ولا يغتروا بزخرف القول وخداع العناوين.. ولا يركنوا إلى أعدائهم؛ فدائماً وأبداً: وراء الأكمة ما وراءها.

دعاني إلى هذه التقدمة: ما كنا بسبيله في صفحات قريبات، من الدلالة على موقف من مواقف اليهود المخزية التي كشف عنها القرآن

الكريم، وهو موقف يتعلق بطريقة الخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام؛ فنهي المسلمون النهي القاطع عن أن يقولوا قولتهم، وأمروا ـ بوضوح ـ أن يستخدموا كلمةً بديلة ولهذا ـ كما أشرت من قبل ـ دلالته العميقة في الحفاظ على ذاتية الأمة حتى في الكلمة والاصطلاح، وأن يكون لها وجودها الأصيل، فيما تدع وفيما تأخذ، وهو الوجود النابع من أصالة المنهج الرباني، المستنير بوحي السماء، ولله الحمد.

هذا: ومن الخير أن نعيد إلى الأذهان، أن القضية المومى إليها جاءت، وعليها مسحة الإجمال في سورة البقرة، وجاء تفصيل ذلك في سورة النساء ـ كما سبق ـ وإذا نظرنا في الآية التالية لقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا** ... ﴾ الآية، وقفنا على تقرير الحقيقة التي ألمحت إليها، وهي أن اليهود والنصارى والمشركين، ومن ظاهر باطلَهم، وسار على نهجهم، يقفون ـ أبداً ـ في الخط المعادي لأمة الإسلام، فهم لا يودون للمسلمين الخير الذي أنزل عليهم من السماء، ولا يرتضونه، بل الذي يودونه: الأذى والهلاك والحرمان من كل فضيلة ـ وإن أظهروا خلاف ذلك ـ. ها نحن نقرأ في تلكم الآية وهي الخامسة بعد المائة من السورة المشار إليها: قول الله جلت حكمته: ﴿ **مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** ﴿١٠٥﴾ ﴾ [البقرة: ١٠٥].

هذا إخبار من الله تبارك وتعالى، عن هذه الحقيقة التي يجيء الحديث عنها، بعد الذي كشفت عنه الآية السابقة، من صنيع اليهود.. فكان

السياق القرآني ينتقل بنا من الجزئية، إلى الكلية التي تشتملها، فما كان يقوله اليهود ـ وهم يخاطبون الرسول ﷺ ـ هو جزئية خبيثة تنطوي تحت هذه الكلية الكبرى، وهي الحقيقة التي أعلنتها هذه الآية التي نسعد بصحبتها. ذلك أن تأويل الكلام فيها: ما يحب الكافرون من أهل الكتاب ـ يهوداً ونصارى ـ ويدخل فيهم اليهود دخولاً أولياً لأنهم هم المتحدَث عنهم في الآية السابقة ـ ولا المشركين بالله من عبدة الأوثان ـ أياً كانت هذه الأوثان ـ أن ينزّل عليكم من الخير الذي كان عند الله، فنزّله عليكم.. ويمتد ذلك إلى أي نوع من أنواع الخير، مهما دقّ أو جلّ، كما دل عليه التعبير القرآني ﴿مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ فتمنى المشركون وكفرة أهل الكتاب، أن لا ينزل الله عليكم الفرقان الحكيم، وما أوحاه إلى محمد ﷺ، من حكمه وآياته. وإنما أحبت اليهود وأتباعهم من المشركين ذلك؛ حسداً وبغياً منهم على المؤمنين، في الوقت الذي لا يعرف المؤمنون في تعاملهم مع الآخرين، إلا الاستقامة والصدق.

ونقول: حسداً وبغياً منهم على المؤمنين؛ لأنهم يعلمون ـ لو كانوا صادقين في دعوىٰ الإيمان ـ أن الله تعالى هو المعطي، وهو المتفضل الذي يختص برحمته من يشاء. وما دام الأمر كذلك: فموقفهم يحمل ما يحمل من الانحراف عن الإيمان، وعلى المسلمين أن يحذروا.

وهذا الذي نلمح إليه، هو ما ختمت به الآية الكريمة حيث قال تعالى ـ بعد أن كشف عن تلك الحقيقة في موقفهم من المسلمين ـ ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾. على أن في هذه الكلمات

المباركات أيضاً، تذكيراً للمؤمنين بما تفضل الله به عليهم من الشرع التام الشامل الذي أوحى به لنبيهم ﷺ، فعليهم أن يشكروا نعمة الله وفضله، بصدق الإيمان واستقامة العمل بما أنزل الله.

وهكذا نرى أن في الآية التي نحوّم حول عطائها الخيِّر، دلالة بينة على أن الله تبارك وتعالى، نهى المؤمنين عن الركون إلى أعدائهم ـ من اليهود والمشركين وقطيع الموالين لهم ـ والاستماعِ من قولهم، وقبول شيء مما يأتونهم به ـ كما يقول الإمام الطبري ـ على وجه النصيحة لهم، بإطلاعه جل ثناؤه إياهم على ما يستنبطه لهم أهل الكتاب والمشركون، من الضغن والحسد، وإن أظهروا بألسنتهم خلاف ما هم مستبطنون. ونحن واجدون عند الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ، كلاماً يجمع بين شِقَّي القضية؛ إذ نبه على ما دلت عليه الآية من العداء المتأصل عند أعداء الله للمؤمنين، والنهي عن التشبه بهم وتقليدهم، وأضاف إلى ذلك، الكشفَ عن أن الآية تنبه المؤمنين على ما تفضل الله به عليهم من ذلك الشرع الكامل الذي عليهم أن يعملوا به، يقفوا عند حدوده. قال ـ رحمه الله ـ عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿**مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ**﴾. (يبين بذلك تعالى شدة عداوة الكافرين من أهل الكتاب والمشركين الذين حذر الله تعالى من مشابهتهم للمؤمنين ليقطع المودة بينهم وبينهم، ونبه تعالى على ما أنعم به على المؤمنين من الشرع التام الكامل الذي شرعه لنبيهم محمد ﷺ حيث يقول تعالى: ﴿**وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**﴾.

ومما يُشعر بتكامل المنهج القرآني، وبيان أن فعل هؤلاء وتبييتَهم ما يبيتون من الأذى، يتفق مع هويتهم الحقيقية، وهي أنهم شر البرية: ما نقرأ في سورة «البينة» من قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ** ﴿٦﴾ ﴾ [البينة: ٦].

هذا: ولا يخفى على ذي بصيرة: أن الناظر في كتاب الله الكريم، المتدبرَ لآياته، يرى ـ والمسلمون يعيشون مع اليهود وسدنتهم وأعوانهم واقعاً لا يغبطون عليه ـ أن الآيات التي تكشف عن خلائق اليهود، ومظاهر سلوكهم في كل ميدان، وبخاصة في مواجهة المسلمين، كأنها تتنزَّل الآن غضة طرية في مواجهة الواقع؛ وتلكم ومضةٌ من ومضات الإعجاز، الأمر الذي يزيد في يقين المؤمن، أن القرآن كلام الحكيم الخبير، وليس من كلام البشر. هذه واحدة، أما الثانية: فهي أن الإدراك الذي نومئ إليه، يزيد من عبء الأمانة في أن تتخذ أمة الإسلام من الحقيقة القرآنية ـ أبداً ـ مفتاحاً نيراً مباركاً لمعالجة قضاياها وحل مشكلاتها، وعماد ذلك: صدقُ الإيمان، والعمل بالإسلام، والأخذ بأسباب القوة العلمية والعملية من شتى أطرافها، والالتزامُ المخلص بحقيقة أن« الجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة» والله الهادي إلى سواء السبيل.

يشترون الضلالة..
ويريدون أن تضلّوا السبيل

الحقيقة التي جرى الإلماح إليها من قريب، وهي أن العداء المتأصل للمسلمين في نفوس الذين كفروا من أهل الكتاب ـ بخاصة ـ والمشركين وأعداء الله بعامة، كان من رحمة الله تبارك وتعالى، أن جاء التنبيه عليها في العديد من المواطن في الكتاب والسنة بكثير من المناسبات، ليكون ذلك من الثوابت التي يجدر بالمسلمين فقهها، وتؤذي الغفلة عنها أشد الإيذاء، حتى يقوم الدليل على غير ذلك، في واقعة ما من الوقائع التي نحيط بسببها ومدى دلالتها على المراد.

وقد كانت لنا ـ من قبل ـ وقفة عند الكشف عن هذه الحقيقة في الآية الخامسة بعد المائة من سورة البقرة وهي قول الله تبارك وتعالى: ﴿**مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ...**﴾ الآية.. حيث جاءت هذه الآية الكريمة، تقرر الكلية العامة التي تنبعث منها مواقف من جاءت على ذكرهم من أعداء الإسلام؛ وذلك في أعقاب الآية الرابعة بعد المائة، التي عرضت لواحدة من مخازي اليهود في خطابهم سيد الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه، وحضّت المؤمنين أبين الحض ـ نهياً وأمراً ـ على الاحتراز من استخدام هذا اللون من الخطاب.

وقد أشرت إلى أن القرآن في أسلوبه الحكيم المعجز، بعد أن كشف

عن تلك المُخْزية من مخازي المغضوب عليهم، نبه المؤمنين على أن ذلك يرتبط ارتباطاً تاماً بحقيقة، ليس من الحكمة في شيء أن يغفل عنها المسلمون، وهي عداؤهم المتأصل، وأنهم لا يحبون لهم شيئاً من الخير، حسداً من عند أنفسهم وبغياً، من بعد ما تبين لهم أن الذين آمنوا بمحمد ﷺ على الحق الأبلج، وأنهم هم على الباطل المخالف لما بشَّر به كتابهم السماوي، ولكنه العناد وتحريف الكلم عن مواضعه!!.

ويقودنا الحديث عن هذا الذي نبه القرآن عليه، في اثنتين من آي سورة البقرة، إلى ما جاء في سورة النساء، بين يدي التفصيل، لما كان يبطنه اليهود وراء كلمات يقولونها للرسول عليه الصلاة والسلام.

فقبل الآية التي تذكر بعضاً من خصالهم بالتفصيل ـ ومنها مساءلتهم للنبي ﷺ بما يستبطنون من معان سيئة يريدونها من وراء بعض الألفاظ ـ نجد آيتين كريمتين، تكشفان عن أن اليهود، يريدون للمسلمين أن يضلوا السبيل، وأنهم الأعداء، المتأصلةُ فيهم العداوة للمسلمين، ولكتابهم ورسولهم.

أما الآية التي فصّلت الخصال التي نشير إليها: فهي قول الله جل ثناؤه في السورة المشار إليها سورةِ النساء: ﴿ **مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً** (٤٦) ﴾ [النساء: ٤٦]. وقبل هذه الآية نقرأ قول الله تعالى بدءاً من الآية الرابعة والأربعين: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا**

نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ [النساء: ٤٤ – ٤٥].

ففي سورة البقرة، ذُكرت تلكم المُخْزية من مخزيات اليهود، ونُهي المسلمون عن التشبه بهم في قيلها، ثم رُبطت هذه الجزئية بالكلية العامة، وهي حقيقة أنهم أعداء ألداء، لا يريدون شيئاً من الخير للمسلمين؛ فليس بدعاً أن يصدر عنهم ما صدر، ولكن على المسلمين أن يتنبَّهوا، ولا يتشبهوا.

وهنا في سورة النساء: قررت الآية الأولى أن اليهود ـ بما تغلي به صدورهم من الحسد والبغي ـ يشترون الضلالة، فيستبدلون حطام الدنيا، بالخير الذي أنزله الله على رسوله محمد ﷺ، ويتركون ما جاء به كتابهم من العلم، عن الأنبياء الأولين في صفته عليه الصلاة والسلام، وأن المنهج الحق: أن يؤمنوا به ويصدقوه، ولكنهم جحدوا وآذوا، وأصروا على الجحود والأذى، وفي الوقت نفسه، يودّون لو يكفر المؤمنون بما أنزل عليهم من ربهم، ويتركون ما هم عليه من الهدى النافع: ﴿ **يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ** ﴾.

وفي الآية الثانية: تعرية لعدائهم وتحذير منهم: ﴿ **وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ** ﴾ أي هو أعلم بهم، ويحذركم منهم. ﴿ **وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا** ﴾ أي كفى به ولياً لمن لجأ إليه، ونصيراً لمن استنصره.

ومعنى ذلك: أن على المؤمنين أن يدركوا تلك الحقيقة، حقيقةَ أن هؤلاء القوم ضالون مضلون، ويريدون للمسلمين، أن ينحرفوا عن جادة

الحق ويضلوا السبيل، لأنهم إذا تحولوا عن سبيل الإسلام ـ الذي ألف الله على عقيدته بينهم، وجمع على هدايته قلوبهم ـ ضعفوا، وتفرقوا، وذهبت ريحهم. إنهم أعداء، والله تعالى أعلم منكم بعدائهم ويحذركم منهم.. يحذركم أن تركنوا إليهم، أو أن تأخذوا بشيء من رأيهم، في دينكم ـ وما أنتم عليه من الحق..

وعماد الأمر ـ بعد التنبيه على عداوتهم ـ أن يكون المؤمنون مع الله؛ عملاً بكتابه وسنة نبيه صلوات الله عليه وسلم، وإفادةً من التجارب في علاقة المسلمين باليهود. وغيرهم من أعداء الله، إنهم إن فعلوا ذلك: كان الله معهم يتولاهم بعنايه، وينصرهم النصر المبنين. أجل: ﴿**وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا**﴾.

والحق أن الآية الكريمة – فيما تذكّر به –؛ أن يكون المسلمون على اليقظة التامة، فيما قد يدخل عليهم من مناهج اليهود، وأفكار اليهود، ومن يتولاهم، ويدور في فلكهم من أعداء الإسلام، وبخاصة في ميدان الثقافة والمعرفة وتفسير التاريخ، ناهيك عن الرأي في شيء مما شرع الإسلام. ولَكَمْ نحن بحاجة إلى أن نحذر أشد الحذر، من مخاطر الغزو الفكري الذي يقوده اليهود، الظاهرون والمقنّعون، وأن يكون ذلك على خطٍ سواء، مع إعداد القوة لخوض المعركة الفاصلة في ميادين الجهاد..

ولقد كانت عناية الإمام الطبري، المتوفى سنة عشر وثلاثمائة للهجرة، عناية بالغة في التنبيه على قضية الفكر، أخذاً من الآية الكريمة، لأن أول خطوة على طريق الضعف والتخلف، تبدأ من الاقتناع بما يقوله

العدو الذي يود لو نقعُ في هوة الضلال والشك في شأن ديننا وتاريخنا، وما به كنا خير أمة أخرجت للناس.

فعند تفسير قوله تعالى: ﴿ **وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ** ﴾ كان مما قاله شيخ المفسرين: (وهذا من الله تعالى ذكره تحذير منه عبادَه المؤمنين، أن يستنصحوا أحداً من أعداء الإسلام في شيء من أمر دينهم، أو أن يسمعوا شيئاً من طعنهم في الحق). وتبياناً لقوله جل ثناؤه: ﴿ **وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ** ﴾ قال – رحمه الله –: (أخبر الله جل ثناؤه عن عداوة هؤلاء اليهود الذين نهى المؤمنين، أن يستنصحوهم في دينهم إياهم، فقال جل ثناؤه: ﴿ **وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ** ﴾ يعني بذلك تعالى ذكره: والله أعلم منكم بعداوة هؤلاء اليهود لكم أيها المؤمنون. يقول: فانتهوا إلى طاعتي فيما نهيتكم عنه من استنصاحهم في دينكم، فإني أعلم بما هم عليه لكم من الغش والعداوة والحسد، وأنهم إنما يبغونكم الغوائل، ويطلبون أن تضلوا عن محجة الحق فتهلكوا).

اللهم اهدنا سواء السبيل، وخذ بأيدينا إلى حيث ننتفع في علاقتنا بأعدائنا أعداء الله والإنسان، بما نبه عليه كتابك الكريم، ودلت عليه سنة نبيك المصطفى عليه الصلاة والسلام.

وما أكثر الوقائع المتجددة التي تزيد الأمر تأكيداً ووضوحاً، وتعلن إعلانها في إقامة الحجة على من يغترّون، أو يتغافلون أو يستخذون!!

والله أعلم.. بأعدائكم

الوقوف عند ثوابت القرآن والسنة، وما قدمت نصوصهما في شأن أعداء الله من حقائق، يؤكدها الواقع في القديم والحديث: يقتضي ـ وحال أمتنا مع اليهود ومن يتولَّونهم هي الحال ـ قراءةً متأنية لما كان من تحذير الكتاب العزيز والسنة المطهرة، من تقليد من ضربت عليهم الذلة، والمسكنة، وباؤوا بغضب من الله، ومن ترسُّم خطاهم، وهم يجاهرون الله ورسوله والمؤمنين بالعداوة ـ بشتىٰ صورها ـ ويظاهرون الباطل على الحق أبداً.

وهذه القراءة المتأنية الواعية: لا بد أن تشمل، ما كان من توجيه أمة الإسلام، إلى أن تكون أجيال الأمة، حيال ما ينصب أولئك الأعداء من مكائد ـ يعينهم عليها أقوام آخرون ـ أن تكون مع الكتاب والسنة في كل حال، وأن تدور مع الحق حيث دار؛ الأمر الذي يرتفع بها إلى حيث الذاتيةُ والأصالة، وأن تكون في خضم الحياة وصراع الحضارات، هي الفاعلةَ المؤثرةَ على طريق الهداية والخير، لا المنفعلةَ المتأثرة بما يدعو إليه الآخرون، بعيداً عن قيمها الأصلية، وما كانت به خير أمة أخرجت للناس.

وهل من النباهة، وحسن المواجهة للواقع الأليم في شيء: الغفلةُ عما أعلنه الكتاب الحكيم، وأكدته الوقائع التي أتت على ذكرها السيرة

النبوية، من أن هؤلاء الأناسيَّ، الظاهر منهم والمستخفي؛ من الكفرة والمشركين، لا يرقبون في المسلمين إلاًّ ولا ذمة، ولا يبغون لهم إلا الضلالة والخسران المبين. ويسوؤهم أن يتنزل عليهم شيء من الخير، أو ينالهم ولو قدر يسير من التوفيق؟!!

أقول هذا: والعهد قريب بشرف الصّحبة، لما جاء في سورتي البقرة والنساء في قضية (راعنا وانظرنا). وأبعادُ ذلك في الحياة - حتى يرث الله الأرض ومن عليها - لا تخفى على ذي بصيرة.

والأمر الذي لا يليق إغفاله، على صعيد التعامل ومواجهة القضايا الطارئة يوماً بعد يوم - والقوم لهم مطامعُ ليس أقلها ابتلاعُ الأرض والناس... الأمر الذي لا يليق إغفاله، بل يجب أن يكون أبداً في الحسبان: ما أعقب الكلام على التنبيه المتحدَّث عنه، من إبراز حقيقة أن الكفار من أهل الكتاب والمشركين، لا يودّون أن ينزّل على المسلمين الخير الذي كان عند الله، فنزّله عليهم، واستنارت حياتهم بالمنهج الرباني الهادي، وكانوا أمة الشهادة على الناس، بل خير أمة أخرجت للناس. والذي تمناه المشركون وأهل الكفر عموماً - وفي مقدمتهم اليهود - أن لا ينزل الله على أمة الإسلام الفرقان، وما أوحاه ربنا جل جلاله إلى محمد ﷺ من حكمه وآياته.

ومن إعجاز القرآن والدلالة على أنه من عند الله، وليس كلام النبي الكريم محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم؛ ما كشف عن خبيئة نفوس هؤلاء الأعداء الحاقدين، من أنهم يكرهون ما يكرهون لنا، ويحبون

ما يحبون، بسبب الحسد الذي يأكل قلوبهم، والبغي الذي مردوا عليه، وخالط منهم النفوس والعقول، أن لو كانت لهم في ميزان الآخرة والحق، عقول!.

وإذا كان الأمر كذلك: فحريٌّ بالمؤمنين ـ بل واجب عليهم ـ أن لا يركنوا إلى أولئك الذين أكل الحسد قلوبهم، وجرَّهم البغي إلى المكر وتمني السوء والضلالة للمسلمين؛ وإذا تهاونوا بهذا الواجب: سقطوا في حمأة الخزي وانهزموا أمام المغضوب عليهم الأذلاء، والضالين التعساء، وذلك ما أدركه علماؤنا المتبصرون بكتاب الله تعالى، المدركون لأبعاد آيهِ، ومدى الترابط بين آية وأخرى في الموضوع الواحد.

وفي الآيات التي تحمل تلك الحقائق، وأسعدنا أصطحابها من قريب، أوضحُ الدلالة على أن الله تبارك وتعالى، أراد تنبيه المؤمنين على مكامن الخطر، فنهاهم عن الركون إلى أعدائهم من أهل الكتاب والمشركين، في أي ميدان من الميادين، وذلك بإطلاعه ـ جل ثناؤه ـ إياهم على ما يستبطنه اليهود والنصارى وأولياؤهم من المشركين، من الضغن والحسد وإرادة السوء بأهل الحق، وإن أظهروا بألسنتهم خلاف ما هم مستبطنون ـ كما جاء في سورة البقرة ـ.

وعلى هذا السنن: وجدنا التأكيد القرآني لهذه الحقيقة في سورة النساء، ذلكم قول الله جل ثناؤه: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ** ﴿٤٤﴾ ﴾ [النساء: ٤٤]. هناك في سورة البقرة ﴿ **مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم**

مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٠٥]. أنهم يودون لو لم يتنزل القرآن على المسلمين. وهنا في سورة النساء، كشف عن مرحلة أكثر إغراقاً في المكر والأذى، عمادُها أن اليهود يشترون الضلالة؛ يختارونها فيكذبون بمحمد ﷺ وبما جاء به من عند الله، معرضين عن الحق الذي تنزلت به التوراة وهو الدعوة إلى الإيمان، به وتصديقه. ويتجاوزون ذلك إلى إرادة الضلالة للمسلمين، ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ يريدون أن تتحوّلوا أيها المسلمون لله، عن قصد الطريق ومحجة الحق، فتكذبوا بمحمد ﷺ، وتعكفوا على أمور الجاهلية، وتكونوا ضُلاّلاً مثلهم، فضلاً عما يولده تقليدهم والانبهار بهم، من انحسار المد الإسلامي، والانتكاس في أوضاع المسلمين. فأنت ترىٰ أنه بهذا الوضوح، يحذر الله عباده المؤمنين، أن يستنصحوا أحداً من أعداء الإسلام في شيء من أمر دينهم أو حياتهم على وجه العموم، أو أن يسمعوا شيئاً من طعنهم في الحق؛ لأنهم على الشاكلة التي وصفهم الله تعالى بها، وكشف عن حقيقة ما يبطنون ويكنون من العداوة للإسلام وأهله.

يؤكد ذلك قوله جل شأنه ـ بعد ذلك: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ [النساء: ٤٥] وقد رأينا من قبل ما قرره شيخ المفسرين ـ رحمه الله ـ عند هذه النقطة حيث قال: (**يعني بذلك تعالى ذكره: والله أعلم منكم بعداوة هؤلاء اليهود لكم أيها المؤمنون. يقول: فانتهوا إلى طاعتي فيما نهيتكم عنه من استنصاحهم في دينكم، فإني أعلم بما هم عليه لكم من الغش والعداوة والحسد، وأنهم إنما يبغونكم الغوائل، ويطلبون أن تضلوا عن محجة الحق فتهلكوا**). رحم الله أبا جعفر، إن اليهود ما داموا

على هذه الشاكلة ـ وهذا ما يؤيده الواقع أبداً ـ. لا يريدون لهذه الأمة الخير، لا في دينها، ولا في دنياها، بل الذي يريدونه ويعملون أبداً على تحقيقه: هو أن تصاب هذه الأمة في دينها ولا تقوم لها قائمة في العالمين.

وما على المؤمنين، إلا أن يكونوا مع الحق الذي نزل به الكتاب، يوالون في الله، ويعادون في الله، مهما كلف ذلك من أعباء وتضحيات، إنهم إن فعلوا ذلك صادقين مخلصين، كان الله معهم بتأييده ونصره على اليهود، ومن تسيّرهم مطامع اليهود. وما ختمت به الآية واضح في هذا الذي نقول، فبعد قوله جل ثناؤه: ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ ﴾ جاء ختام الآية بقوله سبحانه: ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴾.

ويزداد الأمر وضوحاً في اليهود وعدائهم للمسلمين، على مستوى البيان لطبيعة الخلاف، وأن المعركة ـ على المدى ـ معركة بين الحق والباطل، وواجب المسلمين الحتم أن يكونوا على إدراك لهذه الحقيقة... وأن يسلكوا في تعاملهم مع أعداء الله والإنسان، المنهج الذي تقتضيه تلك الحقيقة...

أجل يزداد الأمر وضوحاً لا يدع ريبة لمستريب، ولا عذراً لمعتذر.. فتقرأ بعد قوله تعالى: .. ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ قوله جل ذكره: ﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [النساء: ٤٦].

وبعد هذا التفصيل في بعض خلائق اليهود، من تحريفهم الكلم عن مواضعه، وافترائهم على الله، وسوء أدبهم البالغ مع النبي عليه الصلاة والسلام، وأنهم لو سلكوا الصراط السوي، لكان خيراً لهم، ولكن بسببٍ من كفرهم، طرَدَهم الله من رحمته، فلا يؤمنون إلا قليلاً.

بعد هذا التفصيل... نرى أمراً لهم بالإيمان بما نزل على محمد ﷺ، مصدقاً لما معهم، كما نرى لوناً من ألوان الوعيد الشديد بالعقوبة القاصمة في الدنيا والآخرة، إذا لم يؤمنوا؛ فيصاب الأحفاد بما أصيب به أسلافهم، ذلكم قول الله جل وعز: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً** (٤٧) ﴾ [النساء: ٤٧].

اللَّهم هيء لهذه الأمة من أمرها رشداً، حتى تجعل من تدبُّر كتابك العزيز، والعملِ بسنة نبيك المصطفى أساساً لمنهجها، في مواجهة التحديات التي يقف وراءها اليهود وأعوانهم والمفتونون بهم، وما الله بغافل عما يعمل الظالمون.

ظاهرة الحسد والضغينة..

الماضي والحاضر

المسلمون اليوم، مدعوون ـ وقد تداعى عليهم الأعداء من كل حدب وصوب ـ أكثر من أي وقت مضى.. إلى تبيُّن طريقهم التي يجب سلوكها ـ حفاظاً على كيان الأمة، ورداً للعدوان ـ من خلال الهدي الرباني في كتابه الكريم، وعلى لسان نبيه المصطفى عليه الصلاة والسلام، والمعرفة الواعية بالواقع الإقليمي والعالمي.

وفي اصطحاب للكلمة القرآنية الهادية في شأن ما ينطوي عليه اليهود ـ والكفرة على وجه العموم ـ من ضغن وحقد على المسلمين، كانت لنا وقفة تذكير عجْلى عند آية من سورة البقرة هي قول الله تبارك وتعالى: في الآية الخامسة بعد المائة: ﴿ **مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١٠٥)** ﴾ [البقرة: ١٠٥]. وكذلك عند آيات من سورة النساء بدءاً من الآية الرابعة والأربعين وهي قول الله جل شأنه: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ (٤٤) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا (٤٥) مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا**

لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٤٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً ﴿٤٧﴾ ﴾ .

[النساء: ٤٤ – ٤٧].

وفي ضوء ذلك: لعل من الخير أن نشير إلى ما ينطوي عليه أعداء الله ـ بعامة ـ واليهود ـ بخاصة ـ من حقد وضغن على المسلمين، وحسد يقود إلى البغي وإرادة السوء.. حقيقة تكمن وراء تصرفاتهم، ومنهج تعاملهم مع أهل الإيمان. وقد استأثر تقرير هذه الحقيقة، بقدر كبير من الاهتمام ـ كما أسلفت ـ في عدد من آي الكتاب الكريم، كما نجده في قدر لا بأس به، من سنة النبي عليه الصلاة والسلام، ووقائع سيرته المطهرة. وما رأينا في سورة البقرة والنساء، يمثّل جزءاً من المساحة التي ازدانت بهذا العطاء، وعلى سبيل المثال لا الحصر: نقرأ في الآية التاسعة بعد المائة من سورة البقرة أيضاً، قول الله تباركت أسماؤه: **﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾** [البقرة: ١٠٩].

ففي هذه الآية، يحذّر الله تبارك وتعالى المسلمين، من سلوك طريق الكفار من أهل الكتاب، والركون إليهم وموالاتهم والميل إليهم، ويُعْلمهم شديدَ عداوتهم في الباطن والظاهر؛ وما هم مشتملون عليه من الحسد، من عند أنفسهم للمؤمنين، ولنبيهم عليه الصلاة والسلام، وكل هذا: من

بعد ما تبين لهم الحق في أمر محمد صلى الله وسلم وبارك عليه، وأنه رسول إليهم وإلى خلق الله كافة، دونما استثناء أو تقييد، حتى إن تلك العداوة، تجعل الكثير منهم يودون أشد الود، لو يردون المؤمنين كفاراً جاحدين، بعد أن أكرمهم الله بالإيمان، وأخرجهم بالإسلام من الظلمات إلى النور.

ومن أجل ذلك، لا يجوز سلوك طريقهم، ولا الركون إليهم فضلاً عن موالاتهم، إذ كيف يُطمأن إلى شيء مما يقولون، أو يفعلون في أمر الإسلام ونبيه والمؤمنين به، وهم على هذه الشاكلة من العداوة الظاهرة والباطنة؟! وما أكثر الوقائع التي تؤكد ذلك، عظيم التأكيد في التاريخ القديم والحديث!! والتعبيرُ بالكثير في الآية الكريمة: يدل على الظاهرة التي تطبع مواجهتهم للنبي ﷺ والمسلمين: ﴿**وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا**﴾ وكأن الود هنا أعمقُ من الإرادة؛ فهو إرادة في العقل، ورغبة مُلحَّةٌ من القلب. والمراد بأهل الكتاب هنا اليهود، فقد جاءت روايات عدة تذكر كعب بن الأشرف، وتذكر حيي ابن أخطب، وأبا ياسر بن أخطب ـ وهم من هم في نفوذهم وكلمتهم المسموعة في يهود ـ.

روى الطبري بسنده عن الزهري في قوله تعالى: ﴿**وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ**﴾ هو كعب بن الأشرف، وروى مثله عن قتادة. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كان حيي بن أخطب وأبو ياسر بن أخطب، من أشد يهود، عداءً للعرب، وحسداً، إذ خصّهم الله برسوله ﷺ، وكانا

جاهدين في رد الناس عن الإسلام بما استطاعا، فأنزل الله فيهما: ﴿ **وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ** ﴾ . . . الآية.

وعلى أية حال: فالأمر ـ كما أسلفت ـ يكمُن في أن هؤلاء الذين جاءت الروايات على ذكرهم من زعماء يهود، والمطاعين فيهم، يمثلون الظاهرة، ظاهرة الحسد والحقد، التي نشأ عنها ودُّهم لو يردون المؤمنين كفاراً، يتمرغون في أوحال الضلالة، بعد أن أنقذهم الله برسالة محمد ﷺ، وأخذ بأيديهم إلى مرابع الهدى والنور، ولا شك أن الظاهرة، يسري أثرها على الآخرين.

ولقد يزيد الأمر وضوحاً في هذا الذي نقول ـ مع التصريح بالكثرة هنا، حيث قال تعالى: ﴿ **وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ** ﴾ ـ أن نستذكر الآية التي رأيناها من قبل في سورة البقرة، وهي الآية الخامسة بعد المائة، حيث يقول ربنا جل شأنه: ﴿ **مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ** ﴾. هكذا بكل وضوح: الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين، ما يودون أن ينزل القرآن على المسلمين ـ وهو مصدر هدايتهم، وقوتهم، ووجودهم الذاتي الأصيل؛ وهذا ودٌّ تنفيه الآية التي نحن بصددها وهي الآية التاسعة بعد المائة ودٌّ تُثْبِتُهُ هذه الآية: ﴿ **وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا** ﴾ فالودُّ المنفي عن الجميع: وُدُّ تَنَزُّلِ القرآن على المسلمين أو شيء منه، والود المثبَ للكثير: وُدُّ ارتداد المسلمين عن دينهم إلى الكفر والعياذ بالله، وأحسب أن الربط بين ما نُفي

عنهم، وبين ما أُثبت لهم، قائم، فهم لا يودون الخير للمسلمين ـ جملة وتفصيلاً ـ مهما كان شأنه، ويودون لهم الشر جملة وتفصيلاً على أي وجه، وفي أية سبيل.

وفي تأكيد لحقيقة ما صرحت به الآية، بأن الكثير من أهل الكتاب ـ وهم اليهود هنا ـ ودوا لو يردون المسلمين من بعد إيمانهم كفاراً، وذلك بدافع الحسد والضغينة... في تأكيد لهذه الحقيقة، أحسن علماؤنا ـ رحمهم الله ـ في ردِّ أن يكون المقصود بالكثرة أيَّ شيء غير الكثرة العددية. وذكرُ كعب بن الأشرف وحده، أو حيي بن أخطب وأبي ياسر أخيه فحسب، لا يعني أن نتحول عن الكثرة العددية إلى غيرها. وقد أسلفتُ أن الواحد من هؤلاء، يمثل وجهة الأكثرين، وَوُدَّ الأكثرين؛ لأنه صاحب الكلمة المسموعة، وذو الرأي النافذ في يهود.

فليس لمن يقول ـ مثلاً ـ المراد: كعب بن الأشرف وكفى: معنى مفهوم؛ لأن كعب بن الأشرف واحد، وقد أخبر الله جل ثناؤه أن كثيراً منهم يودون لو يردون المؤمنين كفاراً بعد إيمانهم. والواحد لا يقال له كثير بمعنى الكثرة في العدد، وقد يقال: لعل المراد بالكثرة كثرة المنزلة والقدر، وذلك مردود أيضاً، لأن الله تعالى وصفهم بصفة الجماعة فقال: «لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً، حسداً..» فذلك ـ كما يقول أبو جعفر ـ دليلٌ على أنه عنى الكثرة في العدد.

ولقد يظن ظان أن من الممكن أن يكون الكلام، قد خرج مخرج الخبر عن الجماعة، والمقصود بالخبر عنه الواحد، فقال «كثير» وأراد كعب بن

الأشرف ـ عليه وعلى أمثاله لعائن الله ـ ولكن ينفي هذا الاحتمال، أنه لا دليل عليه مطلقاً، والكلمات الهاديات في الآية الكريمة: جاءت صريحة واضحة فيما أخبر الله عن الكثير من ذلك الود الخبيث، وليس من دليل يصرف عن ذلك.

والحق ـ كما أسلفنا ـ أن هولاء الذين حملت الروايات أسماءهم يمثلون الظاهرة، في عتوٍّ العداء اليهودي الظاهر والباطن للمسلمين. وهكذا يتقرر بالنص الصريح أن هؤلاء الناس، لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة، ولا يودون لأمتنا أيَّ لون من ألوان الخير، فضلاً عن تنزل القرآن، بل على العكس من ذلك، يودّون لنا كل شر ومساءة، ولو كان ذلك على حساب العقيدة، وما به كرّم الله أمتنا بما أخبر في قرآنه بقوله: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا** ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وما دام باعث الحسد والبغي والضغينة موجوداً عند اليهودي ـ بوصفه يهودياً ـ فالمسلم لا يحتاج إلى قياس، في ترقب كل أذى من هؤلاء الذين أعلمنا الله ما عندهم من عداء، أو إلى تعليلٍ لما هو واقع اليوم، من الأذى البالغ والإفك المصطنع. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

حسداً من عند أنفسهم..

من بعد ما تبين لهم الحق

لا يعوز الناظر في مقومات المنهج القرآني، الهادف إلى إعداد المسلم، وتربيته، على إدراك ما هو حق وما هو باطل ـ في علاقته بربه، وعلاقته بالآخرين ـ وضوابط ذلك.. لا يعوزه أن يقع على العديد من النماذج، التي تؤصل في النفوس مبدأ العدل مع الآخرين وإنصافهم ـ موالين كانوا أو معادين ـ وإعطاء كل ذي حق حقه، وأن من المخالفة للمنهج في سموه ورفعته، أن يحمل بُغضُ طائفة من الناس، على الوقوع في الجور، وتجاوز الحقوق.

ومن تلك النماذج: ما تشرق: به الآية التاسعة بعد المائة من سورة البقرة التي قررت ـ كما أسلفنا من قبل ـ أن كثيراً من أهل الكتاب ـ وهم اليهود هنا ـ ودوا لو يردون المسلمين بعد إيمانهم كفاراً، يخسرون الدنيا والآخرة. وعلى كل مساوئ يهود: لم يعمم القرآن في الحكم بل قال: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا ﴾ وهذا يدل على أن قلة منهم لا تَوَدُّ ذلك.

وفي عود على بدء: يقع الناظر المتأمل: على واحدة من سمات الإعجاز في كلام الله فيما كشفت عنه الآية، من كون الباعث على هذا الود السقيم المؤذي هو الحسد، وأن ذلك لم يقع عن جهالة، ولكنه واقع

من بعد ما تبين لهم الحق. . . ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ الآية.

ونحن هنا ـ في قوله تعالى: ـ ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ ـ أمام رائعة من روائع البلاغة القرآنية، إذ إن الحسد ـ كما هو عند اليهود ـ معروف أنه من داخل النفس، وله ما له من الدلالة السيئة، فلو جاء التعبير خلياً عن قوله تعالى: ﴿مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾. لأدىٰ غرضه في نسبة الحسد إليهم، ولكن هذه الكلمات الثلاث، دلّت على أنه ليس هنالك عامل، يحمل سمة من سمات الحق، مؤثرٌ فيما يود اليهود من الضلالة والعماية للمسلمين، فقوله تعالى: ﴿مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ نفى أيَّ احتمال آخر، في وجود باعث غير الحسد والبغي، يحمل أولئك المغضوب عليهم على ذلك الود الظالم، فهم لم يؤمروا بذلك في كتابهم، ويتجهون هذا الاتجاه، بعد علمهم بأنهم منهيون عنه؛ وهكذا نرى القرآن يدل ـ بهذا العبير ـ دلالة قاطعة على أن كثيراً من اليهود، يودون ما أخبر الله ـ جل ثناؤه ـ عنهم، أنهم يودونه للمسلمين من الردة عن إيمانهم إلى الكفر ـ وفي ذلك ما فيه من التردي والتحول المهلك ـ حسداً من قبل أنفسهم للمسلمين، وبغياً عليهم.

لقد حسدوا المسلمين على ما أعطاهم الله من التوفيق ببعثة محمد ﷺ، وما وهب لهم من الرشاد لدينه والإيمان برسوله، وما خصَّهم به من أن جعل رسوله المصطفى إليهم رجلاً منهم رؤوفاً بهم رحيما: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨].

أجل مما حسدوهم عليه، أن خصهم الله به فجعله منهم ولم يجعله من يهود فيكونوا لهم تبعاً إلى جانب أمور أُخَر..

من هنا كان واضحاً: أنهم يودّون ما يودّون، بإصرار وتعنت، الأمر الذي يدل على أن ذلك خليقةٌ لهم، يجب أن يتنبه لها المسلمون، ولا يغتروا ببعض الظواهر التي قد تسترها، وأن يُحسب لهذا الأمر حسابُه في منهج التعامل معهم، لكيلا تختلط الأمور، ويلتبس الحق بالباطل، ويؤخذ أهل الإيمان على غِرَّة، ويصابون من حيثُ لا يشعرون.

وليس أدَلَّ على أن الحسد والبغي خليقة لهم، في علاقتهم بالأمة المسلمة، من كون ذلك - كما أسلفت الإشارة - حاصلاً من قبل أنفسهم، كما دل على ذلك صريح القرآن، وكونهم - كما ذكر آنفاً - لم يؤمروا بذلك في كتابهم، قبل التحريف والتبديل، وأنهم يأتون ما يأتون من ذلك - لا عن جهل أو غباء - بل يأتون به، على علم منهم بنهي الله إياهم عنه.

هذا، بالإضافة إلى أنه قد تبين لهم الحق في أمر محمد ﷺ، وما جاء به من عند ربه، والملةِ السمحة المباركة التي دعا إليها، فأضاء لهم أن ذلك الحق الذي لا مرية فيه.

روى الإمام الطبري عن قتادة: ﴿**مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ**﴾: من بعد ما تبين لهم أن محمداً رسول الله ﷺ، والإسلام دينُ الله.

كما روى عن أبي العالية: تبين لهم أن محمداً رسول الله يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل.

سبحان الله.. أي إصرار هذاالإصرار على الضلال.. وأيُّ عناد هذا العناد.. بل أي افتراء هذا الافتراء على الحق الذي تجاوزوه ـ وهو جدٌّ صريح في كتابهم ـ إلى أن يودوا للمسلمين كفراً بعد إيمان، وضلالاً بعد هدى، كل ذلك حسداً من قبل أنفسهم وبغياً على المسلمين!!.

رُوي عن الربيع ما روي عن أبي العالية من قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿ مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾: تبين لهم أن محمداً رسول الله، يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، وزاد فيه: فكفروا به حسداً وبغياً إذ كان من غيرهم.

وعلى هذا: فما دام الباعث حسدهم وبغيهم على المسلمين.. فليس عجيباً أن يصدر عنهم ـ في كل زمان ـ ما يصدر من تبييت الشر للمسلمين، والحرصِ على أن ينالهم الأذى، في كل ميدان من الميادين.. ورضي الله عن حبر هذ الأمة عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – إذ يقول: «من بعد ما تبين لهم الحق، يقول تعالى ذكره: من بعد ما أضاء لهم الحق، لم يجهلوا منه شيئاً، ولكن الحسد حملهم على الجحد، فعَيَّرهم الله ولامهم ووبخهم أشد الملامة، وشرع لنبيه ﷺ وللمؤمنين، ما هم عليه من التصديق والإيمان والإقرار بما أنزل الله عليهم، وما أنزل على من قبلهم، بكرامته وثوابه الجزيل ومعونته لهم».

ونسير مع الآية الكريمة، لنراها تختم بقوله تعالى: خطاباً للمؤمنين ﴿ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾.

يعني ربنا جل جلاله بذلك ـ والله أعلم ـ تجاوزوا أيها المؤمنون عما

كـان من أولئك الأعـداء، من إسـاءة ورغـبـة في أذيتكم، وخطأ في رأي أشاروا به عليكم في دينكم إرادَةَ صدّكم عنه، وأن تقعوا في مهواة الردَّة بعد إيمانكم، وعما سلف منهم من سوء الأدب مع نبيكم ﷺ، وكونوا يقظين لذلك، حتى يأتي الله بأمره، كما نرى في قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

يعني: فعليكم بالعفو والصفح، حتى يأتي الله بأمره، فيحدث لكم من أمره فيما يجب أن تسلكوه ما يشاء، ويقضي فيهم ما يريد. وانتهت هذه المرحلة التي كان المسلمون فيها على خير مستوى من الإحسان، والصبر على ما نالهم من الأذى، والتي صحب العفوَ والصفحَ فيها يقظةٌ وتنبهٌ إلى المقدمات والنتائج، وحقيقةِ ما يكمُن وراء التصرفات، وأتى الله بأمره وشرع قتال الأعداء والتقرب إلى مرضاته بجهادهم. قال شيخ المفسرين – رحمه الله –: فقضى فيهم تعالى ذكره وأتىٰ بأمره، فقال لنبيه ﷺ: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [التوبة: ٢٩]. وروى – رحمه الله – عن الربيع في قوله تعالى: ﴿ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ قال: اعفوا عن أهل الكتاب حتى يحدث الله أمراً، فأحدث الله بعد فقال: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ

الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ .
كما روى عن السدّي: هذا منسوخ نسخه ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ .

إنها ظاهرة التكامل والكمال في شريعة الإسلام؛ كان العفو والصفح والصبر على الأذى، حتى إذا لم يبق في القوس منزع، والأعداءُ في ضلالهم، ومحاربتهم للإسلام والمسلمين سادرون، أتى الله بأمره وشرع القتال، والله على كل شيء قدير.

هذه الحقائق..

أمانة في أعناق المسلمين

الكلمة القرآنية المعطاء، كنز لا يفنى، وطريق هداية حاشا لسالكه أن يضلّ. كيف لا، وهي سلسبيل كتاب لا تنقضي عجائبه ولا يَخْلَقُ على كثرة الرد، وهو ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ ﴾ [هود: ١]. وإذا كان الأمر كذلك: فأنى للعطاء الخيِّر أن ينفد؟ وأنى للهداية الشاملة أن ينحسر رواؤها عن الإنسان، حين يصدِّق هذا الإنسان، ويفتح قلبه وعقله لنور الهداية والعطاء؟ ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ۝١٠٩ ﴾ [الكهف: ١٠٩] ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٢٧ ﴾ [لقمان: ٢٧].

أقول هذا، ونحن على موعدنا في متابعة الرحلة مع الكلمة الهادية الزاخرة بكل ما يسعد المسلمين في الدنيا والآخرة، ويجنبهم الأذى، ويصعد بهم إلى مراقي الفلاح والتمكين، أن لو تدبروا هذا القرآن وعملوا بمقتضاه، وكانوا مع سنة نبيهم عليه الصلاة والسلام؛ في القول والعمل والسلوك.

ولقد كان من مظاهر الهداية في الكتاب والسنة، ما دُلَّ عليه المؤمنون من حقائق ذات علاقة بأعداء الله ورسوله والمؤمنين وما أعتاهم! . ومن هذه

الحقائق أن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين، مغرقون في حسد المسلمين والبغي عليهم؛ وقد حملهم ذلك على كراهية أن يكون للأمة المحمدية شيء ذو بالٍ من الخير، فضلاً عن أن يتنزل عليها القرآن الكريم، وتنعم برسالة المصطفى عليه الصلاة والسلام. بل إن كثيراً من اليهود، يودون لو عاد المسلمون من بعد إيمانهم، كفاراً، يتيهون في مسالك الضلال، ويفقدون مقومات العزة والنصر، والعياذ بالله.

ولا بد من التنبيه على أنه بعد الكشف عن هذه الحقيقة للمسلمين، كيما يكونوا على بينة من أمرهم، وكيما يكونوا على حذر واع في تعاملهم مع اليهود والمتهوِّدين.. جاءت الآية التي تلي، لتوجه هؤلاء المسلمين إلى أن المنهج النافع المجدي، يجب أن يلاحظ فيه أمران أساسيان؛ أما أولهما: فهو المعرفة الموضوعية بما عليه الأعداء، دونما اغترار بما قد يظهرون ويزخرفون، ولا غفلةٍ قد تمكنهم من مقاتلنا، ومن ثمرات ذلك: وجوب إعداد المستطاع من القوة. وأما الثاني: فهو أن يكون أهل الإسلام أبداً، عند الذي تقتضيه العقيدة؛ من صدق إيمان وعمل بأحكام الشريعة، وأن يكون سلوكهم صورة صادقة عن إيمانهم، ووضوح الرؤية عندهم، وأن لا يكون حظهم من الإسلام الاقتصارَ على الأمر الأول، وهو الكلام على الأعداء، مهملين العملَ والأخذ بالأسباب.

فالآية السابقة ـ وهي التاسعة بعد المائة في سورة البقرة ـ دلت على مكمن الخطر في موقف اليهود ودخلت إلى الأعماق، فكشفت عما يودونه من الأذى للمسلمين. وجاءت الآية التي تلتها، فأمرت المسلمين

بإقامة الصلاة وإيتاءالزكاة، مبينة لهم أن ما يقدمونه من خير ـ هكذا على الإطلاق ـ يجدون ثمراته الطيبة في الدنيا والآخرة؛ فهو سبحانه بما يعملون بصير. والآية التي نعني هي قول الله جلت حكمته: ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾**﴾ [البقرة: ١١٠]. فالله تعالى يحث المؤمنين على الاشتغال بما ينفعهم، وينمي إيمانهم، وقدرتهم الذاتية، وتعود عليهم عاقبتهُ، يوم يقوم الناس لرب العالمين؛ من إقامة الصلاة وإيتاءالزكاة، وذلك من أسباب النصر في الدنيا، والسعادة في الآخرة، ذلك لأن إقامة الصلاة وإيتاءالزكاة، نموذج مشرق صادق لتطويع السلوك، كيما يكون الفرد، والمجتمع في أمة الإسلام على صراط الله الذي إذا أحسنوا سلوكه، مُكِّن لهم في الأرض وأتاهم نصر الله، وكانوا أعقلَ من أن ينطلي عليهم مكر يهود، وأعزَّ من أن يهددوهم في عقر دارهم.. وكان لهم حسن العاقبة يوم الدين.

ولهذا ـ والله أعلم ـ تلا قوله تعالى: ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ**﴾ قوله جل ثناؤه: ﴿**وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾. أي مهما تعملوا من عمل صالح، في أيام حياتكم، فتقدموه ذخراً لأنفسكم ـ على ما للعمل الصالح من معنى شمولي لا يقتصر على العبادة التوقيفية، بل يمتد رواؤه إلى ما هو أوسع وأوسع ـ تجدوا آثاره الطيبة عند الله في الدنيا والآخرة، فهو الكريم المنان المتفضل، الذي لا يضيع عنده مثقال ذرة، وهو مجازٍ كل عامل بعمله، محسناً كان أو مسيئاً. قال الحافظ ابن كثير: وقوله تعالى: ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ**

وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ﴾ . يحثهم تعالى على الاشتغال بما ينفعهم، وتعود عليهم عاقبته يوم القيامة، من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، حتى يمكّن لهم النصر في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، يوم لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار.

وانظر إلى قوله تعالى في ختام الآية: **﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾** . هذا الكلام الذي خرج مخرج الخبر المؤكد، يحمل وعداً ووعيداً وأمراً وزجراً. فإذا كان الله قد جلّى الحقيقة بالنسبة لليهود؛ فإن ذلك أمانة في أعناق المسلمين، عليهم أن يراعوها، ويضعوها في حسبانهم. ولا يكفي أن يعلموها، ثم يتجاهلوها، أو يصحب العلم بها، انحراف عن الصراط السوي الذي جاء به الإسلام؛ فيما ينمي إدراك الحقيقة وأبعادها أكثر وأكثر، والقدرة على وضعها موضعها من الواقع، وتوجيه حركة التعامل مع اليهود، وأعداء الله على وجه العموم، وأن يكون المسلمون على استقامة في أمر دينهم إخلاصاً لله، وعملاً بشريعته، وأخذاً بأسباب المَنعة والتمكين... أن يُعنوا أشد العناية بتطبيق المنهج الذي كانوا به خير أمة أخرجت للناس!! والذي إن أخذوا بهديه تجاوزوا الواقع الأليم، وكانوا قادرين ـ بإذن الله ـ على صياغة واقع جديد، ينعمون فيه بالقوة والمنعة، والقدرة على نشر كلمة الله في العالمين.

وقوله تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾** ـ بعد الذي مر من تبصير المسلمين بحقيقة هي من خلال يهود، وبعد أن أمرهم بالعمل بأحكام الدين ـ استوقف شيخ المفسرين فقال: (وهذا خبر من الله جل ثناؤه للذين خاطبهم بهذه الآيات من المؤمنين، أنهم مهما فعلوا من خير وشر،

سراً وعلانية فهو به بصير ولا يخفى عليه منه شيء، فيجزيهم بالإحسان مثله وبالإساءة مثلها. ثم قال - رحمه الله -: (وهذا الكلام وإن خرج مخرج الخبر، فإن فيه وعداً ووعيداً وأمراً وزجراً، وذلك أنه أعلم بالقوم، وأنه بصير بجميع أعمالهم، ليجدُّوا في طاعته، إذ كان ذلك مدخوراً لهم عنده حتى يثيبهم أعمالهم، ليجدُّوا في طاعته، إذ كان ذلك مدخورا لهم عنده حتى يثيبهم عليه، كما قال: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ﴾ وليحذروا معصيته إذ كان مطلعاً على راكبها، بعد تقدمه إليه فيها بالوعيد عليها، وما أوعد عليه ربّنا جلَّ ثناؤه فمنهي عنه، وما وعد عليه فمأمور به).

ترى: هل نعمل على أن نكون منصفين مع أنفسنا ومع الحقيقة، فننظرَ بشجاعة أدبية إلى ما نحن عليه في واقعنا مع يهود وغير يهود، ونحاولَ محاولة جادة، لا ينقصها حسن الأخذ بما وجّه إليه القرآن الكريم وبيانه من السنة لتحقيق ذلك... إننا إن فعلنا ذلك، نكون قد وضعنا أقدامنا على الطريق الموصلة إلى ما ينشده المؤمنون المخلصون، الذين يعون أن لله سننا لا تتخلّف في النصر والتمكين، وهو - جلَّ شأنه - ينصر من يشاء وهو العزيز الحكيم.

وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ

النهي عن تقليد اليهود وموالاتهم، والاطمئنان إلى الأخذ عنهم ـ وخاصة في أمور الدين ـ بجانب أن فيه تأكيد ذاتية الأمة المسلمة، وضرورة ارتباطها بمنابع وجودها الحقيقي في كتاب الله وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام؛ يلاحظ أنه معلَّل أيضاً ـ في نصوص القرآن الكريم والحديث النبوي ـ بأن أولئك المغضوب عليهم، لا يؤتمنون على شيء من هذا؛ لأن صدورهم تغلي بالحقد والحسد للمسلمين، والبغي عليهم وودِّهم أن يكون المسلمين على شر حال، ذلك من بعد ما تبين لهم الحق.

وقد سعدنا بصحبة عدد من الآيات التي كشفت عن هذه الحقيقة، ونبهت المسلمين عليها، بأسلوب يربط القضية الطارئة بالموضوع الكبير، دون تحديد بزمن أو فئة من الناس، وهذا يوحي بأن القضية المطروحة، والتي تتمثل بحسد اليهود، وبغيهم وحقدهم على أمة محمد عليه الصلاة والسلام؛ وأنهم لا يودون لها إلا المساءة في الدين والدنيا ـ مع علمهم بالحق، وأن مسلكهم هو الباطل بعينه ـ يجب أن تكون في حسبان المسلمين وموضع اهتمامهم في كل عصر، وعلى أيٍّ صعيد من أصعدة التعامل مع الأعداء في حالات السلم والحرب. وأن يكونوا على تنبه تام يباعد عن الغفلة والاغترار بالمظاهر، وزخرف القول.

والحق أن عناية القرآن وبيانه من السنة، كانت واضحة كل الوضوح

في هذا . . . ولو رحنا نتتبع النصوص ـ التي هي من الصدق وإليه، والتي أيدها الواقع عبر التاريخ، بدءاً من عهد النبي عليه الصلاة والسلام ـ لوقعنا على ما يشفي الغُلة، ولا يدع ريبة لمستريب.

وفي هذه البابة نقرأ في سورة آل عمران، وسورة آل عمران، سورة مدنية نزلت والمجتمع المسلم يمور بالحركة الهادية، ويواجه الأعداء بشتىٰ عناوينهم وألوانهم وفي مقدمتهم اليهود الذين يتربصون الدوائر ويحاولون ـ في جملة ما يحاولون ـ أن يضلوا المسلمين ويوقعوهم في المهالك، كيما يفقد هؤلاء المسلمون مقومات الوجود الذاتي وعناصر القوة، ويعود إليهم ـ أعني اليهود ـ ما كان لهم من السلطان في المدينة وما حولها، قبل أن تشرقَ شمس الإسلام، ويدخلَ هذا الدين كل بيت في المدينة . . . في هذه البابة نقرأ في هذه السورة المباركة قول الله جل ذكره : ﴿ **وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ** ﴿٦٩﴾ ﴾ [آل عمران : ٦٩] .

يخبر تبارك وتعالى في هذه الآية، عن حسد اليهود للمؤمنين، وبغيهم إياهم الإضلال، بأن يصدوهم عن الإسلام، ويردوهم عنه إلى ما هم عليه من الكفر، وبذلك يقعون في الهلكة والخسران. ومن بلاغة القرآن ـ وهو الكتاب المعجز ـ أن عبَّر بالإضلال هنا ـ والمراد به الإهلاك ـ لما أن الضلال طريق لهلاك بلا ريب، وفي هذا مزيد من تنبيه المسلمين على أن يكونوا على حذر من أي خطوة من خطوات الضلال، لأن ذلك عنوان السير على طريق النهاية؛ ما دام هذا الضلال ـ كما هو معلوم ـ بريد الهلاك في الدنيا والآخرة.

فاليهود عندما يتمون إضلال المسلمين، فالغرض واضح من ذلك؛ فإذا استجاب المسلمون لدعوة ضالة ـ وما أكثر ما يقف اليهود والصليبيون وراء الدعوات الضالة. . ـ يكونون قد رضوا لأنفسهم سوء العاقبة، والتحول عن الأصالة والقوة، وما فيه مرضاة الله عز وجل، إلى ما هو خسران مبين في هذه الدار، ويوم يقوم الناس لرب العالمين.

قال الإمام الطبري: والإضلال في هذا الموضع ـ يعني في قوله تعالى: ﴿ وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ ﴾ ـ الإهلاك، من قول الله عز وجل: ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [السجدة: ١٠]. ومما استشهد به على هذا المعنى قول نابغة بني ذبيان:

فآبَ مضِلُّوه بعَينٍ جَلِيَّةٍ وغودرَ بالجولانِ حَزْمٌ ونائلُ

ثم أخبر تعالى أن وبال محاولتهم صدَّ المسلمين عن دينهم، إنما يعود على أنفسهم وهم لا يشعرون، ذلكم قوله تعالى: ﴿ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾.

أجل: إنهم يهلكون أنفسهم، وأتباعهم وأشياعهم على ملتهم ومسالكهم، وإنما أهلكوا أنفسهم وأتباعهم بما حاولوا من ذلك، لأنهم استوجبوا بمحاولاتهم الآثمة سخط الله، واستحقوا غضبه ولعنته، لكفرهم بالله ونقضهم الميثاق الذي أخذ عليهم في كتابهم، في اتباع محمد ﷺ وتصديقه والإقرار بنبوته.

على أنهم لم يقفوا عند هذا الحد من الكفر ونقض الميثاق، بل حاولوا صدَّ المسلمين عن دينهم الحق، إذ لا يهدأ لهم بال ـ وهم يتمرغون بلعنات الله وغضبه ـ حتى يبلغوا الغاية لو استطاعوا، في تحويل المسلمين عن طريق الإيمان والعزة والتمكين، إلى طريق الكفر والذِلَّة والهوان.

وفي قوله تعالى في ختام الآية: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ إخبار منه جل ثناؤه، وأن أولئك اليهود يفعلون ما يفعلون؛ من محاولة صد المؤمنين عن الهدى، إلى الضلالة والردى، على عماية منهم وجهلٍ بما الله مُحِلٌّ بهم من عقوبته، ومدَّخرٌ لهم من أليم عذابه، وشديد أخْذِه؛ فأخْذُه ـ سبحانه ـ أليم شديد.

فإذا وعى المسلمون هذه الحقيقة، وعملوا بمقتضاها، وكانوا على يقظة من أمرهم، فاستمسكوا بالحق الذي نزل به الكتاب، كان الله معهم، فوقاهم شر اليهود ومن هم على سَنَن اليهود، وعادت محاولات الأعداء الظالمة عليهم، ورُدَّت سهامهم إلى نحورهم. ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يوسف: ٢١].

يلبسون الحق بالباطل..
ويكتمون الحق وهم يعلمون

حططنا الرحال من قريب، ونحن نعرض لبعض من توجيهات الكتاب العزيز في شأن المتربصين بنا الدوائر، وما يجب من أخذ الحِذْر وعدم الاطمئنان إلى ما يصدر عنهم، وبخاصة إذا كان ذلك في أمر من أمور الدين، لأنهم ينطلقون في تعاملهم مع المسلمين، من الرغبة الجامحة في الأذى، وهي رغبة مصحوبة بالحسد من عند أنفسهم، والبغي على عباد الله المؤمنين.

أقول: حططنا الرحال، ونحن نعرض لبعض من ذلك، عند قول الله تبارك وتعالى في الآية التاسعة والستين من سورة آل عمران: ﴿ **وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ** ﴿٦٩﴾ ﴾ [آل عمران: ٦٩].

وغير خافٍ، أن الآية تقفنا على حقيقة ما ودّ أولئك الحاقدون، وهم طائفة من اليهود، أن يوقعوا المسلمين في الضلال، فيكون ذلك طريقهم إلى الهلكة والخسران المبين. وقد فسِّرت ـ يضلونكم ـ على أنها بمعنى ـ يهلكونكم ـ لأن الإضلال جاء بمعنى الإهلاك في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿ **وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ** ﴾ [السجدة: ١٠]. ولما أن الضلال ـ كما أسلفنا ـ طريق الهلاك، لأن المسلمين إذا تحوّلوا

عن طريق الهداية، الذي هو قوام عزهم وتمكينهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة: فمعنى ذلك، أنهم رضوا بما هو على النقيض من ثمرات الهداية، فلا عزَّ ولا تمكين، ولا فوز برضوان الله، يوم يقوم الناس لرب العالمين، وأيُّ هلاك كهذا الهلاك المدمّر الذي لا يُبقي ولا يَذَر!!

على أن الآية الكريمة، نبهت على أن هؤلاءاليهود ـ وهم يودون إضلال المسلمين، وإهلاكهم ـ ما يضلّون ويهلكون إلا أنفسهم وأتباعهم وأعوانهم. وفي الوقت نفسه، لا يشعرون؛ لا يدرون ولا يعلمون أنهم ممكور بهم، وأنهم فيما يصنعون ويحاولون من الأذية، واقعون في حمأة العماية عما هو مُعَدٌّ لهم من العقاب الشديد والعذاب الأليم، ناهيك عن افتضاحهم على رؤوس الخلائق، في الدنيا ويوم والدين.

ثم عادت بنا الآيات الكريمات، لتربط الحقيقة المشار إليها بجذورها، على صعيد العقيدة، فاليهود ضلُّوا، ومن بعدُ، ودُّوا لو يُضلّون المسلمين؛ وإذن فالرغبة في إضلال المسلمين وتسييرهم في طريق الهلاك والدمار، مرتبطة أيَّما ارتباط بظُلَم الضلالة التي ترين على قلوبهم والعياذ بالله، ولذلك جاءت الآية التي تلي، تحمل صورة واضحة للإنكار عليهم، وتوبيخهم على كفرهم بآيات الله، وهم عالمون بصدقها، وموقنون في قرارة نفوسهم، بأن ما يدعو إليه محمد ﷺ هو الحق.. ولكنه الحسد والبغي والانحراف المتأصل في النفوس؛ ذلكم قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [آل عمران: ٧٠].

هذا واحد من الجذور التي ينتمي إليها طغيانهم، وَوُدُّهم لو يسير

المسلمون في الطريق الضالة التي توردهم موارد الهلكة والردى؛ يا أهل الكتاب من اليهود والنصارى، لم تكفرون، لم تجحدون بما في كتاب الله الذي أنزله إليكم على ألسن أنبيائه من آيه وأدلته، وأنتم تشهدون أنه حق من عند ربكم؟ ومن ذلك ما جاء في صفة محمد ﷺ، وأحقية ما يوحىٰ إليه من دين الإسلام. قال قتادة - رحمه الله -: ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ** ﴾ يقول: تشهدون أن نعت محمد نبي الله ﷺ في كتابكم، ثم تكفرون به وتنكرونه ولا تؤمنون به، وأنتم تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل ﴿ **النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ** ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

كما روى أبو جعفر عن الربيع في معنى الآية أيضاً: تشهدون أن نعت محمد في كتابكم، ثم تكفرون به ولا تؤمنون به، وأنتم تجدونه عندكم في التوراة والإنجيل «النبي الأمي».

والذي روي عن ابن جريج: أن المعنى: يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون أن الدين عند الله الإسلام، ليس لله دين غيره.

ونتابع مع الكلمات الهاديات، كشفها عن جذور الرغبة في الإضلال عند اليهود، وأن ذلك امتداد لعدوانهم على الحق، مع علمهم بأنه الحق، فكأنهم - لضلالهم المتشعب الملقي بجرانه على النفوس والقلوب - لا يريدون لأحد أن يهتدي، بل يودّون لو ارتد المسلمون عن دينهم، ودارت عليهم دائرة السَّوء في الدنيا والآخرة... نتابع الكشف عن تلك الجذور الضاربة في العقول والقلوب، لنرى أن قول الله تعالى: ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ**

تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ يتلوه قوله جل ثناؤه : ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴿٧١﴾ ﴾ [آل عمران : ٧١] .

إنها لمحة من لمحات الإعجاز في هذا الكتاب الكريم . . . هنالك خبث ومكر ـ على الصعيد الفكري ـ يصحبان الكفر بالحق، مع العلم أنه الحق ـ كما نصَّت عليه كتبهم التي يزعمون الإيمان بها ـ وكان من ثمرة الخبث والمكر، لَبْسُ الحق بالباطل، خلطٌ بين الحق والباطل قد يؤدي ـ على وهمهم ـ إلى تمييع القضية الأولى، قضية الإيمان بمحمد ﷺ وبما أوحي إليه . . إلى جانب ما يمكن أن يدخل على بعض البسطاء الذين تعوزهم المعرفة الأصيلة، من أن الحق قد يكون هنا، وقد يكون هناك . فأهل الكتاب يلبسون الحق بالباطل، يخلطون الإسلام باليهودية والنصرانية، ويسلكون سبيل النفاق، مع أن الإسلام هو الدين الذي ارتضاه الله لعباده، ولا يقبل ديناً غيره، ويكتمون الحق . . يكتمون شأن محمد ﷺ والإسلام، وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل .

هكذا تضع الآية الكريمة يد الإنسان ـ عبر العصور ـ على هذه الحقيقة ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ ويبدو أن القوم سلكوا طريقاً تتواءم مع الإنكار والجحود، وربما كانت شركاً يقع فيه المسلمون، فيتحولون عن دينهم وتحلُّ بهم القارعة، ذلك أنهم ـ كما أسلفنا من قبل ـ لجؤوا إلى النفاق فبدؤوا يظهرون بألسنتهم من التصديق بما جاء به محمد ﷺ، غير الذي تنطوي عليه قلوبهم من الجحود والكفران، ووراء الأكمة في ذلك ما وراءها . فقد روي

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال: قال عبد الله بن الصيِّف وعدي بن زيد والحارث بن عوف بعضهم لبعض: تعالوا نؤمن بما أنزل على محمد وأصحابه غُدوة ونكفر به عشية، حتى نلْبس عليهم دينهم، لعلهم يصنعون كما نصنع، فيرجعوا عن دينهم فأنزل الله عز وجل فيهم: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ...﴾ إلى قوله ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

ويبدو أن حركة أعداء الله، كانت دائبة على الصعيد الفكري، وكان لبس الحق بالباطل واحدةً من دعائمها.

وليت أنّا نتدبر ما جاء في كتابنا حق التدبر؛ إذن لأصبحنا أكثر وعياً لخلائق اليهود ومن يظاهر اليهود، ولكان في مقدورنا تجاوز الواقع الذي لا نغبط عليه، إلى واقع نكون أصحاب الكلمة فيه ويومئذ تستعلن الحقيقة من جديد، وينحسر ما كان من لبس الحق بالباطل، بعد أن يعلم الله الذين جاهدوا ويعلم الصابرين.

وينافقون.. ليضلوا عن سبيل الله

لا ينكر منصف أن القراءة المتدبرة الواعية للقرآن الكريم، وما تنزّل من آيه في شأن من همُّهم الصَّدُّ عن سبيل الله، ومناصبتُه أهل الحق العداءَ في شتى الميادين.. لا نكرانَ في أن ذلك كفيل ـ بعون الله ـ إذا خلصت النيات، وصدقت العزائم، أن يخرج بالمسلمين، إلى حيث يمسكون بعاتق الميزان في معركة التحديات التي يواجهون على ساحتها اليهود وأعوانَ اليهود، ويملكون القدرة على أن يقولوا ويفعلوا، ويأخذوا بأسباب القوة والتمكين بذاتيةٍ وأصالةٍ، بتميُّزٍ يعيدهم إلى ما كانوا عليه من القيادة والسيادة، يوم كانوا منقادين لكلمة الإسلام، وكانت مرضاة الله ورسوله أعز ما يطلبون.

أقول هذا، وأنا بسبيل أن أعيد إلى الذاكرة، ما كشفت عنه آيتان كريمتان في سورة آل عمران هما الآية السبعون والآية الحادية والسبعون، من جذور يرتبط بها ما يودُّه اليهود ـ وأهل الكتاب بعامة ـ من أذى المسلمين، ومن ذلك أن يضلُّوا فيهلكوا.

والآيتان المعنيتان هما قول الله تبارك وتعالى: ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (٧٠)** ﴾ ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٧١)** ﴾ وقد سبق ذلك قول الله جل ثناؤه: ﴿ **وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٦٩)** ﴾ [آل عمران: ٦٩].

فهؤلاء الذين ودُّوا لو يضلون المسلمين، يزينون لهم طريق الباطل فيتحولون عن الحق فيهلكوا، وأخبر الله أنهم ما يضلون إلا أنفسهم وأتباعهم، وما يشعرون بما هو معد لهم من العذاب الأليم، والخسران المبين.

هؤلاء الضالون المضلون، هم كافرون بمحمد ﷺ وما أُنزل على محمد، وكفرهم هذا: ليس عن جهل أو غباء، ولكنه كفر عنادٍ متأصل في النفس وصورة عن الحسد والبغي على المسلمين.

فهم يكفرون بآيات الله مع علمهم بأن كتبهم قد أثبتت أوصاف محمد ﷺ ودعت إلى الإيمان به، وبما جاء به، على شكل لا يقبل الاحتمال... كان لهم هذا الموقف وهم يتعالَون على الناس بأنهم أهل كتاب وأنهم يعلمون ما لا يعلم غيرهم، وأن لهم الأفضلية في ميدان الفكر، وفلسفة التاريخ، والقدرة على معرفة الحق من الباطل. ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ**﴾.

وجاءت الآية التالية ـ كما مر بنا قبل ـ لتضع أيدينا على أنهم يلبسون الحق بالباطل، ويخلِطون الإسلام باليهودية والنصرانية، وترى النفاق اليهودي وسيلة من وسائل الإضلال والتغرير بالآخرين. وكلمات عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – حبر هذه الأمة تؤذن ـ كما روى الطبري ـ بأن عبد الله بن الصيِّف وعديّ بن زيد والحارث بن عوف قال بعضهم لبعض: تعالوا نؤمن بما أنزل على محمد وأصحابه غدوة ونكفر به عشية حتى نلْبس عليهم دينهم، لعلهم يصنعون كما نصنع فيرجعوا عن

دينهم، فأنزل الله عز وجل فيهم: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ﴾ إلى قوله ﴿ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ والآيات التي عناها ابن عباس هي قول الله تعالى: ﴿ وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلا تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ [آل عمران: ٧٢، ٧٣].

والحق أن هذه الواقعة ـ كما يخبر عنها هذا العالم الكبير من علماء الصحابة وأحد العبادلة الأربعة ـ ذات دلالة واضحة على النهج الذي حاول اليهود سلوكه مرحلة بعد مرحلة، بغية المضارّة بالمسلمين وتحويلهم ـ لو أمكن ذلك ـ عن طريق الإيمان والقوة والهدى، إلى طريق الضلالة والضعف والردى. فإذا كان قوله تعالى: ﴿ وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ ﴾ الآية، قد كشفت عما يودُّ هؤلاء الكفرة الفجرة للمسلمين، فإن الواقعة التي نومئ إليها والتي نزلت بشأنها الآيات المشار إليها ـ كما دلت الآية هذه ـ تكشف عن تجربة عملية، أراد اليهود أن يقوموا بها لعلها تجدي في إضلال المسلمين، تلك التجربة، هي سلوك طريق النفاق، كما تمالأ على ذلك أولئك النفر من اليهود عبد الله بن الصيِّف وعدي بن زيد والحارث بن عوف، حيث تداعوا ـ كما سبق ـ إلى الإيمان بما أنزل على الرسول ﷺ غدوة والكفر به عشية، حتى يلبسوا على المسلمين دينهم، لعلهم يقعون في شرك التقليد الأعمى، فيصنعوا كما صنعوا هم، فيرجعوا عن إيمانهم بالإسلام وتصديقهم بمحمد عليه الصلاة والسلام.

فنزلت الآيات تفضح صنيعهم، وتعرّي نفاقهم، الذي قام على لبس الحق بالباطل، ولَبْسِ الإسلام باليهودية والنصرانية، والظهور بالمظهر المخالف لما يبطنون ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ إنهم يلبسون الحق بالباطل ويكتمون الحق وهم على علم به، وقناعة بالدليل الذي قام عليه.

وأنت تلاحظ ـ بجانب ما رأينا عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ أن قتادة ـ فيما روي عنه ـ يقول في معنى الآية: (لم تلبسون اليهودية والنصرانية بالإسلام وقد علمتم أن دين الله الذي لا يقبل غيره: الإسلام، ولا يجزي إلا به؟) وقد روي نحو ذلك عن الربيع وابن جريج رحمهم الله أجمعين. على أنه قد روي عن ابن زيد في قول الله عز وجل: ﴿**لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ**﴾ قال: الحق: التوراة التي أنزل الله على موسى والباطل: الذي كتبوه بأيديهم. ويمكن القول بأن هذا كلّه قد كان من اليهود، فقد كتبوا بأيديهم كلاماً من عند أنفسهم، فزعموا أنه التوراة أو من التوراة، وخلطوا بين الحق والباطل أيضاً، حيث لبسوا هم وأهل الكتاب الآخرون: اليهودية والنصرانية، بالإسلام.

أما الحق الذي كتموه: فهو ما في كتبهم من نعت محمد ﷺ ومبعثه ونبوته وهم يعلمون أن ما يكتمونه هو الحق، وأنه من عند الله. قال قتادة: قوله: ﴿**وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ كتموا شأن محمد وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، وروي مثل ذلك عن الربيع. وقال ابن جريج: ﴿**وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ**﴾ الإسلام

وأمر محمد ﷺ وأنتم تعلمون أن محمداً رسول الله وأن الدين هو الإسلام.

تلكم هي البدايات. وجاءت الوقائع ـ عبر التاريخ ـ لتؤكدها أوضح تأكيد. ومطلوب من الأمة الإسلامية اليوم، أن لا تتخذ هذه الحقائق ـ وهي تعاني ما تعانى من ويلات يهود وأعوانهم ـ وراءها ظهرياً. وبذلك تدفع عن نفسها وعن الإنسانية وبال شر مستطير، لا يخفى على منصف من بني الإنسان. ولله الأمر من قبل ومن بعد وهو حسبنا ونعم الوكيل.

آمنوا وجه النّهار.. واكفروا آخره

لعلهم يرجعون

مرّ بنا ـ ونحن نرصد الجذور التي يرتبط بها ما يوده اليهود من إضلال المسلمين، وجعلهم يتوجهون إلى حيث الهلكة المدمِّرة في الدنيا والآخرة ـ ما روى الإمام الطبري عن عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال: قال عبد الله بن الصيِّف وعدي بن زيد، والحارث بن عوف بعضهم لبعض، تعالوا نؤمن بما أنزل على محمد وأصحابه غدوةً ونكفر به عشية، حتى نلبس عليهم دينهم، لعلهم يصنعون كما نصنع، فيرجعوا عن دينهم فأنزل الله عز وجل فيهم: ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴿٧١﴾ ﴾ إلى قوله: ﴿ **وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** ﴾.

هكذا ائتمر هؤلاء الرهط من اليهود فيما بينهم، وبيتوا أن يسلكوا هذا المسلك، ليكون جزءاً من منهج، قوامُه: المكر والانحراف عن الحق إلى الباطل، لعلهم يصيبون من المسلمين مقتلاً، فيضلوهم عن سواء السبيل؛ وذلك بارتدادهم عن الدين والعياذ بالله.

والحق أن هذا البيان في كتاب الله لواحدٍ من الأسلحة التي حاول استخدامَها أعداؤهم، نعمةٌ كبرى يقدرها حق قدرها المدركون لأبعاد الصراع، والأغراض القريبة والبعيدة التي يحلم اليهود بتحقيقها، ابتداءً من العمل على زعزعة القاعدة الأولى، في بناء الإسلام العظيم.

وهو في الوقت نفسه، حجةٌ على الأمة، لا عذر لها إن هي أعرضت عن دلالته العميقة، وخاضت كالذي خاضوا، ناسية أو متناسية، أن الكلام كلام رب العالمين الذي يعلم سر الأعداء ونجواهم ـ وكتابُه الكريم، وحيُه إلى نبيه عليه الصلاة والسلام؛ فهو الحق كله، وهو الهداية كلها.

من أجل هذا: يمكن القول في شأن هذه الواقعة، التي تقوم على تبييت صورة من المكر قوامها النفاق، لتحويل المسلمين أو بعضهم ـ إن أمكن ـ عن مكامن الإيمان والقوة، إلى الزعزعة والضياع، بعد أن تبين علم اليهود أن المسلمين على حق، وأن أعداء الله يتعمدون لبس الحق بالباطل وكتمان الحق وهم يعلمون... يمكن القول: بأن معالجة هذه الواقعة وأمثالها في الكتاب الكريم.. من الثوابت التي لا خيار للمسلم، في أن يضعها موضع الانتفاع، أو لا يضعها كذلك، والإعراض عن هذه المحجة: اختيارُ التي هي أسوأ سبيلاً وأشنع عقبى.

وواقع المسلمين اليوم ـ نتيجةَ الإعراض – في كثير من الميادين – عن هدي الكتاب والسنة في شأن اليهود وأذيالهم، وأعداء الله بعامة ـ: إعلان واضح جدٌ واضح لهذه الحقيقة، وتأكيد لها أيَّ إعلان وتأكيد!! والآيات التي أشير إلى أن هذه الواقعة التي يدار حولها الحديث: كانت سبب نزولها هي قول الله تعالى ـ كما سبق ـ: **﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا**

تؤْمِنُوا إلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ [آل عمران: ٧١ – ٧٣] تلا ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾ [آل عمران: ٧٤].

وبعد أن وقفنا في الماضي القريب على قبسات من هدي الآيات التاسعة والستين والسبعين والحادية والسبعين، لعل من الخير أن نتابع اصطحاب الكلمة الهادية في الآيات التي أوردناها، والتي لها ارتباط بسبب النزول المرويٍّ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

ففي قوله تعالى: ﴿ وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ما بدٌّ من تبيُّن ما أرادت تلك الطائفة من اليهود ـ حين أمرت الأتباع بالإيمان بما أنزل على الذين آمنوا وجه النهار والكفر آخره ـ. إن الإيمان وهو يقوم ـ أول ما يقوم ـ على التصديق الجازم بالقلب، لا يحتمل هذا العبث الذي أراده هؤلاء... إنهم يريدون لأتباعهم المراوحة بين الإيمان والكفر؛ فهم مؤمنون ومصدقون وجه النهار.. ولكنهم ينقلبون إلى كافرين ملعونين آخر النهار. من هنا كانت للعلماء نظرات في هذا الذي أراده هؤلاء، وتبيُّن ذلك يسهم في إدراك الملامح العامة للمنهج الذي أراد اليهود سلوكه، بوصفه سلاحاً من أسلحة المواجهة مع الدعوة الجديدة، ونبيها عليه الصلاة والسلام والمؤمنين.

فهنالك اتجاه يفسِّر صنيع تلك الطائفة من اليهود، بأنهم أرادوا من أتباعهم أن يكون لهم موقف معلَن يرضى عنه المسلمون ـ بحسب الظاهر

ـ وموقف حقيقيٌّ يقوم على الجحود، ونفي أي اعتقاد بذلك الحق المنزل على الرسول عليه الصلاة والسلام. فكان التوجيه، أمراً من الطائفة لأن يصدِّق المأمورون ـ وجه النهار ـ النبيَّ ﷺ في نبوته وما جاء به من عند الله، وأنه حق في الظاهر، على أن يكون منهم عدم التصديق ـ بالعزم واعتقاد القلوب على ذلك، والكفر به وجحود ذلك كُلِّيَّةً ـ في آخره.

وكان يرى من تولىٰ كبر هذا العبث، أن ذلك أدعى لتصديق المسلمين أولئك اليهود فيما يظهرون من دعوى الإيمان، وأنهم ما رجعوا عن ذلك الإيمان، إلا أنهم رأوا في المسلمين ما يكرهون، وثمرة ذلك ـ فيما تصوَّر سدنة الضلال ـ أن يرجع المؤمنون عن دينهم، ويستبدلوا الذي هو أدنىٰ بالذي هو خير.

فقد روى الإمام الطبري بسنده عن قتادة في قوله: ﴿آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ﴾ فقال بعضهم لبعض: أعطوهم الرضى بدينهم أول النهار واكفروا آخره، فإنه أجدر أن يصدِّقوكم، ويعلموا أنكم قد رأيتم فيهم ما يكرهون، وهو أجدر أن يرجعوا عن دينهم. وواضح من هذا: أن أصحاب ذلك الرأي من اليهود، كانوا يرون فيه سبيلاً إلى إغراء المسلمين بالتحوُّل عما أكرمهم الله به من هداية ونور، فعن أبي مالك الغفاري في هذه الآية ـ كما جاء في (جامع البيان) ـ: قالت اليهود: آمنوا معهم أول النهار واكفروا آخره، لعلهم يرجعون معكم.

هذا: ويبدو أن الطائفة التي أمرت بالإيمان وجه النهار والكفر آخره، لم تكن قصراً على أولئك العتاة الذين ورد ذكرهم في رواية عبد الله بن

عباس - رضي الله عنهما - وهم: عبد الله بن الصيِّف وعديٌّ بن زيد والحارث بن عوف، فهنالك ما يدل على أن أكثر من جهة، قد أمرت بهذا، وذلك ما يكشف عن أن هذا المكر العابث، والاحتيال الخبيث كان لهما وجود عريض في صفوف أحبار اليهود وذوي الرأي فيهم، فقد روي عن السدي ما يدل على ذلك، ويوحي بشيء من محاولة الدخول إلى نفوس المسلمين، من شتى الطرق، بما فيها الكذب والتمويه وقلب الحقائق، لعل المحاولة تجدي ولو بالتشكيك.

يقول السدي - رحمه الله ـ كما روى عنه شيخ المفسرين في (جامع البيان) ـ كان أحبار قرىً عربية اثني عشر حبراً، فقالوا لبعض اليهود: ادخلوا في دين محمد أول النهار وقولوا: «نشهد أن محمداً صادق» فإذا كان آخر النهار فاكفروا وقولوا: «إنا رجعنا إلى علمائنا وأحبارنا فسألناهم، فحدثونا أن محمداً كاذب، وأنكم لستم على شيء، وقد رجعنا إلى ديننا فهو أعجب إلينا من دينكم» لعلهم يشكّون، يقولون: هؤلاء كانوا معنا أول النهار، فما بالهم؟ فأخبر الله عز وجل رسوله بذلك.

أجل! فأخبر الله عز وجل رسوله بذلك، وخسئت يهود. إن إغراق اليهود في كفرهم الظالم، وحسدهم وبغيهم على المسلمين، كل ذلك أعمى أبصارهم وبصائرهم، وإلا فمنذا الذي ينصاع إليهم في احتيالهم وكذبهم، ويخفى عليه أن ما يقولونه ـ بعد أن آمنوا وجه النهار وكفروا آخره ـ ضربٌ من التخلخل النفسي، وأثر من آثار الران المطبق على القلوب... خصوصاً وأن تصرفاتهم ـ فيما وراء ذلك ـ كلها شاهد صدق

على الانحراف، وأنهم يضمرون للمسلمين كل سوء، ولا يودُّون لهم إلا الأذى والهلاك.

ولقد تتابعت الروايات على تأكيد ما جاء، من أن الله أطلع رسوله ﷺ على مكرهم، وكان ذلك من فضل الله على المسلمين. وما عليهم إلا أن يذكروا الفضل ، فيشكروه بالعمل واليقظة والحذر. جاء عن أبي مالك الغفاري قوله: قالت اليهود بعضهم لبعض: أسلموا أول النهار وارتدوا آخره، فأطلع الله على سرهم فأنزل الله عز وجل: ﴿**وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾.

والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، ونسأله أن يرزق أمتنا العبرة، كي تحدد نوع تعاملها مع اليهود، في ضوء ما جاء عن الله ورسوله. ﴿**إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً** ﴿٣٠﴾﴾ [الكهف: ٣٠].

مع النفاق..
ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم

في حديث عما يضمر اليهود في أنفسهم للمسلمين، من الودّ المردي، والرغبة في أن يتحولوا عن طريق الهدى وسعادة الدنيا والآخرة، إلى طريق الضلالة والهلاك، كانت لنا وقفة عند آيات من سورة آل عمران، هي قوله تعالى: ﴿وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ...﴾ [آل عمران: ٦٩] الآيات، تكشف عن هذه الحقيقة وتربطها بجذورها في تلك النفوس المريضة، التي أعماها الحسد وإرادة البغي على الإسلام وأهله، وتومئ إلى ما كان من تأنيب الله إياهم على ذلك، إذ أنهم يكفرون، مع يقينهم أنهم على الباطل. ويلبسون الحق بالباطل، وهم يعلمون ما هو حق وما هو باطل.

كما تكشف عن واحدة من خططهم فيما يطمحون إليه ـ وهم دائبون على المكر والخديعة وتبييت الشر والأذى ـ وهي أن طائفة منهم طلبت من الأتباع، أن يؤمنوا بما أنزل على الذين آمنوا وجه النهار، ويكفرو آخره، لعل هذه الخديعة تنطلي على المسلمين، فيظنوا بالطرق التي يسلكونها ظن السَّوء، ويتحوَّلوا إلى ما يريده اليهود عليهم لعائن الله.

إن الذي أوصت به تلك الطائفة من اليهود أتباعها، لم يقتصر على أمرهم بأن ينافقوا، ويمكروا في إيمانهم، فيؤمنوا بما أنزل على الذين آمنوا

وجه النهار، ويكفروا آخره، وذلك بأن يظهروا إيمانهم أول النهار، ويصلوا مع المسلمين صلاة الصبح، فإذا جاء آخر النهار، ارتدوا إلى دينهم، ليقول الجهلة من الناس: إنما ردهم إلى دينهم نقيصة وعيب في دين المسلمين. ولكنه تجاوز ذلك إلى أمور أُخر نجدها في قوله تعالى: ﴿**وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ**﴾ الآية.

يقولون لهم: عندما تظهرون الإيمان بدين الإسلام: حذارِ أن يُداخلكم شيء من الطمأنينة للمسلمين؛ هكذا أمروهم ونهوهم... هناك في الشق الأول ﴿**آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾**﴾ [آل عمران: ٧٢] وهنا في الشق الثاني ﴿**وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ**﴾ لا تصدقوا إلا من اتبع دينكم، فكان يهودياً لحماً ودماً، يحمل الحقد كله، والحسد كله، ولا يضمر للمسلمين إلا السوء والشر، وجاء عند الحافظ ابن كثير قوله في معنى كلامهم: (لا تطمئنوا وتظهروا سروركم، وما عندكم إلا لمن كان على اليهودية، ولا تظهروا ما بأيديكم للمسلمين فيؤمنوا به ويحتجوا عليكم به). يؤيد ذلك ما روى الطبري بسنده عن السدي: ﴿**وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ**﴾ قال: لا تؤمنوا إلا لمن تبع اليهودية. وما روى عن ابن زيد أن المعنى: لا تؤمنوا إلا لمن آمن بدينكم. ومن خالفه فلا تؤمنوا له.

ولقد جاء الرد عليهم في قيلهم هذا، فقال تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ**﴾ فهذا اعتراض في وسط الكلام يحمل الإخبار عن حقيقة لا يصح التغافل عنها، وهي أن البيان بيانُه سبحانه وتعالى، والهدى هداه؛

فهو الذي يهدي قلوب المؤمنين إلى أتم الإيمان بما ينزله على عبده ورسوله محمد ﷺ من الآيات البينات والحجج الواضحات، والدلائل القاطعات المقنعات، التي لا يدركها منصف ينشد الحق، إلا آمن.. وذلك كائن، مهما قمتم أيها اليهود بلبس الحق بالباطل، وكتمتم ما بأيديكم، من صفة محمد النبي الأمي في كتبكم التي نقلتموها عن الأنبياء الأقدمين.. وحاولت طوائف منكم، أن تحول دون الناس، ودون أن يتعرفوا إلى الحق، ويطمئنوا إلى أهل الإيمان.

ونتابع اصطحاب الآية الكريمة، لنقرأ قوله تعالى: ﴿أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ والملاحظ أن سائر الكلام في الآية الكريمة بعد قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ﴾ متصل بالكلام الأول خبراً عما قال اليهود بعضهم لبعض، ومعنى كلامهم على هذا: ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم؛ ولا تظهروا ما عندكم من العلم للمسلمين فيتعلموه منكم، ويساووكم فيه، بل يتميزون عليكم لشدة الإيمان به، لأنه من عند الله، أو يحاجّوكم به عند ربكم، أي يتخذوه حجة عليكم بما في أيديكم من الإخبار بالإسلام، وبصفة محمد عليه الصلاة والسلام، فتقوم به عليكم الدلالة، ولا تبقى لكم حجة في الدنيا والآخرة.

إنهم يتخوفون من ذلك، مع إصرارهم على الباطل وانطواء صدورهم على الحسد والغل للمسلمين، والواقع أنهم لا يخافون من إقامة الحجة عليهم فحسب، بل هم من حسدهم: يعز عليهم أن تكون النبوة في غيرهم وهذا مما يدل عليه أيضاً قوله تعالى: ﴿أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾

قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ حسداً من يهود أن تكون النبوة في غيرهم: وإرادة أن يُتَّبَعُوا على دينهم. ولكم تكشف هذه الكلمات عما تكنه صدور هؤلاء القوم، والتطلعات التي يحلمون بتحقيقها؛ فهم مستمرون على عنادهم وباطلهم، ويؤذيهم أن تكون النبوة في غيرهم، ويريدون أن يكون الآخرون أتباعاً لهم، كل هذا مع يقينهم أن المسلمين على الحق الأبلج دون ريب.

ثم قال تعالى في تمام الرد عليهم، وبيان عوارهم فيما يدعو بعضهم بعضاً إليه، حيث الحقد والحسد والضغينة وسوء الظن بالمؤمنين. وأنه هو المتفضل وبيده الهداية: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [آل عمران: ٧٣ ـ ٧٤]. قل يا محمد لهؤلاء اليهود: إن التوفيق للإيمان والهداية للإسلام بيد الله، وإليه دونكم ودون سائر خلقه، فالأمور كلها تحت تصرفه وهو المعطي المانع، يمن على من يشاء بالإيمان والعلم والاستنارة، ويضل من يشاء فيختم على قلبه وسمعه ويجعل على بصره غشاوة، وله الحجة التامة والحكمة البالغة، وهو سبحانه أعلم بعباده وبما يصلحهم. والله واسع عليم، ذو سعة بفضله على من يشاء أن يتفضل عليهم، ذو علم بمن هو منهم أهل للفضل والعطاء.

والحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً، فكان مما نبه عليه بإسهاب ووضوح، ما لا يسع الأمة ـ إن عقلت عن الله ورسوله ـ جهله أو تجاهله في شأن يهود، الظاهرين منهم والمستخفين.

وصلى الله وسلم على من بيّن للأمة، بقوله وفعله، المنهج الذي عليها سلوكه على صعيد الولاء والبراء، ومواجهة التحديات ـ بشتى صنوفها وألوانها ـ مما يعلن أعداء الله، أو يبيتونه، وعلى آله وصحابته ومن تبعهم بإحسان؛ علماً وعملاً وجهاداً في سبيل الله إلى يوم اللقاء.

على المسلمين أن يحذروا..
واثقين بفضل الله

أرأيت إلى هذا الشمول في هدي الكتاب العزيز، والعناية بهذه الأمة المحمدية؟ لقد وقفنا واحد من المعالم القرآنية - من خلال كلمات مباركات - على ما يجب على المسلمين من الحيطة والحذر، من مغبة ما يبيت اليهود في الظلام؛ ذلك بأن طائفة من رؤوسهم زيّنوا لأتباعهم - كما سلف من قريب - القيام بمحاولة غاية في الخديعة والمكر، ترمي إلى زعزعة المسلمين عن دينهم؛ وذلك بأن يؤمنوا في الصباح ويكفروا في المساء، عسى أن يكون ذلك مدعاة لسوء الظن من المسلمين بدينهم فيكفروا به. لقد قالوا لهم: آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره. لعل المسلمين يرجعون عن دينهم، وأضافوا إلى ذلك، توجيه الأمر لأولئك الأتباع بأن لا يؤمنوا إلا لمن تبع اليهودية، وأن يحذروا إظهار ما عندهم أمام المسلمين، لكيلا يتعلموه وينتفعوا به في الدنيا والآخرة، ويتخذوه حجة عليهم ذلكم قول الله جلت حكمته: ﴿ **وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** (٧٣) ﴾ [آل عمران: ٧٣] ثم قال تعالى: ﴿ **يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** (٧٤) ﴾[آل عمران: ٧٤].

فالله تباركت أسماؤه، بعد أن ردّ عليهم ضلالتهم - بإجمال - فيما نرى من قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ﴾ حيث جاء بذلك اعتراضاً في وسط الكلام، شاء أن يكون الرد على صورة أخرى، تحمل نوعاً من التفصيل في إلقامهم الحجر، بالحجة، والكشف عن زيف ما دعا بعضهم بعضاً إليه، حيث يستبطنون الحسد والضغينة والحقد وسوء الظن بالمؤمنين، مبيناً أنه هو المتفضل سبحانه، الذي لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون، ذلكم قوله جل ذكره في ختام الآية: ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ فهو يخاطب الرسول ﷺ ويعني بذلك جل ثناؤه: قل يا محمد لهؤلاء اليهود: إن التوفيق للإيمان والهداية للإسلام بيد الله، وإليه دونكم ودون سائر خلقه، لا ما تمنيتموه أنتم يا معشر اليهود من أنه لا يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، فالأمور كلها تحت تصرفه، وهو المعطي المانع يمن على من يشاء بالإيمان والعلم واستنارة البصيرة، ويضل من يشاء فيختم على قلبه وسمعه ويجعل على بصره غشاوة، وله الحجة التامة، والحكمة البالغة، وهو سبحانه أعلم بعباده وبما يصلحهم. والله واسع عليم: ذو سعة بفضله على من يشاء أن يتفضل عليه، عليم بمن هو منهم أهل للتفضل والعطاء. فإذا كان اليهود قد حذروا الأتباع، من سلوك السبيل التي تمكن أحداً أن يؤتى مثل ما أتوا، فإنا نرى الآية الكريمة تحمل بيان كذبهم في ذلك -وكما أسلفنا- ينبّه النبي ﷺ أن يقول لهم: ليس ذلك إليكم، ولكنه إلى الله الذي بيده الأشياء كلها، وإليه الفضل وبيده، يعطيه من يشاء وهو سبحانه واسع عليم.

ثم قال تعالى: ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ وهنا يخبر ربنا سبحانه عن نفسه بأنه - وهو العليم بعباده؛ وبيده التوفيق للهداية - يختص برحمته من يشاء، والرحمة هنا - كما قال العلماء -: الإسلام والقرآن والنبوة؛ وفي ذلك ما فيه، من تأكيد الرد على اليهود، أولئك الذين تغلي صدورهم بحسد المسلمين والحقد عليهم، فقد اختص سبحانه المؤمنين من الفضل بما لا يحدُّ ولا يوصف، بما شرف به نبيهم محمداً عليه الصلاة والسلام على سائر الأنبياء، وهداهم به إلى أكمل الشرائع، إذ جعله خاتم الأنبياء والمرسلين وسيد ولد آدم، وأنزل عليه القرآن الذي شاء - بحكمته - أن يكون مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه. فمهما حاول اليهود أن يبيتوا الشر والأذى، ويمكروا بالمسلمين، فليس ذلك بمغيِّرٍ من الحقيقة شيئاً. إذ إن الله قد أعطى المسلمين ما أعطاهم وكرَّمهم بفضله وإحسانه... وما على المسلمين إلا أن يشكروا الله على ما أعطاهم، بالوقوف عند حدوده، والعمل بشريعته على الوجه الذي ينبغي، وأن يأخذوا حذرهم من أولئك المغضوب عليهم، الذين أخبر الله عن سوء صنيعهم، وأن ما تخفي صدورهم أكبر.

وما من ريب في أن إدراك ما عليه اليهود وإعداد المستطاع من القوة لمواجهتهم يوجب على الأمة المسلمة أخذ الحذر، وطاعة الله ورسوله والحفاظ على الوجود الذاتي لها.

هذا: وقد ختمت الآية بعد الإبانة التي ألمحنا إليها بقوله تباركت أسماؤه: ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ إنه ذو الفضل يتفضل به على من

أحب وشاء من خلقه. وصف فضله بالعظيم - كما قال أبو جعفر - لأنه غير مُشبهه - في عظيم موقعه - ممن أفضله عليه فضلٌ من أفضال خلقه، ولا يقاربه في جلالة خطره ولا يدانيه.

هذا: ثم إن مما يجدر التنبيه عليه، والوقوف عنده وقفة التدبر والتذكر، أن ما هدت إليه الآيات الكريمات، من صنيع اليهود وتخطيطهم الماكر بشأن العقيدة، وما دلت عليه من حسدهم للمسلمين، وتمني أن لا يؤتى أحد مثل ما أوتوا - أعني اليهود - ثم ما كان من الرد الواضح العميق عليهم؛ كل أولئك - كما يعلن عن الحق ويكشف زيف الباطل، ويقيم الحجة على اليهود.. - يعني أن على المسلمين، أن يكونوا على غاية الوثوق بما تفضل الله به عليهم من طريق الإسلام، وأن يكونوا على عظيم التخوُّف، من أن يقعوا في المخالفة عن أمر رسول الله عليه الصلاةوالسلام، الذي كان شرف الانتساب إليه، من الفضل الذي اختصهم الله به.

وقبل هذا وبعده: أن تكون الحقيقة القرآنية في شأن اليهود، وأعداء الإسلام عموماً - نصب أعينهم في كل عصر؛ لأن المواجهة الصادقة لتحديات أولئك المغضوب عليه، وهي تحديات لا تقتصر على ميدان دون آخر، ما بد من أن أن يصحبها تَمَثُّلٌ لتلك الحقيقة القرآنية، والاستنارة بما تهدي إليه، كيما يأمن المسلمون عثرات الطريق، ويعرفوا مواطئ أقدامهم، وهم يدفعون عجلة الحياة، ويتحركون بوعي وبصيرة في إطار الكلمة الطيبة «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

وما هدى إليه القرآن منذ أربعة عشر قرناً من الزمان، تقوم الشواهد عليه ماثلة في عصرنا هذا، كما قامت ماثلة في كل عصر عبر التاريخ.. ومن الخير أن نأخذ القضية مأخذ الجد، فلا تعوزنا الشجاعة الأدبية التي نقوِّم من خلالها مناهج فكرنا وأعمالنا في ضوء معالم الهداية الربانية، ومدى النسبة بين الواقع، وبين ما يجب أن يكون.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحابته ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

لا يؤدّي.. إلاّ ما دمتَ عليه قائماً

ما أحسب أن حيناً من الدهر، أتى على أمتنا، كانت أحوج فيه إلى سلامة المنطلقات، والإعداد لمواجهة تحديات يهود، ومن يسخِّرونهم من ذوي الأغراض الهابطة منها في هذه الحقبة التي ظهر فيها الزيف على حقيقته، وسقطت أقنعة المنافقين، وتمالأ أهل الباطل - على اختلاف مللهم ونحلهم - على هذه الأمة؛ في أرضها وفكرها ومقدساتها.

هذا إلى أن من عِظَم الشعور بالمسؤولية بمكان، وأن الأمر مرتبط بوحي السماء، من حيث تقويمُ العلاقة مع اليهود: الإحساس الصادق بأن ما هدى إليه الكتاب العزيز، وبينته السنة المطهرة وزخرت به السيرة العطرة - على هذه الساحة - هو النور الذي يضيء طريق المواجهة، كيف تكون، وهو السلاح الأمضى - بجانب الإعداد المطلوب - في المنطلقات على ساحة الواقع بما فيه، وعلى محاور الصراع.

وإذا كان الأمر كذلك: فلابد من قراءة جديدة للحقائق التي حملتها آي الكتاب ونصوص السنة في شأن يهود، ومن على شاكلتهم، ومن يأتمر بأمرهم وفق تأويلات لا تمتّ إلى الحق بصلة، ويرى مصلحته المادية العاجلة في أن يغنّيَ على شدوهم الأرعن، وينزل عند فكرهم القميء.

وهذا يشدنا إلى مزيد من الاستذكار والوعي، وتلمُّس العظات والدروس من وقائع يهودية، كانت أسباباً لنزول الكثير من آيات الفرقان

الحكيم، تبصّر المؤمنين، وتفضح عمل الكافرين، وتهدي للتي هي أقوم على صعيد الممارسة لشؤون الحياة، ضمن هذا المناخ أو ذاك.

والعهد قريب بالحديث عن واحد من أساليبهم المعوجة، على طريق الصراع - السافر حيناً، والمستتر حيناً - مع أهل الإيمان في عصر الرسول عليه الصلاةوالسلام؛ ذلك ما لجأ إليه بعض رؤوسهم من توجيه نفر من أتباعهم إلى أن يؤمنوا بالإسلام - أي يتظاهروا بالإيمان - في الصباح حتى إذا جاء المساء كفروا.. لعل ذلك يوحي إلى المسلمين، بأن هؤلاء اليهود لم يرجعوا عن إيمانهم، إلا لسبب سيء في الإسلام نفسه، خصوصاً وأنهم - عليهم اللعنة - كانوا على دعاوى عريضة في الثقافة، وفهم الأديان، لما أنهم أهل كتاب سماوي!! فإذا حصل ذلك، أمكن أن يرتد المسلمون عن الدين الحق دين الإسلام ﴿ ... **آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴿٧٢﴾ ﴾ [آل عمران: ٧٢].

وحرصاً على استحكام الزيف عند أولئك الأتباع، أوحَوا إليهم أن لا يؤمنوا ولا يطمئنوا إلا لمن تبع دينهم، لكيلا يتسرب إلى نفوسهم شيء من أحقية ما عليه المسلمون. وهكذا: بدل أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، انصياعاً لما بشرت به التوارة والإنجيل، وما جاء فيهما من صفات النبي عليه الصلاة والسلام، استبدلوا الكفر الفاجر بذلك وجنحوا إلى التآمر على الإسلام الذي أمروا أن يؤمنوا به، وعلى نبيه وأهله.

وقد جاء حديث القرآن عن هذا العبث العابث في معركة يهود، ضمن الحديث عن مجموعة من الحقائق؛ محورها خيانة اليهود في

الدين، طلباً للإيقاع بالمسلمين، لما أن ذلك يروي ظمأهم إلى الشر والفتنة، وما يملأ قلوبهم المريضة من الحسد والضغينة، وتنطوي عليه نفوسهم من الحقد والاستكبار المقيت، والبغي على أهل الإيمان.

وقد كان - من رحمة الله - بهذه الأمة، أن جاءت الكلمة القرآنية الغامرة بالنور والهدى، تكشف العوار وترد الكيد في النحور.. وقد فضحت ما بيتوا، وردت عليهم كيدهم بما لا يدع زيادة لمستزيد، ولا تسل عن انتفاع المسلمين يومذاك، بهدي كتاب ربهم وسنة نبيهم عليه الصلاة والسلام.. وليت أن المسلمين اليوم ينهدون إلى المهمة الكبرى، ويحسنون اتباع ما كان عليه السلف الصالح في ذلك؛ إيماناً ووعيًا ورغبة صادقة في الجهاد في سبيل الله، طمعاً بما عند الله من الأجر والمثوبة والرضوان.

وإذا كان الكتاب العزيز، قد نبه المسلمين من خلال الآيات الكريمات على أن يحذروا ويحذّروا من التقليد والموالاة، وأن لا يذعنوا لرأي يطرحه هؤلاء - وبخاصة ما له علاقة بالدين والفكر - بعد الذي ثبت من عدائهم الظاهر والباطن، وانحرافهم المتأصل عن الصراط السوي، وحقدهم على المسلمين، وحرصهم - حسداً وبغياً - أن يرتدوا عن دينهم، فيصبحوا كافرين،وهذه خلال هابطة في معاداتهم للحق والإنسان قامت عليها الحجج من أقوالهم وأفعالهم وتصرفاتهم.

أقول: إذا كان الكتاب العزيز - وهو الكتاب المعجز - قد نبه على ذلك، فإن آيتين تاليتين للآيات المومى إليها، هما الآيتان الخامسة

والسبعون والسادسة والسبعون من سورة آل عمران، تكشفان عن خيانة اليهود في أمور المال أيضًا، وعن تعليلهم السيء لهذه الخيانة، وهو تعليل يذكرنا بالمثل القائل: (عذر أقبح من ذنب) فجمعوا بين الخيانتين كلتيهما في الدين والدنيا.. فكيف يطمئن إليهم المسلمون؟؟ إنهم إن فعلوا ذلك، كانوا في غفلة عن الحقيقة القرآنية التي تنير السبيل، وتأخذ بأيديهم – أن لو تدبروها ووضعوها موضعها من منهج الحركة والعمل – إلى مرابع النصر والتمكين. والغفلة عن الحقيقة القرآنية، وبيانها من السنة في شأن اليهود، ومن هم على سنَنَهم، حصدت الأمة من آثارها الصاب والعلقم، ونرجو أن تحمل تباشير اليقظة، عودة صادقة متدبرة إلى ما دلّ عليه الكتاب العزيز والسنة النبوية المطهرة على ساحة العلاقة بأولئك المغضوب عليهم، الذين ضرب الله عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب على غضب.. وهنالك ندرك ولو بعضاً من الأسباب التي جعلتهم يتنمَّرون ويتغطرسون، وهم من هم، كما هي الحقيقة في الكتاب والسنة والتاريخ.

هذا: والآيتان اللتان نعنيهما من سورة آل عمران – بدءاً من الآية الخامسة والسبعين – هما قول الله جل ثناؤه وتباركت أسماؤه: ﴿ **وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧٦)** ﴾ [آل عمران: ٧٥، ٧٦].

هكذا يخبر الله تعالى أن من أهل الكتاب – وهم اليهود هنا – خونة في الأمانة وأداء الحقوق، يفجرون في اليمين ويستحلُّون أموال المؤمنين. فمنهم من إن تأمنه بقنطار على قنطار يؤده إليك، ويُفهم من ذلك أن ما دون القنطار يؤديه بالأولى. ومنهم من إن تأمنه بدينار على دينار، تكن منه الخيانة، فلا يؤدي هذا الدينار إلا ما دمت عليه قائماً بالمطالبة، والتقاضي والملازمة، والإلحاح في استخلاص حقك. وإذا كان هذا صنيعَه في الدينار، فلئن لا يؤدي ما هو أكثر من الدينار كائن بالأولى. إذ إن من كان خائناً في القليل، فهو في الكثير خائن بالأولى.

وللقنطار معانٍ متعددة،منها: أنه المال الكثير بعضه على بعض، وأوصله بعضهم إلى أربعة آلاف دينار. أما الدينار: فنقل ابن الجوزي – رحمه الله – في كتابه (زاد المسير) عن شيخه أبي منصور اللغوي: أنه فارسي معرب، وأصله دِنّار، وهو وإن كان معرباً فليس تعرف له العرب اسماً غير الدينار، فقد صار كالعربي، ولذلك ذكره الله تعالى في كتابه، لأنه خاطبهم بما عرفوا.

هكذا خوطب النبي ﷺ بتبيان لهذا الخُلق عند فئة من اليهود، وفي ذلك تنبيه أيّ تنبيه للأمة وتحذير أي تحذير لها – إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها – كيما تكون على يقظة تامة بشأن قضاياها الاقتصادية والاجتماعية، فهؤلاء اليهود يضمون إلى الخيانة في الدين: الخيانة في المال. وإذن فالواجب عدم الاغترار بهم لأنهم يستحلُّون أموال المؤمنين، ومن أهل الكتاب الذي إن تأمنه يا محمد على عظيم من المال كثير يؤده

إليك ولا يخنك فيه، ومنهم الذي إن تأمنه على دينار يخنك فيه، فلا يؤده إليك، إلا أن تلح عليه بالتقاضي والمطالبة. إنه بدلاً من أن يكون أميناً فيؤدي الحق، يخون فلا يؤديه إلا بالمطالبة الملحة والملازمة والتقاضي.

قال العلماء: والاستثناء في قوله تعالى: ﴿ **إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا** ﴾ استثناء مفرغ؛ أي لا يؤده إليك في حال من الأحوال، إلا في حال كونك دائم القيام بالمطالبة والمتابعة وسلوك السبيل المشروعة، التي تنتهي بك إلى ردِّ المال والحصول على الحق.

وقد يُتساءل عن وجه إخبار الله عز وجل بذلك لنبيه ﷺ، مع أن الناس عموماً فيهم المؤدي أمانته، وفيهم الذي يخونها. وإذا جعلنا الكلام متصلاً بالآيات السابقات التي أخبرت عن خيانتهم في الدين، نجد – والله أعلم – أن كتاب الله كما نبه المؤمنين على عدم الاغترار بهم في أمور الدين لأنهم خونة فيه، نبه هنا المؤمنين أيضاً – في استكمال للموضوع – على خيانتهم في المال تحذيراً لهم أن يأتمنوهم على أموالهم، وتخويفاً لهم من الاغترار بهم، لاستحلال كثير منهم أموال المؤمنين. يُضاف إلى ذلك أن العلة التي تذرعوا بها للخيانة وأكل أموال أهل الإيمان بالباطل هي قولهم: ليس علينا في الأميين سبيل كما سوف نرى في صفحات قادمات – إن شاء الله –، حين نتابع اصطحاب الآية الكريمة وقوله تعالى فيها على لسان اليهود ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾.

يقولون: «ليس علينا في الأميين سبيل»

من النعم العظام، التي يفترض بالمسلمين أن يقابلوها بعميق الشكر لله عز وجل، الشكرِ الذي يضع النعمة موضعها، على صعيد المسؤولية، وما به حفظ كيان الأمة، وإضاءة الطريق للأجيال القادمة، كيما يستنير الخلف بصنيع السلف، ويُحكم عملية البناء. من تلكم النعم العظام.. ما يقع عليه الناظر في كتاب الله عز وجل، من تبيان جلي للخصائص التي تشكل محور السلوك عند من كانوا مجاورين للمسلمين في ضواحي المدينة من اليهود، ومن إيضاحٍ لحقيقة موقفهم من المسلمين، ونبيهم عليه الصلاة والسلام ورسالته في كل ميدان من الميادين، وللبواعث التي تدفعهم إلى ذلك، والجذور العفنة التي يرتد إليها كثير من التصرفات.

ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل ترى أنه يصحب البيان المشار إليه، تذكير المسلمين بأحقية رسالتهم وأهمية وظيفتهم في الحياة – وهم أمة خاتم النبيين والمخصوصون بالشهادة على الناس – وتنبيههم على مكامن الخطر، وتحذيرهم الاغترار بزخرف القول، أو الضعف أمام الحيلة والمكر.

وليس من مكرور القول بأن أولئك المجاورين، وقد جمعوا إلى تحريف الكلم عن مواضعه ومظاهرة الباطل على الحق النهم في أكل الربا، والجشع إلى جمع المال من حله ومن غير حله.. أن نعاود الإشارة إلى تخلقهم – أو تخلق طائفة منهم – بخلق الخيانة في أداء الحقوق المالية، صَحِبَه خيانتهم في افتراء الكذب على الله وطمس ما جاء في التوراة من نصوص، توجب

عليهم الإيمان، بصاحب الرسالة الخاتمة محمد عليه الصلاة والسلام، وقد كانوا يستفتحون بذلك على الذين كفروا.. ﴿ ... **فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ** ﴿٨٩﴾ ﴾ [البقرة: ٨٩].

وعنوان الحقيقة المشار إليها في شأن الحقوق المالية: أن منهم – كما جاء في سورة آل عمران – من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً بالمطالبة والمتابعة والتقاضي، وأسوأ من هذه الخيانة والإصرار على أكل أموال المسلمين بالباطل، ما يعلّلون به فعلتهم بقولهم: ﴿ **لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ** ﴾ تماماً كالذي نرى اليوم من استباحتهم اغتصاب أرض المسلمين التي بارك الله حولها بالقوة ومعاونة أهل الباطل في الأرض، بدعوى أن هذه أرضهم وممتلكاتهم، والمسلمون هم الغاصبون المتجاوزون حدودهم في الأصل، أو أنهم لا قيمة لهم ولا وجود.. الهراء الذي يذكرنا بقول الشاعر:

خلا لك الجو فبيضي واصفري

وإذا كان الأمر كذلك: والقرآن والسنة زاخران بتلكم الثوابت – على ساحة التبيان والتحذير – يكون من المستغرب حقاً، أيُّ لون من ألوان الركون إلى من عرّفتنا بهم مصادرنا الأصلية، أو الاطمئنان إلى مشورة عندهم أو رأي، خصوصاً في أمور الدين، وتعليل الوقائع.

ويداخلك الشعور بعظمة الكتاب العزيز التي لا حدود لها، وأن وراء كل كلمة من كلماته حكمةً لله بالغة، لأن الكلام كلامه الموحى به إلى خاتم الأنبياء، وهو سبحانه الحكيم الخبير.

ومن مظاهر شمول المنهج الرباني ما نلمح إليه من استقصاء البيان حتى يصل الأمر إلى الكشف عما تكنه صدور اليهود وتنطق به ألسنتهم وفعالهم من الحرص على حيازة المال حتى بالطريقة التي ألمحنا إليها ﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ﴾ .

على هدي هذه الحقيقة التي وجدتني محمولاً على تأكيدها والمزيد من تجليتها، نعود إلى استكمال ما توحي به الآيتان الكريمتان المتعلقتان في هذا الشأن من سورة آل عمران وهما قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ .

[آل عمران: ٧٥ - ٧٦].

هكذا يتعمدون عدم الوفاء بمال مشغولة به ذممهم، ويأكلون أموال المسلمين بغير حق، متذرعين بأن ذلك مما أباحه الله لهم افتراء وكذباً عليه سبحانه. فليس عليهم حرج - في زعمهم - فيما يصيبون من أموال الأميين ولا إثم، لأن هؤلاء الأميين - ويعنون به العرب المسلمين - على غير الحق، وأنهم مشركون تركوا دين آبائهم وأجدادهم، وصبؤوا بدخولهم في دين الإسلام.

والتعبير القرآني واضح الدلالة في تجلية الجريمة ودعوى تسويغها كل الوضوح، وهي دلالة قطعية لا تحتمل أي لبس. فهذا الذي يصنعون من الخيانة وأكل الحقوق كائن، بسبب أنهم قالوا: ليس علينا في الأميين

سبيل، أي ليس علينا فيهم – في أكل أموالهم بأي وسيلة – حرج؛ لأن الله أباح لنا ذلك.. سبحان الله أيٌّ استعلاء بارد هذا، وأي استكبار مقيت؟ أنزلوا أنفسهم منزلة أنهم – والنصارى – أبناء الله وأحباؤه، وراحوا يتعاملون مع المسلمين انطلاقاً من هذه الفرية على الله !! والذي قلنا، من وضوح الدلالة وقطعيتها على الحقيقة التي يدار عليها الكلام، هو مانجده في عدد من روايات أهل التفسير، بجانب أن ظاهر الألفاظ دال عليه بصورة يدركها من له أدنى مسكة بمعرفة العربية.

فقد روي عن قتادة في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ الآية: قالت اليهود: «ليس علينا فيما أصبنا من أموال العرب سبيل». ونجد في رواية أخرى أكثر تفصيلاً عنه أيضاً: ليس علينا في المشركين سبيل، يعنون من ليس من أهل الكتاب. إنه مادام اليهود قد اعتادوا العبث والتلاعب بقضايا الدين،وما دامت الرغبة في جمع المال من أي طريق تحاصر نفوسهم على الدوام، فليس عجيباً أن يسموا المسلمين مشركين لأنهم – في نظرهم – ليسوا من أهل الكتاب، وهكذا استحلُّوا أموال المسلمين لأنهم عندهم ليسوا أهل كتاب، وجاء عن السدّي أنه قال: يقال له – يعني اليهوديَ – ما بالك لا تؤدي أمانتك؟ فيقول: ليس علينا حرج في أموال العرب قد أحلها الله لنا.

وقد أشرت قبل قليل إلى أن المقصود بالعرب هنا المسلمون بدليل أنهم لم يكونوا يفعلون ذلك مع العرب قبل الإسلام ويعزز ذلك عدد من الروايات.

وهذا الذي زعمت يهود من أن الله أباح لهم أموال الأميين وهم المسلمون يومذاك، هو محض افتراء وكذب على الله سبحانه وتعالى جل شأنه عن ذلك علواً كبيراً. ولقد جاءت الآية الكريمة صريحة بتكذيبهم ذلكم قوله تعالى: ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ لقد اختلقوا هذه المقالة وائتفكوها بهذه الضلالة، وما كان الله – وهو العدل الرحيم الذي حرم الظلم على نفسه وأمر عباده أن لا يتظالموا – ما كان له – جل شأنه – أن يبيح أكل أموال الناس عموماً بالباطل، فضلاً عن أن يكونوا من المسلمين، بل قد نهى سبحانه نهياً صريحاً عن ذلك؛ وحرم أكل الأموال إلا بحقها، ولكن اليهود قوم بُهْتٌ مفترون.

روى الإمام الطبري بسنده عن ابن جريج: «ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين..» قال: بايعَ اليهودَ رجال من المسلمين في الجاهلية، فلما أسلموا تقاضوهم ثمن بيوعهم فقالوا: ليس لكم علينا أمانة، ولا قضاء لكم عندنا، لأنكم تركتم دينكم الذي كنتم عليه! قال: وادَّعوا أنهم وجدوا ذلك في كتابهم. فقال الله عز وجل: ﴿ **وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾. وهذا يؤيد ما قلته آنفاً، من أن الأموال التي يزعمون أن الله أباح لهم أكلها بغير حق، هي أموال المسلمين. ولا أدلَّ على عتوِّهم وبُهتهم مما أثبتته الآية بشأنهم من أنهم يقولون على الله الكذب وهم يعلمون. إنهم يعلمون أن الله قد أنزل في التوراة الوفاء وأداء الأمانة، ويقولون الكذب، وهم يعلمون أنه كذب.

ألا إن الحقائق التي يعرضها القرآن بأسلوبه البيِّن المعجز، والتي تتعلق بمنطلقات اليهود في التفكير والسلوك وطبيعة العلاقة بينهم وبين المسلمين، أمانة في أعناق القادرين على التوجيه والعمل في هذه الأمة ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٦ ﴾ [المجادلة: ٦].

﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

التنبيه على حقيقة أن اليهود - أو فريقاً منهم - يبلغ من جشعهم في حيازة المال من أي طريق وعلى أي وجه، حلالاً كان ذلك أو حراماً، أن يستبيحوا أموال المسلمين، فلا يؤدي الواحد منهم الدّين إلى غريمه المسلم، إلا ما دام عليه قائماً - ولو كان المطلوب أداؤه ديناراً واحداً -... هذا التنبيه الذي حملته سورة آل عمران، أمر على غاية الأهمية، في شأن التكامل في معرفة ماهم عليه - أعني اليهود - من تلك الخلائق التي لا يقتصر أذاها على جانب دون جانب، بل أنى تلَفَّتَّ، وجدت ما يتنافى مع أبسط قواعد الأخلاق، بله العقيدة الصحيحة والتدين المدّعى.

ويزداد الأمر أهمية، إذا ذكرنا ما اقترن به من تعليل، لاستباحة أموال الأميين، بأنه ليس عليهم في هؤلاء الأميين - وهم المسلمون من العرب - من سبيل؛ فهم - في نظرهم - أحطّ من أن يكون لأموالهم حرمة، لما أنهم - كما يزعم اليهودي - مشركون خارجون على الملة والدين الحق.

وهذا الجمع بين الخيانة في المال - بهذا التعليل الهابط - وبين الخيانة في الدين، كما أخبرت الآيات والأحاديث، يجعل من العبث العابث الاطمئنان إليهم، أو الركون إلى شيء من آرائهم فيما له علاقة بالمسلمين، ديناً أو دنيا؛ لما أن ذلك جنوح عن الطريق السوي في الأفكار والمنطلقات، لا يعود على الأمة إلا بالمساءة والأذى في الدنيا ويوم الدين.

نعم إن الركون إلى هؤلاء الذين يفترون على الله الكذب في أمور العقيدة وما يتصل بها، ويتأولون النصوص على غير تأويلها، ويفترون عليه – جل شأنه – الكذب في أمور كثيرة وهم يعلمون؛ ومن ذلك زعمهم الباطل أنه أباح لهم أكل أموال المسلمين بغير حق: سبيل الإضرار بكيان الأمة لا من جهة الدين فحسب، بل من جهة الاقتصاد والاجتماع والسياسة وما إلى ذلك.. ناهيك عن الفكر والمنطلق كما أسلفنا.

وللمزيد من الإيضاح، وبيان أن ما يقرره القرآن وتضيء معالمه السنة: من الثوابت التي ليس للأمة اختيار في التغاضي عنها، فضلاً عن تجاوزها، نعود إلى التذكير بالآية التي أنارت الطريق إلى هذه الحقيقة في خلائق يهود وهي قول الله تبارك وتعالى: ﴿ **وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾.

لقد بيّن الله تعالى كذبهم فيما يدعون، من أن الله أباح لهم أكل أموال المسلمين، وأن ذلك مما يجدونه في كتابهم، فبعد أن كشف عن تلكم العلة التي يتعللون بها – وهي محض افتراء على الله – حكم عليهم بالكذب وأنهم يكذبون وهم يعلمون أنهم على الباطل، وأن الله لم يبح لهم ما زعموا إباحته، بل أمرهم بالاستقامة وأداء الحقوق ووفاء الديون، ذلكم ما رأينا من قوله تعالى: ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾.

وعلى طريقة القرآن في أسلوبه المعجز، انتقل بعد الكلام على خيانة

اليهود في المال، إلى تقرير قضية كبرى، على الناس أن يدركوها، ثم يكون التطبيق. وتلك القضية هي الدعوة الحارة إلى الوفاء والتقوى، فمن أوفى بعهده واتقى، كانت له الحظوة الكبرى عند الله تعالى، فهو سبحانه يحب المتقين. ذلكم قوله جل شأنه في الآية التي تلي، وهي السادسة والسبعون من سورة آل عمران: ﴿ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾.

وأنت ترى أن الآية الكريمة تحمل بكل وضوح، الإخبار من الله عز وجل عن الخير الذي أعده الله لمن أدى أمانته لمن ائتمنه عليها، اتقاءً لله ومراقبة له سبحانه، فبيَّن - وهو العليم الحكيم - أن الأمر ليس كما يقول هؤلاء الكاذبون على الله من اليهود، من أنه ليس عليهم في أموال الأميين حرج ولا إثم مدعين، افتراءً على الله، أنه جل وعلا أباح لهم ذلك وأنهم أعلى وأعز من أن يؤدوا حقوق الأميين.

أجل: ليس الأمر كما يقولون: ولكن من أوفى بعهده واتقى، يعني ولكن الذي أوفى بعهده، وذلك ما وصاهم به في التوراة من الإيمان بمحمد ﷺ وما جاءهم به، والاستقامة في التعامل مع الآخرين، أداءً للأمانة ووفاءً للحقوق يَنَلْ محبةَ الله تعالى فإن الله يحب المتقين.

وهكذا يكون من عطاء الآية الذي يجب أن يتنبه إليه المسلمون في أخلاق اليهود، ويبتعدوا عن الوقوع فيما وقعوا فيه، ويرقبوا النتائج على ذلك: بلى من أوفى بعهد الله الذي عاهده في كتابه فآمن بمحمد ﷺ، وصدّق بما جاءه من الله من أداء الأمانة إلى من ائتمنه عليها، والوفاء

بالعقود، وعدم أكل أموال الناس بالباطل، وغير ذلك من أمر الله ونهيه، واتقى - يقول سبحانه -: واتقى ما نهاه الله عنه من الكفر به، وسائر معاصيه التي حرّمها عليه وتعدّي حدوده، فاجتنب ذلك، مراقبةً لوعيد الله وخوف عقابه؛ لأن الله لا تخفى عليه من عباده خافية: فإن الله يحب المتقين. يعني: فإن الله يحب الذين يتقونه، فيخافون عقابه ويحذرون عذابه، فيجتنبون ما نهاهم عنه وحرمه عليهم، ويطيعونه فيما أمرهم به، لأنهم على يقظة تامة ومراقبة له سبحانه: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

وإذا كان اليهود في أمور الدين والدنيا، على خلاف ذلك كله، فالآية كما تؤدي غرضها في الكشف عن تلك الحقيقة، تحمل - كما أشرنا آنفاً - تحذير المسلمين من أن يقعوا فيما وقعت فيه يهود، أو أن يكونوا في غفلة عنهم - وهم على هذه الشاكلة - فينالهم الأذى ويصابون في دينهم ودنياهم، وذلك هو الخسران المبين.

وليس عجيباً، أن نرى للإسلام موقفاً يغاير كل المغايرة ما عليه اليهود، من الخيانة في المال، مع خيانتهم في الدين، وزعمهم أن الله أباح لهم ذلك إذ اختلقوا مقالة ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ وائتفكوها بهذه الضلالة، فإن الله حرم عليهم - كما أسلفنا - أكل الأموال إلا بحقها ولكنهم قوم بهت... أقول: ليس عجيباً أن نرى للإسلام موقفاً يغاير كل المغايرة ما ذهب إليه أولئك المغضوب عليهم، وأن يوجه أبناءه إلى الوفاء وأداء الأمانة اتقاءً لله ومراقبة له سبحانه فالإسلام هو الدين الحق، والله يحب المتقين.

والذين نجده في الكتاب الكريم، نجد بيانه العملي في السنة المطهرة.

قال عبد الرزاق في «المصنف»: أنبأنا معمر عن أبي إسحاق الهمْداني عن أبي صعصعة بن يزيد أن رجلاً سأل ابن عباس فقال: إنا نصيب في الغزو من أموال أهل الذمة الدجاجة والشاة، قال ابن عباس: تقولون ماذا؟ قال نقول ليس علينا بذلك بأس، قال: هذا كما قال أ هل الكتاب ﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ﴾ إنهم إذا أدوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلا بطيب أنفسهم. قال الحافظ ابن كثير: وكذا رواه النووي عن ابن إسحاق بنحوه.

وروى ابن أبي حاتم بسنده عن سعيد بن جبير قال: لما قال أهل الكتاب: ليس علينا في الأميين سبيل قال نبي الله ﷺ: «كذب أعداء الله ما من شيء كان في الجاهلية إلا وهو تحت قدمي هاتين، إلا الأمانة فإنها مؤدَّاة إلى البر والفاجر».

والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

كذبوا .. الأمانة عندنا مؤدَّاةٌ إلى البرّ الفاجر

ما صحبت بعضاً من النصوص المباركة في الكتاب العزيز، أو بيانه من السنة المطهرة التي تكشف عن شيء من خلائق يهود، والمنطلقات التي يرتدون إليها في أعماق نفوسهم لدى التعامل مع المسلمين.. إلا رأيت في الواقع الأليم الذي نعانيه من جراء عدوانهم على الأرض والناس، والتاريخ، واستهتارهم بالقيم، ونظراتهم الهابطة إلى أمتنا، بل إلى غيرها أحياناً، دلائل متجددة تؤكد ما جاءت به الأخبار الصادقة عنهم وأن ما يصنعه هؤلاء المعاصرون وأعوانهم – وقد يسّر العلم المعزول عن الأخلاق جرائم الاعتداء وتسويغها – هو صورة متقدمة في صنع المكر والأذى، عما كان يصنعه أسلافهم، سواء أكان ذلك في عصر النبي عليه الصلاة والسلام، أم فيما سبقه من العصور، ولا تستثن الحقب الزمنية الزاخرة بأذاهم لسليمان وداود وموسى وعيسى.... – عليهم السلام – بل إن واقعهم أسوأ مما يعنيه المثل العربي: «ما أشبه الليلة بالبارحة».

ومن الواضح أن ما يبيتون من المكر، أو يلبسون الحق بالباطل، لا يجري مصادفة، وليس ردّ فعل مرتجلاً في تصرفاتهم ... ولكنه مرتبط بانحراف عميق الجذور في نفوسهم، ومنطلقات عنصرية، تشي باستكبارهم وعتوهم عن الحق، ونظراتهم المملوءة بازدراء الآخرين عامة، والمسلمين – بخاصة – وأن هؤلاء النازلين عنهم في الرتبة، علماً بأنهم هم – كما يزعمون – أبناء الله وأحباؤه وشعب الله المختار، غير جديرين بأرفع

من هذا التعامل. فكأن هؤلاء المعتدىٰ عليهم، لا حق لهم في الحياة، ولا في التمليك، ولا بأن يكونوا في عداد من هم من بني الإنسان فلا إثم ولا حرج في أكل أموالهم، واستباحة ديارهم ومقومات إنسانيتهم!!

أسلمني إلى هذا التقديم، ما أنا بسبيله، من متابعة الحديث عما أعقب التبيان القرآني الكريم في شأن استهتارهم بحقوق أهل الإسلام المالية، وتعليل هذا الاستهتار، بأنه ليس عليهم في الأميين سبيل، كما دل على ذلك قوله تعالى: ﴿**وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا**﴾ - أي قائماً بالمطالبة والإلحاح والتقاضي - ثم جاء التعليل بما أخبر الله عنهم بقوله سبحانه: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ**﴾ تلا ذلك بيان أن هذه الذريعة محض افتراء وكذب على الله في دعوى أنه هو الذي أباح لهم ذلك ﴿**وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾ إنهم يعلمون أنهم كاذبون في ذلك، لأن الذي أمروا به في كتابهم غير هذا، لقد أمروا بأداء الأمانة، والوفاء بالحقوق، والاستقامة في التعامل مع الآخرين.. ولكن اليهود هم اليهود أبداً، فهم قوم يأتون المنكر الصارخ من القول والفعل، ويزعمون أن ذلك من الدين، وأن الله أمرهم بذلك، افتراء على الله وبهتاناً على كتاب السماء.

وقد أشرت من قبل أن أسلوب القرآن الحكيم، كثيراً ما يخرج من الجزئية التي يتناولها إلى تقرير قاعدة كلية، على المكلفين أن يدركوا ما ينطبق عليها ويتفرع عنها من جزئيات. والقاعدة الكلية هنا هي الدعوة

إلى الوفاء بعهد الله والتقوى عند حدوده، وعلى هذا: فالخيانة التي استباحها اليهود تتعارض كل التعارض مع القاعدة الكلية، وهي أن الذي يريده الله رب العالمين هو الوفاء، وأن من أوفى بعهد الله فيما كلفه وأمره ونهاه واتقاه في ذلك، نال درجة المحبة منه جل شأنه، إذ يفهم مما قررته الآية ودعت إليه، أن الذين يسلكون درب الخيانة، ولا يتقون الله في الوفاء بما كلفهم به في كتابهم، وأمرهم ونهاهم، ليسوا من الخير في شيء، ولا يحبهم الله عز وجل؛ وهكذا ترى أنه بعد التعرية لصنيع أولئك اليهود من استباحتهم خيانة الأمانة، وأكل أموال المسلمين بالباطل، وتعليلهم ذلك بعلة مفتراة على الله مكذوبة عليه وهي أنه هو - جل شأنه - أباح لهم ذلك.. بعد هذه التعرية، جاء تقرير تلكم القاعدة الكلية في الترغيب الشديد بالوفاء بعهد الله فيما شرع لعباده، والتقوى في امتثال أوامره واجتناب نواهيه، ومنها أداء الأمانات والوفاء بالحقوق، فقال تعالى: ﴿ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾.

ولقد كان المسلمون، وهم يتجهون صوب البناء الحضاري الذي لا تعوزه واحدة من القيم المثلى والمبادئ الكريمة، على خط سواء مع هذه الآية الكريمة، وما أعلنته من تلك القاعدة الكلية، فكان تعاملهم - حتى مع اليهود - غاية في الصدق والاستقامة أداءً للأمانات، ووفاءً بالعقود، وإعطاءَ كل ذي حق حقه. وقد أوردت من قبل ما جاء في «تفسير القرآن العظيم» للحافظ ابن كثير عند الكلام على ما قاله أولئك اليهود: من قول ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن يحيى قال: حدثنا أبو الربيع الزهراني قال: حدثنا يعقوب قال: حدثنا جعفر عن سعيد بن جبير قال: لما قال

أهل الكتاب: ليس علينا في الأميين سبيل قال نبي الله ﷺ: «كذب أعداء الله ما من شيء كان في الجاهلية إلا وهو تحت قدميَّ هاتين إلا الأمانة، فإنها مؤدَّاةٌ إلى البر والفاجر».

هكذا يسوِّي الرسول عليه الصلاة والسلام بين أصحاب الحقوق برِّهم وفاجرهم، فالبار لا ينال حقاً لغيره بسبب بره، وإن كان للبر مكانته وأجره العظيم عند الله، والفاجر تؤدىٰ إليه أمانته ولا تخان هذه الأمانة، بسبب فجوره، وإن كان للفجور حسابه والمؤاخذة عليه..

وأنت واجد أن الذي جاء به الحديث في ظل الآية الكريمة، أخذ طريقه إلى التطبيق العملي – كما ذكرنا آنفاً –، فالأمانات تؤدى والحقوق محافظ عليها مهما كان شأن أصحابها. فقد أشرنا من قبل إلى ما روى عبد الرزاق بسنده إلى أبي صعصعة بن يزيد أن رجلاً سأل ابن عباس فقال: إنا نصيب في الغزو من أموال أهل الذمة الدجاجة والشاة. قال ابن عباس: فتقولون ماذا؟ قال: نقول: ليس علينا بذلك بأس، قال: هذا كما قال أهل الكتاب: ليس علينا في الأميين سبيل، إنهم إذا أدوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلا بطيب أنفسهم. وكذا رواه الثوري عن أبي إسحاق السَّبيعي بنحوه.

ذلك ما وجه إليه حبر الأمة عبد الله بن عباس، في ظل ما جاءت به الآية الكريمة، وبينه الرسول عليه الصلاة والسلام. لقد كان ما سأل عنه الرجل، واقعةً يمكن أن تحصل في الغزو حيث المسلمون على متن القوة والانتصار، ولكن ابن عباس جعل من أخذ الدجاجة والشاة من أموال

الذميين بغير حق، أكلاً لأموالهم بالباطل، وهو أمر محظور في شرع الله، ولو فعل المسلمون ذلك لخُشي أن يكون صنيعهم صنيع اليهود الذين قالوا: ليس علينا في الأميين سبيل، وكون الذميين ذميين، لا يبيح أكل أموالهم بغير حق، فالحقوق مصونة، والأمانات مؤدَّاة - هكذا دونما تمييز - ولذا قال ابن عباس: «إنهم إذا أدوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلا بطيب أنفسهم» فإذا لم تطب أنفسهم ولو بالدجاجة والشاة لم يجز أخذهما ما داموا يؤدون الحقوق التي عليهم.

وأين هذا من خيانة اليهود للأمانة ومماطلتهم في أداء الحقوق لعباد الله المؤمنين - وهذه واحدة من مثالبهم - وقولهم افتراء على الله ﴿**ليس علينا في الأميين سبيل**﴾ ليس علينا في هؤلاء المؤمنين إثم ولا حرج، فأموالهم مباحة لنا في الكتاب المنزل. واليوم يقولون هذا في الأرض والمقدسات حتى بيت المقدس - وفيه ثالث الحرمين - يزعمون زوراً وبهتاناً أنه لهم إلى الأبد. ولو أن المسلمين أفادوا من حقائق القرآن والسنة والتاريخ، لما تمكَّنَ اليهود من هذا التعالي الذي تسبب فيه ضعفنا وقعودنا عن الجهاد، ناهيك عن مظاهرة قوى الشر والخيانة لهم.

ترىٰ ألم يأن لهذه الأمة أن تصحو من خلال الثوابت في الخبر الصادق والتاريخ، وما تنطق به الوقائع اليوم؟ أما آن لها أن تصحو على صوت النذير فتواجه الأعداء الوالغين في الحقد التاريخي، بالسلاح الذي لا يفقهون إلا به؟

ابن رواحة.. لا يحيف عليهم
وهم الأعداء الألدّاء

من سمات المنهج القرآني في تبصير المؤمنين بحقيقة من يواجهونهم من أهل الباطل، والكشف عما هم عليه من خلائق غايةٍ في السوء، لها طابعها المتأصل في النفوس.. أنه لا يقتصر على تبيان ذلك، والتنديد بما يحمل من المساءة، وتبييت الأذى للحق وأهله، ولكنه ينتقل إلى ما يجب أن يكون عليه الفرد والمجتمع، من حرب على تلك الخلائق التي طبعت بميسم الخيانة والعدوان على الحق، وتقعيد القواعد التي ينبغي أن تحكم تصرفات المسلمين، وتربيتهم على أن يكونوا على المستوى اللائق الذي هو على النقيض مما عليه أولئك الأعداء وفي مقدمتهم الكفرة من اليهود وذيولهم.

ومن النماذج التطبيقية لهذه الإشراقة في المنهج المبارك المومى إليه، ما حملت إلينا الآيات في سورة آل عمران، بعد التنديد بما عليه اليهود من الخيانة على ساحة العقيدة، ثم التنديد بما عليه فريق منهم من الخيانة على ساحة التعامل المالي مع المسلمين، وكونهم يستبيحون عدم أداء حقوقهم المالية أو التباطؤ الشديد المزري فيه، بحجة أنهم – لمقامهم المرموق عند الله – أباح لهم ذلك؛ وعلى هذا: فليس عليهم في الأميين من سبيل. ما حملت إلينا الآيات من قوله تبارك وتعالى: ﴿ **بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ** ﴿٧٦﴾ ﴾.

إنها قاعدة كلية في الدعوة إلى الوفاء بعهد الله، ـ كما سلفت الإشارة العابرة من قبل ـ والعمل على تقواه ـ جل شأنه ـ في امتثال أوامره واجتناب نواهيه، وأن من وفق لفعل ذلك، حظي بالخير العظيم، والعطاء الجزيل، وهومحبة الله تبارك وتعالى، لأن الله يحب المتقين.

وما من ريب في أن تقرير هذه القاعدة النورانية في أعقاب الإخبار عن اجتراح اليهود خيانة الأمانة مع المسلمين، فيه ما فيه من استنكار ذلك السلوك المشين، وتوجيه المسلمين إلى ما هو الحق، والوفاء، وصدق التعامل مع الآخرين وذلك من صفات المتقين الذين يحبهم الله ويحبونه.. وأين هذا من صنيع اليهود؟

ومن الأمانة في متابعة الرحلة مع الحقيقة، أن ما يجب أن يدين به المنصفون وأهل الفكر النقي الذي لم تثقله رواسب الكره للإسلام والمسلمين، هو الاعتراف بأن ما قادت إليه تلك القاعدة الميمونة من الدعوة إلى الوفاء بالعهد، وتقوى الله تعالى في كل صغيرة وكبيرة، وجرى التوجيه إليه في كثير من نصوص الكتاب والسنة، قدجرى تطبيقه عملياً في حياة المسلمين خلافاً لما تمرّغ فيه اليهود من العدوان على الحقوق والافتراء على الله في تسويغ هذا العدوان؛ فالأمانات في منهج المسلمين مؤداة، والحقوق مصونة، وغير جائز أكل أموال الناس بالباطل كائنين من كانوا.

وذلك ما قرره حبر الأمة عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ كما أسلفنا، جواباً للسائل الذي سأله عن حيازة شيء من المال يسير ليس له،

إذ سأله عن أخذ دجاجة أو شاة من أموال الذميين في الغزو!! قال عبد الله بن عباس - رضي الله عنه -: «إنهم إذا أدوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلا بطيب أنفسهم».

وهكذا: فإن على المسلمين أن يسلكوا - حتى مع أعدائهم - السلوك القائم على أداء الأمانة، والوفاء بعهد الله، وصيانة الحقوق مادامت الواجبات مؤدَّاة، وذلك ما انتهجوه وسلكوه والحمد لله، وهذا لا يتعارض - ألبتة - مع اليقظة والحذر، وإعداد القوة المستطاعة، فلكل قضية موقعها المتميِّز ومجالها الذي يجب أن توضع فيه.

وما من ريب في أن البرهان على صدق الوجهة ما يكون عند التطبيق العملي، وإلا ظلت المبادئ شعارات فارغة ودعوى بلا دليل. من هنا كان لموقف ابن عباس - رضي الله عنهما - قيمته الكبيرة في البنيان الحضاري لأمتنا إذ إنه موقف يشير إلى ربانية هذه الحضارة وتكاملها في ظل دعوة الله.

وهذا الموقف نفسه يبدو امتداداً لما وجه إليه وفعله الرسول ﷺ وأصحابه الكرام، في ضوء ما دعا إليه القرآن الكريم.

جاء في مسند الإمام أحمد - رحمه الله -: حدثنا عبد الله قال: حدثني أبي قال: حدثنا محمد بن سابق قال: حدثنا إبراهيم بن طَهمان عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله أنه قال: «أفاء الله عز وجل خيبر على رسول الله ﷺ، فأقرّهم رسول الله ﷺ كما كانوا، وجعلها بينه وبينهم، فبعث عبدَ الله بن رواحة فخرصها عليهم، ثم قال لهم: يا معشر اليهود:

أنتم أبغض الخلق إليَّ، قتلتم أنبياء الله عز وجل، وكذبتم على الله، وليس يحملني بغضي إياكم على أن أحيف عليكم، قد خرصت عشرين ألفَ وَسْقٍ من تمر، فإن شئتم فلكم، وإن أبيتم فلي، فقالوا: بهذا قامت السماوات والأرض، قد أخذنا قال: فاخرجوا عنا».

وبمثل هذه الرواية تقريباً ما جاء عند الدار قطني في سننه، إذ روى

بسنده عن أبي الزبير عن جابر – رضي الله عنه – قال: أفاء الله خيبر على رسوله، فأقرهم رسول الله ﷺ وجعلها بينه وبينهم، فبعث عبد الله بن رواحة، فخرصها عليهم، ثم قال: يا معشر يهود أنتم أبغض الخلق إليَّ، قتلتم أنبياء الله وكذبتم على الله، وليس يحملني بغضي إياكم أن أحيف عليكم، قد خرصت عشرين ألف وسق من تمر فإن شئتم فلكم، وإن أبيتم فلي. قالوا: بهذا قامت السماوات والأرض قد أخذناها، قال: اخرجوا عنا».

ولقد أورد الهيثمي في كتابه «مجمع الزوائد» رواية المسند ثم قال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

جاء في «المصباح المنير» للفيومي: خرصت النخل خرصاً من باب قتل؛ حزرت تمْره.

أما الوَسق: فهو حمل بعير.

فعبد الله بن رواحة – رضي الله عنه– مؤتمن من قبل رسول الله ﷺ على حزر تمر النخيل من خيبر وتقديره، فخرص عشرين ألف وسق من تمر.

ولكن: هل كون المسلمين في موقع القوة والغلبة، وكون اليهود في موقع الهزيمة والقهر، تسببا في شيء من الحيف والجور على اليهود الذين لم يتركوا مساءة إلا ارتكبوها مع المسلمين؟ الحق - كما هو الواقع الذي اعترفوا به هم أنفسهم - أن شيئاً من ذلك لم يكن؛ لأن ابن رواحة لا يحيد عن طريق الحق، سواء أكان من يتعامل معه أخاً حميماً، أم عدواً لدوداً، لذا رأيتَ أنه مع إفصاحه عن دخيلة نفسه بأن اليهود أبغض خلق الله إليه، لأنهم قتلة الأنبياء، والكذبة المفترون على الله... ولكن معاذ الله أن يحمله بغضه إياهم على الحيف عليهم، وهو مسلم منهجه أداء الأمانة والوفاء بعهد الله، وإعطاء كل ذي حق حقه كائناً من كان صاحب هذا الحق، لذلك قال لهم: «وليس يحملني بغضي إياكم على أن أحيف عليكم، قد خرصت عشرين ألف وسق تمر فإن شئتم فلكم وإن أبيتم فلي» ولما تبين لهم أن خرص عبد الله كان مثال العدل والنصفة رضوا كل الرضى وقالوا: بهذا قامت السماوات والأرض، أجل بالحق قامت السماوات والأرض.

هؤلاء هم اليهود الذين عاملناهم بالأمانة والوفاء، وعاملونا - وما زالوا - بالخيانة والغدر، وأسوأ ما في الأمر، دعواهم أن الله أباح لهم أكل أموالنا وسلوك سبيل الخيانة والغدر معنا...

فهل نستذكر هذه الحقيقة وأمثالها في مواجهة تتطلب - بعد العقيدة - الاقتناع الفكري العميق، والعمل على الأخذ بأسباب القوة من أطرافها في كل الميادين - ومنها سلامة التصوُّر وعدم الغفلة عن الحقائق ودلالة الوقائع في شأنهم...؟ اللهم أنت ولي ذلك والقادر عليه والحمد لله رب العالمين..

أقرُكم ما أقرَّكم الله .. ثم أجلاَهم عمر

لم يكن بدعاً من القول ولا جنوحاً إلى الرغبة في التمييز دون دليل، أن نشير إلى أن الوقائع بدءاً من عهد الرسول عليه الصلاة والسلام، كانت دليلاً ناطقاً على أن منهج المسلمين في السلوك يتميز بالحرص على أداء الأمانات لأهلها، والوفاء بالحقوق دونما تمييز بين قريب وبعيد، لما أن ذلك من الوفاء بعهد الله وتقواه فيما أمر وفيما نهى، والله سبحانه يحب الأوفياء الأتقياء الأنقياء ﴿ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ .

أقول هذا والحديث موصول بما دل عليه الكتاب الكريم؛ من حرص بالغ الشدة في المال عند فريق من اليهود، حملهم على استباحة أكل أموال المسلمين بالباطل، متذرعين بتأويلات عنصرية شيطانية وافتراء للكذب على الله تعالى، بأنه أباح لهم أكل أموال المسلمين فيما أنزل عليهم من كتاب، تعالى – جل شأنه – عن ذلك علواً كبيراً.

والناظر في كتب السنة – فضلاً عن كتب التاريخ بشكل عام – يقع على مالا يكاد يحصى من النماذج التي كان المسلمون، في تعاملهم مع الأعداء وفي مقدمتهم اليهود والنصارى، على الصراط السوي أداءً للأمانة ورعاية لحقوق الآخرين، دونما تأثر بأنهم هم الأقوياء وأعداؤهم الضعفاء؛ فلا حيف على العدو لأنه عدو، ولا محاباة للأخ – على حساب الحق – لأنه أخ،فالأمانة مؤدّاة للبر والفاجر، كما بين الرسول عليه الصلاة والسلام، والحقوق مصونة لأصحابها دون الخضوع لأي اعتبار آخر ماداموا

يؤدون ما عليهم من واجبات، وقد أوردت كلام ابن عباس – رضي الله عنه – في ذلك.

ونعيد إلى الأذهان ما روى الإمام أحمد في مسنده والدارقطني في سننه، من موقف عبد الله بن رواحة من اليهود وقد ائتمنه الرسول على خرص النخيل في خيبر، وكيف أنه لم يمل عن الصراط العادل قيد أنملة، وأن بغضه الشديد لهم لم يحمله على شيء من الحيف عليهم – وهم على ما هم عليه من العتو والضلال، وتبييت المكر والشر للمسلمين – سيما أنهم كانوا في مركز الضعف والهزيمة بينما كان المسلمون في مركز القوة والانتصار. فعن جابر – رضي الله عنه – قال: (أفاء الله خيبر على رسوله فأقرهم رسول الله ﷺ، وجعلها بينه وبينهم، فبعث عبد الله بن رواحة فخرصها عليهم ثم قال: يا معشر يهود أنتم أبغض الخلق إليّ؛ قتلتم الأنبياء، وكذبتم على الله، وليس يحملني بغضي إياكم أن أحيف عليكم. فقد خرصت عشرين ألف وسق من تمر، فإن شئتم فلكم، وإن أبيتم فلي، قالوا: بهذا قامت السماوات، قد أخذناها، قال: فاخرجوا عنا).

قدمنا أن الخرص هو الحزر، وأن الوَسق حِملُ بعير.

ولقد كان النبي ﷺ يبعث بعبد الله بن رواحة في الوقت المناسب للخرص حرصاً على سلامة التقدير، وصيانة لحق كل من المسلمين واليهود على السواء، وذلك على الصورة التي اتفق عليها بعد فتح خيبر.

روى أبو داود في سننه والدار قطني في السنن أيضاً وغيرهما بالسند إلى أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – أنها قالت – وهي تذكر شأن

خيبر – (كان النبي ﷺ يبعث بابن رواحة إلى اليهود، فيخرص النخل حين تطيب أول الثَّمرة قبل أن يؤكل منها، ثم يُخيِّر يهود يأخذونها بذلك الخرص، أو يدفعونه إليهم بذلك الخرص، وإنما كان أمر رسول الله ﷺ بالخرص لكي تحصى الزكاة قبل أن تؤكل الثمار وتفرَّق) قال الدار قطني : رواه صالح بن أبي الأخضر عن الزهريّ عن ابن المسيَّب عن أبي هريرة، وأرسله مالك ومَعْمَر وعقيل عن الزهريّ عن سعيد بن المسيّب عن النبي ﷺ مرسلاً. قال الهيثمي في مجمع الزوائد : صالح بن أبي الأخضر : ضعيف وقد وثِّق.

ويبدو أن اليهود – وهم قانعون بأن خرص عبد لله بن رواحة فيه الدقة والعدل ولا يحمل أثارة من حيف – أظهروا عدم الرضى أول الأمر، وشكوه إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام، ولكن عبد الله – وقد كان واثقاً كل الوثوق مما صنع – بيّن لرسول الله ﷺ وجه الصواب في صنيعه، وأنه أنصفهم ولم يظلمهم شيئاً، عندها رضيت اليهود وقالوا : بهذا قامت السماوات والأرض.

روى الهيثمي في كتابه « مجمع الزوائد » عن أبي هريرة أنه قال : لما افتتح رسول الله ﷺ خيبر وعد اليهود أن يعطيهم نصف الثمرة على أن يعمروها، ثم أُقرّكُم ما أقرّكم الله، فكان رسول الله ﷺ يبعث عبد الله بن رواحة يخرُصها، ثم يخبرهم أن يأخذوا أو يتركوها، وأن اليهود أتوا رسول الله في بعض المرات فاشتكوا إليه غلاء خرصه، فدعا عبد الله بن رواحة فذكر له ما ذكروا، فقال عبد الله : هو ما عندي يا رسول الله، إن شاؤوا أخذوها وإن شاؤوا تركوها، وإن تركوها أخذناها، فرضيت

اليهود، قالوا: بهذا قامت السماوات والأرض، ثم إن رسول الله ﷺ قال في مرضه الذي توفي فيه: لا يجتمع في جزيرة العرب دينان؛ فلما نُمي ذلك إلى عمر، أرسل إلى يهود خيبر فقال: «إن رسول الله ﷺ قد ملككم هذه الأموال، وشرط لكم أن يقركم ما أقركم الله، فقد أذن الله في إجلائكم؛ فأجلى عمر كل يهودي ونصراني عن أرض الحجاز، ثم قسمها بين أهل المدينة». رواه البزار وفيه صالح بن الأخضر ذكرنا من قريب قول الهيثمي بأنه ضعيف قد وثِّق.

ذلكم موقف المسلمين، طاعةً لله ولرسوله عليه الصلاة والسلام.. وهو موقف لا يخفى إشراقه وسموُّه؛ لأنه من الحق وإليه، وخصوصاً إذا قورن بموقف أعداء الله يهود.. وكل هذا وما كان على شاكلته، من معاملة اليهود بأخلاق الإسلام لم يُجْدِ مع المغضوب عليهم فتيلاً... وإذا قطعنا شوطاً أطول نحو الواقع، في ضوء ما حمل القرآن الكريم والسنة النبوية من حقائق، وجدنا أن اللغة المجدية مع هؤلاء الأناسي: أن يعمل المسلمون على أن يكون لهم وجود ذاتي في ظل عقيدة التوحيد التي تفجِّر الطاقات وتحرك العزائم، وأن لا يبخل هؤلاء المسلمون بشيء من القوة المستطاعة، على أي ساحة وفي كل ميدان من ميادين الصراع، بدءاً بالعلم، بعد الإيمان الخالص وصدق التوكل، ومروراً بكل ما هو لازم لتحقيق الجهاد الذي هو ذروة سنام الإسلام، والفريضة الماضية إلى يوم القيامة، وصدق ربنا إذ يقول: ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ** ﴿٦٩﴾ ﴾.

[العنكبوت: ٦٩]

والله أعلم بأعدائكم.. خلائقهم وما يفترون

الناظر في آيات الكتاب العزيز، ووقائع السنة النبوة والسيرة المطهرة حيث التعامل مع اليهود في بعض المجالات، يجد أن تحريف الكلم عن مواضعه، خصلة متأصلة في نفوس هؤلاء اليهود - كما أخبر عنهم القرآن - فلا أيسر عليهم، من أن يعبثوا بنصوص التوراة، فيبدلوها، أو يحرفوا الكلم عن مواضعه، فيتأولوه على غير وجهه، واضعين إياه على غير المعنى الذي يدل عليه ظاهر اللفظ، ويؤيده الدليل. والمعنى الذي يرمون إليه بعد التحريف وسيّء التأويل، هو المعنى الذي يوافق أهواءهم الضالة، ونزعاتهم التي لا تمتُّ إلى دعوى التدين بصلة.

ففي سورة البقرة - على سبيل المثال - نقع على ما يشبه التيئيس للمؤمنين، من أن يطمعوا في انقياد أولئك المغضوب عليهم بالإيمان والطاعة، وهم أحفاد أولئك الذين كان فريق منهم شاهدوا من الآيات البينات ما شاهدوا، ثم قست قلوبهم من بعد ذلك أشد القسوة - والسائرون على نهجهم - وقد كان فريق منهم - يعني آباء اليهود الذين هم بين ظهرانيهم كما دلت الآيات -: يسمعون كلام الله، ثم يحرفونه بأن يتأولوه على غير تأويله، متنطعين مخالفين دلالته الظاهرة، كل ذلك ليكون - كما شاء لهم هواهم ووفق ما تسوّل لهم أنفسهم -، بعيداً عن دلالة ذلك الكلام العلوي، ومعناه الحقيقي.. وقد فعلوا ذلك من بعد ما فهموه على الجلية وأحاطوا به، وهم يعلمون أنهم مخطئون فيما ذهبوا

إليـه من تحريفـه وتأويله، ذلكـم قـول الله تبـارك وتعـالى خطاباً للـمؤمنين: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [البقرة: ٧٥] وقد جرّهم ذلك إلى اتخاذ النفاق سبيلاً في علاقتهم بأهل الإيمان، دل على ذلك قول الله تعالى في الآية التـاليـة: ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [البقرة: ٧٦ – ٧٧] لقد كذبوا على الله، وحرفوا كلامه – سبحانه – عن مواضعه، وبخاصة ما يتعلق منه بوجوب الإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام، أولا يعلمون أن الله يعلم ما أسروا من كفرهم به ﷺ وتكذيبهم بما جاء به من الحق،وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة على صورة لا تحتمل اللبس أو الإبهام؟ إنه – وهو العليم الخبير – يعلم ما يسرون وما يعلنون حين يقولون لأصحاب محمد ﷺ إذا لقوهم: آمنا بمحمد وبما جاء به وصدقناه، ويبطنون نقيض ذلك من الكفر والتكذيب. كذا روي عن أبي العالية والربيع وقتادة... إنه العبث والاستهتار، والظهور بوجهين، حتى في أمور العقيدة التي جاء ذكرها في التوراة والإنجيل والقرآن!!

وهكذا كان لتحريف اليهود الكلم عن مواضعه، وتأويله على غير وجهه الذي يدل عليه، أثره في توجيه العلاقة بينهم وبين المسلمين؛ لأن سبيل الاطمئنان إليهم منتف على هذه الساحة، وأنّى للطمأنينة أن تكون، وهم يحرفون نصوص التوراة الدالة بصريح العبارة – كما قلنا – على بعثة محمد ﷺ والناطقة بصفاته صلوات الله وسلامه عليه – وهذا

قليل من كثير - مما حرفوا وبدّلوا، والأدهى من ذلك: أنهم يفعلون ما يفعلون عن عمد وإصرار، عالمين أن ما يقدمون عليه من الجراءة على كلام الله ضلال مبين.

ومما يؤكد هذا العبث العابث، والإصرار على تنزيل كلام الله تعالى غير منازله، وتفسيره حسبما تمليه الأهواء، لا وفق مراد الله عز وجل، وأن ذلك خصلة عميقة الجذور في نفوس من يدعون أنهم أبناء الله وأحباؤه، ما جاء في الآية السادسة والأربعين من سورة النساء.. من قول الله تبارك وتعالى: ﴿ **مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴿٤٦﴾ ﴾ [النساء: ٤٦].

وعلى محور الهداية القرآنية في تنبيه المسلمين - وهم يخوضون معركة الوجود الذاتي - على خصال اليهود وطبيعة تحركهم في مواجهة الحق وأهله حسداً وبغياً، وما يجب من وضع ذلك أبداً في الحسبان دونما تفريق بين حالات السلم والحرب، بحيث لا يغترون بزخرف القول، ولا يغفلون عن أساليب الخداع والمكر.. على هذا المحور رأينا قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ **أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴿٧٥﴾ ﴾ [البقرة: ٧٥] يخاطب المؤمنون بما يشبه التيئيس - كما أسلفنا - من إيمان اليهود المعاصرين لهم في حياة النبي عليه الصلاة والسلام، لما أنهم أحفاد أولئك المحرفين المتأولين كلام الله على غير تأويله الراضون بصنيعهم، الناسجون على منوالهم.

ونرى هنا في سورة النساء أن الكلام على تحريف الكلام عن مواضعه عند اليهود، وسوء أدبهم البالغ مع النبي عليه الصلاة والسلام، قد سُبق بما يدل على أن صنيعهم هذا: عنوان العداء لمحمد ﷺ ولما جاء به معتقَداً وسلوكاً؛ فمن ناحية المعتقد: حرّفوا وتأولوا أسوأ التأويل، وعندهم النصوص الصريحة، بصفة محمد عليه الصلاة والسلام، والدعوة إلى الإيمان به، ومن ناحية السلوك كان من سوء أدبهم قولهم: سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا لياً بألسنتهم وطعناً في الدين؛ فقبل قوله تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ...﴾ الآية. يطالعنا السياق المعبِّر الدال على ما نقول - والله أعلم - بقول الله جل ثناؤه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾.

[النساء: ٤٤ - ٤٥].

ونتابع الخطى مع هذه القضية، التي تحمل أهميتها على ساحة الفكر من حيث الاستجلاء الموضوعي المتعمق لحقيقة ما تنطوي عليه نفوس أعداء الله، وما تكنه صدورهم كيما يكون المسلمون - وهم يعيشون واقعاً مخزياً لا يغبطون عليه - قادرين على تخطي الصعاب، وترشيد المنطلقات، والإفادة من وقائع التاريخ لعلهم يظفرون بتبديل المواقع، وتحويل ميزان القوى إلى صالحهم في مواجهة اليهود.. نتابع الخطى مع هذه الحقيقة، لنرى في سورة المائدة ما يدل على أن تحريف الكلم عن مواضعه، ليس أمراً عارضاً في حياة اليهود ولكنه جزء لا ينفصم من كيانهم على صعيد الفكر والسلوك، ذلكم ما جاء في الآية الثالثة عشرة

من السورة المشار إليها من قول الله تبارك وتعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣) ﴾ [المائدة: ١٣].

فبسبب من خيانتهم الأمانة ونقضهم المواثيق والعهود عاقبهم الله بأن لعنهم وطردهم من رحمته، وجعل قلوبهم قاسية فتراهم يحرفون الكلم عن مواضعه، ونسوا حظاً مما ذكروا به، ومظاهر خيانتهم لا تنحسر، فالرسول ﷺ لا يزال يطّلع على العديد من وقائع مكرهم وغدرهم – إلا قليلاً منهم – قاتلهم الله.

النتائج على نسب واضح من المقدمات ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ ﴾. بدؤوا بالخيانة ونقض العهود والمواثيق فكانت العقوبة المناسبة مع تلك الجريمة النكراء ﴿ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ﴾، وقسوة القلب هذه، يالها من عقوبة اقترنت بالطرد من رحمة الله، فأصبح التحريف وسوء التأويل عند اليهود خصلة مرتبطة تمام الارتباط، بتلكم القسوة الملعونِ من اتصف بها والعياذ بالله.

إن الذي يعلنه اليهود اليوم، من دعوى ارتباطهم بالتوراة، وأنهم يأتون ما يأتون وفق نصوصها وتعاليمها، والتوراة التي أنزلها الله على موسى منهم ومن فعالهم براء.. إن الذي يعلنونه اليوم، يؤكد أكثر من أي وقت مضى، ضرورة أن يكون المسلمون – وهم على خط المواجهة الصعبة مع اليهود – أكثر وعياً لحقائق الكتاب والسنة في شأنهم، وأكثر حرصاً

على الإفادة من تلك الحقائق ووضعها موضعها في ميادين الفكر والمعاناة، التي لا تقتصر على ميدان من الميادين، فحقائق الكتاب والسنة، ليست صفحات من التاريخ تطوىٰ بعد أن تقرأ لمجرد الاطلاع، ولكنها أمانة ومسؤولية، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

ماضٍ سيئ.. يؤكده حاضر أسوأ

من إعجاز القرآن الكريم أنك ترى- وأنت تعيش واقع اليهود مع أمتنا - كأن الآيات التي أوضحت الرؤية في شأنهم من كل الوجوه، تتنزل اليوم غضة طرية، لتضعَ أيدي المسلمين على مكمن الداء، وتهديَهم سبيل الوعي لما يجري، والتيقظِ لما يجب على ساحة المواجهة في هذا العصر الذي يحمل الكثير من التبدل في القيم، والاضطراب في المعايير.

أوَ ليسوا يحاربون اليوم عند الحاجة: بسلاح أنهم على الهدى التوراتي، يتبعون تعاليم كتابهم حذو القذّة بالقذّة؟ فإذا وضعت ذلك، ووضعت معه ما كشفت عنه الآي في عدد من السور المدنية؛ من كونهم يحرفون الكلم عن مواضعه بجراءة لا مثيل لها، في الافتراء على الله والجراءة في الكذب عليه... إذا فعلت ذلك: أدركت - ولو من جانب واحد - لوناً من ألوان الإعجاز، وازددت يقيناً، بأن هذا الكتاب كلامُ الله الحكيم الخبير الخالق العليم بما تنطوي عليه نفوس هذا الصنف من الخلق، الأمر الذي يدل على أن ما يُرى من الانحراف المتأصل في السلوك: مردُّه إلى ما تنطوي عليه تلك النفوس، وما يغشى القلوب من الظلمات!!

ولقد رأينا أنه قد صحب الكشفَ عن تحريفهم الكلام عن مواضعه، وتأويله تأويلاً يتناقض مع المعنى المراد لله تعالى حسب دلالة الألفاظ، وسبب النزول والقرائن معاً إلى ذلك. صحب هذا الكشف بيان أنهم يأتون ما يأتون من هذا الفجور الفكري؛ جراءة على الله وافتراء للكذب

عليه سبحانه عن عمد وإصرار بالغَين، وهم على علم بأن ما يقدمون عليه من سوء الأدب الذي لا حدّ له ضلال مبين. يدرك ذلك بكل جلاء من ينظر نظرة متدبرة في قوله تعالى: ﴿ **أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾** ﴾ [البقرة: ٧٥].

وكونهم يتحركون يومذاك من موقع الضعف - على النقيض من هذه الأيام السود - لجؤوا إلى النفاق ﴿ **وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا...** ﴾ الآية. والدرس الذي كان فيه تأنيبهم وفضح مخازيهم، - ولا يصح أن نغفل عنه اليوم - ما جاء في قوله تعالى بعد ذلك: ﴿ **أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾** ﴾ [البقرة: ٧٧].

وقد سبقت هذه الآيات الثلاث في سورة البقرة، بآية جاءت في أعقاب الكلام على تعنت اليهود وملاحاتهم موسى عليه السلام في شأن البقرة التي أمروا بذبحها من أجل الكشف عن جريمة ارتكبت فيما بينهم، وظهر لهم من آيات الله ما يدل أوضح دلالة على قدرة الله وحكمته، ولكن قست قلوبهم من بعد ذلك أشد قسوة!!

والآية الكريمة هي قول الله جل ثناؤه: ﴿ **ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾** ﴾ [البقرة: ٧٤].

وعلى هذا المحور المضيء من هدي الكتاب في هذه الحقيقة، رأينا ما

جاء في سورة النساء بدءاً من الآية الرابعة والأربعين من قول الله تبارك وتعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ ﴾ [النساء: ٤٤ – ٤٦].

أرأيت: هناك في سورة البقرة تيئيس، أو ما يشبه التيئيس، من انقياد أولئك اليهود في عصر النبي عليه الصلاة والسلام للحق وطاعتهم لأهله، وهم أحفاد أولئك الذين كان يطبع تعاملهم مع الله وكتابه، أنهم جفاة غلاظ الأكباد على قلوبهم أقفالها، فقد رأوا ما رأوا من الآيات الدالة على قدرة الله وحكمته، ثم قست قلوبهم أشد ما تكون القسوة، وتراهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما فهموه وأدركوه، وهم يعلمون أنهم على ضلال في صنيعهم الزائف المنحرف... والطينة واحدة، وما يزال النهج يزداد عتواً وانحرافاً! فكيف يطمئن إلى صنيعهم المؤمنون، ويطمعون في انقيادهم للحق؟

وهنا في سورة النساء: كشفٌ عن أنهم من ألد أعداء الإسلام والمسلمين، وذلك على صعيد العقيدة والسلوك جميعاً، ومن المؤشرات على هذه الساحة: تحريفهم الكلم عن مواضعه، وسوء أدبهم المخزي مع الرسول عليه الصلاة والسلام، ولو فعلوا غير ذلك، لكان خيراً لهم وأقوم

في دينهم ودنياهم، ولكنهم استحقوا لعنة الله وغضبه، فهم ناقضون للعهد - كما دلت النصوص والوقائع - خائنون للأمانة، كافرون بما جاءتهم به رسلهم من عند الله ﴿ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾. أليس إدراك هذه الحقائق اليوم إدراكاً ينتفع به على صعيد الواقع، ضرورة ملحة بعد أن تعقَّدت الأمور، وبدأ اليهود يتكلمون ويحاورون من موقع القوة والتعنت الذي لا مثيل له.

أما في سورة المائدة فطالعتنا الآية الثالثة عشرة - والكلام على اليهود - بقول الله جلَّت حكمته: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣) ﴾ [المائدة: ١٣].

فتحريف الكلم عن مواضعه، كان امتداداً لتلك العقوبة المهلكة، وهي قسوة القلب التي كانت قرينة اللعن وهو الطرد من رحمة الله تعالى.... كل هذا يدل - كما أسلفنا - على أن ما يصنعونه اليوم وصنعوه من قبل: شنشنة نعرفها من أخزم. والمهم أن يكون لنا الوجود الذاتي الواعي المستنير بالإيمان.

ومع خطوة أخرى في رحاب سورة المائدة، نقرأ بدءاً من الآية الأربعين ما يكشف عن أن تحريف الكلم عن مواضعه أصبح منهجاً هو الأصل في تعاملهم مع كلام الله عز وجل، وإذا حصل غير ذلك - وهو غير حاصل - فهو شيء على غير بابه، ولذلك انضمت هذه الخصلة الذميمة إلى

مجموعة أخرى من الخصال التي يجمعها السوء في المعتقد والسلوك، وكل ذلك باسم الدين؛ كذباً وافتراءً على رب العالمين. ذلكم قول الله تباركت أسماؤه: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [المائدة: ٤١ - ٤٣].

هكذا يذكر تحريف اليهود الكلم من بعد مواضعه - وكأن الآيات تنزل اليوم - في عداد تلك المجموعة من الخصال الذميمة، التي بدت آثارها في الماضي ، وتبدو على صعيد الواقع اليوم، واضحة في سلوكهم وتكييف علاقاتهم بالآخرين، سماعون للكذب - بصيغة المبالغة - سماعون لقوم آخرين لم يأتوك - هم أهل خيبر في واقعة سوف نعرض للحديث عنها إن شاء الله - يحرفون الكلم من بعد مواضعه، سماعون للكذب أكالون للسحت، لا يرضون بحكم الله الذي جاء النص عليه في التوراة... وما أشبه الليلة بالبارحة! ولكن مع مزيد من الوقائع المؤكدة بالغ التأكيد!!

﴿ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾

ألقينا عصا التسيار من قريب عند آيات مباركات من سورة المائدة، توحي بأسلوبها المعجز – والقرآن كلُّه معجز – أن من معالم الهداية في كلام الله تعالى، التوجيه إلى تدبر الوقائع وإرعاء السمع إلى ما يكشف عنه من ارتباط سلوك اليهود بنوازع الانحراف المتأصلة في نفوسهم، ومن ذلك جراءتهم على الله وكتابه، بتحريف الكلم عن مواضعه، وتوجيه الكلام توجيهاً يخضع للتأويل الذي يرون أنه يضمن لهم ما يبيتون من الأذى. وما يزعمون من أن لهم أفضلية تبيح لهم السيطرة وأكل أموال أمتنا بالباطل، إلى جانب ما يجدُّ من تسويفات تحقق أغراضاً طارئة، رأينا نماذج كثيرة منها عبر تاريخنا الطويل معهم.

لذا بات من إعجاز القرآن والدلالة على أنه كلام الله، ما يرى من الدخول إلى أعماق الأعماق في نفوسهم، والكشف حتى عن الخطرات من المنطلقات التي توجه سلوكهم، وسبحان من أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً. ولنقرأ لمزيد من البيان **﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَاءُوكَ**

فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [المائدة: ٤١ – ٤٣].

لقد افتتحت الآية الأولى، بما يدل على القنوات المتصلة أبداً بين المنافقين واليهود، يا أيها الرسول لا يحزنك صنع أولئك النفر من الناس الذين يقعون في الكفر بسرعة، فيخرجون عن طاعة الله ورسوله، إذ يظهرون هذا الكفر إذا وجدوا فرصةً، مقدمين آراءهم وأهواءهم، على شريعة الله عزوجل، وهديه سبحانه، بينما تراهم يخفونه ويتظاهرون بالإيمان إذا لم تواتهم الفرصة و «من» في قوله تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ للبيان. وتلكم هي صفة المنافقين، يقولون: آمنا بألسنتهم، وقلوبهم خراب مقفلة ما ذاقت طعم الإيمان.

الخطاب للرسول ﷺ: لا يحزنك صنيع الذين يسارعون في الكفر من المنافقين وإخوانهم من اليهود، إذ يجمع شتات هؤلاء وأولئك عداؤهم المجنّح للإسلام، والذين هادوا سمّاعون للكذب الذي أقرته أحبارهم سماع قبول، فهم مستجيبون له متأثرون به تمام التأثر... دلَّ على ذلك صيغة المبالغة إذ لم يقل الله جل شأنه «سامعون للكذب» بل قال: «سماعون للكذب» وهم أيضاً سماعون – بصيغة المبالغة – لقوم آخرين لم يأتوك، إنهم يستجيبون لأقوام آخرين من اليهود، لا يأتون مجلسك يا محمد. ويمكن أن يكون المعنى: يتسمعون الكلام منك، ويُنهونه إلى قوم آخرين. ممن لا يحضر عندك من أعدائك.

وأي مانع يمنع أن يصدر عن اليهودي – بوصفه عدواً ماكراً لرسول الله والمسلمين – كلا الأمرين الذميمين جميعاً !! ونأتي إلى تلك الحقيقة التي أصبحت سجية من سجاياهم، والتي رأينا الكلام عليها في عدد من سور القرآن الكريم، ألا وهو تحريفهم الكلم عن مواضعه، إذ جاء قوله تعالى هنا: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ أجل يحرِّفون الكلم الذي في التوراة – كآية الرجم – من بعد مواضعه التي وضعه العليم الخبير – سبحانه – عليها يتأولونه على غير تأويله، ويبدلونه عن عمد وتقدير، من بعد ما عقلوه وهم يعلمون أن ما يفعلونه عدوان على الحقيقة وأنه ضلال وانحراف.. وقد يرفعون القضية إلى النبي ﷺ فإن حكم على هواهم، قبلوا حكمه، وإن حكم بغير ذلك، أعرضوا ولم يقبلوا. إنها الرغبة الجامحة في السير مع الباطل، ومظاهرته على الحق الصراح الذي لا شية فيه.

ولقد حملت إلينا كتب التفسير ودواوين السنة ومصادر السيرة النبوية المطهرة، نماذج عملية حاول فيها اليهود طمس نصوص في التوراة في شأن حكم من الأحكام، أو تحريف الكلم عن مواضعه التي وضعه الله عليها في كتابه، أو تبديل الكلام الذي جاء من عند الله بكلام من عند أنفسهم، يتفق مع ما يمليه الهوى ويوسوس به الشيطان. من ذلك ما ورد بشأن مجيء اليهود برجل وامرأة منهم قد زنيا، وكانوا قد بدلوا كتاب الله الذي بين أيديهم من الأمر برجم من أحصن، فحرَّفوه واصطلحوا فيما بينهم على الجلد مائة جلدة والتحميم، وهو جعل السواد في وجه الإنسان أو سكب ماء الحميم عليه، والإركاب على حمارين مقلوبين،

فلما وقعت تلك الحادثة بعد الهجرة، قالوا فيما بينهم: تعالوا نتحاكم إليه - يعنون النبي ﷺ - فإن حكم بالجلد والتحميم، فخذوا عنه واجعلوه حجة بينكم وبين الله، ويكون نبي من أنبياء الله قد حكم بينكم بذلك، وإن حكم بالرجم فلا تتبعوه في ذلك. وقد عقد البخاري في كتاب التفسير من جامعه الصحيح باباً عنوانه: «باب ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾» وروى هناك بسنده عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما -، أن اليهود جاؤوا إلى النبي ﷺ برجل منهم وامرأة قد زنيا، فقال لهم: كيف تفعلون بمن زنى منكم؟ قالوا نُحَمِّمُهما ونضربهما، فقال: ألا تجدون في التوراة الرجم؟ فقالوا: لا نجد فيها شيئاً، فقال لهم عبد الله بن سلام: كذبتم فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين، فوضع مِدْراسها الذي يدرِّسها منهم كفه على آية الرجم فطفق يقرأ ما دون يده وما وراءها ولا يقرأ آية الرجم، فنزع يده عن آية الرجم، فقال: ما هذه؟ فلما رأوا ذلك قالوا: هي آية الرجم، فأمر بهما فرُجما قريباً من حيث موضع الجنائز عند المسجد، قال: فرأيت صاحبها يَحْنى عليها يقيها الحجارة».

معنى «يَحْنى عليها»: يُكبُّ عليها. يقال: حنا يَحْنىٰ حُنُوًّا، قال في «النهاية»: ومنه حديث رجم اليهودي: «فرأيته يَحْنى عليها يقيها الحجارة».

وقد ورد حديث هذه الواقعة أيضاً في كتاب الحدود من جامعه الصحيح تحت «باب أحكام أهل الذمة وإحصانهم إذا زنوا ورفعوا إلى

الإمام» فقال: حدثنا إسماعيل بن عبد الله قال: حدثني مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - أنه قال: إن اليهود جاؤوا إلى رسول الله ﷺ، فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟ فقالوا: نفضحهم ويُجلدَون، قال عبد الله بن سلام: كذبتم إن فيها الرجم، فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك فرفع يده، فإذا فيها آية الرجم، قالوا: صدق يا محمد فيها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله فرجما، فرأيت الرجل يحنى على المرأة يقيها الحجارة».

ولنا عودة - إن شاء الله - إلى هذا الموضع من الواقع يومذاك نتلمس فيه أبعاد هذه القضية من خلال النصوص الواردة فيها، لما أن هذا الذي صنعت يهود أنموذج عملي لمحاولتهم طمس معالم الحق، وتأويل كلام الله على هواهم ورغبتهم الجامحة في الانحياز إلى الباطل، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

يُرضون الجناة... بسخط الله تعالى

الذين يذعنون لهدي الكتاب والسنة، وينتفعون بما جاء في نصوصهما من حقائق – أخص منها ما ورد في شأن من ضربت عليهم الذلة والمسكنة – إلا بحبل من الله وحبل من الناس، وباؤوا بغضب من الله – الذين يوفقون لذلك، لا يهولهم ما يجدون اليوم من تعنت اليهود والنصارى، ومحاولتهم العدوان على الحق وطمس معالمه، وقلب الحقائق المتألقة كالشمس في وضح النهار، رأساً على عقب. . لا يهولهم ذلك، ولا يقع منهم موقع الاستغراب، لأنهم على ذكر من تنبيه القرآن على ذلك، وتأكيده في نصوص السنة ووقائع السيرة المطهرة، وما تلا ذلك في تاريخ تعاملهم مع الناس عموماً، ومع المسلمين على وجه الخصوص.

والعهد قريب بما وقفتنا عليه آي الكتاب العزيز من خلائقهم، التي منها عدوانهم على الحق أينما كان، ولو أدى ذلك إلى العبث حتى بكلام الله عز وجل، ناهيك عن سوء التعليل لما يصنعون، والتماس المعاذير الهابطة، حتى صار الأمر ضغثاً على إبَّالة. وفي العديد من المواطن في كتاب الله عز وجل، كانت الدلالة واضحة، على أن تلك الخلائق الجانحة عن الصراط السوي إلى نقيضه، وثيقة الصلة بالفكر والسلوك عند اليهود. .

وغني عن البيان: أن مما يزيد الأمر وضوحاً، ويمنح المرء يقيناً على يقين بما تؤذن به آيات الكتاب الكريم، وتدل عليه أصح دلالة وأصدقها. .

ما يجد الناظر في السنة المطهرة – وهي بيان الكتاب – من الوقائع التي لا يرتاب منصف في أنها تطبيق عملي من قبل اليهود، لما كشف عنه القرآن ودل المسلمين عليه.

ومن النماذج العملية التي وقعت على صعيد الاحتيال على نصوص التوراة في عصر النبي عليه الصلاة والسلام، ما مر بنا من قبل مما روى الإمام البخاري بسنده عن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – أنه قال: إن اليهود جاؤوا إلى رسول الله ﷺ: فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟ فقالوا: نفضحهم ويجلدون. قال عبد الله بن سلام: كذبتم إن فيها الرجم، فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك، فرفع يده، فإذا فيها آية الرجم، قالوا: صدق يا محمد فيها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله فرجما، فرأيت الرجل يَحْنى على المرأة يقيها الحجارة».

فهذه الواقعة، صريحة في محاولتهم طمس ما جاء عن الحق جل جلاله وورد صريحاً في التوراة، وقد كشف مكرَهم عبد الله بن سلام – رضي الله عنه – الذي كان من أحبارهم قبل الإسلام، وهو على علم بحقيقة ما في التوراة. وأنت واجد في بعض الروايات ما يدل على الباعث الذي حفزهم إلى العبث بدين الله، والتحول عما حكمت به شريعتهم إلى غيره، فقد روى مسلم بسنده عن البراء بن عازب – رضي الله عنه – أنه قال: «مُرَّ على النبي ﷺ بيهودي محمَّماً مجلوداً. فدعاهم ﷺ فقال: هكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟ قالوا: نعم. فدعا رجلاً

من علمائهم. فقال: أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى: أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟ قال: لا، ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك، نجده الرجم؛ ولكنه كثر في أشرافنا، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد. قلنا: تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع، فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم. فقال رسول الله ﷺ: اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه. فأمر به فرجم». فأنزل الله عز وجل: ﴿ **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا** ...﴾ يقول: ائتوا محمداً فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا. فأنزل الله تعالى: ﴿ **وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ** (٤٤) ﴾ [المائدة: ٤٤]. ﴿ **وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** (٤٥) ﴾ [المائدة: ٤٥]. ﴿ **وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** (٤٧) ﴾ [المائدة: ٤٧] في الكفار كلُّها.. محمَّماً: مسوَّد الوجه من الحُمَمة وهي الفحمة وجمعها حُمَمٌ.

فأنت ترى في هذا الحديث أن الرسول ﷺ أتى القضية من بابها الطبيعي، حين دعا رجلا من علماء اليهود، وسأله عن حقيقة الأمر في شأن العقوبة التي أوقعوها بذلك الرجل منهم، وكان عليه الصلاة والسلام على غاية الحكمة في سؤاله؛ إذ قال لذلك العالم: «أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم» وإذ ضُيِّق

الخناق بهذه المناشدة على الرجل – وهو من علمائهم – صرّح بما ركبوا من متن الضلال، وأن العدول عن حكم الشرع، كان إرضاء لشرفائهم الذين كثرت فيهم تلك الجريمة النكراء، والعياذ بالله، فعملوا على إرضاء أولئك الجناة أصحاب المكانة فيهم بسخط الله تعالى: فكان أن بدؤوا بنوع من التمييز الطبقي، بحيث يقيمون الحد على الضعيف، ولا يقيمونه على الشريف، ثم انتقلوا خطوة أخرى، بأن بدّلوا الحكم واخترعوا من عند أنفسهم شرعاً لم يأذن به الله، تلكم هي قالة ذلك اليهودي الذي كان يعني ما يقول؛ لأنه ليس من آحاد الناس الجهلاء، ولكنه من الأحبار فيهم، إنه يعترف لرسول الله ﷺ اعترافاً يكشف عن ذلك العبث برمته. ها هو – عليه وعلى أمثاله لعائن الله – يقول: (ولكنه – يعني الزنى – كثر في أشرافنا، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد). ثم ماذا؟ لقد جاءت المرحلة التالية التي عبر عنها بقوله: (قلنا تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع، فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم).

هذا واحد من مواقفهم المخزية في النظرة إلى الإنسان، وفي مواجهة ما تأمرهم به التوراة وما تنهاهم عنه .. ولنذكر بعد هذا: أن ذوي الكلمة فيهم لا يفتؤون يرددون –وهم قوم بهت – أنهم مع أحكام الله لا يريمون عن التوراة، ويعملون جاهدين على أن يجمعوا يهود العالم على شعارات يأتي في مقدمتها الحقوق المزعومة، والدينُ الذي حرفوه وبدلوه وطمسوا معالم كتابه – تلك المعالم التي توجب عليهم لو كانوا على أثارة من

صدق أن يؤمنوا بالإسلام – ولكنهم آثروا الكذب والعدوان، واخترعوا ترّهات باطلةً أسموها ديناً اشتروا به ثمناً قليلاً، فبئس ما يشترون .

وكم يحسن المسلمون صنعاً إذا أخذوا من الأنموذج الذي عرضنا له وأمثاله، ما يساعد على التفسير الصحيح للتحرك الفكري والسلوكي عند اليهود، ونشروا ذلك باللغة المناسبة على كل صعيد ! إذن لأحسنوا إلى أنفسهم، وأضاؤوا الطريق للأجيال القادمة، وفي ذلك خير كثير.

﴿ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾

من أبجديات التحرك الفعال، في مواجهة يهود في العصر الحاضر، عدم التغافل أو الغفلة عن قضايا، تبدو من صميم مفهوماتهم وسلوكهم هي في حد ذاتها، على نسب واضح إلى ما كان يُشتكى منهم في عصر النبي عليه الصلاة والسلام، ثم ما تلا ذلك من عصور، وكل يوم تزداد نسبة الحرص على الأذى، ويتعمق وجود تلك الخلائق التي كشفت عنها نصوص الكتاب والسنة، وأيدتها أوضح تأييد ما كانت تكسبه أيدي المغضوب عليهم من وقائع، حتى وصل الأمر إلى ما نعانيه منهم في هذا العصر... وقد زاد من فاعلية الأذى في سلوكهم، حالنا التي لا نغبط عليها.

وفيما حملت إلينا الرواية التي أخرجها الإمام مسلم في صحيحه، مؤشرات تؤكد ما نقول، وتوحي بضرورة اليقظة، وإدامة الربط، بين حاضر القوم وماضيهم، لكي تُفهم القضايا على وجهها الصحيح، ولا يُفَسَّرَ التاريخ «مزعةً» من هنا و «مزعةً» من هناك !! وبذلك تحصل العبرة أولاً، ويمكن تصنيف الوقائع والأخلاق، من حيث آثارها على صعيد التعامل ثانياً.

ولابد من الإشارة بادئ ذي بدء، إلى أن عرض الأمر في جريمة الزنىٰ المشار إليها في الحديث على النبي عليه الصلاة والسلام - وهم كافرون به وبشريعته، حملهم عليه - والله أعلم - اضطراراً، ما جاء في الوثيقة التي كتبها رسول الله ﷺ تنظيماً لشؤون المجتمع المسلم ومن فيه، وكان من

ذلك موادعة يهود التي اشتملت على تحديد التعامل معهم، وحددت حقوقهم وواجباتهم تجاه المجتمع الجديد، وإن شئت قلت: الدولة الجديدة بحمد الله. وأن هذا أيضاً كان نوعاً من الهروب من حكم التوراة.

ومن الدروس التي لا بد من الاستضاءة بها في هذه الحقبة الزمنية التي نعيش مآسيها معهم: أن من أهون الأمور على الأحبار المسؤولين عن توجيههم، وتطبيق أحكام التوراة فيهم، العبث بتلك الأحكام تحريفاً وتبديلاً.. يفعلون ذلك مقابل عرض من الدنيا قليل، فما بالك اليوم؟؟.

ثم إن إخضاع أحكام التوراة، لظلام الطبقية في المجتمع، ظاهرة تدل- فيما تدل - على أن كل ما يقال عن صلة اليهود بالتوراة، ووصف التصرفات اليوم بأنها - على زعمهم - تصرفات توراتية يزينها التديُّن والحرص على أحكام السماء.. عبث من العبث واشتراء لآيات الله بثمن قليل .. فالحكم - حسبما جاءت الرواية الصحيحة - تحوّل عن أصله، ليكون في خدمة الأقوياء، الذين لم يكن بمقدور رجال الدين عندهم، فرضه عليهم.. وقد يكون عدم القدرة، زعماً باطلاً؛ لأن القرآن أوضح في قضية أخرى، تتعلق بأكل المال الحرام، أن الأحبار والربانيين، قَصّروا كل التقصير في تذكير الناس ونهيهم عن ارتكاب المحرّمات في القول والفعل. ذلكم ما جاء في سورة المائدة من قوله تعالى في كلام على بعض من فعال يهود وخلائقهم: ﴿ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن

قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [المائدة: ٦١ – ٦٣].

وأكثر من هذا في موطن العبرة – وما أكثر العبر وأقل المعتبرين – أنهم لم يدعوا العبث، حتى عن تحكيم رسول الله عليه الصلاة والسلام، فرأيت الدارس – القارئ فيهم – يحاول صرف الأنظار عن النص الذي يصرح برجم الزاني المحصن، بصرف النظر عن موقعه في المجتمع ومنزلته فيه.

كل هذه الأمور مجتمعة، مضافاً إليها الصمت من الجمهور عن المخالفة، دلّ على موطن العبرة فيها، ونبّه على عدم تقليدهم فيما هم فيه من مظاهرة الباطل على الحق: قول الله تبارك وتعالى: ﴿ **وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ** ﴿٤٣﴾ ﴾ [المائدة: ٤٣].

وهذا إعلان صريحٌ عن أن عمل هؤلاء الأدعياء، أدعياء أنهم من أهل الكتاب العاملين بأحكامه، دعوى قام الدليل على نقضها، فأين الإيمان من هذا الصنيع، عبثاً بأحكام التوراة، وسلوكاً غير أخلاقي في الحيدة عنها!! ناهيك عن سوء الأدب والكذب على رسول الله ﷺ، ولولا أنه – بحكمته – عليه الصلاة والسلام، استطاع محاصرة أحد أحبارهم؛ ومناشدته أن يقول الحقيقة، لظلّت المعالم ضائعة، والحكم المطلوب بيانه، لعبة في أيدي المتاجرين بالدين، يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً، ويا بئس ما يصنعون ويشترون.

وفي كلمة شيخ المفسرين – رحمه الله – ما يزيد الأمر وضوحاً، ويضع الأيدي على مكمن الداء في نفوس هؤلاء القوم وقلوبهم وعقولهم، يقول – رحمه الله –: (يعني، تعالى ذكره، وكيف يحكمك هؤلاء اليهود يا محمد بينهم، فيرضون بك حكماً بينهم، وعندهم التوراة التي أنزلتُها على موسى التي يقرون أنها حق، وأنها كتابي الذي أنزلته على نبيي، وأن ما فيه من حكم فمن حكمي، يعلمون ذلك ولا يتناكرونه ولا يتدافعونه، ويعلمون أن حكمي فيها على الزاني المحصن: الرجم، وهم على علمهم بذلك يتولون؛ يقول: يتركون الحكم به بعد العلم بحكمي فيه، جراءةً عليَّ، وعصياناً لي) والآية – وإن كانت خطاباً للنبي ﷺ فهي تحمل في طياتها – كما هو واضح – تقريع اليهود على ذلك التجاوز المهين لحكم الله بتعلّلات فاسدة، تزيد الأمر سوءاً، وعلى ذلك العبث العابث والإصرار على التلاعب – من قبل من يفترض أن يعلموا الشرعة ويطبقوها – بأمر يتعلق بالإيمان وبحكم الله عز وجل. وقد أفصح عن ذلك – رحمه الله – فبيّن أن ما جاء في الآية وإن كان من الله تعالى ذكره خطاباً لنبيه ﷺ، فإنه تقريع منه لليهود الذين نزلت فيهم هذه الآية: (يقول لهم تعالى ذكره: كيف تقرّون أيها اليهود بحكم نبيي محمد ﷺ، مع جحودكم نبوته وتكذيبكم إياه، وأنتم تتركون حكمي الذي تقرّون به أنه حق عليكم واجب، جاءكم به موسى من عند الله).

والواقع أن العقل المتجرد عن الخضوع لتأثير الهوى، كان لابد أن يعمل عمله في هذه القضية؛ فإذا كان اليهود قد بلغ من جراءتهم على الله وكتابه، أن يتركوا حكمه الذي جاءهم به موسى الذي يقرون بنبوته،

فهم بترك حكمه تعالى الذي يخبرهم به محمد ﷺ أنه حكمه – جل شأنه – أحرى مع جحودهم نبوته ومناصبته العداء. على أنهم لو استمسكوا بما جاءهم به موسى، لآمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام، لما أن التوراة تبشر بنبوته وتذكر عدداً من صفاته.

وهكذا كان التناقض، وكان على العقل السليم أن يحكم حكمه في هذا النهج الذي يسلكه اليهود، مع دعاواهم العريضة ومزاعمهم التي لاتكاد تنتهي. قال أبو جعفر: (يقول: فإذا كنتم تتركون حكمي الذي جاءكم به موسى الذي تقرون بنبوته في كتابي، فأنتم بترك حكمي الذي يخبركم به نبيي محمد أنه حكمي أحرى مع جحودكم نبوته). وانظر إلى ما ختمت به الآية من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ أين فعل هؤلاء المتولين عن حكم الله من فعل أهل الإيمان؟ إن دعواهم بجانب، وعملهم بجانب آخر، يعكس الكذب المهين، من أجل هذا كانوا جديرين بهذا الحكم ﴿وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾. فقد قال جل شأنه مخبراً عن حال هؤلاء اليهود الذين وصف صفتهم بقوله: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ الآية وحال نظرائهم من الجائرين على حكمه، الزائلين عن محجة الحق قال سبحانه « وما أولئك بالمؤمنين » يقول: ليس من فَعَل هذا الفعل، أي من تولى عن حكم الله الذي حكم به في كتابه الذي أنزله على نبيه في خلقه بالذي صدق الله ورسوله فأقر بتوحيده، ونبوة نبيه ﷺ؛ لأن ذلك ليس من فعل أهل الإيمان.

وهكذا تراهم يدَّعون الدعوى، ويقوم سلوكهم دليلاً على التناقض والكذب فيما يدعون!!

والدعاوى إن لم يقيموا عليها بـيِّـنـاتٍ أصحابُـهـا أدعـيـاءُ

رزقنا الله حسن الوقوف عند حدوده كما أمر، والاعتبار بصنع هؤلاء المغضوب عليه، الذين لم يدعوا باباً من العبث وتجاوز حدود الله إلا ولجوه، وألهم المسلمين أن يفيدوا من تلك الحقائق التي لا تقبل الاحتمال، وأن يوظفوها على ساحة الصراع مع من واتتهم الفُرص وخلا لهم الجو، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

تحريف الكلم عن مواضعه...

ودعوى الإيمان

استنطاق الوقائع التي تفشت آثارها في مجتمع يهود - كما دلت على ذلك النصوص -: أكَّد بما لا يقبل الشك، ما دلت عليه الكلمات الهاديات من تهاونهم في شأن وحي السماء، حتى بلغ الأمر مبلغ أن يحرفوا الكلم عن مواضعه، وأن يطمسوا حقائق منصوصاً عليها في التوراة، وليس ذلك فحسب: بل صحبَ التهاونَ مجاهرتُهم بأن ما يُفعل على هذه الشاكلة لا ينأى بصاحبه عن الدين، مادامت المصلحة المزعومة تقتضي ذلك.

والذي لا مندوحة للمسلمين من تصنيفه - على أنه محطة من محطات تاريخنا، في إدراك الكيفية التي يمكن أن يتعامل بها اليهود مع الآخرين - ما جاءت به الروايات التي أوردناها، في شأن عبثهم بقضية الحكم على الزاني المحصن وبخاصة رواية الإمام مسلم -رحمه الله - .. إذ كانت محاولة التعفية على نص التوراة - كما رأينا - أسلوباً اتبعوه مع الرسول ﷺ دونما خجل أو تحسُّب،ولعل ذلك من أجل أنهم قد صدّقوا دعواهم الكاذبة المفتراة، بأنهم والنصارى أبناء الله وأحباؤه، فلا عليهم أن يكون منهم العبث والأسلوب البارد المستنكر، حتى في التعامل مع رسول الله ﷺ الذي أحسن إليهم - وهو في موطن القوة وقيادة المجتمع -

وضمن لهم حقوقهم كاملة غير منقوصة، ولكنهم أبوا إلا أن يكونوا أهل التحريف والتبديل، والفساد والإفساد.

وحري بالمسلمين اليوم، أن لا يُنسيَهُم هذه المحطة البارزة في التاريخ، وهي من الثوابت التي لا تقبل النسخ – ما آل إليه الأمر نتيجة ضعف نعانيه، ومظاهرة قوى الشر لأعداء الله وأعداء الإنسان.. ولا يكون ذلك إلا بالعودة الصادقة إلى الاستمساك بتلكم الحقائق، التي دلت عليها نصوص الكتاب والسنة دلالة قطعية لا تقبل الاحتمال وأيدتها الوقائع عبر تاريخنا الطويل مع قتلة الأنبياء والعابثين، حتى بكلام الله عز وجل.

ومن الإعجاز البياني لتلك القضية من أطرافها في القرآن الكريم، ما أنزل الله في أعقاب ما حصل منهم في الواقعة المومئ إليها من قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ...** ﴾ إلى قوله: ﴿ **إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا** ﴾ [المائدة: ٤١] يقول: ائتوا محمداً ﷺ فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا.

ومعاودة النظر في النص بكامله تنير الطريق أكثر فأكثر لمزيد من تبين الملامح والمنطلقات كما هي عندهم، يقول الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٤١)** ﴾ [المائدة: ٤١].

وفي كشف عن بعض من الخلال الذميمة الأخرى، التي تشكل الإطار العام لفكر اليهود وسلوكهم على هذه الساحة: جاء بعد ذلك قوله تعالى في الآية الثانية والأربعين: ﴿ **سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾** ﴾ [المائدة: ٤٢] ثم بين الله جل شأنه أنهم لو كانوا صادقين لأخذوا ما في التوراة – وهو حكم الله – بصدق وإيمان ولكنهم يحتكمون إليك عسى أن يجدوا عندك – على زعمهم ما يعفيهم مما جاء في التوراة؟ ذلكم قوله تعالى في الآية التي تلي، وهي الآية الثالثة والأربعون: ﴿ **وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾** ﴾.

[المائدة: ٤٣].

وأنت ترى أن في الآية تأنيباً لليهود على التناقض الذي يقعون فيه، فقد تركوا حكم الله الوارد في التوراة، وجاؤوا إلى الرسول ﷺ يحتكمون إليه وهم كافرون به وبما جاء به.. أجل: كيف يحكمك هؤلاء اليهود يا محمد بينهم، فيرضون بك حكماً في واقعة وقعت في مجتمعهم، وعندهم التوراة التي أنزلتها على موسى التي يقرّون بأنها حق، ويزعمون أنهم بها مؤمنون ولأحكامها متبعون، إذ إنها الكتاب الذي أنزلته على نبيهم موسى. وهم في الوقت نفسه غير مؤمنين بأنك نبي مرسل من عند الله عز وجل، مع أن الدليل على ذلك قائم عندهم في التوراة؟!

إنه التناقض المخزي، الذي يدل على أن ما لجؤوا إليه من تحكيم الرسول ﷺ في أمر الحكم على ذلك الزاني المحصن، وهم غير مصدقين به ولا

مؤمنين برسالته لا يقصد منه اتباع الحق، ولكن محاولة التفلت من حكم التوراة – إن أمكن ذلك – وإن كان للوثيقة التي أومأنا إليها من قبل، بعض الأثر في حملهم على ما صنعوا من تحكيمه عليه الصلاة والسلام، ودل على الرغبة في التفلت قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ ثم ختمت الآية بنفي الإيمان عنهم، بسبب من طمس الحقيقة والتولي عن حكم الله وعدم الانصياع إليه، مضموماً إلى ذلك أمور وأمور من الضلالات والأباطيل .. وليس ذلك من الإيمان في شيء، بل هو من نواقضه المفضوحة ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ . [الأنعام: ٣٣].

أين صنيعهم... من هدي التوراة كما أنزلت

كلما أوغل اليهود في العصر الحاضر، في دعوى الانتساب إلى التوراة في العقيدة والفكر، وما اخترعوا افتراء على نصوصها من مبشرات، تؤول بهم إلى اغتصاب حقوق المسلمين ظلماً وعدواناً، وكذلك يفعلون صباح مساء.. كلما أوغلوا هذا الإيغال في هذه الدعوى التي سَداها ولُحمتها الزور والبهتان.. ذكر المؤمن ما كشفت عنه نصوص الكتاب والسنة - وأيدته الوقائع - من مجافاتهم لما جاءت به التوراة، وتجاوزهم لما جاء صريحاً فيها.

والعهد قريب بما كنا بصدده في شأن العبث الذي مارسه واحد من مقدّميهم، وحبر بارز من أحبارهم، في شأن الاحتكام إلى الرسول ﷺ كيما يرى رأيه في يهودي منهم اقترف جريمة، يعاقب عليها بالرجم.

ولقد وقع منهم ما حكم القرآن؛ بأنه خروج على الإيمان وكفر صريح، والذي وقع: هو التولي عن حكم الله الذي جاءت به التوراة، والاحتكام إلى الهوى وتسويلات الشيطان، إرضاء للظالمين والمفسدين في المجتمع، على حساب ما أنزل الله من حكم في هذا الشأن الذي يساوم أحبارهم عليه.

وذلك قوله الله جل شأنه في سورة المائدة: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا**

اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [المائدة: ٤٤].

وما من ريب في أن قوله تعالى: ﴿ **وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ...** ﴾ الآية عام في اليهود وغيرهم، ولكنهم داخلون فيه دخولاً أولياً، لأن الواقعة التي أومأنا إليها والتي تحمل محاولة طمس الحقيقة، والتولي عن حكم الله، كانت سبب النزول، لقد اخترعوا من عند أنفسهم شرعاً لم يأذن به الله؛ فكان ذلك إيذاناً بخروجهم عن دائرة الإيمان وأهله.

وقال جل شأنه في معرض ما كتب عليهم في التوراة، ووعيدهم على الخروج عليه: ﴿ **وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾** ﴾ [المائدة: ٤٥]. جاء بعد هذه الآية قول الله تباركت أسماؤه: ﴿ **وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾** ﴾ [المائدة: ٤٦] نقرأ بعد ذلك في الآية السابعة والأربعين وهي التي ختمت بقوله تعالى: ﴿ **فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ وكانت مما أشار إليه حديث مسلم أيضاً.. نقرأ قوله سبحانه: ﴿ **وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾** ﴾ [المائدة: ٤٧].

هكذا حملت تلكم الآيات الكريمات، ذلك التنديد بحكم اليهود

بغير ما أنزل الله، وإعراضهم عما جاءت به التوراة، إلى بديل من صنع أفكارهم الضالة المعادية للحق وأهله – وإن كان خصوص السبب – كما سبق – لا يمنع عموم اللفظ عند الجمهور – كما جاء التنديد بصنع أهل الإنجيل في انحرافهم عما أمروا به في كتابهم، وحكم القرآن الكريم على من لم يحكم بما أنزل الله، بما قرأناه في قوله تعالى: ﴿ **وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ** ﴿٤٤﴾ ﴾ [المائدة: ٤٤]. وقوله سبحانه: ﴿ **وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴿٤٥﴾ ﴾ [المائدة: ٤٥]. وقوله جل شأنه: ﴿ **وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴿٤٧﴾ ﴾ [المائدة: ٤٧].

ولسوف تظل هذه الكلمات النورانية من أوضح الأدلة على أن اليهود، حين يخونون العهد، فيعبثون بكتابهم ويعملون على طمس أحكامه، فأحرى أن يكونوا على ساحة التعامل مع غيرهم – وخاصة المسلمين – أكثر خيانة ومظاهرة للباطل على الحق. ولله الأمر من قبل ومن بعد...

﴿ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾

الرحلة التي قطعها المسلمون – على صعيد التعامل مع اليهود الذين كانوا يجاورونهم في المدينة – إبان العصر النبوي ، وتَنَزُّل الكتاب العزيز، كانت – على قصرها الزمني – رحلة زاخرة بالعبر والدروس، عميقة الجذور في تاريخنا، لاتني تشير بأصبع البيان والتبيان، وما حملت من الثوابت، إلى موقع السلوك اليهودي من الحق والباطل، والدوافع العميقة لهذا السلوك، وما يصحب ذلك من استهتار بالقيم، حتى لو كانت تلك القيم من صميم كتابهم المنزل الذي يزعمون الاستمساك به، والحرص على الانتماء إليه في العقيدة والأخلاق والسلوك، ناهيك عن التشريع والأحكام!!

ومن صور هذا الذي زخرت به تلك الرحلة الغنية بالعطاء؛ ما وقفتنا عليه السنة المطهرة من أن عدداً من آي سورة المائدة تنزلت – والقرآن كله نورٌ وهدىً – بسبب ما اجترح اليهود من مخالفة عن أمر الله، ومحاباة الشرفاء والكبراء الذين تفشت فيهم الجريمة، محاباةً حملت الأحبار على ابتداع شرع لم يأذن به الله، فبدلاً من أن يخضعوهم للحق المنزل في التوراة، ويقيموا عليهم الحدَّ، كما يقيمونه على الضعفاء، أرضوهم بسخط الله، وجاء التنديد في تلك الآيات بهذا الصنيع المجافي للحق الذي نزل به الكتاب، الخارج على الأحكام الواضحة المنصوص عليها في التوراة، ولم يكن النصارى الذين استزلَّهم الشيطان أيضاً، بمنجاة من هذا الوعيد .

وكانت الآيات الكريمات صريحة في الإعلان عن براءة الإيمان وأهله من هذا الصنيع، وتقعيد القواعد التي تنير طريق المسلمين، كيلا يقعوا فيما وقع فيه غيرهم، مؤكدة الحكم بما أنزل الله، وأن من يتعدى حدود الله في ذلك، فهو خارج عن ملة التوحيد. والآيات التي نعني تبدأ بقوله تعالى: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ...**﴾ [المائدة: ٤٤] الآيات. وكان مما أشرقت به في شأن الحكم بما أنزل الله الوعيد الشديد على تركه: قوله جل شأنه: ﴿**وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ** ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة: ٤٤]. وقوله سبحانه: ﴿**وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴿٤٥﴾﴾ [المائدة: ٤٥]. وقوله جل شأنه: ﴿**وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴿٤٧﴾﴾ [المائدة: ٤٧] وليس من القول المعاد - وقد ضرب هذا المرض العضال بجِرانه في كثير من بقاع العالم الإسلامي، ويحاول أهل الضلال ذوو الكلمة النافذة أن يثبِّتوا عدم الحكم بما أنزل الله في فكر الأجيال على أنه هو المصلحة - ليس من القول المعاد - مضاعفة التذكير بأن الآيات المباركات الهاديات - كما تحمل التنديد والوعيد لأهل الكتاب من يهود ونصارى بسوء العاقبة في الدنيا والآخرة جزاء الحكم بغير ما أنزل الله - فإنها تحمل أيضاً تحذير المسلمين من أن يقعوا فيما وقع فيه المغضوب عليهم والضالون.

وأنت ترى أنه بعد الكلام على الواقع الذي ألمّ باليهود والنصارى تجاوزاً لحدود الله، وابتداعاً لشرع لم يأذن به الله، أسلمتنا الكلمة القرآنية إلى وضع القاعدة النورانية، التي تكرر ذكرها، على محور الهداية ثلاث

مرات، وبصورة متلاحقة، تؤكد مزيد الاهتمام في شأنها ﴿ **وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ** ﴾ الآيات.

وإذا كان خصوص السبب لا يمنع عموم اللفظ - كما أسلفت غير مرة - واللفظ عام هنا، فتناول هذه الآيات للمسلمين - بجانب كثير من النصوص الأخر في هذا الشأن والقرائن الواضحات -: أمر يقيني لا غبار عليه.

ثم إن الكلام عن أولئك المحرِّفين المبدلين المعرضين عما جاء في كتابهم المنزل - وقد جاء هذا في كتاب الله المنزل على صاحب الرسالة الخاتمة لأمة الشهادة على الناس - ليس قصصاً تاريخياً يروى للتسلية وتزجية الوقت في محاولة للانتصار على ساعات اليوم والليلة، عند التائهين الضائعين، ولكنه درس عظيم يأخذ مكانه الطبيعي في بناء الأمة المحمدية، بناءً متكاملاً على الإيمان والعلم والعمل، لكيلا تكون هنالك فجوة بين الإيمان والسلوك، فتكون العقيدة والشريعة بجانب، والتطبيق العملي بجانب آخر، كما صنع أولئك الكافرون. ولذلك جاء الوعيد على عدم الحكم بما أنزل الله بصيغة عامة وإن كان السبب خاصاً فكلمة «من» من أدوات العموم. وذلك واضح في قوله تعالى: ﴿ **وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ** ﴿٤٤﴾ ﴾ ﴿ **وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴿٤٥﴾ ﴾ ﴿ **وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴿٤٧﴾ ﴾.

وفي ضوء الواقع، وتطور أساليب التربية والتعليم، وما يجب أن يحسب حسابه؛ من الغزو الفكري والحرب المعلنة على الإسلام والمسلمين في كل ميدان: في ضوء ذلك كله تبدو الضرورة ملحة، في أن يأخذ

المسلمون حذرهم بمنهجية وموضوعية، وأن يدوروا مع الحق الذي أنزل به الكتاب حيث دار، بعيداً عن التقليد الأعمى، والوقوع في أحابيل اليهود ومن هم سدنة اليهود، والواقع الأليم الذي تعيشه أمتنا من جراء عدم الحكم بما أنزل الله، شاهد صدق على ما جاء التحذير منه والوعيد عليه.

ولعل مما يؤكد ذلك، أنه – دفعاً لأي توهم بأحقية اتباع التوراة أو الإنجيل بعد نزول القرآن – جاء بعد الآيات التي أوردناها والتي حملت – فيما حملت – التنديد بأهل الكتاب – لأنهم لا يعملون بما أنزل الله عليهم... جاء بعدها ما بين للأمة، أن القرآن مصدق للكتب التي أنزلت قبله، ولكنه هو الذي يجب أن يتبع فهو المهيمن والشاهد عليها، وأمر الرسول ﷺ أن يحكم بما أنزل الله فيه، لما أنه خاتم الكتب الذي أنزل على خاتم النبيين، وهو المهيمن الذي يحمل الشريعة الناسخة لما قبلها.

ذلكم قول الله تبارك وتعالى: ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨)** ﴾ [المائدة: ٤٨].

اللهم وفق المسلمين للعمل الذي يرتفع بهم إلى أن يكونوا أهلاً لنصرك، وهم يواجهون اليهود وأعوانهم من أعداء الحق والإنسان، وأن يستأنفوا طريق العمل بالكتاب والسنة، مع إدراك للواقع وتقلبات الأيام والله المستعان..

وأهل الإنجيل أيضاً.. والقرآن مهيمن

ما أصاب المسلمين من الضعف والتخبط في التشريع والأحكام، في أكثر شؤون الحياة، وتبديل المُرَقَّعيّات المستوردة - على هذا الصعيد - عاماً بعد عام، وما يلقى دعاة العودة إلى شريعة الله في الحكم والأخلاق والسلوك من عَنَتٍ.. كل أولئك يذكِّر بما وقع من الإعراض - في كثير من بقاع عالمنا الإسلامي - عن الاتعاظ بما وقفتنا عليه آيات من سورة المائدة، كان فيها بالغ العبرة، وتحديد المنهج الذي على الأمة أن تسلكه، كيما تأخذ موقعها في الفاعلية والتأثير والريادة بين أمم الأرض، ضمن ظروف محلية وعالمية معقدة، لا تخفى على ذي بصيرة.

وأعني بالآيات: تلك التي ندّدت بما جنح إليه اليهود من الإعراض عن ذكر الله وأحكامه في التوراة، واختراعهم من عند أنفسهم شرعاً لم يأذن به الله، والتي آذنت الخارجين على حكم الله المنزل في كتابه، بالكفر والظلم والفسق الذي هو - هنا - الخروج على طاعة الله والانصراف إلى طاعة الهوى والشيطان، إرضاءً لأهل الضلالة والمفسدين.

والملاحظ أن الآيات، لم تقتصر على التنديد باليهود - مع عموم ألفاظها - ولكنها أشركت في ذلك التنديد بسوء صنيعهم، أهل الإنجيل لكونهم سلكوا السبيل نفسها من الحكم بغير ما شرع الخالق الحكيم سبحانه وتعالى، معرضين عما جاء به الوحي من السماء، ذلك قول الله

تبارك وتعالى: ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [المائدة: ٤٧].

وقد جاءت هذه الآية بعد بيان أن الله أرسل عيسى بن مريم عليه السلام مصدقاً لما بين يديه من التوراة، وآتاه الإنجيل فيه هدىً ونور... كان ذلك في الآية السادسة والأربعين من سورة المائدة المومئ إليها حيث قال ربنا جلّ وعلا: ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [المائدة: ٤٦].

وفي أعقاب هذه الآية وما اتصلت به من قريب، جاء ما يبين أن الحكم بما أنزل الله، لا يختص بأمة دون أخرى، وأن على المسلمين – وهم أصحاب الرسالة الخاتمة – أن يحكموا بما أنزل الله في كتابهم الكريم، على نبيهم المصطفى عليه الصلاة والسلام.

وفي الوقت نفسه، عليهم أن يتنبهوا إلى قضية غاية في السعة والعمق، وهي أن لا يلتبس عليهم الأمر، فيظنوا أنهم – وقد أنزل عليهم القرآن – مطالبون بشيء مما في الإنجيل والتوراة، بعد أن توعد الله اليهود على عدم الحكم بما أنزل الله بالتوراة، وتوعد النصارى على عدم حكمهم بما أنزل الله في الإنجيل، وذلك بعد امتداحه لكل من الكتابين السماويين التوراة والإنجيل.

إنها قضية كبرى، تأخذ حجمها المرموق في أصول العقيدة، ويجب على المسلمين التنبه إليها، وفقهها على الوجه الذي ينبغي. ذلكم ما هو

مقرر بداهة من أن القرآن الكريم ـ وهو خاتم الكتب السماوية ـ أنزله الله على عبده وخاتم رسله محمد عليه الصلاة والسلام، وأنه مصدق لتلك الكتب بلا ريب، ولكنه المهيمن عليها، ويحمل الشريعة الناسخة لما سبق من الشرائع.

هذه واحدة. وأما الثانية: فهي أن على الناس كلهم، أن يعملوا به وببيانه من حديث الرسول عليه الصلاة والسلام!! ألم تر إلى الكلمات المباركات تعلن إعلانها بمزيد من الوضوح والبيان، فتوجه القلوب والعقول إلى أن ذلك من مقتضيات الإيمان، ولا تدع ريبة لمستريب في أن العمل بأحكام هذا الكتاب الناسخة شريعته لما سبقها من الشرائع، هو الواجب الحتم؟

فبعد قوله تعالى في ختام الآية السابعة والأربعين: ﴿ **وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴿٤٧﴾ ﴾ نقع على تلكم القضية المهمة التي نُلمح إليها: في قول الله جلت حكمته خطاباً لإمام الأنبياء وخاتم المرسلين نبينا محمد عليه الصلاة والسلام: ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ** ﴿٤٨﴾ ﴾.

فأنت ترى أن الله تعالى ـ لما ذكر التوراة التي أنزلها على موسى كليمه، ومدحها وأثنى عليها وأمر باتباعها، وتوعد اليهود على عدم

العمل بها حيث كانت سائغة الاتباع، وذكر الإنجيل ومدحه، وأمر أهله بإقامته واتباع ما فيه، وتوعدهم على عدم العمل بما جاء به، حيث كان سائغ الاتباع – شرع سبحانه في ذكر القرآن العظيم الذي أنزله على عبده ورسوله محمد عليه الصلاة والسلام فقال تعالى: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ**﴾ أي بالصدق الذي لا ريب فيه أنه من عند الله ﴿**مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ**﴾ أي من الكتب المتضمنة ذكره ومدحه، وأنه سينزل من عند الله على رسوله المصطفى خاتم النبيين محمد ﷺ ﴿**وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ**﴾ وأصل الهيمنة الحفظ والارتقاب، فهو حاكم على ما قبله من الكتب وأمين وشاهد عليه، إذ إنه خاتمها، وأشملها، وأعظمها، حيث جمع الله فيه محاسن ما قبله وزاده من الكمالات ما ليس في غيره. فلهذا جعله شاهداً وأميناً وحاكماً عليها كلها، فإليه المرجع ومنه يؤخذ شرع الله. وقد تكفل الله تعالى بحفظه بنفسه الكريمة فقال تعالى: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ۝٩﴾ [الحجر: ٩] وجاء بيانه في سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام.

إنها لأمانة في أعناق المسلمين، أن يقرؤوا ويتدبروا ويعملوا بيقظة ونفاذ بصيرة، وذلك صدق الإيمان، ودليل العقل عن الله تبارك وتعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام.

﴿ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴾

كان من حكمة الله تبارك وتعالى، وجميل رعايته للأمة المحمدية، أنه – جل شأنه – يُتبع الكشفَ عن خصال يهود ومن على شاكلتهم، والمنهج الذي يتبعونه في تعاملهم الضال مع أنبيائهم وما أنزل الله عليهم من كتاب، وما ينطوي عليه هذا السلوك الملتوي من الضلال.. يُتبع ذلك بما يضع أمة الإسلام على المحجة البيضاء؛ إيماناً وعملاً وسلوكاً، وما يسلك بها سبيل التأكيد لذاتيتها، ووجودها الحقيقي، بعيداً عن تقليد اليهود، والوقوع فيما وقعوا فيه من المآثم؛ وذلك من طريق ارتباطها بكتاب ربها، وبيانه من السنة، ارتباط عقيدةٍ وعمل.

كما أن هذا الكتاب– وهو القرآن الكريم – هو المهيمن: الرقيب والأمين والحافظ والشاهد على الكتب التي سبقته، وإليه المرجع، ومنه تؤخذ الأحكام، وتعرف الحقائق الثابتة عن اليهود ومن على شاكلتهم، فقد أنزله الله آخر الكتب، وجعله خاتمها وأشملها وأعظمها وأكملها، حيث جمع فيه محاسن ما قبله على محور التوحيد وإسلام الوجه لله، وزاد فيه من الكمالات ما ليس في غيره، من أجل ذلك جعله أميناً وشاهداً وحاكماً عليها كلها، وتكفل – عز سلطانه وجلت حكمته – بحفظه بنفسه الكريمة فقال سبحانه: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ وائتمن على بيانه نبيه المصطفى عليه الصلاة والسلام فقال تعالى: ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾

[النحل: ٤٤] وفي ذلك ما فيه من الخير العظيم، إيذاناً بوجود التميز للأمة بالحق، وإبعاداً لها عن التقليد الأعمى، والانزلاق الظالم فيما هو على النقيض من مقتضيات الإيمان، وحماية لها - أن لو تدبرت القرآن حق التدبر - عن أن يكون صنيعُها صنيعَ اليهود وأضرابهم في إعراضهم عما جاء، واختراعهم أحكاماً من عند أنفسهم، لا تمتُّ إلى الحق الذي نزل من عند الله بصلة.

وحرصاً على أن تأخذ هذه المقولة الإيمانية أبعادها في القلب والعقل، يبدو من الخير أن نسلك سبيل التأكيد والإحاطة - قدر المستطاع - فنذكّر مرة أخرى بواحدة من آي كتاب الله جرى إيرادها من قريب، ضمن الإشارة إلى ما هو من معالم الهداية، وما هو من معالم الضلال في مواجهة الوقائع بما يجب لها من أحكام الدين، ووقفنا على اليسير من معانيها، تلكم هي الآية الثامنة والأربعون من سورة المائدة التي يقول فيها ربنا، جل شأنه، مخاطباً النبي عليه الصلاة والسلام والأمة من ورائه، في تحديد للمنهج والسبيل الواجب أن تسلك على صعيد التشريع والبناء الحضاري: ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ** ﴾.

هكذا بعد أن بين ربنا تبارك وتعالى، أنه أنزل القرآن مصدقاً لما بين يديه من الكتاب، ومهيمناً - أميناً وشاهداً وحاكماً على الكتب التي

سبقت - أمر نبيه ﷺ أن يحكم بين أهل الكتاب وسائر أهل الملل، بكتابه الكريم الذي نزله عليه وهو القرآن الذي خصه بشريعته، وجعلها ناسخة لما قبلها من الشرائع، وحذره أن يتبع أهواءهم عما جاءه من الحق بهذا القرآن فقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨].

وأنت ترى أن هنالك أمرين كلٌّ منهما على غاية الأهمِّية: أما أولهما: فهو أن يحكم الرسول ﷺ بما أنزل الله. وأما الثاني: فهو أن يحاذر اتباع أهواء المشركين وأهل الكتاب - بعامة - واليهود منهم بخاصة، الذين كان همهم المكر والخداع ومحاولة التفلت من أحكام الله، كما ظهر ذلك في الكثير من مواقفهم. هانحن أولاء نقرأ عند الطبري شيخ المفسرين - رحمه الله - قوله عند الكلام على هذه الكلمات النيرات: (وهذا أمر من الله تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ أن يحكم بين المحتكمين إليه من أهل الكتاب وسائر أهل الملل بكتابه الذي أنزل إليه، وهو القرآن الذي خصه بشريعته، يقول تعالى ذكره: احكم يا محمد بين أهل الكتاب والمشركين بما أنزل إليك من كتابي وأحكامي، في كل ما احتكموا فيه إليك من الحدود والجروح والقَوَد والنفوس.. إلى أن يقول: فإني أنزلت إليك القرآن مصدقاً في ذلك ما بين يديه من الكتب، ومهيمناً عليه، رقيباً يقضي على سائر ما قبله من سائر الكتب قبلَه.

هذا عن الأمر الأول، وهو الأمر بأن تحكم بينهم بالقرآن، أما عن الأمر الثاني، وهو النهي عن اتباع أهواء اليهود: فالمعنى: ولا تتبع أهواء هؤلاء

اليهود الذين يقولون: إن أوتيتم الجلد في الزاني المحصن دون الرجم، وقتل الوضيع بالشريف إذا قتله، وترك قتل الشريف بالوضيع إذا قتله، فخذوه، وإن لم تؤتوه فاحذروا – لا تتبع أهواءهم عن الذي جاءك من عند الله من الحق – وهو كتاب الله الذي أنزله إليك – يقول له: اعمل بكتابي الذي أنزلته إليك إذا احتكموا إليك فاخترت الحكم عليهم، ولا تتركنّ العمل بذلك اتباعاً منك أهواءهم، وإيثاراً لها على الحق الذي أنزلته في كتابي. يقول ابن عباس – رضي الله عنهما – فيما روى عنه الإمام الطبري بسنده: فاحكم بينهم بما أنزل الله.. بحدود الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق.

ترى أي بيان يداني هذا البيان!! يضع أمتنا على طريق اليقظة والوجود الذاتي، وينأى بها – أن لو استقامت على صراط الله – عن أن تقع فيما وقع فيه اليهود فنالوا غضب الله، بل ينصرها عليهم وهم يصطنعون التحديات في كل ميدان..؟

إنه المنهج الرباني في الكتاب المعجز.

﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ . . . ﴾

كلما ازداد التبصرُ في صنيع يهود، وفي آثار الوقوع فيما توعدهم الله عليه، من الحكم بغير ما أنزل الله، ازدادت الحاجة إلى القراءة الواعية الخاشعة لكتاب الله، وإلى الصلة المتدبرة الباعثة على العمل به، والاستنارة ببيانه من سنة النبي ﷺ ونهجه العملي في تطبيق أحكامه. وفي استرشادنا بقبسات من سورة المائدة، السورة المدنية التي تنزلت والمسلمون على ثغور البناء والمواجهة، رأينا ما يجب من وضوح الرؤية، وتحديد المواقف، وكان من عطائها الذي لا يحده زمان ولا مكان: تقرير أن القرآن الكريم - وهو خاتم الكتب السماوية الذي أنزل على خاتم النبيين محمد عليه الصلاة والسلام - هو المهيمن: الأمين والشاهد والحاكم على ما سبقه من الكتب المنزلة، وأن الرسول عليه الصلاة والسلام، مدعوٌّ لأن يحكم بين اليهود والنصارى وسائر الملل - حين يحتكمون إليه- بما أنزل الله في الفرقان الحكيم، وأن لا يتبع أهواءهم عما جاءه من الحق الذي لا ريب في أنه الصدق المنزل من عند الله عز وجل. . .

وقد ختمت الآية بالدعوة إلى استباق الخيرات، بالعمل بالشرع الذي جاء به القرآن، وبيان أن معاد الناس ومصيرهم إلى الله يوم القيامة وهو - سبحانه - يجزي الصادقين بصدقهم، ويعذب الكافرين الجاحدين المكذبين بالحق العادلين عنه إلى غيره، كالذي فعلت يهود وأعوانها وما تزال. . . ذلكم قول الله تبارك وتعالى: ﴿ **فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ**

جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [المائدة: ٤٨] ﴿ **فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ** ﴾ في حومة الصراع بين الحق والباطل، وأمواج التحديات التي يواجهها المسلمون من داخل النفس، حيث الصوارف التي لا تخفىٰ، ومن خارجها، حيث الأعداء المتربصون... ما بدٌّ من العزيمة الصادقة التي تثمر المبادرة والحركة الدؤوب، في ميادين الخير وعمل الصالحات... أجل تثمر السبق في ميادين السباق إلى ما فيه مرضاة الله تعالى ورسوله، وعز الدنيا والآخرة، ومجانبة السلوك الضال الذي كان سمة اليهود، في تعاملهم مع التوراة.

هكذا في أعقاب الحقائق التي دلت عليها الآية الكريمة، يجيء الأمر بالاستباق والبدار الطيب المبارك، فبادروا أيها الناس إلى الصالحات من الأعمال والقرب إلى ربكم بالعمل الصادق المتجدد بما في كتابكم، فإنه إنما أنزله على نبيه ﷺ امتحاناً لكم وابتلاءً، ليتبين المحسن منكم الحريص على العمل بالمنزل، من المسيء الذي يتخذ الكتاب وراءه ظهرياً، فيجازي كلاً بعمله عندالمصير إليه، فإن إليه مصيركم جميعاً ﴿ **إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ** ﴾ وإذا كان المصير والمرجع إليه، فإنه – سبحانه – يخبر كل فريق منكم بما كان يخالف فيه الفرق الأخرى، وكم بين العاملين وبين المتبطلين من تخالف... وهنالك تكون كلمة الفصل؛ فالمستقيم على الطاعة المقيم حدود الله؛ إلى الجنة، والمسيء الضال عن الصراط السوي؛ إلى النار. هكذا يتبين المحق من المبطل، دونما لبس أو غموض.

وغير خافٍ أن الأمر يبلغ ذروته في توجيه المسلمين – وهم يديرون حركة الحياة على منهج الله – إلى أن يكونوا على أشد الحذر من الضيق أمام المعوقات والعقبات، كي يبلغوا بعملهم في تحقيق أهداف الرسالة، ما ينالون به النصر والتمكين في الدنيا، والسعادة الأبدية يوم يقوم الناس لرب العالمين .. ولا يكونوا كالمغضوب عليهم، الذين حالت رغبتهم في الانحراف والتحلل من نصوص التوراة، دونهم ودون العمل بما أنزل الله، فباؤوا بغضب على غضب، وللكافرين عذاب مهين.

على هذه الصورة الجلية الواضحة، يتبدى يومَ المعاد المحقُّ من المبطلِ بعد أن يتكشف هنا زيف مسلك اليهود، ودعاواهم الباطلة... وعلى المسلمين أن يكونوا على ذُكر من هذه الحقيقة، كي يكون بعدهم عن تقليد اليهود واستمساكهم بكتاب ربهم وسنة نبيهم، أمراً متجدداً في حياتهم على المدى... والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

يقول الإمام الطبري: (فإن قال قائل: أوَ لم ينبئنا ربنا في الدنيا قبل مرجعنا إليه ما نحن فيه مختلفون؟ قيل: إنه بيَّن ذلك في الدنيا بالرسل، والأدلة والحجج، دون الثواب والعقاب عياناً، فمصدق بذلك ومكذب. وأما عند المرجع إليه، فإنه ينبئهم بذلك بالمجازاة التي لا يشكُّون معها في معرفة المحق والمبطل، ولا يقدرون على إدخال اللبس معها على أنفسهم، فكذلك خبره – تعالى ذكره – أنه ينبئنا عند المرجع إليه، بما كنا فيه نختلف في الدنيا. وإنما معنى ذلك: إلى الله مرجعكم جميعاً، فتعرفون المحق حينئذ من المبطل».

وبهذه القبسات من هدي الكلمة القرآنية في قوله تعالى: ﴿ **فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ** ﴾ يتضح الانسجام الحكيم، بين ما ابتدأت به الآية الكريمة - وهي الآية الثامنة والأربعون من سورة المائدة - وما دلت عليه من معان كريمة وتوجيهات بالغة، وبين ما ختمت به.

ونعود إلى إيراد الآية مرة أخرى، كيما نستذكر ما وجهت إليه من صدق الاستمساك بالقرآن علماً وعملاً، فهو المهيمن على ما سبقه من الكتب المنزلة، وذلك بعد الذي كشفت عنه الآيات قبلها من ضلال يهود ومن هم على نهج يهود ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ** (٤٨) ﴾ [المائدة: ٤٨].

والحمد لله الذي أنزل على عبده ورسوله محمد ﷺ الكتاب ولم يجعل له عوجاً، وله الفضل والمنة فيما نبه عليه من ضلال يهود، وحذر من كل ما هو من تصوُّرهم وسلوكهم بسبب.

﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾

سبحان الله.. وما أكثر دلائل الإعجاز في كتاب الله الكريم، حيث دلالات الواقع المؤكدة لما دلت عليه آياته المبينات، وهذا موعدنا مع توجيه قرآني للأمة، من خلال خطاب موجه إلى النبي عليه الصلاة والسلام بأن يشتد الحذر من تمويهات اليهود، ومحاولاتهم فتْنَ المسلم عن دينه، أو إدخال الشك إلى نفسه، في أحقية ما هو عليه من الهدى، وبطلان ما عليه اليهود والنصارى، من مخالفة لما جاء في التوراة والإنجيل.

وقصة ذلك أن النبي ﷺ وُجِّه إلى أن يحكم بين الذين يحتكمون إليه من اليهود ـ وقد كانوا في ضواحي المدينة ـ وغيرهم بما أنزل الله في قرآنه العظيم.

ومن الإعجاز الذي يؤكده واقع اليهود مع الناس ـ وخاصة المسلمين ـ أن النبي ﷺ حُذِّر ـ وهو المعصوم ـ من أن يفتنه اليهود ـ وهم المكَرَة المغضوب عليهم ـ عما جاءه من الحق الذي نزل به الوحي، إلى ما تهوى أنفسهم وتمليه أهواؤهم الضالة، وحرصُهم الأبله على التفلت من الأحكام التي شرعها الله.

هذا ـ كما أسلفنا ـ توجيه واضح للأمة، على مدى العصور وحتى يرث الله الأرض ومن عليها، بأن تأخذ حذرها من هذا الخطر الماحق الذي تتعدد ألوانه، ومداخله في هذا العصر وإنه لتوجيه يجعل البعد عن الغفلة

ضرورة من ضرورات المواجهة مع المغضوب عليهم - وكم نرى على صعيد الواقع من ضحايا، في ميادين الثقافة والفكر وفلسفة التاريخ!!!

وقد جاء تأكيد ذلك على صعيد التعامل يومذاك، بواحدة من وقائع يهود ومحاولاتهم الماكرة، ليفتنوا رسول الله ﷺ عن دينه الذي ارتضاه الله - وما أكثر ما حاولوا في الماضي ويحاولون في الحاضر فتن المسلمين واستدراجهم إلى التوجه الفاسد - جاء تأكيد ذلك، فيما دلت عليه الآيتان التاسعة والأربعون والخمسون من سورة المائدة من فضح تآمرهم، والتنبيه عليه، والتحذير منه؛ فبعد أمرِ الله تعالى رسولَه ﷺ بأن يحكم بما أنزل الله، ونهيه إياه عن اتباع أهوائهم، جاء قوله تعالى: ﴿ ... **وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾** ﴾ [المائدة: ٤٩ - ٥٠].

وروى الطبري شيخ المفسرين بسنده عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال: قال كعب بن أسد، وابن صوريا، وشاس بن قيس، بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه !! فأتوه فقالوا: يا محمد إنك قد عرفت أنا أحبار يهود، وأشرافهم وساداتهم وأنا إن اتبعناك اتبعنا يهود ولم يخالفونا، وأن بيننا وبين قومنا خصومة، أفنحاكمهم إليك، فتقضي لنا عليهم، ونؤمن لك ونصدقك؟ فأبى رسول الله ﷺ فأنزل الله فيهم: ﴿ **وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ** ﴾ [المائدة: ٤٩] إلى قوله: ﴿ **لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ** ﴾

ورواه ابن أبي حاتم وابن إسحاق غير أن في رواية ابن إسحاق لهذه الواقعة، التي هي سبب نزول الآيتين زيادة (ابن صلوبا) على أسماء اليهود الثلاثة الذين ورد ذكرهم في رواية الطبري؛ ففي سيرة ابن هشام: قال ابن إسحاق: وقال كعب بن أسد وابن صلوبا وعبد الله بن صوريا وشاس بن قيس بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه فإنما هو بشر، فأتوه فقالوا: «يا محمد إنك قد عرفت أنا أحبار يهود وأشرافهم وسادتهم، وإنا إن اتبعناك اتبعتك يهود ولم يخالفونا، وأن بيننا وبين بعض قومنا خصومة، أفنحاكمهم إليك، فتقضي لنا عليهم، ونؤمن بك ونصدقك؟ فأبى ذلك رسول الله ﷺ عليهم. فأنزل الله فيهم: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

[المائدة: ٤٩، ٥٠].

هكذا أراد هؤلاء الأربعة وهم من أحبار اليهود وأشرافهم وساداتهم، أن يفتنوا رسول الله ﷺ، فيصدوه عن بعض ما أنزل الله إليه من الأحكام في الكتاب العزيز، ويحملوه على اتباع أهوائهم وضلالتهم! لقد رضي هؤلاء الخونة لدين الله - وهم على ما هم عليه من المكانة في العلم والشرف والسيادة - أن يقوموا بهذه المحاولة المنكرة، فيعدوا رسول الله بالإيمان به وتصديقه إن هو قضى لهم - كما يريدون - على خصومهم حين يتحاكمون إليه ... أرادوا منه أن يفعل ذلك اتباعاً لأهوائهم، ولو كان في قضائه مخالفة لماجاء به الفرقان الحكيم. ثم أي إيمان هذا الذي

سيدخلون في حظيرته بادئين بالتوجه نحوه – على زعمهم – بالخديعة والعمل على صد رسول الله ﷺ عن مقتضاه؟؟ إنها المساومة الباردة، والعبث الرخيص، وكم في هذا الموقف وأمثاله من عبرة تكشف عن الانحراف المتأصل عند اليهود لمن أراد أن يعتبر.

لقد أرادوا المتاجرة، بكونهم في الذروة من المجتمع اليهودي – فهم أحبار يهود وأشرافهم وساداتهم – وبما يترتب على ذلك، من أنهم إذا آمنوا برسول الله، اتبعهم يهود ولم يخالفوهم... ومن هذه الركيزة في المساومة، انطلقوا إلى ضلالة الوعد بالإيمان والتصديق، إن قضى رسول الله لهم على خصومهم حين يحتكمون إليه، والواقع أنهم لا يريدون إيماناً ولا تصديقاً، ولكن يريدون فتنة رسول الله ﷺ – وهو ما اتفقوا عليه – بصده عن الحق الذي جاء به الوحي، إلى الباطل الذي يبتغون، كان ذلك على طريقة اليهودي في عبادة المال والاتجار الرابح، مهما كان في كسب المال المطلوب من إثم وضلال... إذ جرى هؤلاء المفاوضون بما عرضوا على رسول الله ﷺ، على واحدة من طرائقهم الملتوية في الكسب والاحتيال، متبعين قياساً فاسداً، يأملون من ورائه الوصول إلى غاية أفسد منه.

ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام اتخذ الموقف الذي يتسق مع عظمة الرسالة، فأبى عليهم قبول شيء مما كانوا يبتغون.

اللهم صلِّ على عبدك ورسولك، والأمين على وحيك وعلى آله وصحابته وسلِّم تسليماً كثيراً، وزد اليهود خزياً على ما اجترحوا في جنب الحق والهدىٰ، وما يجترحون.

من صور المكر والمخادَعة..
وأحقية ما يقول القرآن

لعل من نافلة القول، أن نذكر بأن ما كشفت عنه آي الكتاب العزيز والسنة المطهرة من خلائق اليهود في عدوانهم على الحق، وتجاوزهم – في سبيل ما تسول لهم أنفسهم وتزين أهواؤهم وشياطينهم – قيم الدين والأخلاق جميعاً، أن نذكر بأن الوقائع المتكررة منهم على صعيد الفرد والمجتمع، كانت أدلة لا تحتمل الشك على أحقية ما جاء به القرآن وسنة النبي ﷺ، وزخرت به السنون من سيرته المطهرة... بل يمكن القول بأن الوقائع المومى إليها، ليست قصراً على عصر النبي ﷺ، بل منذ تلك الحقبة المباركة وحتى يوم الناس هذا، تقوم تصرفات يهود شاهد يقين، على أن ما قاله القرآن فيهم وبينته سنة الرسول عليه الصلاة والسلام، هو الحق الذي لا مرية فيه... ولكن على المسلمين أن يدوروا مع القرآن حيث دار، وأن يصحبوا حديث النبي عليه الصلاة والسلام وسيرته، صحبة إيمان وحرص على العمل والانتفاع... وأن يذكروا الوقائع ويعوا دلالاتها؛ فذاكرة التاريخ لا تنسى، واليهود الذين أحاط بهم سيئات ما مكروا، وباؤوا بغضب على غضب، لا يفتؤون يمكرون بالمسلمين، ويناصبونهم العداء في السر والعلن على كل صعيد وفي كل ميدان.

أقول هذا وقد وقفنا من قريب على واقعة كانت سبب النزول لآيتين كريمتين من سورة المائدة، هما قول الله تعالى: ﴿**وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ**

اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾

[المائدة: ٤٩، ٥٠] وكنا - بدلالة سبب النزول - وقفنا على مكيدة دبرت بليل، شحذ بها بعض زعماء اليهود وسادتهم أذهانهم، وبيتوا ما بيتوا من المكر والضلالة، في سبيل أن يفتنوا رسول الله ﷺ، فيصدوه عن الحق الذي يدعو إليه.. وسعوا إليه، وعرضوا عليه ما أرادوا... وكانت الوقفة النبوية التي تعتمد الحق - الذي نزل به الكتاب - وسيلةً وغايةً.. إذ صدهم عليه الصلاة والسلام - وهو صاحب البصيرة الموحى إليه - ولم يُجِبهم إلى شيء مما طلبوه، لأن ما طلبوه كان الضلالَ بعينه والمُعاذ الله. فكانت هذه الواقعة سبب نزول الآيتين المومى إليهما.

وتبيُّنُ مدى الارتباط بين صنيع اليهود في تلك الواقعة التي كانت سبب نزول الآيتين، وبين ما وجه إليه القرآن الكريم - إذ كشف عن مبتغاهم وما يمكرون - يقود إلى العودة إلى النص الذي رواه الإمام الطبري وابن حاتم ورأيناه عند ابن إسحاق بزيادة واحد على عدد المتآمرين، قال أبو جعفر: حدثنا أبو كريب قال: حدثنا يونس بن بكر عن محمد بن إسحاق قال: حدثني محمد بن أبي محمد مولى زيد ابن ثابت قال: حدثني سعيد بن جبير أو عكرمة، عن ابن عباس قال: قال كعب بن أسد وابن صوريا وشاس بن قيس بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه! فأتوه فقالوا: يا محمد، إنك عرفت أنا أحبار يهود، وأشرافهم وساداتهم، وأنا إن اتبعناك، اتبعنا يهود ولم يخالفونا، وأن بيننا

وبين قومنا خصومة!! أفنحاكمهم إليك، فتقضي لنا عليهم، ونؤمن لك ونصدقك فأبى رسول الله ﷺ فأنزل الله فيهم: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ وفي رواية ابن اسحاق التي نجدها في سيرة ابن هشام، زيادة واحد على الثلاثة المذكورين هنا - كما ذكرنا آنفاً - هو ابن صلوبا.

والدرس الذي ما بدٌّ أن يكون أهل الحق على ذكر منه - وما أكثر العظات والدروس في مواقف الرسول عليه الصلاة والسلام - أنه ﷺ، وهو يواجه أولئك الرهط من اليهود الذين مردوا على الضلال، وأتقنوا صناعة المكر ولبس الحق بالباطل في زخرف من القول، ووضع للمعرفة في خدمة الهوى والانحراف، ولم يكتفوا بالكفر مع قيام الدليل على وجوب الإيمان بما جاء به محمد من كتابهم... أنه ﷺ لم يتزحزح قيد أنملة عما تمليه الرسالة الهادية التي حملها إلى الناس، ولا أعطى من نفسه، ولو الشيء اليسير، مما يعتبر خروجاً على الحق غاية ووسيلة.. فالغاية لا تسوغ الوسيلة، بل لابد من نظافة الوسيلة وطهرها، لتتسق مع عظمة الغاية وسموها.. وإذا كان الأمر كذلك: فكيف يرضى أن يجور في القضاء - وهذا حكم بغير ما أنزل الله - من أجل أن يدخل هؤلاء في الدين الذي يأمر بالحكم بما أنزل الله، وينهى عن المحاباة في الحق. مهما كانت الظروف والملابسات؟.

ويقتضيني المقام أن أؤكد ما أشرت إليه سابقاً، من سمو منهج المصطفى ﷺ، وما يقابله من تفاهة ما طلب أولئك المتنفذون المثقفون

من اليهود – كما يزعمون – منه صلوات الله وسلامه عليه – دونما أثارة من حياء أو أدبٍ حديث – أن يتبع أهواءهم ويخالف ما يقتضيه الإيمان، ليكون ذلك حافزاً إلى الدخول في حظيرة ذلك الإيمان – على حد زعمهم –.

ولقد كان من عظيم فضل الله وإنعامه على الأمة المحمدية، أن أنزل في تلك الواقعة اليهودية وأمثالها قرآناً يتلى، ورأينا الاتساق الكامل بين ما أراده القرآن وبين ماكان من سيد العالمين عليه الصلاة والسلام.

وشكر المسلمين لهذه النعمة العظيمة، أن يخضعوا عقولهم وقلوبهم ومنهج سلوكهم، للكلمة الهادية في هذا الكتاب، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وفي السنة التي هي بيانه... إنهم إن حملوا أنفسهم على الجادة في ذلك، استنارت سبيلهم، واشتد أزرهم وقدروا – بعون الله – على أن يكونوا سادة الموقف في صراعهم مع اليهود وأعوان اليهود، ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ ﴾ [محمد : ٧].

يُصيبهم ببعض ذنوبِهم

النظرة المتدبرة الواعية إلى ماكان من جراءة أولئك النفر الثلاثة أو الأربعة من أحبار اليهود وزعمائهم، على المحاولة الباغية في فتْن النبي ﷺ عن منهجه في أداء الرسالة الخاتمة، بأن يتحول عن الحكم بينهم بما أنزل الله، إلى الرضى بما زينت لهم أهواؤهم والتحذير الشديد الذي حملته الآيات الكريمات من ذلك... هذه النظرة المباركة، حرية بأن تبصر المسلم بما ينبني على ذلك من وجوب اليقظة والحذر، وأخذ الحيطة من تنوع المحاولات وتطور الأساليب في العمل على تحويل المسلمين عن منهج الرحمن، إلى اتباع خطوات الشيطان؛ فيما يدبر اليهود وأعوانهم وما يمكرون. ﴿ **وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ** ﴾.

وغير خاف أن هذا الأمر بالحكم بينهم بما أنزل الله، تأكيد لما تقدم من الأمر بذلك، والنهي عن خلافه. وهذا من بلاغة القرآن الكريم، وشديد العناية بالوقوف عند حدود الله فيما يأمر به سبحانه وفيما ينهى عنه، وبخاصة حين يكون لليهود - وهم المعروفون بمكرهم ومحاولاتهم الضالة - علاقة بالحكم المراد. وفي ذلك قطع لدابر المحاولات التي يبرزها تطور الأساليب، وزخرف المصطلحات والأسماء !!

ثم بهذا الوضوح الذي ما بعده وضوح ﴿ **وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ** ﴾ احذرهم أن يفتنوك فيصدوك عن بعض ما أنزل الله إليك من محكم

كتابه، فيحملوك بما يزخرفون ويزينون على ترك العمل به أو ببعضه، واتباع أهوائهم التي تنضح بالعداء للإسلام، والحق الذي حملته إلى الناس رسالة الإسلام.

وجميل ما قال الحافظ ابن كثير - رحمه الله - عند هذه الآية: «احذر أعداءك اليهود أن يدلسوا عليك الحق فيما ينهونه إليك من الأمور، فلا تغتر بهم، فإنهم كذبة خونة».

ثم جاء التنبيه الصراح على أن هؤلاء اليهود الذين اختصموا إلى النبي عليه الصلاة والسلام: إن تولوا عنه، فتركوا العمل بما حكم به عليهم وقضى فيهم؛ فذلك من سوء طالعهم، لأنه عنوان أن الله يريد أن يصيبهم ببعض ذنوبهم، عقاباً لهم وأخذاً بما يجترحون من مآثم التناقض بين الدعوى والعمل: ﴿ **فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ** ﴾ أجل: إن الله تعالى لا يظلمهم، وأخذُهم بالعقوبة حاصلٌ ببعض ذنوبهم وذلك كائن عن قدر الله وحكمته فيهم، أن يصرفهم عن الهدى لما عليهم من الذنوب السالفة التي اقتضت إضلالهم ونكالهم. ولقد كان من تأويل شيخ المفسرين - رحمه الله - لهذه الكلمات المستنيرات..... (فاعلم أنهم لم يتولوا عن الرضى بحكمك، والطمأنينة لصنيعك - وقد قضيت بالحق - إلا من أجل أن الله يريد أن يتعجل عقوبتهم في عاجل الدنيا، ببعض ماقد سلف من ذنوبهم).. سبحان الله... ببعض ما قد سلف من ذنوبهم، وليس بكلها وما أكثرها !! وقد ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿ **وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ** ﴾ قال أبو جعفر:

(يقول: وإن كثيراً من اليهود لفاسقون، يقول: لتاركو العمل بكتاب الله والخارجون عن طاعته إلى معصيته).

هذا: واللفظ، وإن كان عاماً يشمل الخارجين عن الطاعة من غير اليهود كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [يوسف: ١٠٣] ولكنه ينبئ عن حقيقة تشي بأن الغالب على اليهود - كما يخبر القرآن الكريم ويسعف في ذلك سبب النزول - ترك العمل بالكتاب المنزل، والخروج عن الطاعة إلى العصيان السافر، مع دعواهم العريضة أنهم أهل التوراة، العاملون بها، الوقافون عند حدودها. وتراهم اليوم يستخدمون هذا الانتساب إلى التوراة والعبرية سلاحاً في العدوان على المسلمين، واغتصاب أرضهم ومقدساتهم، والإزراء بهم في العالمين!!

ومهما يكن من أمر: فإن الواقعة التي كانت سبب النزول، وأشباهها من الوقائع التي حدثت على صعيد التعامل بينهم وبين المسلمين في عصر النبوة أيام السلم والحرب، تدل دلالة قاطعة على أنهم كانوا يجمعون إلى ترك العمل بالكتاب المنزل على موسى عليه السلام، والخروج عن الانقياد لحكم الله إلى العصيان والضلال البعيد... يجمعون إلى ذلك المحاولة من قبل أحبارهم وزعمائهم التي تهدف بجراءة باردة هابطة، إلى فتن النبي ﷺ عن بعض ما أنزل الله إليه.

أما بعد: أليس هذا الذي نحن بصدده في شأنهم، واحداً من الأدلة الناطقة بأن شكوى أمتنا من اليهود، دونما استنارة بحقائق الخبر الصادق، ووقائع التاريخ، تحمل نوعاً من العبث وغض الطرف عن فهم التحديات

مـن جـذورها، ومـا تـرتـد إليه من بواعث لا تزيدها الأيام إلا حقداً ومكراً بالغَيْن؟؟

ودلالة ذلك أيضاً على أن بُعد الأمة عن الأخذ بمنهج الدين الحنيف: من المقاتل المهلكة، بل من أمضى الأسلحة التي ينتفع بها اليهود على ساحة المواجهة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾

كان موقف النبي ﷺ - وهو الأسوة الحسنة للمؤمنين - في مواجهة التآمر المغري، ومحاولة فتنه - عليه الصلاة والسلام - عن بعض ما أنزل الله إليه، موقفَ الصدق الذي لا يجارى، والشجاعةِ التي لا يقدر قدرها، والحرصِ البيِّن على الحكم بما شرع الله وأنزل؛ فلم يتزحزح - فداه أبي وأمي - أمام العرض الماكر الذي عرضه اليهود على لسان ثلاثة أو أربعة من كبرائهم هم: كعب بن أسد وابن صلوبا، وعبد الله بن صوريا، وشاس بن قيس، حين قالوا - كما روى ابن إسحاق عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: يا محمد إنك قد عرفت أنا أحبار يهود، وأشرافهم، وساداتهم، وإنا إن اتبعناك اتبعَنا يهود ولم يخالفونا، وإن بيننا وبين قومنا خصومة - أو حكومة - فنحاكمهم إليك، فتقضي لنا عليهم، ونؤمن لك ونصدقك، فأبى ذلك رسول الله ﷺ، فأنزل الله عز وجل فيهم: ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ... ﴾.

والعهد قريب بما رأينا من روايات تؤكد أنه عليه الصلاة والسلام، واجه غير مرة محاولات من يهود، بغية تحويله عن الحق المنزل من عند الله إلى ما تصنعه أهواؤهم، وتزينه رغباتهم الآثمة، وكان منه - صلوات الله وسلامه عليه - الثبات العظيم على الحق، ذلك الثبات الذي بات أمانة في أعناق الأجيال من أمتنا - كلٌّ حسب موقعه - أن يكون عند هذا الذي

فعله وهو صاحب الرسالة الذي طاعته من طاعة الله، مهما داخل أساليب المحاولة من التطوير، وشابها من الزخرف والتمويه!!

ومن الروايات التي تزيد الأمر وضوحاً، ويفترض أن ينتفع بها المسلمون لواقعهم في تحديد المنطلقات والضوابط، ما أخرج أحمد وأبو داود - واللفظ له - وأبو جعفر الطبري عن الإمام الزهري قوله - رحمه الله -: سمعت رجلاً من مزينة ممن يتبع العلم ويعيه - ونحن عند ابن المسيب - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: «زنى رجل من اليهود بامرأة فقال بعضهم لبعض: اذهبوا إلى هذا النبي فإنه بعث بالتخفيف، فإن أفتانا بفتيا دون الرجم قبلناها واحتججنا بها عند الله، قلنا: فتيا نبي من أنبيائك، قال فأتوا النبي ﷺ، وهو جالس في المسجد في أصحابه، فقالوا: يا أبا القاسم، ما تقول في رجل وامرأة منهم زنيا؟ فلم يكلمهم كلمة حتى أتى بيت مدراسهم، فقام على الباب فقال: أنشدكم بالله الذي أنزل التوراة على موسى، ما تجدون في التوراة على من زنى إذا أحصن؟ قالوا: يحمَّم، ويجبَّه، ويجلد. والتجبيه أن يحمل الزانيان على حمار وتقابل أقفيتهما، ويطاف بهما. قال: وسكت شاب منهم، فلما رآه رسول الله ﷺ سكت، ألظَّ به رسول الله ﷺ النّشدة. فقال: اللهم إذ نشدتنا، فإنا نجد في التوراة الرجم. فقال النبي ﷺ: ما أول ما ارتخصتم أمر الله؟ قال: زنى ذو قرابة من ملك من ملوكنا، فأُخِّر عنه الرجم، ثم زنى رجل في أثره من الناس، فأردنا رجمه، فحال قومه دونه، وقالوا: لا يرجم صاحبنا حتى تجيء بصاحبك فترجمه!! فاصطلحوا هذه العقوبة بينهم. فقال النبي ﷺ: «فإني أحكم بما في التوراة». فأمر بهما فرجما». قال

الزهري: فبلغنا أن هذه الآية نزلت فيهم: ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا...** ﴾ [المائدة: ٤٤]. فكان النبي ﷺ منهم.

ألظَّ النشدة: ألح بالسؤال والمناشدة.

وهذا يقودنا إلى وقفة مع الآية الخمسين من سورة المائدة التي تلت تلكم الآيات، والتي حذرت النبي ﷺ من مكر يهود ومحاولتهم فتنه عن بعض ما أنزل الله إليه وتوعدت على الحكم بغير ما أنزل الله، والآية هي قول الله تبارك وتعالى: ﴿ **أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ** ۝٥٠ ﴾ [المائدة: ٥٠].

أرأيت إلى هذا الاستفهام الإنكاري الذي يحمل الكثير من التوبيخ والتقريع لليهود! حيث يعود الضمير في فعل «يبغون» إليهم؟ جاء ذلك في مقابل دعواهم العريضة أنهم مؤمنون أهل كتاب يرضون بحكم الله، وهم في الحقيقة تاركون لأي لون من ألوان العمل بكتاب الله الذي يظهرون التفاخر بالانتماء إليه، خارجون عن طاعة الله إلى المخالفة عن أمره في شؤونهم كلها!! أيبغي هؤلاء اليهود الذين احتكموا إليك، أو أرادوا الاحتكام - والخطاب للنبي ﷺ - فلم يرضوا بحكمك إذ حكمت بينهم بالقسط الذي يأمر به الكتاب المبين، أو عرفوا أنك ستحكم كذلك مخالفاً هواهم... أيبغون حكم الجاهلية وهي أحكام عبدة الأوثان من أهل الشرك، وأحكام الطواغيت الخارجين على الحق والعدل، المظاهرين للباطل والظلم، وعندهم كتاب الله المنزل وحياً من السماء، فيه بيان حقيقة الحكم الذي حكمت به فيهم، وأنه الحق الذي لا يجوز خلافه، ولا يجد المؤمن طمأنينته وانشراح صدره إلا معه؟

وتنتقل بنا الآية الكريمة إلى مزيد من الإنكار وشديد اللوم لمدعي الحرص على العمل بالتوراة، وبيان استهتارهم المخزي بعدم قبولهم حكم رسول الله ﷺ بينهم – وهو الحكم المشتمل على كل خير، المباعد عن كل شر – واستهجان ذلك منهم.. فيقول تعالى: ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ**﴾. أي من هذا الذي هو أحسن حكماً أيها اليهود، مدعو الإيمان واليقين، من الله العليم الخبير بما يصلح عباده ويضمن لهم سعادة الدنيا والآخرة، عند من كان يوقن بوحدانية الله، ويقر بربوبيته، وأنه سبحانه الخالق المدبر الذي يجب أن يطاع ويسلم لحكمه تسليماً؟

إنه الأسلوب القرآني الحكيم، في إقامة الحجة على أولئك المغضوب عليهم، وعلى كل من ينتهج سبيلهم في الإعراض عن حكم الله مع دعوى اليقين بوحدانيته – جل شأنه – والإقرار بربوبيته، يقول تعالى: أي حكم أحسن، أي حكم أعدل من حكم الله إن كنتم موقنين حقاً أن لكم رباً، وكنتم أهل توحيد وإقرار به وخضوع لما يريد؟

هذا: وقد أيد شيخ المفسرين ما ذهب إليه الجمهور – وهو في مقدمتهم – من أن الذين وجه إليهم الإنكار والتوبيخ في الآية هم اليهود، بروايات ثلاث عن مجاهد – رحمه الله –، أورد كلاً منها من طريق، حيث يقول مجاهد في قوله تعالى: ﴿**أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ**﴾ يهود.

على أن الذي نحوِّم حوله، وإن كان المقصود به أولاً وبالذات اليهود – كما أوضحنا – لما أن صنيعهم هو سبب النزول ومعهم النصارى، إلا أن الإنكار الشديد الذي يحمل ما يحمل من التوبيخ والتقريع ينجر –

بدلالة عموم اللفظ - على كل من اتخذ سبيلهم سبيلاً، ورضي لنفسه حكم الجاهلية والضلال، مع دعوى اليقين بوحدانية الله تعالى وأنه رب العباد، خالقهم ومدبرهم، والمتصرف بشؤونهم، والماضي فيهم حكمه، العدل فيهم قضاؤه... وعدم إنكار أنه أعلم بما يصلحهم. وإذا كان الأمر كذلك: فأي داهية دهت المسلمين - إلا قليلاً - في مخالفة ما دعت إليه الكلمة القرآنية الهادية من الحكم بما أنزل الله، ثم الاحتكام بدلاً عن ذلك إلى حكم الجاهلية الذي جنت الأمة من ورائه ما لا يحصى من ألوان الضعف والهوان؟!

ومن نافلة القول، التذكير بأن هذه الحقيقة التي تقض مضاجع المخلصين، تزيد من مسؤولية الجميع كلٌّ حسب موقعه - دون استثناء - في العمل على إعادة الأمر إلى نصابه، وبذل كل مستطاع لاستئناف الحكم بما أنزل الله في دنيا المسلمين وفقاً للمنهج الرباني بعمقه وشموله شؤون الحياة كلها ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

ولعل من الخير إيراد ما قاله الحافظ ابن كثير حول الآية، لأن فيه - مع بيان المعنى - تجلية الصورة الحقيقية للعالم العامل، الذي يجمع إلى الغيرة على الشريعة معرفة الواقع، والتنبيه على مخاطر العدول عن حكم الله إلى حكم الجاهلية التي قوامها المخالفة عن منهج الله سبحانه.. قال - رحمه الله -: (ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير، الناهي عن كل شر، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء، والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان

أهل الجاهلية يحكمون؛ من الضلالات والجهالات، مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة من ملكهم جنكيز خان. الذي وضع لهم اليَساق – وهو قانون المعاملة – وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى؛ من اليهودية والنصرانية، والملة الإسلامية، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه، فصارت في بنيه شرعاً متبعاً، يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ. ومن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله، حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله، فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير. قال الله تعالى: ﴿ **أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ** ﴾ أي يبتغون ويريدون، وعن حكم الله يعدلون ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ** ﴾ أي ومن أعدل من الله في حكمه لمن عقل عن الله شرعه، وآمن به وأيقن، وعلم أنه تعالى أحكم الحاكمين، وأرحم بخلقه من الوالدة بولدها، فإنه تعالى هو العالم بكل شيء، القادر على كل شيء، العادل في كل شيء) وقد روى ابن أبي حاتم عن الحسن البصري قوله: « من حكم بغير ما أنزل الله – فكم الجاهلية » كما روى عن طاوس أنه كان إذا سأله رجل: أفضِّل بين ولدي في النَّحْل؟ قرأ: ﴿ **أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ** ﴾ الآية. وقد أورد الحافظ ابن كثير بعد هذا ما روى أبو القاسم الطبراني بسنده عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أنه قال: قال رسول الله ﷺ: « أبغض الناس إلى الله عز وجل مبتغ في الإسلام سنة الجاهلية، وطالب دم امرئ بغير حق ليريقَ دمه » ثم قال: وروى البخاري عن أبي اليمان بإسناده نحوه..

اللهم جنب أمتنا مزالق اليهود والنصارى، وخذ بيدها إلى حيث تكون أهلاً لتوفيقك ونصرك، كيما تدور مع القرآن حيث دار، ولا ترضىٰ به بدلا، ولا تبغي عنه ولا عن بيانه من السنة المطهرة حولاً..

مخالفة العمل لدعوى' التوحيد...

والوعيد الشديد

في رحلتنا القصيرة المباركة مع الآية الخمسين من سورة المائدة وهي قول الله تبارك وتعالى: ﴿ **أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ** ﴾ رأينا - كما قرر الإمام الطبري ورواه عن مجاهد - أن الذين وجه إليهم الإنكار، وجوبهوا بالتقريع والتوبيخ هم اليهود.. الذين يقفون - على المدىٰ - موقف التناقض بين الدعوى والعمل؛ فهم يدعون أنهم موقنون أن لهم رباً، هو الخالق الحكيم المدبر الذي يجب أن يطاع فيما يأمر وفيما ينهى، وأنهم أهل توحيد وإقرار به وبكل ما يترتب على هذا الإقرار.. وفي الوقت نفسه، تراهم يعرضون عن حكم الله في أي شأن من شؤونهم ويعدلون عنه إلى غيره من الأحكام الضالة التي لا صلة لها بالحق والعدل، يقفون هذا الموقف، وهم يعلمون أن حكم الله هو الحكم المشتمل على كل خير، الناظم لكل ما هو حق وعدل.

لقد أنكر الله عليهم بقوله «أفحكم الجاهلية يبغون» يبتغون ويريدون وعن حكم الله يعدلون، ثم قرَّعهم بالكشف عن تناقضهم حيث الدعوى بجانب، والعمل بجانب، فقال سبحانه: ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ** ﴾ والحق أنه لا أعدل ولا أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون.

ولئن كان الأمر واضحاً في شأن اليهود، إنكاراً عليهم وتقريعاً لهم

على إعراضهم عن حكم الله مع دعواهم العريضة على ساحة الإيمان واليقين... فإن مضمون الآية الكريمة، يتعداهم إلى كل من يقع فيما وقعوا فيه من التناقض بين دعوى الإيمان والعمل، ويرضى أن يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، فيبغي حكم الجاهلية، معرضاً عن حكم الله الذي يتمثل فيه العدل المطلق والحق الذي لا مرية فيه.

وجميل ما ذهب إليه الحافظ ابن كثير في تفسيره للآية الكريمة، إذ كان على ذكر من الواقع في عصره، وأن هداية القرآن تحمل المنهج الصالح لتغيير الواقع السيء وإنشاء واقع جديد يتفق وشرعة الإسلام أن لو وجد الإيمان والعمل. فعلة الإنكار على اليهود ما كان من سوء صنيعهم في توليهم عن حكم الرسول ﷺ وهو الحكم الذي نزل به الكتاب المبين، متجاهلين أن هذا الموقف يتنافى التنافي كله مع ما يدعون من أنهم أهل التوحيد المقرون بربوبية الله عز وجل وأنه المالك المتصرف في ملكه سبحانه، وأن على العباد الخضوع لحكمه لأن ذلك طريق سعادتهم في الدنيا ويوم الدين.

فإذا وجدت تلك العلة في غيرهم، طالهم الإنكار واستحقوا ما حملت الآية الكريمة من توبيخ وتقريع على ما وقعوا فيه من هوة التناقض، حيث الانهدام السحيق بين دعوى اليقين والسلوك.

وهكذا يرى العلماء الناصحون، أن في الآية إنكاراً على من خرج عن حكم الله، الحكم المشتمل على كل خير الناهي عن كل شر، وعدل إلى ما سواه من الآراء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة

الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات التي يضعونها بآرائهم وأهوائهم، وكما يحكم به التتار من السياسات المأخوذة عن حاكمهم جنكيز خان الذي وضع لهم الياسق - على حد قول ابن كثير - وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها عن شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه، فصارت في بنيه شرعاً متبعاً، يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.. ثم حكمَ - رحمه الله - على من فعل ذلك بالكفر، وأنه يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله، والحق أن التردي في تلك المهواة اليهودية طامَّة كبرى لا تجني الأمة من ورائها إلا التشتت والضياع.

وعند قول الله تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ** ﴾ قال ابن كثير: (أي ومن أعدل من الله في حكمه لمن عقل عن الله شرعه وآمن به وأيقن، وعلم أن الله أحكم الحاكمين، وأرحم بخلقه من الوالدة بولدها فإنه تعالى هو العالم بكل شيء، القادر على كل شيء، العادل في كل شيء).

هذا: ولعل من الخير، أن لا نغادر القول في الآية الكريمة، حتى نشير إلى أن هنالك بعض الروايات التي تحمل سبب نزول للآية غير الذي مر بنا من قبل، في قصة أولئك الثلاثة أو الأربعة من اليهود على أنه لا مانع - كما يقول العلماء - من أن يكون للآية أكثر من سبب نزول، خصوصاً وأن المحور واحد وهو إعراض اليهود عن حكم الله تعالى،

واللجوء إلى الأساليب الماكرة في التفلت منه، مع غطرستهم التي تقوم على زعم أنهم هم أهل الكتاب الذين يدرون عن الدين ما لايدري غيرهم، ويفقهون من الأمور المتعلقة بشريعة الله ما لايفقه سواهم، وأنت واجد أن كل رواية في سبب النزول لآية أو آيات من هذا القبيل تضع أيدينا على واقعة ظالمة اجترحها بعض أولئك المغضوب عليهم على وجه اليقين، والكثرة الكاثرة راضية عن الانحراف فلا تذكير بدين ولا تناهيَ عن منكر. والحمد لله رب العالمين.

﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ﴾

وقفتنا الآية الخمسون من سورة المائدة وهي قول الله تبارك وتعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ على مدى استنكار ما كان من اليهود. من إعراض عن حكم الله مع دعواهم توحيده والإذعان لأمره، وما كان من توبيخهم وتقريع على هذا التناقض المخزي بين دعواهم الاعتقاد السليم، والاستمساك بما يقتضيه ذلك الاعتقاد، وبين سلوكهم سبل الجاهلية وتطلعهم إلى حكمها، وهو حكم عبدة الأوثان من أهل الشرك، وحكم الطواغيت المناوئين للحق والعدل، والمظاهرين للباطل والظلم، وكل ما يمت إليهما بصلة.

وفي رحلتنا القصيرة المباركة مع الآية المومى إليها. كشفنا عن العلاقة بينها وبين ما روى ابن إسحاق والطبري وغيرهما من حديث أولئك الثلاثة أو الأربعة من اليهود الذين بيتوا فيما بينهم، أن يعملوا على فتن رسول الله ﷺ عن دينه وصده عن الحق الذي أنزل إليه وما كان من موقف الرسول الكريم الذي أوصد الباب دونهم ودون ما سولت لهم أنفسهم العاتية من ضلال وسوء.

ولعل من الخير أن نشير إلى أن الإمام النسائي صاحب السنن، أورد في سننه رواية تربط بين الآية الكريمة، وبين لون من ألوان الانحراف عند اليهود في شأن القصاص في القتل، حيث تحكمهم العنصرية وتقودهم الجاهلية الجهلاء، فإن كان القتيل من بني قريظة كانت العقوبة كذا، وإن

كان من بني النضير، كانت العقوبة كيت؛ في تفاوت واضح ومفاضلة لا تليق بكرامة الإنسان، والسبب في ذلك أن النضير أشرف - على زعمهم - من قريظة، فتحت هذا العنوان وهو: تأويل قول الله تعالى: ﴿**وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ**﴾ ذكر الاختلاف في ذلك على عكرمة، قال النسائي في كتابه «المجتبىٰ» وهو السنن الصغرىٰ: أخبرنا القاسم بن زكريا بن دينار قال: حدثنا عبيد الله ابن موسى قال: أنبأنا علي وهو ابن صالح عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: كان قريظة والنضير، وكان النضير أشرف من قريظة وكان إذا قتل رجل من قريظة رجلاً من النضير قتل به، وإذا قتل رجل من النضير رجلاً من قريظة، أدى مائة وسق من تمر؛ فلما بعث النبي ﷺ قتل رجل من النضير رجلاً من قريظة، فقالوا ادفعوه إلينا نقتله، فقالوا: بيننا وبينكم النبي ﷺ، فأتوه، فنزلت ﴿**وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ**﴾ والقسط النفس ثم نزلت ﴿**أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ**﴾ وما أشير إليه في هذه الرواية من قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ**﴾ هو جزء من الآية الثانية والأربعين من سورة المائدة التي جاء فيها قول الله تبارك وتعالى خطاباً للنبي ﷺ بشأن يهود: ﴿**فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾ [المائدة: ٤٢] وهكذا تجعل هذه الرواية عند النسائي من ضلال يهود وعنصريتهم بشأن القصاص في القتلى سبباً لنزول الآيتين الثانية والأربعين وهي هذه، والآية الخمسين وهي قوله تعالى: ﴿**أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ...**﴾ الآية.

ومهما يكن من أمر: فإن فيما طلب الثلاثة أو الأربعة، وهم من سادة اليهود وأحبارهم، من رسول الله ﷺ أن يحابيَ في الحق ويجور من أجلهم في الحكم على أعدائهم.. ابتغاءً لحكم الجاهلية، وإن فيما تصنع النضير مع قريظة في شأن القصاص من القاتل؛ من جور صارخ لتفاوتهما في الشرف، وابتغاءً لحكم الجاهلية أيضاً... فهم متجهون أبداً إلى حكم الجاهلية، معرضون عن حكم الله مع دعاواهم العريضة غير ذلك.. وتعدد الوقائع في سبب النزول، يدل على أن هذا الانحراف الخطير، قد باض وفرَّخ على صعيد الفرد والمجتمع، فأنَّى اتجهت وجدت أنه طابع التعامل والسلوك، والنادر - إن وجد - لا حكم له.

على أنَّا واجدون في «المجتبىٰ» بعد الرواية السابقة رواية أخرىٰ لا تأتي على ذكر الآية الخمسين، ولكن تجعل ارتباط سبب النزول المشار إليه بالآية الثانية والأربعين فحسب، ذلكم قول النسائي - رحمه الله -: أخبرنا عبيد الله بن سعد قال: حدثنا عمي قال: حدثنا أبي عن ابن إسحاق قال: أخبرني داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن الآية التي في المائدة التي قالها الله عزوجل: ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ إلى ﴿الْمُقْسِطِينَ﴾ إنما نزلت في الدية بين النضير وبين قريظة، وذلك أن قتلى النضير كان لهم شرف يُودَوْن الدية كاملة، وأن بني قريظة كانوا يُودَوْنَ نصف الدية، فتحاكموا في ذلك إلى رسول الله ﷺ، فأنزل الله عز وجل ذلك فيهم، فحملهم رسول الله ﷺ على الحق في ذلك، فجعل الدية سواءً.

وأنت ترى أن الظلم فيما دلت عليه الرواية الأولى، كائن بمقابلة قتل النفس بمائة وسق من تمر، فالقتيل من النضير يقتل قاتله من قريظة، ولكن قتيل قريظة يكفي القاتل أن يؤدي لأوليائه مائة وسق من تمر. وتدل الرواية الثانية، أنه حتى إذا وصل الأمر إلى الدية: فقتلى النضير يودون الدية الكاملة وقتلى قريظة يودون نصف الدية. والذي أعاد للإنسان كرامته ورد الحق إلى نصابه رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام.

ترىٰ هل يفتح المسلمون عقولهم وقلوبهم لمثل هذه الوقائع، فيثوبوا إلى الحق الذي نزل على محمد عليه الصلاة والسلام، وبه حكم وقضى، وأعلى راية الحق وكرامة الإنسان، وبذلك يستأنفون طريق النصر والتمكين!!

اللهم يا مقلّب القلوب ثبت قلوبنا على دينك وُردَّ المسلمين إليك رداً جميلاً، ويا مصرف القلوب صرِّف قلوب المسلمين إلى طاعتك في شتى الشؤون والأحوال يارب العالمين.

يناصبُونه العَداء .. ويحملهم على الحقّ

ما رأينا من بعض الوقائع التي كانت صورة واضحة المعالم لسلوك اليهود على صعيد الفرد والجماعة، والتي كانت أسباباً لنزول عدد من آيات سورة المائدة، دل على أمور لعل من أهمها: أنهم ينطوون على الضلالة وعمى البصائر في موقفهم من كتابهم الذي أنزل على موسى عليه السلام، فهمُّهم التفلت أبداً من أحكامه، والهروب المخزي من الوقوف عند حدوده، ومجاملة الشريف والقوي، على حساب الحكم المنزل الذي أمر الله أن يؤخذ به الجميع. كما أن سوء الطوية عندهم، ليس مقصوراً على علاقتهم بالآخرين ولكنه ممتد الجذور فيما بينهم، فقد دلت نصوص السنة المطهرة والسيرة النبوية الكريمة على صعيد البيان للوقائع التي وبَّخهم عليها القرآن وشدَّد النكير عليهم فيها - كما أسلفنا ذلك من قبل - دلت هذه النصوص على أن الضغينة كانت تعمل عملها فيما بينهم، وأن استكبار فئة على أخرى لأنها أشرف نسباً وأعز مكانة - على زعمها - تعدَّت العلاقات الاجتماعية، إلى التفريق في حكم القصاص مثلاً؛ فهذا لا يقتل إذا قَتَل لأنه شريف، وذاك يُقْتَل إذا قَتَل لأنه وضيع، أو دون مقتولِهِ شرفاً، ولقد وقَفْنا سبب نزول الآيتين الثانية والأربعين والخمسين من سورة المائدة وآيات أُخر سعدنا بصحبتها قبل هذا، على أن أولئك الذين كانوا أبطال تلك الوقائع المخزية، كانوا يضطرون في آخر الأمر، إلى أن يعودوا إلى رسول الله ﷺ، وهناك تعلو

كلمة الحق، ويحكم بينهم عليه الصلاة والسلام بما أنزل الله، غير خاضع لما يبيتون من المكر، ولا للذي يحاولون من الخديعة وفتنه - صلوات الله وسلامه عليه - ولو عن بعض ما أنزل الله إليه.

والآيتان اللتان نعنيهما وهما آخر ما تلمسنا عطاءه من سورة المائدة هما قول الله تبارك وتعالى في الآية الثانية والأربعين: **﴿فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾** وقوله جل شأنه في الآية الخمسين: **﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠)﴾** [المائدة: ٥٠] ويقتضينا الحرص على التساوق مع الكلمة الهادية في كتاب الله وسنة النبي ﷺ أن نعيد إلى الأذهان ما روى النسائي في المجتبىٰ بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان قريظة والنضير وكان النضير أشرف من قريظة. وكان إذا قتل رجل من قريظة رجلاً من النضير قُتل به، وإذا قتل رجل من النضير رجلاً من قريظة أدىٰ مائة وسق من تمر، فلما بعث النبي ﷺ قتل رجل من النضير رجلاً من قريظة فقالوا ادفعوه إلينا نقتله، فقالوا بيننا وبينكم النبي ﷺ فأتوه فنزلت **﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾** والقسط النفس ثم نزلت: **﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾**.

وحكم رسول الله ﷺ بينهم بالعدل الذي هو القسط، لأن الله تعالى يحب المقسطين العادلين الذين يسيرون مع الحق ولا يجورون في الحكم، والقسط هنا يقوم على أن النفس بالنفس، بصرف النظر عن القبيل الذي

ينتمي إليه القاتل، على عكس ما كانت يهود تفرق بين بني قريظة وبني النضير، على الجميع لعائن الله.

ولقد تكون هذه القضية القائمة على النظرة الجاهلية والعنصرية البغيضة فيما بينهم قد مرت بمراحل، فبجانب الرواية التي أوردها النسائي، نجد عنده الرواية الأخرى التي أسلفنا ذكرها، والتي تكشف عن أن مظهر الجور نتيجة الشرف هنا والوضاعة هناك – على زعمهم – كان تنصيف الدية إذا وجبت الدية، فقتلى النضير يودَوْن الدية كاملة أي تؤدىٰ لهم كاملة غير منقوصة، وقتلى قريظة لا يؤدى لهم إلا نصف الدية، ذلكم ما روي بسنده عن ابن عباس أيضاً أن الآية التي في المائدة قالها الله عز وجل فاحكم بينهم أو أعرض عنهم إلى ﴿الْمُقْسِطِينَ﴾ إنما نزلت في الدية بين النضير وبين قريظة، وذلك أن قتلى النضير كان لهم شرف يودَوْن الدية كاملة، وأن بني قريظة كانوا يودون نصف الدية، فتحاكموا في ذلك إلى رسول الله ﷺ فأنزل الله عز وجل ذلك فيهم، فحملهم رسول الله ﷺ على الحق فجعل الدية سواءً بسواء. أرأيت إلى هذه الحقيقة التي قررها حبر الأمة وعالمها عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – بقوله «فحملهم رسول الله ﷺ على الحق فجعل الدية سواءً بسواء».

لقد نكون أكثر إدراكاً لأبعاد هذه الحقيقة إذا ذكرنا أن الرسول – عليه الصلاة والسلام – حمل اليهود على الحق وهم يناصبونه العداء، ويكفرون به وبدعوته في السر والعلن.. أجل حملهم على الحق وهو

المساواة هنا بين قتيل بني قريظة وقتيل بني النضير، فكان أن جعل الدية سواء بسواء بلا تنصيف. وأي تجرد في نُشْدان الحق، والخضوع لسلطان العدل كهذا الذي فعل الرسول عليه الصلاة والسلام بألد أعدائه الذين لا ينون يفترون ويمكرون ولكنه عليه الصلاة والسلام - وقد أمره مولاه أن يحكم بينهم بالقسط لأنه جل شأنه يحب المقسطين - لم يكن إلا عند الذي أراده مولاه سبحانه، وفي ذلك درس أي درس للمسلمين بأن يكونوا مع الحق أبداً، وأن يتجهوا وجهة العدل بنصفة وتجرد دونما بَلَهٍ أو غفلة، وأن يراجعوا رصيدهم على صعيد الفكر والحركة، ويدرسوا الأسباب التي ارتفعت بالمسلمين يومذاك، وأسلمتهم عاتق الميزان حتى في الحكم بين الأعداء بعضهم مع بعض؛ وأن لا يجبنوا بعد ذلك كله عن النقد الذاتي في دنيا الواقع... يومئذ تضع الأمة قدمها على الطريق الصحيحة في مواجهة من ضربت عليهم الذلة والمسكنة، وباؤوا بغضب على غضب ولله عاقبة الأمور.

الشريف والوضيع... والتفاوت في الحكم؟!

دلالة النصوص في كتاب الله عز وجل، والسنة المطهرة، والسيرة النبوية؛ على الانحراف المتأصل عند اليهود، وبخاصة في معايير الحق والباطل ومدى الاحتكام إلى ما جاء في التوراة: دلالة واضحة أكدتها الوقائع وما تزال تؤكدها، بصورة لا تقبل الاحتمال؛ وذلك بدءاً من الحُقَب الأولى في تاريخهم وحتى يوم الناس هذا، وانتظر منهم على المدى ما يزيد المؤمن يقيناً على يقين بأحقية ما جاء في شأنهم في الفرقان الحكيم وحديث الرسول عليه الصلاة والسلام، وأيدته تصرفاتهم التي اتسمت بالعوج والانحراف وباتت لا تتحرك إلا على الضلالة والزيغ، والبعد عن كل ما هو حق وشريعة من عند الله.

وكان آخر ما استضأنا بهديه في تجلية هذه الحقيقة، الآية الثانية والأربعون من سورة المائدة وهي قول الله تبارك وتعالى: ﴿**فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾ ولقد وقفتنا بعض الروايات في سنن النسائي وعند ابن هشام في السيرة عن ابن إسحاق: أن سبب نزول قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾ واقعة أو أكثر من الوقائع المرتبطة بعنصرية بلهاء بين بني النضير وبني قريظة، فبنو النضير على شرف ومكانة في المجتمع، ليسا لبني قريظة، ومن أجل ذلك إذا وقعت جريمة قتل فيها أحد من بني النضير كان لا بد من

القود حيث النفس بالنفس، وعلى العكس من ذلك إذا كان القتيل من بني قريظة، إذ في هذه الحال يكفي أن يُعطى أولياء المقتول مائة وسق من تمر. وهنالك روايات أخر: تنص على المفاضلة، حتى إذا كان الأمر لا يحتاج إلا إلى الدية، فدية هذا غير دية ذاك.. ولكن عماد الأمر تلك العنصرية التي ألحنا إليها. وقد أراد فريق من اليهود – كما دلت الروايات الصحيحة – أن يحتكموا إلى رسول الله ﷺ راغبين – وهم أهل الرغبات الضالة – أن ينزل في حكمه عند الذي تسول لهم أنفسهم وتزين شياطينهم فيجور ويظلم، ولكنه أبى ذلك ونزلت الآية الكريمة التي رأينا والتي ختمت بقوله جل شأنه: ﴿**وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾ أي وإن حكمت بينهم يا محمد فاحكم بينهم بالعدل، لأن الله يحب العدل والعادلين ويكره الظلم والظالمين: أجل إن الله يحب المقسطين العادلين جاء هذا على صورة التعليل لما أمر به النبي ﷺ في قوله سبحانه: ﴿**وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ**﴾.

هذا: والذي رأينا عند ابن إسحاق والنسائي، نجد نحوه أو مثله عند الإمام الطبري سبباً لنزول الآية – كما روى عن أهل التأويل في ذلك – ولكنا نجد عنده أيضاً، أن هنالك من يرى أن سبب النزول: قضية تتعلق بجريمة الزنى والتفريق في الحد بين الشريف والوضيع؛ فذاك لا يقام عليه حد الرجم لأنه من الأشراف – على زعمهم – وتخفف العقوبة إلى ما هو أقل بكثير، وذاك يقام عليه حد الرجم لأنه دون المستوى... وهذا من عتوهم وانحرافهم عن الصراط السوي، واهتزاز معاييرهم في النظر إلى الإنسان والحق. وقد استفتى بعضهم رسول الله ﷺ ليوافقهم فأفتاهم

بالرجم فأنكروه.. إلى أن كشف الخبيئة - وهي أن الحكم عندهم في التوارة الرجم - واحد من أصغرهم. روى شيخ المفسرين بسنده عن مجاهد ﴿أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ يهود، «زنى رجل منهم له نسب حقير فرجموه، ثم زنى شريف فحمَّموه ثم طافوا به ثم استفتوا رسول الله ﷺ ليوافقهم، قال: أفتاهم بالرجم، فأنكروه فأمرهم أن يدعوا أحبارهم ورهبانهم، فناشدهم بالله: أتجدونه في التوراة؟ فكتموه إلا رجلاً من أصغرهم أعور، فقال: كذبوك يا رسول الله إنه لفي التوراة».

حمَّموه: سودوا وجهه. والذي سأل عنه الرسول ﷺ بقوله: «أتجدونه في التوراة» هو الرجم. ولذلك قال له هذا الرجل الذي هو من أصغرهم: كذبوك يا رسول الله إنه - يعنى الرجم - في التوراة.

وهكذا يكون القسط الذي أمر النبي ﷺ أن يحكم به إن احتكم إليه اليهود، هو الحكم بالرجم الذي نصت عليه التوراة، واليهود يلجأون إلى الفرار من حكم الله، ويتخذون الكتاب المنزل هزواً والعياذ بالله.

وهذه صورة أخرى للواقعة، يرويها أبو جعفر عن ابن عباس - رضي الله عنهما - إذ يقول: حدثني محمد بن سعد قال:

حدثني أبي قال: حدثني عمي قال: حدثني أبي عن أبيه عن ابن عباس قال: إنهم أتوه - يعني اليهود - في امرأة منهم زنت، يسألونه عن عقوبتها، فقال لهم رسول الله ﷺ: كيف تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة؟ فقالوا: نؤمر برجم الزانية فأمر بها رسول الله ﷺ فرجمت، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم

﴿بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ وهكذا تكشف الروايتان عن عبث اليهود بالدين، واتباعهم الهوى معرضين عما أنزل الله.

صحيح ... أن الرواية الأولى أبين في انحرافهم عن الصراط السوي، لما أنهم يفرقون – في تطبيق حكم التوراة – بين إنسان وآخر، وعباد الله لا يتفاضلون بالأنساب ولكن يتفاضلون بالتقوى، ولكن الرواية الثانية تدل أيضاً على أنهم يكتمون شيئاً يعرفونه من التوراة، واحتكموا إلى المصطفى عليه الصلاة والسلام، لعله يحكم على المرأة بشيء غير ما في كتابهم، وإلا فهم يعرفون حكم الجريمة المشار إليها.

﴿رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ۝٨﴾ [آل عمران: ٨].

ظاهرة التفلُّت من الأحكام .. وتعدُّد الوقائع

كانت لنا في الحلقة الماضية وقفة عند روايتين أخرجهما الإمام الطبري في تفسيره « جامع البيان » جاء على ذكرهما عند تفسيره لقول الله تبارك وتعالى في سورة المائدة: ﴿ **فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ** ﴾ .

وقد دلت الرواية الأولى وهي عن مجاهد – رحمه الله – على اختلال المعايير عند اليهود في نظرتهم إلى الحق والباطل وفي علاقتهم بأحكام الله التي جاءت في « التوراة » إذ جعلوا من حكم التوراة على الزاني بالرجم، حكماً لا يطبق إلا على الضعفاء من الناس، أما الشرفاء – كما يزعمون – فلهم عقوبة مخففة أين هي من الرجم. كما دلت الرواية الثانية ـ وهي عن ابن عباس رضي الله عنهما – أن اليهود كانوا يكتمون عقوبة الزنى التي أمر الله بها، ومن أجل ذلك سألوا رسول الله ﷺ عن عقوبة تلك المرأة اليهودية التي اقترفت الجريمة لعل رسول الله ﷺ يحكم بغير ما في التوراة، وعندها يرضون بحكمه، ولكن الرسول – عليه الصلاة والسلام – سألهم، وشدد عليه في المسألة، عما يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة، فاعترفوا بالرجم، فحكم به عليه الصلاة والسلام.

والذي ينبغي التنبه إليه – أن هذا التنوع في مضمون الروايات عن

هؤلاء الأناس، واتخاذهم دين الله هزواً ولعباً.. يدل على تعدد الوقائع التي تؤكد ما هم عليه من ذلك العبث العابث - والعياذ بالله -.

ونحن واجدون ـ بجانب تلكما الروايتين المومى إليهما ـ رواية أخرى تؤكد هذا الذي نقول، قال أبو جعفر ـ رحمه الله ـ: حدثنا القاسم قال: حدثنا الحسين قال: حدثنا حجاج عن ابن جريج، عن عبد الله بن كثير قوله: ﴿فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ قال: كانوا يحدون في الزنى، إلى أن زنى شاب منهم ذو شرف، فقال بعضهم لبعض: لا يدعكم قومه ترجمونه، ولكن اجلدوه ومثلوا به، فجلدوه وحملوه على حمار إكاف وجعلوا وجهه مستقبل ذنب الحمار؛ إلى أن زنى آخر وضيع ليس له شرف فقالوا: ارجموه، ثم قالوا: كيف لم ترجموا الذي قبله؟ ولكن مثل ما صنعتم به فاصنعوا بهذا، فلما كان النبي ﷺ قالوا: سلوه، لعلكم تجدون عنده رخصة! فنزل ﴿فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ سبحان الله... إن هؤلاء المغضوب عليهم لم يقفوا عند الرغبة في التفلت من حكم الله، بل حاولوا أن يكون ذلك من طريق النبي عليه الصلاة والسلام، ولكن خاب فألهم، وردت سهامهم إلى نحورهم، وباؤوا بالخزي والغضب، ووقف رسول الله ﷺ الوقفة التي أرادها الحق سبحانه، فحكم بالقسط الذي جاء به الكتاب.

الإكاف: برذعة الحمار.

ويقودنا الكشف عن جوانب تلك الحقيقة من خلال ما ورد بشأنها،

إلى متابعة ما أشرنا إليه من قبل، من أن ما رأيناه عند النسائي وابن إسحاق من روايات، تدل على أن سبب نزول الآية الثانية والأربعين من سورة المائدة تلك العنصرية اليهودية التي تمثلت على صعيد العقوبة المقررة على جريمة القتل بالتفريق بين صنف وآخر من الناس، وإن كانوا كلهم من يهود... من أن ما رأيناه هناك نجد نحوه أو مثله عند الطبري ولكن بجانب تلك الروايات التي أوردناها أيضاً، والتي تشي بأن الأمر مرتبط بالعنصرية في تطبيق عقوبة الزنى. وعندي أنه لا تنافي مطلقاً بين الروايات لما أن هذا التعدد دال على أن كل ما ذكر من الوقائع، كان حاصلاً في ذلك المجتمع الهيودي القائم على معاداة الحق ومحاولة العبث بشريعة الله ـ مع الدعاوى العريضة ـ أن اليهود أحبار الله وأهل العمل بالدين.

ها نحن أولاء نجد شيخ المفسرين يروي بسنده عن عكرمة عن ابن عباس أن الآيات في المائدة، قوله: ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿الْمُقْسِطِينَ﴾ إنما نزلت في الدية في بني النضير وبني قريظة، وذلك أن قتلى بني النضير وكان لهم شرف، تؤدىٰ لهم الدية كاملة، وأن قريظة كانوا يودَوْن نصف الدية فتحاكموا في ذلك إلى رسول الله ﷺ، فأنزل الله ذلك، فحملهم رسول الله ﷺ على الحق في ذلك، فجعل الدية في ذلك سواءً والله أعلم أيٌّ ذلك كان.

وله من رواية أخرى عن عكرمة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أيضاً أنه قال: كانت قريظة والنضير، وكان النضير أشرف من قريظة،

فكان إذا قتل رجل من قريظة رجلاً من النضير قتل به، وإذا قتل رجل من النضير رجلاً من قريظة أدى مائة وسق من تمر، فلما بعث رسول الله ﷺ قتل رجل من النضير رجلاً من قريظة، فقالوا: ادعوه إلينا، فقالوا: بيننا وبينكم رسول الله ﷺ فنزلت: ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ وهذه رواية تحمل اسم اليهودي الذي كان ينزل على حكم الجاهلية فيفرق في الحكم بين النضيري والقرظي، قال ابن زيد: كان في حكم حيي بن أخطب: للنضيري ديتان، والقرظي دية؛ لأنه كان من النضير، قال: وأخبر الله نبيه ﷺ بما في التوراة، قال: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥] إلى آخر الآية قال: فلما رأت ذلك قريظة، لم يرضوا بحكم ابن أخطب، فقالوا: نتحاكم إلى محمد، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ فخيّره ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [المائدة: ٤٣].

أما بعد: فهذا هو الحق الذي جاء من عند الله بشأن أولئك المغضوب عليهم، الذين همهم العدوان على كل ما هو حق وما هو احتكام إلى شريعة الله، فهل يعي المسلمون ذلك ويجعلون منه حجر الزاوية في ميدان الفكر الذي قد لا يقلُّ شأناً عن ميدان القتال؟.

نهي النصارى عن الغُلو...
واتباع اليهُود في ضلاَلهم

كان من حديثنا عن اليهود وما وقع فيهم من جرائم القتل والزنى وغيرها، تلك التي بلغ رسول الله عليه الصلاة والسلام خبر بعضها، واحتكموا إليه ﷺ بشأنها لعل عنده شيئاً غير الذي في التوراة، لما أنهم راغبون أشد الرغب في التحلل من تلك الأحكام، وقد جنحوا إلى ذلك فعلاً كما دلت بعض الوقائع.. كان من حديثنا عن ذلك ـ وغيره كثير ـ أن الانحراف عن الدين، والعنصرية في تطبيق الأحكام ـ ومنها العقوبات ـ والمحاولة الجادة في التفلت مما أمرهم الله به ونهاهم عنه.. كل أولئك كان ظاهرة من ظواهر المجتمع اليهودي ولم يكن واقعة عابرة وانتهى الأمر.. وإنما حكمنا بذلك لتعدد الوقائع وكثرتها ـ على ضيق ذلك المجتمع الآسن ـ ثم لصدورها عن أهل الدين والشرف والعلم فيه ـ كما يزعمون ـ ولا من ينكر المنكر – إلى على الندرة – ولا من يحاول تصحيح المسار، ليعود الناس إلى الحق المنزل في الكتاب الذي يزعمون الإيمان به، وتصديق الرسول الذي أنزل عليه.

والحق أن الشق الثاني من القضية كان وحده ـ أيضاً ـ ظاهرة تسعف الباحث في دراسة الكثير من أوضاعهم، وأعني بالشق الثاني عدم التناهي عن المنكر فيما بينهم ومداراة بعضهم بعضاً على حساب الحق، ناهيك عن محاباة الأحبار والربانيين فيهم، لأولي المكانة والشرف عند تطبيق

أحكام الدين، ففرق مثلاً بين الشريف والوضيع في تطبيق عقوبة الزنى، ولا مساواة بين النضيري والقرظي في إنفاذ عقوبة القتل.. ولا تسل عن كتمان ما أنزل الله من الحق.. وعامة الناس منقادون دونما إنكار أو استهجان، والتالي لسورة المائدة في القرآن الكريم بخاصة، ولما نزل فيهم بعامة، يقع على استنكار الكتاب العزيز لتلك الظاهرة التي كانت متفشية فيهم، والتي كانت تطبع علاقتهم بدينهم الذي يزعمون الاحتكام إلى معاييره، فيما هو حق وما هو باطل.. نعني به ظاهرة الرضى بالسوء والانحراف، وعدم التناهي عن منكر يفعلونه.. وأن ذلك قديم فيهم من أيام بعض رسلهم عليهم الصلاة والسلام، وكان من أسباب لعنهم وطردهم من رحمة الله تعالى على لسان داود وعيسى بن مريم. ها نحن أولاء نقرأ في سورة المائدة بدءاً من الآية الثامنة والسبعين قول الله تباركت أسماؤه وجلت قدرته: ﴿ **لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (٨٠) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٨١)** ﴾ [المائدة: ٧٨ - ٨١]. ومن الواضح البيِّن أن في قوله تعالى: ﴿ **لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ** ﴾. الآية إخباراً بأن الله سبحانه لعن الكافرين من بني إسرائيل من دهر طويل، فيما أنزله على داود عليه الصلاة والسلام وعلى لسان عيسى بن مريم، بسبب عصيانهم لله وتجاوزهم حدوده واعتدائهم على خلقه ﴿ **ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا**

﴿وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ وإذن فقد اجترح هؤلاء من المآثم عصياناً لله، وانتهاكاً لحرمات الحق في علاقتهم بربهم، وفي علاقتهم بالآخرين ما كان سبباً للعنهم وطردهم من رحمة الله، التي لا يحرمها إلا محروم والعياذ بالله، فكيف إذا طرد طرداً وأبعد عن ساحتها إبعاداً . .

ولعل مما تجدر الإشارة إليه أن الإمام الطبري في تفسيره «جامع البيان» جعل الارتباط قائماً بين هذه الآية التي أخبرت عن لعنهم وأنه وقع من دهر طويل فيما أنزل على بعض رسلهم إذ كان على لسان داود وعيسى، وبين الآية التي سبقتها وهي قول الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ [المائدة: ٧٧] وأهل الكتاب المنهيون ـ هنا ـ عن الغلو في الدين وعن اتباع أهواء قوم يتمرغون في الضلال والإضلال: هم النصارى قال ـ رحمه الله ـ: (يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل لهؤلاء النصارى الذين وصف تعالى ذكره صفتهم: لا تغلوا فتقولوا في المسيح غير الحق، ولا تقولوا فيه ما قالت اليهود الذين قد لعنهم الله على لسان أنبيائه ورسله داود وعيسى بن مريم) فالقوم الذين نهي النصارى عن اتباع أهوائهم، فيما قالوا في المسيح، وهم الذين قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل، هم اليهود الذي لعنوا على لسان أنبيائه ورسله داود وعيسى ابن مريم . . فالله تبارك وتعالى يخاطب في الآية نبيه محمداً ﷺ أن يقول للنصارى: لا تغلوا في دينكم، لا تُفْرِطوا في القول فيما تدينون به من أمر المسيح، فتجاوزوا فيه الحقَ إلى الباطل وذلك بأن تبالغوا فيه حتى تخرجوه عن حيز النبوة إلى مقام الألوهية، فتقولوا فيه

«هو الله».. أو هو «ابن الله»، ولكن قولوا: «هو عبد الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه» ولا تتبعوا أيضاً في المسيح، أهواء اليهود الذين قد ضلوا قبلكم عن سبيل الهدى في القول فيه، فتقولون فيه كما قالوا «هو لغير رَشْدة» وتبهتوا أمَّه بالفرية عليها في دينها وخلقها، وهي صدِّيقة.

يقول تعالى: ﴿وَأَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ أي وأضل هؤلاء اليهود كثيراً من الناس فحادوا بهم عن طريق الحق، وحملوهم على الكفر بالله والتكذيب بالمسيح، وضلوا عن سواء السبيل. يقول جل شأنه: وضل هؤلاء اليهود عن قصد الطريق طريق الاستقامة والاعتدال إلى طريق الغواية والضلال، وركبوا غير محجة الحق عامدين. وجاءت الآية التي تلت لتؤكد هذه الحقيقة فيهم وتكشف عن أن هؤلاء الذين ضلوا من قبلُ أضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل، هم الذين حقت عليهم لعنة الله من زمن متطاول في القدم: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

ابن عباس... لُعنُوا بكلّ لسَان!!

في معرض استجلاء ما كان من عطاء الكتاب العزيز في شأن ظاهرة من الظواهر التي كانت تسود المجتمع اليهودي، وهي الرضى بالباطل والانحراف وعدم التناهي عن منكر يقترف، أتينا على ذكر آيات كريمات من سورة المائدة بدءاً من الآية الثامنة والسبعين وهي قول الله تعالى: ﴿ **لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨١﴾** ﴾ [المائدة: ٧٨ – ٨١].

وقد أشرنا إلى العلاقة ـ كما كشف عنها الإمام الطبري ـ بين الآية الأولى – وقد دلت على إخبار الله أن اليهود لعنوا منذ دهر طويل على لسان داود وعيسى بن مريم، وأن ذلك كان بسبب ما اجترحوا من المآثم – وبين آية كريمة سبقتها يؤمر فيها النبي ﷺ أن ينهى النصارى عن الغلو في الدين، وعن اتباع أقوام تمرغوا في الضلال والإضلال وقالوا في المسيح وأمه قالة السوء، وهم اليهود، والآية التي نعني هي الآية السابعة والسبعون من سورة المائدة، ذلكم قول الله جل شأنه خطاباً لنبينا عليه الصلاة والسلام: ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ** ﴾ [المائدة: ٧٧].

والعلاقة بين الآيتين، تقوم على أن هؤلاء الذين ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل، هم الذين حقت عليهم لعنة الله بما عصوا وكانوا يعتدون، ولعنوا على لسان داود وعيسى بن مريم عليهما السلام.

﴿ **لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ** ﴾ ولقد دلت الآثار على أنهم لعنوا بكل لسان والعياذ بالله.. وما أجدر المسلمين أن يتبينوا هذه الحقيقة، ويجعلوا منها ركيزة من ركائز التعرف على حقيقة هؤلاء الأناسي، الذين تتسلسل فيهم أسباب اللعن والطرد من رحمة الله منذ انحرف أجدادهم الذين لعنوا على لسان أنبياء الله ورسله داود وعيسى بن مريم. قال الإمام الطبري: حدثني محمد بن سعد قال: حدثني أبي قال: حدثني عمي قال: حدثني عن أبيه عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قوله: ﴿ **لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ** ﴾ قال: لعنوا بكل لسان: لعنوا على عهد موسى في التوارة، ولعنوا على عهد داود في الزبور، ولعنوا على عهد عيسى في الإنجيل، ولعنوا على عهد محمد ﷺ في القرآن».

وله من رواية أخرى عن ابن عباس من طريق علي بن أبي طلحة أنه قال: قوله: لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم» يقول: لعنوا في الإنجيل على لسان عيسى بن مريم، ولعنوا في الزبور على لسان داود».

وفي كشف عن واحد من أسباب الطرد من الرحمة بهذا الإعلان على

لسان الأنبياء والرسل، روى الطبري أيضاً بسنده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم» قال: «خالطوهم بعد النهي في تجاراتهم، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض، فهم ملعونون على لسان داود وعيسى بن مريم».

وهنالك روايات تكشف عن سوء الأدب مع رسل الله، وهي خصلة لا تستغرب من قوم كان ديدنهم إيذاء الرسل، حتى قتلوا بعضهم، ولكن الإشارة إلى هذه الخصلة، يحمل عليها كونها رافقت بعض الوقائع في علاقتهم برسلهم عليهم الصلاة والسلام، وارتبط ذلك بما حق عليهم من الطرد واللعن من رحمة الله وفضله. قال ابن جريج: وقال آخرون: لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود على عهده، فلعنوا بدعوته قال: مر داود على نفر منهم ـ وهم في بيت ـ فقال: من في البيت؟ قالوا: خنازير. قال: اللهم اجعلهم خنازير فكانوا خنازير: قال: ثم أصابتهم لعنته، ودعا عليهم عيسى فقال: اللهم العن من افترى عليَّ وعلى أمي واجعلهم قردة خاسئين. وقد روي عن قتادة قوله: لعنهم الله على لسان داود في زمانه فجعلهم قردة خاسئين، وفي الإنجيل على لسان عيسى فجعلهم خنازير.

والتالي لكتاب الله يقع على عدد من الآي التي تكشف عن هذا الجعل والعياذ بالله، بسبب مآثم اجترحوها في العقيدة والسلوك؛ ففي سورة البقرة نقرأ قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا**

لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [البقرة: ٦٥] وفي سورة المائدة نقرأ قوله سبحانه: ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ ﴾ [المائدة: ٦٠] وفي سورة الأعراف يطالعنا قول الله تباركت أسماؤه: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾ ﴾ [الأعراف: ١٦٥، ١٦٦].

والذي يهم المسلم من ذلك كله - والقضايا منصوص عليها في الكتاب العزيز - إدراك الحقيقة والاعتبار بها وهذا من الواجبات التي يثمرها التدبُّر والانتفاع بالمتلوِّ ثم وضع ذلك على طريق المواجهة مع أولئك المغضوب عليهم طاعة لله ولرسوله ﷺ. وفي هذه الطاعة سعادة الدارين.

ظاهرة ضلال وإضلال..

جديرة بالتأمّل والاعتبار

ظاهرة الرضى بالانحراف والضلال ـ بل والإضلال ـ وعدم التناهي عن المنكر في المجتمع اليهودي، كما تدل الوقائع التي أشار إليها القرآن الكريم، وعدَّدتها وفصلت أحداثها السنة المطهرة، تلك الظاهرة جديرة بالتأمل والاعتبار، لما أن اليهودي هو اليهودي كما أسلفنا غير مرة، والله تبارك وتعالى خاطب اليهود في عصر النبي ﷺ، كأنهم هم الذين اجترحوا ما اجترح أجدادهم الأقدمون من المآثم، وما اقترفوا من الأعمال التي لا تقرها التوراة ولا يرضى بها رسول أرسله الله إليهم، ولا تتفق مع الخلق القويم في كثير ولا قليل.

وإنما كان ذلك ـ والقاعدة المقررة: أنه لا تزر وازرة وزر أخرى ـ لأن هؤلاء كانوا راضين كل الرضى بصنيع أولئك؛ وهذه واحدة، وأما الثانية: فإن تصرفاتهم تبدو حلقة في تلك السلسلة النتنة المؤذية التي بدأها القدماء منهم، والتي استمرؤوها واستمروا هم على متابعة طريقها الظالمة المنحرفة، ضلالاً في أنفسهم وإضلالاً لعباد الله ما أمكنهم ذلك، ومكراً يمكرونه بالليل والنهار، ورضىً بالمنكرات ترتكب، والمآثم تجترح، ومحاولات آثمة لخداع نبينا عليه الصلاة والسلام كي يفتنوه عن الدين الذي أُوحي إليه.. ناهيك عن تلك الوقائع التي لا تصدر عن جماعة

تؤمن بالله واليوم الآخر، وتعرف الحقيقة من كتابها، ولكنها تكتم ما أنزل الله، وتحاول التأويل المنحرف للنصوص في شريعة الله.

أجل إن ظاهرة الرضى بالانحراف الآثم، وعدم التناهي عن المنكر يقع جهرة فيما بينهم، ويعلم أحبارُهم وربانيوهم أنه منكر... إذا درست حق الدراسة وأدركها المسلمون حق الإدراك، كان ذلك عوناً لهم ـ بإذن الله ـ على الاعتبار، وتحديد المواقف، ومعرفة المنطلقات التي تحدد مسار العدو، وتفسير كل صغيرة وكبيرة من تصرفاته.. الأمر الذي يعطي مزيداً من اليقظة في ميدان المواجهة مع أولئك الناس، لا تقتصر على ميدان دون آخر؛ ولعل الميدان الثقافي الذي يعطي فيما يعطي، تأصيل المعرفة وتطويع السلوك لمقتضياتها ـ بالنسبة للمسلم ـ من أوائل الميادين التي على المسلمين أن يعنوا بها، لأن ميدان القتال، ذو نسب أصيل إلى المعرفة الموضوعية، وتحديد المنطلقات والأهداف، في ضوء الحقائق التي جاء بها الكتاب الكريم والسنة المطهرة في شأن المغضوب عليهم، وجاءت وقائع التاريخ حتى يومنا هذا، مقررة ومؤكدة ذلك كله، على صورة لا تلتبس على ذي عينين ولكن ﴿ **فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج: ٤٦].

أقول هذا ونحن على موعد مع وقفة أخرى عند آيات من سورة المائدة عرضت للظاهرة المومى إليها، وكشفت عن بعض الأسباب التي استحق بها اليهود اللعن والطرد من رحمة الله وأن هذا اللعن كان من دهر طويل على لسان داود وعيسى بن مريم عليهما السلام. تلكم الآيات هي قول الله تبارك

وتعالى، بدءاً من الآية الثامنة والسبعين في السورة المومى إليها: ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [المائدة: ٧٨ – ٨١].

هكذا يقرر كتاب ربنا الحكيم، أن هؤلاء الناس لعنوا من دهر طويل على لسان داود وعيسى بن مريم، بسبب عصيانهم واعتدائهم على حرمات الله وعلى الناس. وليس ذلك فحسب: بل تفشت فيهم ظاهرة الرضى بالمنكر وعدم التناهي عنه، فكانوا لا ينهى أحدهم أحداً عن ارتكاب المآثم والمحارم، مع الدعوى العريضة أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن الله اختارهم واصطفاهم على العالمين. وترى أن الآية الكريمة حملت – بعد البيان لعدم تناهيهم عن المنكر – ذمَّهم الشديد على ذلك بصيغة التأكيد، ليحذر المسلمون الحذر كله، من أن يرتكبوا مثل الذي ارتكبوه، لأنهم إن فعلوا ذلك حلَّ بهم ما حل بأولئك ولا كرامة، فقال: ﴿ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾.

ولعل من الخير إيراد ما يؤكد دلالة نصوص أشرنا إليها في مناسبة خلت.

قال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: حدثنا يزيد قال: حدثنا شريك عن عبد الله عن علي بن بذيمة عن أبي عبيدة عن عبد الله قال: قال رسول الله

ﷺ : «لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا، فجالسوهم في مجالسهم، قال يزيد : وأحسبه قال : في أسواقهم وواكلوهم وشاربوهم فضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ولعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم، ذلك بما عصوا، وكان رسول الله ﷺ متكئاً فجلس فقال : لا والذي نفسي بيده حتى تأطروهم على الحق أطراً» . وروى أبو داود بسنده عن عبد الله بن مسعود قال : «إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل كان الرجل يلقى الرجل فيقول : يا هذا اتق الله ودع ما تصنع، فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك من أن يكون أكيله وشريبه وقعيده فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ثم قال : ﴿ **لُعِنَ الَّذِينَ**.. إلى قوله .. **فَاسِقُونَ** ﴾ ثم قال : كلا والله لتأمُرُنَّ بالمعروف ولتنهوُنَّ عن المنكر ولتأخُذُنَّ على يد الظالم ولتأطرُنَّه على الحق أطراً، وتقصرُنَّه على الحق قصراً»، والحمد لله رب العالمين.

ما لُعِن من أجله اليهُود.. العبرة والعِظة

في حديث عن ظاهرة من الظواهر التي طبعت المجتمع اليهودي من قديم وهي الرضىٰ بالمنكر يقترف وعدم التناهي عنه، أتينا على روايتين لحديث يرتبط ارتباطاً وثيقاً بآيات من سورة المائدة، تعلن سخط الله على اليهود ولعنهم بسبب تلك الظاهرة، بدءاً من قول الله تبارك وتعالى في الآية الثامنة والسبعين: ﴿ **لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ** ﴾ [المائدة: ٧٨] وحتى قوله جل شأنه في الآية الحادية والثمانين ﴿ **وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨١﴾** ﴾ [المائدة: ٨١].

والحديث المومى إليه هو ما روى الإمام أحمد بسنده عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا، فجالسوهم في مجالسهم قال يزيد: وأحسبه: قال: في أسواقهم، وواكلوهم وشاربوهم، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ولعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم ﴿ **ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ** ﴾ وكان رسول الله متكئاً فجلس فقال: لا والذي نفسي بيده، حتى تأطروهم على الحق أطراً» ونجد نحو ذلك عند أبي داود، وذلك ما روى بسنده في كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي من السنن عن أبي عبيدة عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا اتق الله ودع ما

تصنع، فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ثم قال: ﴿ **لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ** ﴾ إلى قوله: ﴿ **فَاسِقُونَ** ﴾ ثم قال: كلا والله لتأمرنَّ بالمعروف ولتنهونَّ عن المنكر ولتأخذن على يدي الظالم، ولتأطرنَّه على الحق أطراً أو لتقصرنَّه على الحق قصراً».

قال الإمام الخطابي: «لتأطرنَّه» معناه لتردنَّه عن الجور، وأصل الأطْر العطف أو الثني، ومنه تأطُّر العِصِيِّ وهو تثنيتها. والملاحظ هنا أن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يقتصر في توجيه المسلمين بهذه الحرارة، إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، على ما يقترفه الفرد من المعصية، ولا يتعدى إلى الآخرين، ولكنه عليه الصلاة والسلام، تجاوز ذلك إلى ضرورة الوقفة الشجاعة الصادقة من الظالم ووجوب الأخذ على يده، ردعاً له عن ظلمه، ورداً له عن الجور إلى العدل، والإذعان للحق ورفع الظلم عن الآخرين، وجاء ذلك بتلك الصيغة المؤكدة بعدد من المؤكدات: «**كلا والله لتأمرنَّ بالمعروف ولتنهونَّ عن المنكر ولتأخذنَّ على يدي الظالم، ولتأطرنَّه على الحق أطراً، أو لتقصرنه على الحق قصراً**» فأنت ترى «كلا» وهي كلمة ردع، ثم القسم وبعده اللام في جواب القسم، ومن بعد ذلك نون التوكيد الثقيلة في كل من (تأمرنَّ وتنهونَّ وتأخذنَّ).

غير أن للعماء في هذه الرواية مقالاً إذ قال المنذري ـ رحمه الله ـ: أبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود لم يسمع من أبيه وعلى هذا ففي الرواية انقطاع.

والحديث رواه الترمذي في كتاب التفسير من الجامع الصحيح – سنن الترمذي – بسنده عن أبي عبيدة عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا، فجالسوهم في مجالسهم، وواكلوهم وشاربوهم، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ولعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون قال: فجلس رسول الله ﷺ وكان متكئاً فقال: لا والذي نفسي بيده حتى تأطروهم على الحق أطراً» قال عبد الله بن عبد الرحمن، قال يزيد: وكان سفيان الثوري لا يقول فيه عن عبد الله. وقد حكم الترمذي على هذا الحديث بأنه حسن غريب، ثم بين أنه جاء مرسلاً أيضاً، أي عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن رسول الله ﷺ دون ذكر الصحابي، وهو عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ، لأن الحديث المرسل ما سقط منه اسم الصحابي.

قال ـ رحمه الله ـ: حدثنا بندار قال: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي قال: حدثنا سفيان ـ يعني الثوري ـ عن علي بن بذيمة عن أبي عبيدة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن بني إسرائيل لما وقع فيهم النقص، كان الرجل يرى أخاه على الذنب فينهاه عنه، فإذا كان من الغد لم يمنعه ما رأى منه أن يكون أكيله وشريبه وخليطه، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض، وتنزل فيهم القرآن فقال تعالى: ﴿**لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ**﴾ فقرأ حتى بلغ ﴿**وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ**﴾ فقال: لا، حتى تأخذوا على يدي الظالم فتأطروه على الحق

أطراً». وقد روى الحديث ابن ماجه أيضاً في كتاب الفتن من «السنن» ولكن بلفظ «وكان رسول الله ﷺ متكئاً فجلس وقال: لا، حتى تأخذوا على يدي الظالم فتأطروه على الحق».

وإذا كان الظلم ـ في الأصل ـ تجاوز الحد، فالظالم هنا في هذه الرواية يشمل من كان ظالماً لنفسه بارتكاب المعاصي، ومن كان ظالماً للآخرين جائراً عليهم، يركب متن الباطل ولا يذعن للحق. والرسول عليه الصلاة والسلام حين يوجه أمته هذا التوجيه الأمين، بعد الكشف عما كانت عليه بنو إسرائيل وما نالها من اللعن بسبب ذلك، فإنما يريد لها أن تكون على الجادة؛ حراسةً للمجتمع المسلم من طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والأخذ على يد الظالم، حتى يثوب إلى رشده ويذعن للحق، وإلا حل بها ما حل بأولئك المغضوب عليهم والعياذ بالله لأن الرضى بالانحراف في أي جانب من جوانب المجتمع، وعدم التناهي عن المنكر، والخنوع إلى التجاوز لحدود الله: كل أولئك إذا تحول إلى ظاهرة، كان نذير خطر نعوذ بالله منه ونسأله تعالى أن يجنبنا الوقوع فيما وقع فيه أعداء الله والحق، والواقع الأليم يصدِّق ذلك ويؤكدُه أوضح تأكيد.

لبئس ما كانوا يفعلون.. والإنكار المجدي

في وقفة عجلى مع نصوص من الكتاب الكريم والسنة المطهرة.. تشير إلى واحدة من الظواهر التي تطبع المجتمع اليهودي ـ وهي ظاهرة عدم التناهي عن المنكر والرضى بالانحراف الصارخ عن دين الله ـ... رأينا في القرآن ما يدل على أن التناهي عن المنكر فيما بينهم، كان في حكم المعدوم. وجاء التنديد بذلك في غاية الوضوح؛ ذلكم قول الله جل ذكره: ﴿ **لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾** ﴾ لقد استحق هؤلاء الكفرة الفجرة اللعن والطرد من رحمة الله، بسبب عصيانهم وتجاوزهم حرمات الله واعتدائهم على الحق وعلى الآخرين.. ومن مظاهر ذلك: أنهم كانوا يسكتون على المعاصي ترفع أعلامها، ولا تتمعر وجوههم لحرمات الله تُنْتَهَكُ ولا يغضبون، بل يرضون الرضى كله ويشاركون العصاة حياتهم العابثة؛ وكأن شيئاً لم يحدث على مرأى ومسمع الجميع!!

هذا ما دلت عليه الآيتان الكريمتان: ومما جاء في «جامع البيان» للإمام الطبري: (كان هؤلاء اليهود الذين لعنهم الله لا يتناهون يقول: لا ينتهون عن منكر فعلوه ولا ينهى بعضهم بعضاً، ويعني بـ«المنكر» المعاصي التي كانوا يعصون الله بها).

وأنت ترى أن الآية الثانية ختمت بالتنديد والتوبيخ على صنيعهم هذا، بقوله تعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ فهذا قسم من الله تعالى ذكره يقول: أقسم لبئس الفعل كانوا يفعلون، في تركهم الانتهاء عن معاصي الله تباركت أسماؤه، وعدم إنكارها، وركوب محارمه وقتل أنبيائه ورسله.

ذلك ما نجده صريحاً في كتاب الله من كون اليهود لا ينتهون عن منكر فعلوه، ولا ينهى بعضهم بعضاً عن المعاصي وانتهاك حرمات الله، وظلم الآخرين. غير أنّا نجد في نصوص من السنة المطهرة ـ وقد مر بعض ذلك من قبل ـ أنه كان يحصل شيء من النهي مرة واحدة، ثم يرى من نهى عن المنكر أخاه مقيماً على انحرافه وضلاله، فلا يغضب ولا ينهاه مرة أخرى، بل لا يمنعه ذلك من أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فهو يشاركه الاستمتاع بالحياة، وكأنه ليس بعاصٍ ولا مقترفٍ إثماً يجاهر فيه ربه بالعداوة. من هذه النصوص ـ بجانب ما أوردنا من قبل ـ ما روى الطبري بسنده عن علي بن بذيمة عن أبي عبيدة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن بني إسرائيل لما وقع فيهم النقص كان الرجل يلقى أخاه على الريب فينهاه عنه، فإذا كان الغد لم يمنعه ما رأى منه أن يكون أكيله وشريبه وخليطه، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ونزل فيهم القرآن فقال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ حتى بلغ ﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ وكان رسول الله ﷺ متكئاً فاستوى جالساً فغضب وقال: لا، حتى تأخذوا على يدي الظالم فتأطروه على الحق أطراً».

وأنت ترى في هذه الرواية ذكر الجار والصاحب مع الأخ، ففي التي قبلها «يلقى أخاه» وهنا «يرى أخاه وجاره وصاحبه...» وعلى أية حال: ففي هذه الروايات وفي التي أوردناها من قبل تصريح بأنه حصل شيء من الإنكار، بينما نجد القرآن الكريم ينفي تناهيهم عن المنكر ﴿**كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ**﴾ ولا يبدو الجمع بين ما جاء في الكتاب وبين ما جاء في بيانه من السنة عسيراً.. إذ إن النظرة الفاحصة تعطي أن إنكار المنكر، كان لمرة واحدة وعلى طرف اللسان، دونما اهتمام أو تأكيد... ويتضح عدم الاهتمام وانتفاء الحرقة الصادقة على تغيير المنكر، ما كان يحدث من المصاحبة: مؤاكلة ومشاربة ومجالسة في المرة التالية، فهذه النقلة من الإنكار إلى الرضى مع المخالطة، تدل على أن الإنكار لم يكن مصحوباً بأدنى اهتمام ولا مأخوذاً مأخذ الجد.. فالقرآن الكريم... ـ والله أعلم ـ نظر إلى النهي عن المنكر على هذه الشاكلة ـ من انعدام الجد والاهتمام ـ كأنه لم يكن... فلا بدع أن نقرأ في تلك الآية المباركة: ﴿**كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ**﴾ وعلى هذا: فالإنكار المجدي والذي يكون نهياً عن المعصية بحق، هو ذلك التناهي الذي ينبئ عن اهتمام صاحبه بالتغيير، ويحول دونه ودون الإتيان بما يدل ـ بعد ذلك مباشرة ـ على الرضى.. ولما كان الأمر على عكس ذلك، ضرب الله قلوب اليهود بعضهم على بعض، ولعنوا على لسان داود وعيسى بن مريم.

وهكذا لا يكون هنالك أي تعارض بين ما جاء في الكتاب، وبين ما جاء في السنة حول هذا الموضوع، فالحقيقة أن التناهي العابث الذي يشد

أزر العاصي والمستهتر، هو كعدم التناهي سواء بسواء إن لم نقل أن هذه الحالة قد تكون أسوأ من تلك.

ولنا عودة إلى هذه النقطة، لنرى تأييدها أيضاً في واحدة من روايات الحديث، وصدق الله رب العالمين وصدق الرسول المبلغ عن الله ما أراد، المبين لكتابه الكريم أجلى بيان وآمنه في دنيا الحق وهداية الإنسان.

العبث .. والنهي عن المنكر تعذيراً

أشرت فيما سلف من القول إلى أن كتاب ربنا جل شأنه، حكم على اليهود بأنهم لا ينتهون عن المنكر، ولا ينهى بعضهم بعضاً عنه: ﴿ **كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ** ﴾ حكم هذا الحكم الصريح عليهم، مقرراً هذه الظاهرة مع أنه ورد في بعض من نصوص السنة، أنه كان يحصل شيء من الإنكار، ولكن دلت تلك النصوص على أن ذلك النهي عن المعاصي كان لعقة على اللسان، لا يصحبها جد ولا اهتمام، بدليل أن المنكِر نفسه، كان يرى من أنكر عليه ثانيةً مقيماً على الضلالة، فلا يحرك ساكناً، بل لايمنعه ذلك من أن يكون أكيله و شريبه وقعيده.. ولذلك ـ والله أعلم ـ اعتبر هذا الإنكار العابث وكأنه غير موجود .. بل ربما كانت عاقبته أشد سوءاً من السكوت، حين لا تتوافر القدرة على إنكار المنكر، مع الرغبة الصادقة في تغييره.

ومما يؤكد هذا الذي نقول أن هنالك رواية للحديث، فيها التصريح بأنه لم تكن هنالك شدة ومبالغة في النهي عن المعاصي، وكانت هنالك مداهنة للعصاة، ونوع من التعامل معهم، يدل على عدم الإنكار حق الإنكار فهو إنكار يتسم بالتقصير والبعد عن الجد والحزم... والتناهي عن المنكر على هذه الشاكلة من الضعف والتخاذل، أعقب ما جاء في الحديث من معايشة الناهي عن المعصية وفاعلها، على أوسع ما يكون التعايش... مؤاكلة ومشاربة ومخالطة.. إلى غير ذلك مما يدل على أن

كلمة الإنكار مقطوعة النسب إلى القلب، ليس بينها وبين الغيرة الصادقة أدنى صلة، أو نسب.

والرواية المشار إليها، نجدها عند الطبري في «جامع البيان» حيث أوردها عند تفسيره للآيات التي نسعد باصطحابها والمتعلقة بظاهرة عدم التناهي عن المنكر عند اليهود والضلالات التي اجترحوها، فكانت من أسباب لعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم وطردهم من رحمة الله. قال أبو جعفر: حدثنا أبو كريب قال: حدثنا عبد الرحمن ابن محمد المحاربي، عن العلاء بن المسيب، عن عبد الله بن عمرو بن مرة عن سالم الأفطس، عن أبي عبيدة عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل من بني إسرائيل كان إذا رأى أخاه على الذنب نهاه تعذيراً، فإذا كان من الغد، لم يمنعه ما رأى منه أن يكون أكيله وخليطه وشريبه، فلما رأى ذلك منهم، ضرب بقلوب بعضهم على بعض، ولعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ قال: والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر ولتأخذنَّ على يدي المسيء ولتؤطِّرنَّه على الحق أطراً، أو ليضربنَّ الله قلوب بعضكم على بعض، وليلعننكم كما لعنهم».

والجديد في هذه الرواية ـ كما نرى ـ تقرير النبي عليه الصلاة والسلام: أن الرجل من بني إسرائيل «كان إذا رأى أخاه على الذنب نهاه تعذيراً» والتعذير في اللغة: أن يفعل الشيء غير مبالغ في فعله، يقال: قام فلان قيام تعذير فيما استكفيتُه: إذا لم يبالغ وقصَّر فيما اعتمد

عليه... وتعذير اليهود أنهم لم يبالغوا في نهي العصاة عن المعاصي، وداهنوهم ولم ينكروا اقترافهم للمعصية حق الإنكار، فنهوهم نهياً قصروا فيه ولم يبالغوا، ومن يدري لعل ما كان يفعله المنكرون ـ وهو إنكار أقرب إلى الاستهتار منه إلى الجد والاهتمام ـ محاولة لإثبات جدارتهم بأمر دنيوي يطلبونه.. ثم تتكشف الحقيقة من الغد، فتختلط الأعمال، ولا تكاد تفرق بين سلوك الناهي عن المنكر بالأمس والمنهيِّ عنه «فإذا كان من الغد لم يمنعه ما رأى منه..» وماذا رأى منه، رأى الإصرار على ارتكاب المعصية، دونما خوف أو بقية من حياء.. أجل لم يمنعه ما رأى منه، أن يكون أكيله يصاحبه في الأكل، وشريبه يصاحبه في الشراب، وخليطه يصاحبه في المخالطة.. ألا ينبئك ذلك كله على أن الكلمة الأولى كانت جسداً بلا روح وصورة بلا حقيقة!!.

هذا والتعرف إلى تكامل السلوك في إطار الضلالة عند اليهود، يقتضينا النظر في الآيتين اللتين تلتا قوله تعالى: ﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ وأولى هاتين الآيتين قول الله جل شأنه: ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [المائدة: ٨٠] إنهم يعصون الله، ويتجاوزون حدوده ولا ينتهون عن المعاصي، ولا ينهى بعضهم بعضاً عنها ـ على الحقيقة ـ وقد ضموا إلى ذلك أن كثيراً منهم يتولون الذين كفروا.. يقول الله تعالى ذكره: ترى يا محمد كثيراً منهم يتولون الذين كفروا، يتخذون الكافرين أولياء ونصراء، إنهم يتولون المشركين من عبدة الأوثان، والمنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر... ويعادون أولياء الله

ورسله، لبئس ما قدمت لهم أنفسهم من موالاة الكافرين، وتركهم موالاة المؤمنين التي أعقبتهم نفاقاً في قلوبهم، وأسخطت الله عليهم سخطاً مستمراً إلى يوم معادهم... وفي العذاب هم خالدون. يعني في عذاب الله يوم القيامة هم خالدون، دائم مقامهم ومكثهم فيه.

إن هذا الذي جاءت به الآية الكريمة عن موقف المغضوب عليهم من الكافرين؛ حيث الموالاة والتناصر، ومن المؤمنين؛ حيث المعاداة والمكر، يبدو فقرة من فقرات المنهج الظالم الذي دلت عليه الآيتان السابقتان: بدءاً من قوله تعالى: ﴿ **لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ** ﴾.

والحمد لله الذي بصرنا الحقائق في كتابه وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، ونسأله تعالى أن يهديَ القلوب كيما تستمسك بالحق وتستنير بنوره في حمأة الصراع والتحدي.

ويوم يكون المسلمون على هذا المستوى، تنحسر الأقنعة ويبلس الأقزام المجرمون، ولله عاقبة الأمور.

كفرٌ.. وحَرب على الحقيقة

وقفتنا الآيتان الثامنة والسبعون والتاسعة والسبعون من سورة المائدة على أن اليهود استحقوا الطرد من رحمة الله، بسبب عصيانهم وتجاوزهم حدود الله في علاقتهم به جلَّ شأنه، وبرسله عليهم الصلاة والسلام، وفي علاقتهم بالآخرين. وبدأ ذلك التجاوز جلياً على صعيد الفرد والجماعة، بتلك الظاهرة النكراء، ظاهرة عدم انتهائهم عن المنكر، وعدم نهي بعضهم بعضاً عنه؛ وقد اشتدَّت الكلمة القرآنية في ذمهم على ذلك بقوله تعالى: ﴿ **كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ** ﴾.

وقد سبقت الإشارة إلى أن مما يدل على التكامل بين البنية الفكرية والبنية السلوكية عندهم: ما تلا الآيتين المومى إليهما، من الكشف عن أن كثيراً من اليهود كانوا يتولَّون الذين كفروا ـ يتخذونهم أولياء ونصراء من دون المؤمنين ـ كيما يكونوا عوناً لهم على مناهضة الحق وأهله من المسلمين، وكان ذلك سبيلَهم إلى سخط الله عليهم وخلودهم في العذاب الأليم؛ ذلكم قول الله جل ذكره: ﴿ **تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾** ﴾ [المائدة: ٨٠].

وها نحن أولاء نرى الكتاب الكريم يُخضع هذه القضية للباعث الحقيقي الذي كان وراء تلك الموالاة الظالمة، موالاة اليهود للذين كفروا؛ فكُفْرُ اليهود بالله وبمحمد عليه الصلاة والسلام، وبما أنزل إليه كل أولئك

كـــان وراء ذلك المسلك الذي لا يتـــسق مع الإيمان الصـــادق ودعـــوى الاستمساك بالدين، ولكنه الخروج على الحق، وعلى ما توجبه رسالة السماء: من طاعة الله ورسوله، والالتزام بوحي الله وتنزيله؛ ذلكم ما نطق به قول الله تباركت أسماؤه: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾ [المائدة: ٨١]. أجل لو كان هؤلاء الذين يتولون الذين كفروا من بني إسرائيل، يؤمنون بالله والنبي ـ يصدقون الله ويقرون بربوبيته ويوحدونه، ويصدقون نبيه محمداً ﷺ بأنه ﷺ نبيٌّ مبعوث، ورسول مرسل، ويقرون بما أنزل إلى محمد ﷺ من عند الله من آي الكتاب العزيز ـ ما اتخذوهم أولياء، ما اتخذوهم أصحاباً وأنصاراً يوالونهم ويستنصرون بهم دون المؤمنين. وما داموا قد فعلوا ذلك فمردُّ القضية إلى الجنوح الضال، والخروج عن طريق الهداية والنور. دلَّ على ذلك قول الله تعالى في ختام الآية ﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ إذ بين جل شأنه أن كثيراً منهم أهلُ خروج عن طاعة الله إلى معصيته، وأهلُ استحلالٍ لما حرم الله عليهم، من القول والعمل والسلوك.

وهكذا يستريح أهل الإيمان لهذا التعليل، وتتعاظم عندهم القدرة على ربط النتائج بمقدماتها، والأعمال ببواعثها والأفكار التي تسيِّرها... ولا يحتاجون كل يوم إلى جديد في تبيُّن العلة التي تكمن وراء تصرفات اليهود على هذه الساحة، ساحةِ الموالاة للكافرين والمعاداة للمؤمنين. فلو كان هؤلاء المتحدث عنهم آمنوا حق الإيمان بالله والرسول والقرآن ـ كما أسلفنا ـ لما ارتكبوا ما ارتكبوه من موالاة الكافرين في الباطن، ومعاداة

أهل الإيمان بالله والنبي وما أنزل إليه من ذلك الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه، لما أنه تنزيلٌ من حكيمٍ حميد.

والواقع أن القرآن الكريم، قد كشف في بعض من آيه عن أن ما تنطوي عليه نفوس أولئك المغضوب عليهم ـ مع دعاواهم العريضة على ساحة الانتماء إلى الدين – هو إيمان بالجبت والطاغوت؛ حملهم – وهم الحاسدون الحاقدون ـ على أن يشهدوا للمشركين عباد الأوثان بأنهم أهدى سبيلاً من الذين آمنوا بالله ورسوله، وصدَّقوا بما أنزل الله عليه وحياً من عنده سبحانه.

ولم يكن أمراً عجباً: أن يعلن القرآن في دنيا الإنسان: أن أولئك الذين تمرغوا في أوحال هذه المقولة الظالمة، قد حقَّت عليهم لعنة الله، ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً. ونقرأ في ذلك وفيما يتعلق به، ويجلِّيه قول الله جل ذكره ـ بدءاً من الآية الحادية والخمسين في سورة النساء ـ خطاباً للنبي عليه الصلاة والسلام: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً ﴿٥١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾** ﴾ [النساء: ٥١ – ٥٥].

أرأيت إلى هذا السمو في أسلوب الخطاب، واستثارة القلب والعقل للقضية المراد بيانها والكشفُ عن أبعادها! يخاطب ربنا تبارك وتعالى في

الآية الأولى نبيه محمداً ﷺ بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ يعني بذلك جل ثناؤه ـ كما يقول شيخ المفسرين ـ ألم تر بقلبك يا محمد إلى الذين أعطوا حظاً من كتاب الله فعلموه، يؤمنون بالجبت والطاغوت ـ يعني يصدقون بهما ويكفرون بالله، وهم يعلمون أن الإيمان بهما كفر والتصديق بهما شرك ـ !! إنه الكفر الذي لا يقوم على عدم العلم بأن ما يفعلونه شرك وضلال، ولكن العكس هو الصحيح؛ فهم يعلمون العوج ويعلنون إيمانهم به، وذلك أشد وأعتى ألوان الانحراف ـ والعياذ بالله ـ ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾. لقد ضموا إلى ذلك الضلال: أنهم يعبثون بالحقيقة، فيقرُّون أن عبدة الأوثان أهدى من الذين آمنوا سبيلاً.

ولنا عودة إلى الآيات الكريمات نبين في ضوئها بعضاً من تصرفات اليهود وبواعثها في قضية هي من أخطر القضايا على صعيد علاقتهم بالمسلمين؛ لما أن موقفهم يجمع بين الكفر الذي يستبطنونه ـ مع دعوى الإيمان ـ وبين قيلهم: إن عبدة الأوثان أهدى من الذين آمنوا سبيلاً.. ولا تسل عن الآثار التي ترتبت على هذا الموقف عند المشركين ـ وهم يطمئنون إلى ما تقول يهود ـ بوصف هؤلاء الأناسي أهل كتاب!! وسعة في الثقافة والمعرفة بالشؤون التي تتصل بالسماء ـ كما يزعمون، ويصدق مزاعمهم الجاهليون الفارغون!!

الإيمان بالجبت والطاغوت..
واقتران الافتراء بالباعث

سبق أن ألمحتُ إلى أن القرآن الكريم، كشف عن العلة التي تكمُن وراء بعضٍ من تصرفات اليهود، في عدوانهم على الحق، وزعمهم أن الكافرين الذين يتخذون مع الله آلهة أخرى ويعبدون الأوثان: أهدى سبيلاً من الذين آمنوا بالله حق الإيمان، وصدقوا برسوله عليه الصلاة والسلام، وبما أنزل عليه من آي الفرقان. فالعلة: هي أن هؤلاء الذين أوتوا حظاً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت.. ومن هنا كان هيِّناً عليهم أن يخرجوا عن دائرة الهداية، ويعلنوا ما هو ضلال مبين، فيزعموا أن الكافرين هم أهل الاستقامة الذين يسلكون سبيلها، وأن أهل الإيمان ليسوا على هذا المستوى.

والذين نعنيه ماجاء في آيات كريمات من سورة النساء بدءاً من الآية الحادية والخمسين حيث يقول الله جل ذكره خطاباً للنبي عليه الصلاة والسلام في تجلية لتلك القضية ومتعلقاتها وما ترتب عليها من استحقاق لعنة الله: **﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ**

آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ ﴾ [النساء : ٥١ ـ ٥٥].

والذين أوتوا نصيباً من الكتاب : هم اليهود أما عن الجبت والطاغون اللذين كانوا يؤمنون بهما : فالجبت ـ كما قال علماؤنا ـ يطلق على الصنم والكاهن، والساحر، والسحر، وعلى الذي لا خير فيه، وعلى كل ما عُبِدَ من دون الله تعالى. وللسلف وأهل التأويل عدد من التعريفات للطاغوت؛ فنحن نجد في مادة « طغى » من معاجم اللغة : الطاغوت : اللات والعزى، والكاهن، والشيطان، وكل رأس ضلال، والأصنام، وكل ما عبد من دون الله، ومَرَدَةُ أهل الكتاب. أو : الجبت : حُيَيّ بن أخطب، والطاغوت : كعب بن الأشرف، وهما من زعماء يهود وسدنة الضلال فيهم. وقد روى أبو جعفر الطبري بسنده عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قوله : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ** ﴾ الجبت : الأصنام، والطاغوت : الذين يكونون بين أيدي الأصنام يعبرون عنها الكذب ليضلوا الناس، وهؤلاء الذين يكونون بين يدي الأصنام : هم تراجمتها من الكهان، تنطق على ألسنة الأصنام؛ كأنها تقول للناس بلسانهم، ما قالته تلك بألسنتها. وروي عن عكرمة أنه قال : الجبت والطاغوت صنمان. روى عن مجاهد والشعبي أن الجبت : السحر، والطاغوت : الشيطان، كما روى عن مجاهد : الجبت : السحر. والطاغوت : الشيطان والكاهن. ونقع على رواية عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ يقول فيها : الجبت : حيي بن أخطب، والطاغوت : كعب بن الأشرف، وروي مثل ذلك عن الضحاك.

ومهما يكن من أمر: فالذي تعطيه الروايات وأبعادها العميقة: أن الجبت والطاغوت يطلقان ويراد بهما: كل معظَّم بعبادة من دون الله، أو طاعة أو خضوع له، كائناً ما كان ذلك المعظم؛ فقد يكون حجراً، أو ما يقوم مقامه فيما يتخذ من الأوثان، أو إنساناً أو شيطاناً؛ والطغيان قائم في الطرفين؛ المعظم بعبادة أو طاعة أو خضوع، والمعظم كذلك سوا ء كان حجراً أو ما يسد مسدَّه من الأوثان، أو إنساناً يُعبد ويطاع من دون الله، أو يحمل الناس طغيانًا وبغياً وظلماً على أن يطيعوه في معصية الله، ومجاهرة شرعه ودينه بالعداوة. وإذا كان الأمر كذلك، وكانت الأصنام التي كانت الجاهلية تعبدها ـ معَظمةً بالعبادة من دون الله ـ فقد كانت ـ كما قال شيخ المفسرين ـ جبوتاً وطواغيت؛ وكذلك الشياطين التي كانت الكفار تطيعها في معصية الله؛ وكذلك الساحر والكاهن اللذان كان مقبولاً منهما ما قالا في أهل الشرك بالله، وكذلك حيي بن أخطب، وكعب بن الأشرف، لأنهما كانا مطاعين في أهل ملتهما من اليهود في معصية الله والكفر به وبرسوله، فكانا جِبتين وطاغوتين.

والذي ينبغي أن نكون على ذُكْرٍ منه: أن أولئك اليهود الذين أوتوا نصيباً من الكتاب، كانوا يؤمنون بالجبت والطاغوت ـ على تعدد الأنواع والمسمَّيات لهما ـ ويكفرون بالله الخالق القادر العليم الحكيم، وهم على علم من كتابهم قبل أن يعبثوا بنصوصه ويحرفوه، أن الإيمان بهما ـ أعني الجبت والطاغوت ـ كفرٌ وخروجٌ عن طريق الهداية، والتصديقَ بهما شركٌ يؤدي بصاحبه إلى جهنم وبئس المصير.

إنها الجراءة الظالمة على الحق، والشناعة في قلة الأدب مع الله، ناهيك عن الاستهانة بالعلم والمعرفة؛ فأيُّ قيمة في ميزان القيم، لمن يعلم حق العلم: أن الإيمان بالجبت والطاغوت كفر، والتصديق بهما شرك، ثم يُقْدِم عليه بعمد وإصرار؟!! وإذا انضم إلى ذلك ما عند اليهود من حقدٍ على المسلمين تغلي به صدورهم، وحسدٍ يملأ نفوسهم ويطبع تصرفاتهم.. لم يكن بدعاً أن يظاهروا الباطل ـ وهم يعلمون أنه باطل ـ على الحق ـ وهم يعلمون أنه حق ـ فيقولوا لعبدة اللات والعزى المتَّخذين أنداداً من دون الله، المصدقين بالكاهن وهذيانه بأنه يعلم الغيب ويملك النفع والضر أن يقولوا لهم: أنتم على طريق الهدى، وأتباع محمد على طريق الضلال. كبُرَت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً.

هكذا كان الاقتران بين المقولة الضالَّة والباعثِ عليها كما دَّل على ذلك قول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً ﴾. والحمد لله رب العالمين.

الغطرسة الثقافية.. والافتراء على الحق

يوم تكون دعوى الإيمان بالله في جانب، والسلوك على ساحة الفكر والعمل في جانب، ويكون بينهما تنافر ما بين النقيض والنقيض.. هنالك حدِّث ولا حرج، عما يترتب على ذلك من آثار مناهضة لكل ما هو حق، ولكل ما هو فضيلة... كان ذلك شأن اليهود في واحدة من السمات المميزة لهم كما كشف عنها القرآن الكريم؛ فهم يدَّعون أنهم أتباع موسى عليه السلام، وأهل كتاب سماوي هو التوراة، يؤمنون به ويقفون عند حدوده فيما يأمر وفيما ينهى... وبعد ذلك كله يأتون بما يكذِّب ما يدَّعون.. فتراهم يؤمنون بالجبت والطاغوت.. وأكثر من هذا لا يستحيون أن يجعلوا من أنفسهم مرجعاً للحكم بين الكفار عبدة الأوثان، وبين أهل الإيمان الصادقين، أتباع محمد عليه الصلاة والسلام.. فيقولوا للذين كفروا: ﴿ هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ ﴾ [النساء: ٥١].

ولقد كان من الممكن أن ينطلي مكر اليهود وزورهم على بعض الناس!! ولكن الفرقان الحكيم، لم يدع ريبة لمستريب ولا لذي لب ينشد الحقيقة ويبغي مقنعاً: أن أولئك المغضوب عليهم يحاربون الحق، وهم يعلمون أنه حق، ويظاهرون الكفرة على المؤمنين، وهم على يقين في قرارة أنفسهم، أن من يتخذونهم أولياء وأنصاراً من دون المؤمنين، بل ويشدُّون من أزرهم: ضالُّون كافرون. ولكن لا بدع في صدور ذلك ـ بل وما هو

أشد وأنكى ـ عنهم، ما دام الإيمان بالجبت والطاغوت قائماً.. أضف إلى ذلك ما يعتلج في صدورهم من المكر والحقد على المسلمين.

ولعل من الخير أن نتابع الرحلة مع الآيات الكريمات التي قدَّمت للناس بعامة ـ وللمسلمين بخاصة ـ تلك الحقيقة المشار إليها، كيما نتبيَّنَ جوانب أُخَر من هداية الكتاب الكريم بشأن هؤلاء الأناسي، وهو يكشف عن واحدة من سماتهم على صعيد الفكر والسلوك، ونتلَّمس العبرة التي على المسلمين أن يستخلصوها من خلال ذلك؛ كيما يتجاوزوا واقعاً لا يغْبَطون عليه، إلى واقع ينشئه الدين الخالص، والعمل الجاد، بمنهجه الرباني الشامل على كل صعيد. والآيات التي نعني هي ما جاء في سورة النساء بدءاً من الآية الحادية والخمسين من قول الله تبارك وتعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً (٥١) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا (٥٢) أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا (٥٣) أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا (٥٤) فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا (٥٥)** ﴾ [النساء: ٥١ ـ ٥٥].

ولقد وقفتنا الكلمات الهاديات في قوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ** ﴾ الآية... على الأمرين اللذين أشرنا إليهما في صدر هذا الحديث:

أولهما ـ أن الذين أوتوا نصيباً من الكتاب السماوي ـ وهم اليهود هنا

ـ يؤمنون بالجبت والطاغوت، وقد أسلفت الكلام على المراد من كل من الجبت والطاغوت اللذين يؤمنون بهما، وأنهما يشملان كل ما يعبد من دون الله أو يطاع فيما هو عدوان على الدين الحق.

الثاني ـ أنهم لم يقفوا عند هذا الحد، بل خولوا أنفسهم ـ مع هذا الضلال المبين ـ أن يُصدِروا ـ في غطرسة ثقافية عابثة ـ حكمهم على المؤمنين بأنهم ليسوا أهل الهداية، وأن الكافرين عبدةَ الأوثان الذين يتخذون أنداداً من دون الله، هم أهدى من الذين آمنوا سبيلاً. لقد كان منهم ذلك: حين سألهم زعماء الشرك عن هذه القضية الكبرى وهي أيٌّ الدينين خير، دينهم أم دين محمد عليه الصلاة والسلام؟ فكان جوابهم: بل دينُكم خير من دينه. وقد حملت إلينا المصادر عدداً من النصوص التي كشفت عن هذه المقولة الظالمة، والكذبة التي لا يمكن أن تصدر إلا عن اليهود، أو ممن هم على شاكلة اليهود.

من ذلك ما روى محمد بن إسحاق المطلبي ـ وهو يتحدث عن غزوة الخندق ـ غزوة الأحزاب ـ التي وقعت في السنة الرابعة أو الخامسة للهجرة ـ بسنده أن نفراً من اليهود ـ منهم سلاَّم بن أبي الحقيق النضري، وهوذة بن قيس الوائلي، وأبو عمار الوائلي ـ في نفر من بني النضير، ونفر من بني وائل، وهم الذين حزَّبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ وقالوا: إنا سنكون معكم عليه، حتى نستأصله، فقالت لهم قريش: يا معشر يهود، إنكم أهلُ الكتاب الأول، والعلمِ بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه وأنتم أولىٰ بالحق منه؛ فهم

الذين أنزل الله تعالى فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً ﴿٥١﴾ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾.

وقد جاء في الرواية تفسير الفضل بالنبوة.

أرأيت!! بل دينكم خير من دينه؛ قالوها وهم الذين يعلمون حق العلم، أن التوراة عندهم نصَّت على نبوته عليه الصلاة والسلام، وأنه خاتم الرسل الذي يجب أن يُتَّبع..

ألا ليت للمسلمين تلك البصائر التي تعي حق الوعي دلالة هذه الواقعة وأمثالها على العبث الفكري عند اليهود، وكيف أنهم يسطون بالحقيقة، ويفترون الكذب على الله وعلى الناس، في سبيل الوصول إلى أغراضهم الهابطة، وتحقيق مآربهم المتجافية عن هدى الله وإنسانية الإنسان.

إنهم إن وُفِّقوا لذلك، واتتْهم القدرة على حسن التعامل مع الواقع، ولم يكونوا ـ والمأساة تغمر الأمة بظلامها ـ كالذي يضرب في حديد بارد، أو يكتب على الماء، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

يجحدون الحق بإصرار.. وهم يعلمون

كانت مقولة ظالمة عابثة تلك التي أطلقها بعض من زعماء اليهود في عصر النبي عليه الصلاة والسلام ـ وهم في موضع الصدارة من قومهم في الدين والسياسة وتصريف الأمور ـ إذ قالوا لزعاء الكفر وسدنة الضلال من أهل الشرك: ﴿ هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً ﴾. جاء الخبر عن ذلك في القرآن الكريم وأكدّه ما روى ابن إسحاق المطلبي صاحب «السيرة» وغيره في ذلك كما سبق. والمعنى: هؤلاء: أي هؤلاء الذين وصفهم الله بالكفر في قوله: ﴿ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أهدى: أي أقوم وأعدل من الذين آمنوا؛ من الذين صدّقوا الله ورسوله وأقروا بما جاء به نبيهم محمد ﷺ وعزّروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه ﴿ سَبِيلاً ﴾ يعني طريقاً ومنهجاً.

إن هؤلاء اليهود الذي عناهم الله جل شأنه بقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ اتخذوا هذا الموقف الجاحد للحق، ونطقوا بتلك المقولة الظالمة العابثة، وهم على علم بأن ما زعموه هو البالطل، وأن ما عليه أتباع محمد عليه الصلاة والسلام هو الحق، وأنهم مأمورون في كتابهم الذي يزعمون أنهم به مؤمنون، أن يصدقوا بما أرسل به هذا النبي الكريم.

لقد جحدوا ما عندهم من العلم، وكفروا بالحقيقة الناصعة التي أيدتها الحجة وقام عليها الدليل، فقالوا: إن أهل الكفر بالله وبما جاء من عند الله، أولى بالحق من أهل الإيمان به وبما أوحيَ إلى مصطفاه، وأن دين

أهل التكذيب لله ولرسوله، أعدل وأصوب من دين أهل التصديق لله ولرسوله.

على أية حال: لم يكن عجباً من العجب ـ وهم يؤمنون بالجبت والطاغوت، وتغلي صدورهم بالحقد الأسود على المسلمين ـ أن يجيء ذلك على لسان بعض من زعمائهم المسلّم لهم من الأتباع ـ كما أسلفنا ـ بصواب الكلمة وصدق الحديث. وصدق ربنا جل جلاله إذ يقول: ﴿ **فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج: ٤٦] وقد أوردنا من قبل رواية أبي بكر محمد بن إسحاق صاحب السيرة والتي جاءت بمناسبة قيام اليهود بتحزيب الأحزاب من المشركين على رسول الله ﷺ بين يدي غزوة الخندق؛ ومما جاء في تلك الرواية: «فقالت قريش: يا معشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه، فهم الذين أنزل الله تعالى فيهم: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ** ﴾ الآيات. فلما قالوا ذلك لقريش، سرّهم، ونشطوا لما دعوهم إليه من حرب رسول الله ﷺ، وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه، وأن قريشاً قد تابعوهم على ذلك فاجتمعوا معهم فيه.

وقد جاء في بعض روايات الإمام الطبري إفرادُ كعب بن الأشرف ـ عليه وعلى أمثاله لعائن الله ـ بتلك الفرية الضالة، وجنوحُ المشركين إلى كلمات نابية بشأن محمد عليه الصلاة والسلام، وتفاخرٍ بما هم عليه؛ قال ـ رحمه الله ـ: حدثنا محمد بن المثنى قال: حدثنا ابن أبي عدي عن

داود عن عكرمة عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال: لما قدم كعب بن الأشرف مكة قالت له قريش: أنت حَبر أهل المدينة وسيدهم؟ قال: نعم. قالوا: ألا ترى إلى هذا الصُّنبور المنبتر من قومه يزعم أنه خير منا ونحن أهل الحجيج وأهل السِّدانة وأهل السِّقاية؟ قال: أنتم خير منه. قال: « فأنزلت ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ ﴿٣﴾ ﴾ [الكوثر: ٣] وأنزلت ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ... ﴾ إلى قوله: ﴿ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴾. وجاء في بعض الروايات تسويد قريش لكعب بن الأشرف خلال الحديث معه؛ ذلك ما جاء عن عكرمة أنه قال: قدم كعب بن الأشرف معه فقال له المشركون: احكم بيننا وبين هذا الصُّنبور الأبتر، فأنت سيدنا وسيد قومك: فقال كعب: أنتم والله خير منه؛ فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ... ﴾ إلى آخر الآية.

والحوار الذي نرى بين قريش وبين الزعيم اليهودي كعب: واضح أنه لا يحمل أثارة من علم، أو خضوعٍ للمنهج السليم في إقامة الدليل؛ فالمذمة للنبي عليه أفضل الصلاة والتسليم بتلكما اللفظتين النابيتين « الصنبور والأبتر» والمفاخرة بأن قريشاً أهل الحجيج وأهل السِّدانة وأهل السِّقاية.. ما شأنها وما علاقتها بما هو حق وما هو باطل.. حيث يدعوهم محمد ﷺ إلى الدين الحق الذي أوحى الله به إليه بواسطة جبريل عليه السلام، وهو الأمين الذي لم يعهدوا عليه إلا الصدق، والاستقامة، ونظافة السلوك!!

والصنبور - كما قال أهل اللغة - سعفات تنبت في جذع النخلة غير مستأرضة أي ليس لها عرق في الأرض، ثم قالوا للرجل الفرد الضعيف

الذليل الذي لا أهل له ولا عقب ولا ناصر: «صنبور» فأراد هؤلاء الكفار من قريش ـ تأييداً لموقفهم الجاحد ـ أن محمداً ﷺ ـ بأبي هو وأمي ـ صنبور منبتٌ في جذع نخلة فإذا قلع انقطع، فكذلك هو إذا مات، فلا عقب له لأنه المنبتر أو الأبتر الذي لا عَقِبَ له.

وكذبوا وخيَّب الله فألهم، فقد نصر الله رسوله النصر المبين، وقطع دابر الكافرين، وعلت كلمة الحق الذي جاء بها في العالمين. وللحديث صلة نصطحب فيها ـ إن شاء الله ـ روايات أخر في سبب نزول تلكم الآيات التي كشف عن مجافاة اليهود للحق، ومناصرتهم للباطل وأهله، وشهادتهم شهادة الزور التي أعلنوها بقولهم لأهل الشرك عبدة الأوثان: ﴿هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾ فلذلك ما له من الدلالة النفسية وطبيعة المنطلقات التي ينطلقون منها في الأحكام!! وكم ذا يفيد ـ إذا وعت الأمة أبعاده ـ في تحديد المواقف، وتحليل الأحداث على أرض الواقع الذي لا نغبط عليه، لأنه واقع أسهم في صنعه نوع من الجهل ومثله ـ أو أنكى منه ـ من التجاهل للخبر الصادق في القرآن، أو في سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام وسيرته، وأحياناً فيهما ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الجاهلية.. ونفثات يهود

وقفتنا الكلمة القرآنية وأخبار السيرة من قريب على قضيتين يهوديتين كل منهما غاية السوء في بابها:

الأولى ـ أنهم يؤمنون بالجبت والطاغوت، وهما اسمان لكل معظَّم بعبادةٍ من دون الله أو طاعة أو خضوع له، كائناً ما كان ذلك المعظَّم.

الثانية ـ أنهم ـ وقد أوتوا حظاً من الكتاب السماوي وعرفوا أن محمداً ﷺ رسول من عند الله ـ يقولون لعبدة الأوثان المشركين بالله: هؤلاء أهدى سبيلاً وأقوم مسلكاً، من المؤمنين الصادقين، أتباع محمد عليه الصلاة والسلام، المصدقين برسالته.

وقد حملت إلينا المصادر روايات في سبب النزول ـ أتينا على ذكر بعضها ونحن نحاول تقديم الوقائع ـ وهي روايات تكشف عما دار من الحوار بين عدد من زعماء يهود ـ أو كعب بن الأشرف بخاصة ـ وبين مشركي مكة حول المقارنة بين المؤمنين المصدقين برسالة محمد ﷺ، وبين الكافرين بها عبدةِ الأصنام المتخذين أنداداً من دون الله، وكيف أن كعب بن الأشرف ـ أو هو ومن كان معه من زعماء المغضوب عليهم ـ قال لكفار قريش: أنتم خير وأهدى سبيلاً من محمد عليه الصلاة والسلام، فنزلت الآيات في ذلك.

والقراءة المتبصرة لما ورد من الروايات في ذلك: تهدي إلى أن الجاهلية

العـمـيـاء، قـد حـالت دون المشـركين في مكة، ودون الوعي الصـحـيح لما يَدْعوهم إليه رسول من أنفسهم من رسالة الإسلام؛ إنهم يتساءلون!! كيف يكون محمد ـ وهو الذي لا عقب له ـ خيراً منهم ـ وهم أهل الحجيج وأهل السِّدانة وأهل السِّقاية وقرى الضَّيف ـ. . . إن ذلك لا يمكن أن يكون. .

ولئن كـان مـوقف هؤلاء الجـاهلين، يحـمل من العـدوان على الحق والمعرفة ما يحمل؛ لأنك لا ترى فيه ـ وهم مصرون على شركهم ـ أثارة من دليل يشـهـد لخـيريتـهم التي زعـمـوها على مـحـمـد عليـه الصـلاة والسـلام. . . إن مـوقف اليـهـود كـان أشـد شناعـةً وأعظم جـرماً ـ لما أنهم يقفون هذا الموقف المنكر، مع أنهم قد أوتوا حظاً من الكتاب، وعرفوا من التـوراة حـقـيـقـة محـمـد بن عـبـد الله صلوات الله وسـلامـه عليـه، وكـانوا يستفتحون به على الذين كفروا؛ فهو رسول الله وخاتم النبيين. واليهودُ ـ كـغـيـرهـم ـ مأمورون باتـبـاعـه والتـصـديق بـمـا جاء به من عـند الله. ولا يُعْوِزك أن ترى تفسيراً لموقفهم الذي يظاهرون فيه الضلال وأهله؛ فهم مـعـادون لمحـمـد عليـه الصـلاة والسـلام، حـاسـدون له ولمن بعث فـيـهـم، حـاقدون على أهل الإيمان، لما أن الله تفضل عليهم فابتعثه فيهم، ولم يبتعث الرسول من يهود. مستاؤون من تحويلهم عن سلطانهم الاقتصادي الربوي فكان أن تفاقم الأمر، وخانوا العهود والمواثيق، ومكروا برسول الله عليه الصلاة والسلام، حتى اشتعلت نار الحرب بينهم وبين المسلمين. . هذا مع وجـود الوثيـقـة التي نظّمت العـلاقـات بينهم وبين المسلمين وغيرهم، وحفظت لهم حقوقهم كاملة غير منقوصة، حتى أشركتهم في الدفاع عن المدينة لو وقع عليها عدوان من الخارج؛ وهذا غاية في التكريم،

ولكن اليهودي هو اليهودي؛ ويأبى الله إلا أن تكشف الوقائع عن مخبوء ما تنطوي عليه النفوس!!

وفي حقبة من هذه الحقب المثقلة بالحوادث، ذهب كعب بن الأشرف وحده، أو هو ونفر من سدنة الضلال معه إلى مكة، ليستنفروا قريشاً وليحزبوا الأحزاب ضد رسول الله ﷺ والمسلمين، وكان أن حصل الحوار الذي أومأنا إليه، وأصدر الفكر اليهودي الحاقد حكمه القائم على الزور والبهتان وتجاوز كل ما هو حجة وسلطان.. فقال أولئك الضّلال للمشركين: ﴿**هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً**﴾ بل سجد الحبر اليهودي لصنمين عند قريش وآمن بهما.

روى الإمام الطبري بسنده عن عكرمة: أن كعب بن الأشرف انطلق إلى المشركين من كفار قريش، فاستجاشهم على النبي ﷺ، وأمرهم أن يغزوه، وقال: إنا معكم نقاتله، فقالوا: إنكم أهل كتاب، وهو صاحب كتاب، ولا نأمن أن يكون هذا مكراً منكم!! فإن أردت أن نخرج معك: فاسجد لهذين الصنمين وآمن بهما. ففعل. ثم قالوا: نحن أهدى أم محمد؟ فنحن ننحر الكوماء، ونسقي اللبن على الماء، ونصل الرحم، ونقري الضيف، ونطوف بهذا البيت، ومحمد قطع رحمه، وخرج من بلده!! قال: بل أنتم خير وأهدى! فنزلت فيه ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً**﴾.

فاستجاشهم على النبي ﷺ: أي طلب منهم أن يُجَيِّشوا جيشاً لمحاربته.

وقولهم: فنحن ننحر الكَوْماء: الكوماء هي الناقة الضخمة السَّنام عاليته وهذه خير النوق وأسمنها وأعزها عليهم. وجمع كوماء: كُوم.

هكذا كشفت هذه الرواية عن أن الدين عند هذا الزعيم والحبر اليهودي: لعقة على اللسان يبتغي من ورائها التعالي وحيازة الدنيا، فعندما طلب إليه المشركون أن يسجد للصنمين: سجد أوأعلن إيمانه بهما، وصدق فيه قول الله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ وكان ذلك سبيله إلى القولة الآثمة التي سَداها ولُحمتها مظاهرةُ الباطل والعدوان على الحق الصُّراح. والغاية من وراء ذلك، تأليبُ من يستطيع من الكفار على محمد عليه الصلاة والسلام، واستثارةُ كفار قريش استثارةً تحملهم على أن يجيشوا جيشاً تقف معه الأحزاب الأخرى في مواجهة دعوة الحق...

وكان ذلك بعد غزوة بني النضير التي انتهت بأن أجلاهم الرسول ﷺ من المدينة إلى خيبر، وكانوا هم البادئين بالأذى والنكث بالعهد، حيث أشعلوا نار الفتنة والاعتداء وحصل ما حصل ـ كما سيأتي تفصيل ذلك ـ إن شاء الله ـ ولله الحمد والمنة.

وبعد: أفلا يرىٰ أهل البصيرة ـ معنا ـ أن ما يفعله اليهود اليوم من سلوك السبل الضالة كلها ـ ومنها التزوير الفكري والافتراء على الحقائق ـ ذو نسب أصيل إلى ما كان أجدادهم يفعلون بالأمس ولكن: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤]... والحمد لله رب العالمين.

مكر يهود.. وتعدد ميادين الصراع

لا يرتاب منصف في أن من الضرورة بمكان: أن تقرأ الأمة بعامة ـ والواعون من أبنائها ـ بخاصة ـ وقائعنا مع يهود، بكثير من العناية وحسن الاستقراء للثوابت، وربط الجزئيات بالكليات والنتائج بالمقدمات. والعهد قريب بمجموعة من الروايات التي تكشف عن حكمهم على المسلك العقدي للجاهليين المشركين، والمؤمنين المصدقين برسالة محمد عليه الصلاة والسلام حيث قالوا للمشركين: ﴿ **هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً** ﴾ وسجد حبرهم للصنمين. ويتضح من خلال هذا: مناقضة ما هو موجود في كتابهم، وموافقة صنيع آبائهم الذين كفروا ﴿ **فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ** ﴿٨٩﴾ ﴾ [البقرة: ٨٩].

وهكذا تفيد واقعة الشهادة للمشركين بالهدى، وللمؤمنين بالضلال، أن حكم اليهود بأن عبدة الأوثان من مشركي قريش خير من الذين آمنوا بالله وصدّقوا رسوله ﷺ، إنما كان سيراً مع الهوىٰ، ورغبة في حشد الحشود الظالمة الآثمة لحرب محمد عليه الصلاة والسلام. وقد تجاوزوا من أجل ذلك كل ما يمُتُّ إلى الإيمان وإلى الحق والصدق بصلة؛ فكعب بن الأشرف ـ وهو من هو بمعرفته بالتوراة ويقينه بما نصّت عليه من نبوة محمد عليه الصلاة والسلام وأوصافه المميِّزة، غلبه الحقد الدفين، فلم يُبال بأن يجعل عَبدة الأصنام المصدقين بِمَخْرَقات الكهنة وما يقذفونه في وجوه الناس من خرافات. . . لم يبال في أن يجعل هولاء خيراً من الذين

شرح الله صدورهم للإيمان، وصدقوا في العبودية لربهم، فخلعوا الأنداد والأمثال، واتبعوا مخلصين رسوله عليه الصلاة والسلام.

وقبل هذا: رضي الطاغوت كعب لنفسه ـ وهو ينتسب إلى دين سماوي ـ أن يسجد لصنمين ويعلن إيمانه بهما، كيما يبرهن لكفار قريش أنه عدو لمحمد ﷺ على الحقيقة، وأنه لا يمكر بهم، بل هو قريب منهم قُرْبَ اشتراكه معهم في السجود إلى ذينك الصنمين، وإيمانه بهما والعياذ بالله. وهذا ما أفصح عنه عكرمة رحمه الله ـ كما ذكرت آنفاً ـ فيما روى الطبري عنه أن كعب بن الأشرف انطلق إلى المشركين من كفار قريش، فاستجاشهم على النبي ﷺ، وأمرهم أن يغزوه، وقال: إنا معكم نقاتله، فقالوا: إنكم أهل كتاب، وهو صاحب كتاب، ولا نأمن أن يكون هذا مكراً منكم، فإن أردت أن نخرج معك فاسجد لهذين الصنمين وآمن بهما، ففعل.

وأنت ترى في هذه الواقعة، أن كفار قريش كانوا في الأصل ـ ينظرون نظرة امتهان إلى اليهود، ولكنهم في الوقت نفسه يقعون فريسة غطرسة اليهود عليهم بكونهم ـ من ناحية الفكر والثقافة لما أنهم أهل كتاب ـ أكثر دراية منهم وأعلمَ. وبعد أن سجد كعب للصنمين وآمن بهما، طلبوا منه إعطاء حكمه فيهم وفي المسلمين؛ أي الفريقين أقوم مسلكاً وأهدىٰ سبيلاً. جاء في الرواية المشار إليها: ثم قالوا: نحن أهدى أم محمد؟ فنحن ننحر الكوماء، ونسقي اللبن على الماء، ونصل الرحم، ونقري الضيف، ونطوف بهذا البيت، ومحمد قطع رحمه وخرج من

بلده.. فما كان من كعب، وهو يعلم أن قريشاً هي التي أخرجت النبي ﷺ من مكة مهاجراً إلى المدينة.. فهو لم يقطع رحمه ولا جفا السلوك المستقيم، ولكن الآخرين هم الذين دأبوا على إيذائه ومحاولة فتن من يؤمن به عن دينه.. أجل ما كان من كعب ـ وهو يعلم ذلك كله وأكثر منه ـ إلا أن قال: بل أنتم خير وأهدى فنزلت فيه ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً** ﴾.

وروى ابن أبي حاتم عن عكرمة أيضاً أنه قال: جاء حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف إلى أهل مكة، فقالا لهم: أنتم أهل الكتاب وأهل العلم، فأخبرونا عنا وعن محمد، فقالوا: ما أنتم وما محمد؟ فقالوا: نحن نصل الأرحام وننحر الكوماء، ونسقي الماء على اللبن، ونفك العاني، ونسقي الحجيج، ومحمد صُنبورٌ قطع أرحامنا، واتبعه سُرَّاق الحجيج من غفار، فنحن خير أم هو؟ فقالوا: أنتم خير وأهدىٰ سبيلاً فأنزل الله ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا** ﴾ الآية. وقد روي هذا من غير وجه عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وجماعة من السلف.. قال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ : حدثنا محمد بن أبي عدي عن داود عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال: لما قدم كعب بن الأشرف مكة قالت له قريش: ألا ترىٰ هذا الصنبور المنبتر من قومه يزعم أنه خير منا ونحن أهل الحجيج وأهل السِّدانة، وأهل السِّقاية، قال: أنتم خير قال: فنزلت فيهم: ﴿ **إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ** ﴾ ونزل ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ**

لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً ﴿٥١﴾ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾ .

ومن الخير أن نشير إلى أن اليهود ـ كما يبدو ـ كانوا يتصرفون على أنهم في معركة متعددة الميادين، وكانوا يحاولون أن يديروا المعركة تلك، بكل ما أوتوا من خبث، ومكر، وبهتان، واستهتار بالقيم ـ مهما كان شأنها وصلتها بدينهم وكتابهم قبل التحريف ـ. فتراهم في سبيل تحزيب الأحزاب، لم يكتفوا ـ كما دلت بعض الروايات التي رأينا ـ بإغراء المشركين وإيهامهم أنهم خير من محمد عليه الصلاة والسلام، بل هنالك ما يدل على أنهم نسبوا الضلال إليه ـ أخزاهم الله ـ صراحة من ناحية الاعتقاد، وهوّنوا من شأنه ـ في لون من المعالجة النفسية للمشركين ـ كيما يقدموا على الحرب وهم واثقون.

قال ابن جريج: قدم كعب بن الأشرف فجاءته قريش فسألته عن محمد، فصغَّر أمره، ويسَّره وأخبرهم أنه ضال. قال: ثم قالوا له ننشدك الله، نحن أهدى أم هو؟ فإنك قد علمت أنا ننحر الكوم، ونسقي الحجيج، ونعمر البيت، ونطعم ما هبّت الريح قال: أنتم أهدىٰ.

وبعد: فليس عبثاً ـ بل خيراً على خير ـ: أن يقدم القرآن للأمة ـ بل للإنسانية كلها ـ تلك الحقائق بشأن يهود، وأن يستودع الثقات تلكم الروايات ـ المفصّلة لإجمال القرآن، والمبينة لأسباب النزول ـ بطون الكتب من مصادر التفسير والسنة والسيرة والتاريخ... وإذا كان الأمر كذلك: فمن الواجب الحتم أداءُ الأمانة في تجديد قراءة ذلك كله قراءة متدبرة

واعية بعقول مستبصرة وقلوب سليمة، كيما ينعكس ذلك تصرفاً مخلصاً واعياً، لا يعوزه العلم والبذل في مواجهة الواقع ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج: ٤٠].

بنو النضير.. وتنوع الإجرام اليهودي

الحقيقة التي كشف عنها القرآن بشأن اليهود، كما رأينا ذلك في آيات كريمات تبدأ بقوله تعالى في سورة النساء: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾.. الآية، وهي أنهم يؤمنون بالجبت والطاغوت، ويشهدون الزور في حكمهم على عبدة الأوثان والمؤمنين، حيث قالوا على لسان زعمائهم وأهل الوجاهة الدينية فيهم لمشركي قريش: ﴿هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾.

هذه الحقيقة، ما أحسبه مكروراً من القول: أن نعاود القول بضرورة المزيد من تبيُّن أبعادها، خصوصاً وأنها تبرز في معرض استخذاء اليهود أمام الباطل وممالأتهم الكفر وأهله على حساب الإيمان وأهله. وغير خاف أن علاقتهم بأمتنا اليوم ـ وقد تفنّنوا في تنويع الأذى ـ تأخذ مجالاً رحباً على ساحة الفكر عند كثير من أوليائهم، أو من يجهلون حقيقة أمرهم، بل عندالذين يتجاهلون الغصب والاعتداء الدائم، والاحتلال، ويسمون الأشياء بغير أسمائها.

وعلى هذا، فتبيُّن تلك الأبعاد: مظهر انتفاع بمسلّمات قد كشف عنها القرآن وأكدتها روايات الوقائع وأسباب النزول؛ وهي تدل ـ كما سبق ذكره ـ على أن اليهود كانوا يرون أنهم ـ وهم يواجهون رسول الله والمسلمين ـ يخوضون معركة متعددة الميادين، ومن ذلك ميدان الثقافة والفكر، ومن أجل ذلك أجاب كعب بن الأشرف، أو هو ومن كان معه ـ

كما في بعض الروايات ـ أجاب المشركين عندما سألوه نحن خير أم محمد؟ بقوله: أنتم خير وأهدى. ودلَّ ما روى الإمام الطبري عن ابن جريج أن كعباً ـ عليه وعلى أمثاله لعائن الله ـ قد صغَّر أمر النبي ﷺ ويسَّره وأخبر قريشاً أنه ـ عليه أفضل الصلوات وأزكى التسليمات ـ ضالّ.

وتكاد تجمع روايات سبب النزول للآيات التي رأينا من قبل، أن مادار من الحوار بين اليهود وبين المشركين في مكة، كان بعد أن حصل ما حصل من بني النضير، وهرب كعب بن الأشرف إلى مكة، ليستنصر بأهل الشرك على محمد عليه الصلاة والسلام. ولقد كان من حديث هذا الذي حصل ـ كما ذكر أبو بكر محمد بن إسحاق المطلبي وغيره ـ أن رسول الله ﷺ خرج إلى بني النضير يستعينهم في دية ذينك القتيلين من بني عامر اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضَّمْري؛ للجوار الذي كان رسول الله ﷺ أعطاهما؛ وكان بين بني النضير وبين بني عامر حِلْف، فلما أتاهم رسول الله ﷺ ـ حسبما نصت الوثيقة بينه وبينهم ـ يستعينهم في ديتهما، قالوا: نعم يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه. ثم أجمعوا أمرهم على أن يغدروا برسول الله ﷺ حيث خلا بعضهم ببعض ـ ولم يكن فيهم رجل رشيد ـ فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه ـ ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد ـ وتمالؤوا على أن يلقوا عليه حجراً من فوق جدار البيت الذي كان عليه الصلاة والسلام جالساً بجانبه، إذ قالوا: فمن رجل يعلوا

على هذا البيت فيلقي عليه صخرة فيريحنا منه؟ فانتدب لذلك عمرو بن جِحاش بن كعب أحدُهم، فقال: أنا لذلك، فصعد ليلقي عليه صخرة ـ ورسول الله ﷺ في نفر من أصحابه، فيهم أبو بكر وعمر وعلي رضوان الله عليهم ـ فأتى رسول الله ﷺ الخبرُ من السماء بما أراد القوم؛ إذ أطلعه الله على ما همُّوا به من ذلك، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة.

فلما استلبثَ النبي ﷺ أصحابُه قاموا في طلبه، فلَقوا رجلاً مقبلاً من المدينة، فسألوه عنه، فقال: رأيته داخلاً المدينة، فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ، حتى انتهوا إليه عليه الصلاة والسلام، فأخبرهم الخبر بما كانت اليهود أرادت من الغدر به، وأمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لحرب بني النضير، والسير إليهم، فحاصرهم وأجلاهم وفيهم ـ كما يقول العلماء ـ نزلت سورة الحشر بأسرها، يُذكر فيها ما أصابهم الله به من نقمته وما سلّط عليهم به رسولَه ﷺ، وما عمل فيهم جزاءَ غدرهم ومكرهم، وما اجترحوا من المآثم، والبدء بالعدوان فقال تعالى: ﴿ **سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُوْلِي الأَبْصَارِ (٢) وَلَوْلا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (٣)** ﴾ [الحشر: ١ ـ ٣] ثم جاء تعليل ذلك كله بقول الله تبارك وتعالى ـ وهو المنزه عن الظلم سبحانه ـ: ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤)** ﴾ [الحشر: ٤]. إلى آخر السورة.

وفي حديث موصول بما نحن فيه من أمر الحقيقة التي كشف عنها الحوار بين كعب بن الأشرف، أو كعب وآخرين وبين كفار قريش، تجدر الإشارة إلى أنه عندما افتضح أمر ما بيَّت بنو النضير من الغدر بالنبي ﷺ ـ وهو عندهم حيث أطلعه الله على ذلك ـ هرب كعب بن الأشرف إلى مكة، وكان بينه وبين سدنة الشرك يومذاك ما كان. أخرج الطبري بسنده عن السدي أنه قال: لما كان من أمر رسول الله ﷺ واليهود من النضير ما كان، حين أتاهم يستعينهم في دية العامريين، فهمُّوا به وبأصحابه، فأطلع الله رسوله على ما همُّوا من ذلك، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة، فهرب كعب بن الأشرف حتى أتى مكة، فعاهدهم على محمد، فقال له أبو سفيان: يا أبا سعد إنكم قوم تقرؤون الكتاب وتعلمون، ونحن قوم لا نعلم! فأخبِرْنا: دينُنا خير أم دين محمد؟ قال كعب: اعرضوا علي دينكم، فقال أبو سفيان: نحن قوم ننحر الكوماء، ونسقي الحجيج الماء، ونقري الضيف، ونعمُر بيت ربنا، ونعبد آلهتنا التي كان يعبد آباؤنا؛ ومحمد يأمر أن نترك هذا ونتبعَه! قال: دينكم خير من دين محمد، فاثبتوا عليه، ألا ترون أن محمداً يزعم أنه بعث بالتواضع، وهو ينكح من النساء ما شاء! وما نعلم مُلكاً أعظم من ملك النساء، فذلك حين يقول: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً** ﴿٥١﴾ ﴾ [النساء: ٥١].

وما أُلقي على لسان هذا اليهودي الحاقد المزوِّر للحقيقة ـ في طعنه على محمد عليه الصلاة والسلام ـ هو وكلٌّ ما يمت إليه بصلة: الغثاء الذي يلقى اليوم على لسان الطاعنين على رسول الله من قبل نفر من

المستشرقين والمستغربين ومن أتباعهم والموالين لفكرهم في كل أرض، والضلال ينتسب بعضه إلى بعض!!

ولقد أراد عدو الله ابن الأشرف، أن تكون مقالته في سيد العالمين، سهماً مسموماً يستعين به في إنجاز مهمته مع الكفار، لكن ـ مع الذي حصل من تحزيب الأحزاب وتعاون غطفان والأحابيش ومن تابعها مع قريش، حتى بلغ العدد قريباً من عشرة آلاف مقاتل. . .ـ خاب وخسر، وصدقَ الله وعدَه ونصر عبده، وأعزَّ جنده، وهزم الأحزاب وحده، إذ أرسل عليهم ريحاً، وجنوداً لم يرها المسلمون، وقتل هو بأيدي المؤمنين المجاهدين، وذهب بأثقال كفره وضلاله ومكره إلى الجحيم وبئس المهاد: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ ﴾ .

قالة السوء.. وجحيم اللعنة

مُظاهرة الكفر على الإيمان ـ فيما رأينا من صنيع يهود في صفحات قريبات ـ هل هو تصرف فرد مرموق وكفى! أم أنه سمة من سماتهم يستخدم عند الحاجة، دون قيد من خلق أو دين؟!! هذه نقطة توجب مراعاةُ الإنصاف العلمي تحريرها قدر المستطاع، من خلال النصوص والوقائع.

فالآية الحادية والخمسون من سورة النساء يدل ظاهرها بوضوح على أن كلمات: ﴿هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾ كان قائلوها جماعة من الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ـ وهم اليهود هنا ـ كما توحي الروايات، وإن كانت بعض تلك الروايات لم تذكر بالاسم حييَ ابن أخطب أو كعب بن الأشرف عليهما وعلى أشياعهما لعائن الله. ولعل المقصود: أن من ذُكِر كان المقدَّمَ في تلك القالة الظالمة التي تحمل ما تحمل من العدوان على الحق، والبهتانِ العظيم في المفاضلة بين أهل الكفر الجاحدين المعاندين، وبين أهل الإيمان الصادقين المنيبين ـ الذين لا تعوزهم الحجة الدامغة لما يقولون ـ وتقريرِ أن أهل الشرك والضلالة أهدىٰ سبيلاً، من أهل الإيمان والتصديق.

وعلى أية حال: قد يكون البعض قالها بمناسبةٍ ما، والبعض الآخر قالها بمناسبة أخرى. والمهم في الموضوع: أنها حقيقة كشف عنها القرآن الكريم بعبارة النص التي لا تقبل شيئاً من الاحتمال. على أن هنالك عدداً من الروايات التي صرحت ـ كما سبق ـ بأن القائلين كانوا جماعة من اليهود،

وأن الأمر لم يقتصر على واحد من زعمائهم وهو حُيي بن أخطب، أو كعب بن الأشرف؛ وذلك ما يتسق مع النص القرآني دون تأويل، وهو ما سبقت الإشارة إليه من قبل. وروى الطبري بسنده عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال: «كان الذين حزّبوا الأحزاب من قريش وغطفان وبني قريظة: حُييّ بن أخطب وسلاّم ابن أبي الحقيق أبا رافع، والربيع بن الربيع ابن أبي الحقيق، وأبا عمار، ووحوح بن عامر، وهوذة بن قيس. فأما وحوح وأبو عمار وهوذة: فمن بني وائل، وكان سائرهم من بني النضير، فلما قدموا على قريش قالوا: هواء أحبار يهود وأهل العلم بالكتاب الأول، فاسألوهم أدينكم خير أم دين محمد؟ فسألوهم؛ فقالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أهدى منهم وممن اتبعه! فأنزل الله فيهم: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ**﴾ [النساء: ٥١] إلى قوله: ﴿**وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا** ﴿٥٤﴾﴾ [النساء: ٥٤] وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ**﴾ ـ الآية: «ذكر لنا أن هذه الآية أنزلت في كعب بن الأشرف، وحييّ بن أخطب ورجلين من اليهود من بني النضير، لقيا قريشاً بموسم، فقال لهم المشركون: أنحن أهدى أم محمد وأصحابه؟ فإنا أهل السِّدانة والسقاية، وأهل الحرم؟ فقالا: لا، بل أنتم أهدىٰ من محمد وأصحابه، وهما يعلمان أنهما كاذبان إنما حملهما على ذلك حسد محمد وأصحابه».

ذلكم هو البهتان العظيم؛ قالا ما قالا: وهما يعلمان أنهما كاذبان، وكان الحسد لمحمد ﷺ ولأصحابه، وراء هذا الانحراف الخطير، وكم لذلك من نظائر في تاريخ يهود... فالأغراض الهابطة والحسد الدفين

الشديد العاتي، مع ما يصحب ذلك من البغي والحقد الأسود، كل أولئك يجعلهم يتجاوزون قيم الدين والأخلاق، ولا يبالون بانتهاك الحرمات، وقلب الحقائق دون مبالاة.

والواقع أن ما يعرف من خلائقهم على ساحة التعامل مع المسلمين يؤكد ـ كما دلت الروايتان عن ابن عباس وقتادة ـ أن عتوَّهم في الحكم المتحدَّث عنه بالحكم بأن سبيل المشركين سبيل الهدى، لم يقتصر على كعب بن الأشرف أو حيي بن أخطب، ولكنه صدر عن جماعة لكل واحد منهم ما له من الزعامة في قومه والمكانة الدينية عند يهود. وقد أشرنا من قبل إلى أن ذلك مما يتسق مع النص القرآني دونما حاجة إلى التأويل.. وكون القائلين تلك القالة الظالمة جماعةً لا فرداً واحداً: هو ما رجحه شيخ المفسرين بعد النظر المتبصِّر في الآية الكريمة والروايات المتعلقة بسبب النزول، متأولاً ما جاء بشأن كعب أو حيي أخزاهما الله وجعل النار مثواهما. جاء في «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» قوله ـ رحمه الله ـ : «وأولى الأقوال بالصحة في ذلك قول من قال: بأن ذلك خبر من الله جل ثناؤه عن جماعة من أهل الكتاب من اليهود. وجائز أن كانت تلك الجماعةَ الذين سماهم ابن عباس في الخبر الذي رواه محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد، أو يكون حيياً وآخر معه إما كعباً أو غيره».

هذا: ولئن تعددت أسباب لعن اليهود وإبعادهم من رحمة الله تعالى: إن هذا البهتان في الشهادة للباطل وأهله، على الحق وأهله، كان واحداً من تلك الأسباب. فبعد قول الله جل شأنه: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ**

الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً ﴿٥١﴾﴾ [النساء: ٥١] نقرأ قوله سبحانه: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [النساء: ٥٢] وأنت ترى أن الله سبحانه يعني بقوله: ﴿أُوْلَئِكَ﴾ هؤلاء الذين وصف صفتهم أنهم أوتوا نصيباً من الكتاب وهم يؤمنون بالجبت والطاغوت ويشهدون تلك الشهادة التي كلها زور وبهتان.

فهؤلاء اليهود، هم الذين لعنهم الله وأخزاهم فأبعدهم من رحمته.. ومن يلعن الله، أي ومن يخزه الله فيبعده من رحمته، فلن تجد له ـ والخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام ـ ناصراً ينصره من عقوبة الله التي تَحُل به فيدفع ذلك عنه.. وإذن فهم متقلبون في جحيم اللعنة وليس لهم نصير يخرجهم منها.. وهم الذين تسبّبوا لأنفسهم في ذلك، فالله لم يظلمهم بهذا الحكم ـ على المدىٰ ـ ولكن أنفسهم يظلمون.

أولا يكفي ذلك ـ ومثله كثير ـ درساً ـ ما أبلغه من دروس ـ يحمل المسلمين على أن يحددوا موقفهم من أولئك المبعدين من رحمة الله ـ بما كسبت أيديهم ـ في ضوء ما جاء في الكتاب والسنة، وزخرت به السيرة المطهرة وأيدته الوقائع؟

ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشداً واجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه. وخذ بأيدينا إلى حيث تتبع هذه الأمة المحمدية القول بالعمل، ولا تبخَل بالعطاء في مواجهة أعداء الله، كائنين من كانوا، يهوداً أو غير يهود، ظاهرين أو مقنَّعين، والجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة وأنت وحدك يا ربنا ولي الصابرين.

من بواعث الانحراف الفكري عندهم

كان من لطف الله بأمتنا: ما وقع فيه اليهود ـ في عصر النبوة ـ من تصرفات كشفت عن دخائل النفوس، وما تنطوي عليه الصدور؛ وكان العدوان على الحق بالشهادة لأهل الشرك بأنهم أهدى من الذين آمنوا سبيلاً: واحدة من تلك المؤشرات التي تبدَّت عنوان حسد وضغْنٍ بالغين، مضافاً إلى ذلك أن الغاية تسوِّغ الوسيلة عندهم؛ لأنهم في معرض تحزيب الأحزاب من أهل الشرك للعدوان على المدينة وحرب رسول الله ﷺ والمسلمين.

لذا كان من عدل الله تبارك وتعالى ـ ولا يظلم ربك أحدا ـ أن أخزاهم وأنزل عليهم لعناته وطردهم من رحمته؛ فقال تعالى في أعقاب الكلام على تلك الطامة التي وقعوا فيها ـ والتي لا تلتقي مع دعاواهم العريضة على ساحة الدين في قليل ولا كثير ـ قال جل شأنه: في الآية الثانية والخمسين من سورة النساء: ﴿ **أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا** ﴿٥٢﴾ ﴾ [النساء: ٥٢] فإذا كانوا قد استسهلوا قلب الحقيقة على هذا الشكل؛ فزعموا أن باطل أهل الشرك حقٌّ، طلباً لنصرة المشركين في مواجهة محمد صلوات الله وسلامه عليه.. فقد كان ذلك سبيلهم إلى تلك العاقبة السيئة والمصير الذي لا يُغْبَطون عليه؛ إذ حلَّ بهم الخزي والبعد من رحمة الله. ومن يخزه الله فيبعده من رحمته، فلن تجد له يا محمد نصيراً، يحول دونه ودون العقوبة النازلة به من الله، واللعنة التي

تحل به فيدفع ذلك عنه. ومما ورد من الآثار في ذلك: قول قتادة: قال كعب بن الأشرف وحيي بن أخطب ما قالا ـ يعني من قولهما ﴿ **هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً** ﴾ فأنزل الله: ﴿ **أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا** ﴾.

وهكذا حملت الآية حكماً على اليهود يتلوه أهل الإيمان ويتدارسونه عبادةً، وعلماً إلى قيام الساعة. ومطلوبٌ منهم ـ واليهود لا يفتؤون يمكرون ويعتدون ويتربصون الدوائر بالمؤمنين ـ أن يتدبّروه حق التدبُّر ويفقهوا مراميَه وأبعاده في نجوة عن التأثر بحرب الشائعات والعبث الإعلامي.. ذلكم الحكم: هو اللعن لهم والإخبار بأنه لا ناصر لهم ينصرهم من دون الله؛ لأنهم إنما ذهبوا يستنصرون بالمشركين على رسول الله ﷺ وأصحابه، وقالوا لهم تلك القولة الآثمة التي لُعنوا بها ليستميلوهم إلى نصرتهم، وقد أجابوهم وجاؤوا معهم يوم الأحزاب حتى حفر النبي ﷺ وأصحابه الخندق حول المدينة.. وكانت مواقف الصدق والإيمان.. فكفى الله شرّهم وتنزّل على رسول الله فيما تنزّل قول الله تباركت أسماؤه في سورة الأحزاب: ﴿ **وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (٢٥)** ﴾ [الأحزاب: ٢٥].

وتنتقل بنا الآيات في سورة النساء، إلى الكشف عن بعض البواعث التي أعمت بصيرة اليهود، فاتخذوا ذلك الموقف المعادي، لكل ما هو إيمان وكل ما هو حق، فنقرأ قول الله تبارك وتعالى: ﴿ **أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا (٥٣)** ﴾ [النساء: ٥٣] فلو كان لهم نصيب وحظ

من الملك لم يكونوا إذًا يعطون الناس، ولا سيما محمداً ﷺ شيئاً، ولا ما يملأ النقير، وذلك من شدة بخلهم وشحهم والعياذ بالله.

والنقير ـ على ما ذهب إليه ابن عباس والأكثرون هو: النقطة التي في ظهر النواة.

هذا: من الناحية المادية.. بخلٌ وإمساك عن إفادة الخلق، حتى بالنواة بل بالنقطة التي في ظهرها، أو بما يملؤها... فما بالك إذا تعلق الأمر بناحية معنوية يمكن أن ترفع من قدر الآخرين، وتجلبَ لهم النصرة في الدنيا والآخرة.

وهكذا فليس من المستهجن أو المستغرب، أن يقف اليهود ذلك الموقف المظاهر لأهل الكفر على أهل الإيمان ويقروا ـ على صعيد الفكر والاعتقاد ـ أن عابد الوثن هو السالك طريق الهداية القويم.. وأن صادق الإيمان بالله وكتبه ورسله، هو المنحرف عن الصراط المستقيم، ما دام في ذلك إضعاف لأعدائهم على ما يتوهمون.

وفي خطوة أخرى، تعمق الدلالة على مواطن الداءومكامن الخطر في القوم، وتُحَمِّل المسلمين أمانة الوعي والتبصّر، كيما يكونوا قادرين على تبين العلاقة بين النتائج والمقدمات.. أجل في خطوة أخرى تزيد المؤمن يقيناً بسلامة المنهج القرآني، في عرض ما يعرض من الحقائق، وهو يتحدث عن اليهود وينبه المسلمين على أخذ الحذر وعدم الغفلة: تطالعنا الآيتان الرابعة والخمسون والخامسة والخمسون من السورة نفسها سورة النساء: بقول الله جل شأنه: ﴿ **أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ**

فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ ﴾ [النساء: ٥٤، ٥٥].

أرأيت إلى هذه النقلة من الكلام على التناهي في البخل والشح عند اليهود، إلى الكلام على الحسد الذي تغلي به صدورهم، فيعمون عن الحق ويتيهون في مستنقعات الضلال. إن الآية الكريمة تحمل شديد العتب والتوبيخ لأولئك اليهود، الذين كان من صفتهم في آية مضت؛ قيلُهم للمشركين: ﴿ **هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً** ﴾ وهم يعلمون أنهم كاذبون فيما يقولون.. إنها تقول لهم: أتحسدون محمداً ﷺ وأصحابه على ما آتاهم الله من فضله؟ لقد حسدوا النبي ﷺ على ما رزقه الله من النبوة العظيمة وحسدوا أصحابه ـ لكونه منهم وليس من بني إسرائيل ـ وعملت هذه الخلّة القبيحة عملها، فأوردتهم مورد الهلكة، وألبسوا الباطل ثوب الحق وهم يعلمون حق العلم أنهم كاذبون.

روى الإمام الطبري عن قتادة أنه قال في قوله تعالى: ﴿ **أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ** ﴾ حسدوا هذا الحيَّ من العرب على ما آتاهم الله من فضله، بعث الله منهم نبياً فحسدوهم على ذلك. وروي مثل ذلك عن ابن جريج.

وهكذا حسدوا رسول الله وأصحابه على النبوة التي فضل الله بها محمداً عليه الصلاة والسلام، وشرّف بها العرب، فمنعهم ذلك من الإيمان واتباع الحق، وجعلهم يقيسون الهداية والضلالة، بمقياس جاهلي ممعن في الضلال.

هذا: والحديث عن إيتاء الفضل ـ وهو النبوة ـ يحمل فيما يحمل تقريظ النبي ﷺ وأصحابه عليهم الرحمة والرضوان.

هذا: ولما كان المسلمون يعيشون في ظلال هذا الخير الذي كانوا به خير أمة أخرجت للناس، فما عليهم إلا أن يؤوبوا إلى العمل به، وصياغة حياتهم على هديه جادِّين صادقين.. وأن يكونوا علي اليقين الذي لا يتزحزح، من أنه لا يحسم الموقف مع اليهود ـ بخاصة ـ وأعداء الله بعامة: إلا العمل وفق المنهج الذي رسمه القرآن وبينته السنة ووقائع سيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام وهذا لا يعني إغماض العين عن الواقع بما له وبما عليه؛ محلياً كان أو عالمياً؛ فالتعامل مع هذا الواقع ببصيرة ووعي، أمر بالغ الأهمية، دلَّت عليه نصوص الهدى في الكتاب العزيز والسنة المطهرة وسيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام؛ تقعيداً للقواعد، وتطبيقاً عمليا لهذه القواعد، ومن الوهم الباطل ـ أو الدخَل الفكري أحياناً ـ دعوى أن الاحتكام إلى المنهج الرباني يعني عدم التبصُّر بالواقع، وتنهيج التعامل معه، ذلك؛ وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كما لعنَّا أصحاب السَّبت!

من خلائق اليهود: ما يمكن أن تَدْعَوَه استنكاراً لفعل الله عز وجل، عندما يكون هذا الفعل على غير هواهم وما له يعملون؛ من ذلك أنهم يضيقون بفضل الله وإنعامه على الآخرين، فهم أبناء الله وأحباؤه ـ على ما يزعمون ـ والعطاء لا يتسع لغيرهم؛ من ذلك ما أخبر القرآن عن حسدهم محمداً ﷺ على أن آتاه الله النبوة، وحسدهم أصحابه على أن كانت النبوة فيهم وآمنوا به عليه الصلاة والسلام ولم تكن في بني إسرائيل، وذلكم ما سعدنا به في صفحات قريبات، من خلال الآية الرابعة والخمسين من سورة النساء وهي قوله تعالى: ﴿ **أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا** ﴿٥٤﴾ ﴾ [النساء: ٥٤]. وقد عملت هذه الخلّة ـ خلّة الحسد ـ عملها فهيمنت على العقول والقلوب، حتى ولّى القوم وجوههم شطر الضلال الذي يعلمون أنه ضلال، وتولّوا عما يعلمون ـ على وجه اليقين ـ أنه الحق معرضين مدبرين. ونسير مع الآية الكريمة لنقرأ قول الله تبارك وتعالى ﴿ ... **فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا** ﴾.

هكذا يقيم ربنا الحجة على هؤلاء المغضوب عليهم في صنيعهم هذا، فترى من منطوق الآية: أن الله جل ثناؤه يعني: أم يحسد هؤلاء اليهود ـ الذين ظهر ما ظهر من انحرافهم ـ الناس على ما آتاهم الله من فضله، من أجل أنهم ليسوا منهم! فكيف لا يحسدون آل إبراهيم، فقد جعلنا في

أسباط بني إسرائيل ـ الذين هم من ذرية إبراهيم ـ النبوة، وأنزلنا عليهم الكتاب، وحكموا فيهم بالسنن ـ وهي الحكمة ـ وجعلنا منهم الملوك..

ثم بيّن تعالى أن منهم من آمن به أي بهذا الإيتاء وهذا الإنعام الذي هو محض الفضل من الله عز وجل، ومنهم من صدّ عنه، أي كفر به وأعرض عنه، بل سعى في صدّ الناس عنه؛ ذلكم قوله الله تباركت أسماؤه في الآية التي تلي: ﴿ **فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا** (٥٥) ﴾ [النساء: ٥٥] لقد آمن البعض وصدّقوا وكفر البعض، وكان منهم الصدود في أنفسهم، والعمل على أن يتعدى ذلك إلى الآخرين وهم منهم ومن جنسهم ـ أي بني إسرائيل ـ فقد اختلفوا عليهم، فكيف بك يا محمد ولست من بني إسرائيل... ذلك ما يزيد الحسد ضراوة ونار الحقد تأججاً؛ فالكفرة منهم أشد تكذيباً لك، وأبعد عما جئتهم به من الهدى والحق المبين.

وقال مجاهد: فمنهم من آمن به أي بمحمد ﷺ من يهود، ومنهم من صدّ عنه. وهذا ما جنح إليه كثير من العلماء؛ إذ جعلوا الارتباط قائماً بين هذه الآية وبين قوله تعالى في الآية السابعة والأربعين من سورة النساء: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً** (٤٧) ﴾ [النساء: ٤٧] جاء في «جامع البيان» عند تأويل قول الله عز وجل: ﴿ **فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا** ﴾: (يعني بذلك جل ثناؤه: فمن الذين أوتوا الكتاب من يهود بني إسرائيل الذين قال لهم جل ثناؤه: آمنوا بما أنزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس

وجوهاً فنردَّها على أدبارها ﴿مَّنْ آمَنَ بِهِ﴾ يقول: من صدّق بما أنزلنا على محمد ﷺ مصدقاً لما معهم، ومنهم من صدّ عنه، ومنهم من أعرض عن التصديق به ويستشهد لذلك بكلام مجاهد وآخرين.

وفي سير مع الارتباط الذي رآه العلماء بين هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾ الآية اتجه شيخ المفسرين (إلى أن في الآية دلالةً على أن الذين صدّوا عما أنزل الله على محمد ﷺ من يهود بني إسرائيل الذين كانوا حوالي المدينة مهاجَرِ رسول الله ﷺ، إنما رُفع عنهم وعيدُ الله الذي توعدهم به في قوله: ﴿آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾ في الدنيا، وأُخرت عقوبتهم إلى يوم القيامة، لإيمان من آمن منهم، وأن الوعيد من الله بتعجيل العقوبة في الدنيا، إنما كان على مُقام جميعهم على الكفر بما أنزل على نبيه محمد ﷺ؛ فلما آمن بعضهم، خرجوا من الوعيد الذي توعدّه في عاجل الدنيا، وأخرت عقوبة المقيمين على التكذيب إلى الآخرة، فقال لهم: كفاكم بجهنم سعيراً).

والحق أن ما ختمت به الآية من قول الله جل شأنه: ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ يحمل الوعيد الشديد لليهود على ما اجترحوا من الضلال، والمعنى: حسبكم أيها المكذبون بما أنزلت على محمد نبيي ورسولي، المعاندون المخالفون لكتب الله ورسله.. حسبكم النار تسعَّر عليكم، عقوبة على ذلك الضلال المبين والصدّ عن سبيل الله.

ومن بلاغة القرآن التي هي نهاية النهاية: ما نجد في الآيتين اللتين

تلتا، حيث التقابل بين مصير المؤمنين ومصير الكافرين؛ تبياناً للعاقبة التي يؤول إليها أمر اليهود، ومن على شاكلتهم من أعداء الله ورسله، والعاقبة التي تنتظر المؤمنين المصدقين أحباء الله ورسله؛ فبعد الآية التي ختمت بتوعد اليهود بجهنم، نقرأ قول الله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا** ﴾ [النساء: ٥٦ – ٥٧].

إنها العظة البالغة التي تحمل أهل الإيمان إلى ساحة من الوضوح، يتبينون من خلالها تلك الحقائق عن ضلال اليهود، وما يرتد إليه كثير من تصرفاتهم؛ من الحسد الذي يأكل القلوب، والحقد الذي لا يكاد يدانيه حقد، إلا أن يكون صاحبه منهم، أو ممن هو على شاكلتهم في عدائه للإسلام والمسلمين.

والعاقل العاقل: من انتفع بالعظة وتجلية الحقيقة، واتخذ من ذلك قوة تدفع إلى الصدق في المواطن، ومواجهة اليهود والنصارىٰ ومن على شاكلتهم من نصارى الصهيونية وأعوانهم –؛ باللغة التي لا تُحَلُّ العقدة إلا بها، كما هو الشأن في هدي نبينا محمد عليه الصلاة والسلام ومَن أحسنوا التأسيَ به عبر التاريخ. والله ولي التوفيق.

احذروا.. يودُّون لو يردونكم كفاراً

الحسد يصحبه البغي.. تلك الخليقة الهابطة التي عملت ـ وتعمل ـ في عمى اليهود عن الحق واستبدالهم الذي هو أدنى بالذي هو خير.. وكان لذلك ما له من آثار على صعيد الفكر والعمل والسلوك.. جاء القرآن على الكشف عن أبعادها عند أولئك الأناسي غير مرة. وقد رأينا بعضاً من ذلك فيما دل عليه قوله تعالى في سورة النساء: ﴿ **أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا** ﴿٥٤﴾ **فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا** ﴾ [النساء: ٥٤ ـ ٥٥].

وتجليةُ هذه الحقيقة التي كانت من بواعث الكفر بما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام، والصدِّ عن السبيل التي دعاهم إليها.. تنقلنا إلى ما جاء في سورة البقرة من إعلام الله المؤمنين، أن كثيراً من أهل الكتاب، يجمعون إلى عدم الإيمان: أنهم يودُّون لو يردون المؤمنين بعد إيمانهم كفاراً. ذلكم قول الله تبارك وتعالى: ﴿ **وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴿١٠٩﴾ ﴾ [البقرة: ١٠٩].

هكذا جاءت الآية لتكشف بالصريح من القول، عن أن ودَّ هؤلاء اليهود من أهل الكتاب ـ أن يردوا الناس عن الإسلام: باعثُه الحسد من

عند أنفسهم.. والأسوأ من هذا: أن ذلك حصل منهم من بعد ما تبين لهم الحق ـ وهو صدق الرسول عليه الصلاة والسلام في دعوىٰ الرسالة وأن عليهم أن يؤمنوا بما جاء به لما أن كتابهم الذي يزعمون الإيمان به قد نصّ على ذلك ـ... ولكن الحسد الذي طغى على عقولهم وأكل قلوبهم، جنح بهم إلى طريق الكفر والمعاداة لرسول الله ولدعوته، وأصبحوا يعيشون في حالة نفسية مقيتة، لما تغلي به صدورهم من الرغبة الجامحة، في أن يرتد المسلمون عن الإسلام، ويصبحوا مع ذلك القطيع التائه من الكافرين. قال الإمام الطبري: حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة قال: حدثني ابن إسحاق وحدثنا أبو كريب قال: حدثنا ابن بكير قال: حدثني سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس قال: كان حيي بن أخطب وأبو ياس بن أخطب من أشد يهودَ للعرب حسداً، إذ خصهم الله برسوله ﷺ؛ كانا جاهدَين في رد الناس عن الإسلام بما استطاعا، فأنزل الله فيهما: ﴿ **وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم...** ﴾ الآية. وفي رواية عن الزهري وقتادة، أنه كعب بن الأشرف.

وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا أبو اليمان قال: أخبرنا شعيب عن الزهري قال: أخبرني عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه أن كعب بن الأشرف اليهودي، كان شاعراً، وكان يهجو النبي ﷺ وفيه أنزل الله ﴿ **وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم** ﴾ إلى قوله: ﴿ **فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا** ﴾.

وهذه الروايات التي تومئ إلىٰ واحد أو اثنين منهم، لا تنافي النص

على الكثير في الآية الكريمة . . إذ إن الروايات تحمل ما ظهر على السطح، من كون واحدٍ شاعراً، وكون واحد زعيماً مرموقاً في يهود . . وما من ريب في أن حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف، وأبا ياسر بن أخطب يمثّلون الظاهرة أوضح تمثيل، لأنهم من أهل الرأي وذوي الكلمة المسموعة عند اليهود . . .

وقد ردّ العلماء على من يتوهّم أن المقصود بقوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ كعب بن الأشرف وحدَه، بأن هذا القول ليس له معنىً مفهوم؛ لأن كعب بن الأشرف ـ كما يقول شيخ المفسرين ـ واحد، وقد أخبر الله جل ثناؤه أن كثيراً منهم يودون لو يردُّون المؤمنين كفاراً بعد إيمانهم، والواحد لا يقال له «كثير» بمعنى الكثرة في العدد، إلا أن يكون قائل ذلك أراد بوجه الكثرة التي وصف الله من وصفه بها في هذه الآية، الكثرة في العزّ ورفعة المنزلة في قومه وعشيرته، كما يقال: «فلان في الناس كثير» يراد به كثرة المنزلة والقدر. فإن كان أراد ذلك: فقد أخطأ؛ لأن الله جل ثناؤه قد وصفهم بصفة الجماعة فقال: ﴿لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا﴾ فذلك دليل على أنه عنى الكثرة في العدد. أو يكون ظن أنه من الكلام الذي يخرج مخرج الخبر عن الجماعة، والمقصود بالخبر عنه الواحد . . فيكون ذلك أيضاً خطأ.

وذلك أن الكلام إذا كان بذلك المعنى، فلا بد من دلالة فيه تدل على أن ذلك معناه، ولا دلالة تدل في قوله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ على واحد دون جماعة كثيرة، فيجوز صرف تأويل الآية إلى ذلك، وإحالة دليل ظاهره إلى غير الغالب في الاستعمال.

وإذن فكثرة من ودّوا ـ حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ـ أن يرتد المسلمون عن الإسلام، ويولوا ظهورهم لما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام.. هذه الكثرة قائمة لا محالة.. والقرآن ـ وهو كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ـ لا يخبر عن ذلك عبثاً، بل إنه يقرر الحقيقة التي علينا أن نؤمن بها، وننتفع بذلك الإيمان في تحديد المواقف، ورصد التحركات.. وتنمية الملكة القادرة على ربط النتائج بمقدماتها.. والبعدِ عن الغفلة أو الانحراف في تفسير الوقائع، وتبين دلالتها على ساحة التحدي والمواجهة مع المغضوب عليهم، الذين همُّهم الكيد والأذى، بسبب ما تعتلج به صدورهم من الحسد والحقد والضغينة على المسلمين.

هكذا حسد أهل الكتاب ـ وهم اليهود هنا ـ المسلمين على ما أعطاهم الله من التوفيق، ووهب لهم من الرشاد لدينه والإيمان برسوله، وخصهم بأن جعل رسوله إليهم رجلاً منهم رؤوفاً بهم رحيماً، ولم يجعله من بني إسرائيل فيكونوا لهم تبعاً..

إنها الداهية الدهماء.. لا يؤمنون، ولا يريدون لغيرهم أن يؤمن!! بل يريدون لمن يؤمن، لو عاد كافراً مثلهم؛ كل أولئك بدافع الحسد من عند أنفسهم مصحوباً بالبغي.. ولو كانوا لا يعرفون الحقيقة، وأن التوراة قد دلتهم على النبي عليه الصلاة والسلام، وأمرتهم بالإيمان به.. لكان الأمر أقل سوءاً ـ على ما فيه من السوء والضلال ـ.. ولكن هؤلاء الكثيرين، منهم ودوا ذلك الوُدَّ من بعد ما تبين لهم الحق في أمر محمد ﷺ، وما

جاء به من عند ربه، والملة التي دعا إليها فأضاء لهم الحق الذي لا مرية فيه. جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما عن رواية الضحاك «قوله: (﴿مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ يقول الله تعالى ذكره: من بعد ما أضاء لهم الحقُ لم يجهلوا منه شيئاً، ولكن الحسد حملهم على الجَحْد، فعيَّرهم الله ووبخهم ولامهم أشد الملامة)».

وانظر كيف تعبِّر كلمة ﴿وَدَّ﴾ عن عميق الرغبة الممتزجة بالعاطفة، وشديد الميل الظالم إلى ما هو نقيض ما تبين لهم من الحق. قال قتادة – رحمه الله –: «من بعد ما تبين لهم أن محمداً رسول الله ﷺ والإسلام دين الله». وروى الطبري عن أبي العالية: «تبين لهم أن محمداً رسول الله يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل».

اللَّهم بصّرنا الحقيقة واجعلنا ممن ينتفعون بها، كي لا تزلَّ الأقدام، وتُطيحَ الغفلة بذوي الحقوق المستضعفين!

إرادة خير للمسلمين.. ممتنعة بإطلاق

لا تثريب على المسلم أن يبدئ ويعيد في تلمُّس كل ما يعين على فهم الحقيقة في عدوِّه، وما يتسم به من خلائق وصفات نفسية. وفي هذا العصر الذي اضطربت فيه المفهومات واختلت الموازين عند الكثيرين: يبدو الأمر أكثر إلحاحاً بالنسبة لعلاقتنا بيهود وبواعث الأذى العميقة في نفوسهم؛ فحقيقة أن الحسد المصحوب بالبغي والحقد الدفين ـ مثلاً ـ صفة من الصفات النفسية المستحكمة عند اليهود، وسمة من السمات التي تطبع سلوك الفرد والجماعة فيهم.. هذه الحقيقة جاء التصريح بها والإشارة إليها في العديد من نصوص الكتاب الكريم والسنة المطهَّرة، وصدَّق وجودَها الذي لا يخطئ الناظرَ؛ كثيرٌ من الوقائع التي جاءت عليها السيرة العطرة. ـ كما رأينا من قريب ـ.

وهي حقيقة تزيد من ثقل الأمانة في أعناق المسلمين: أن يديروا حركة التعامل مع هذا اللون من بني البشر، على أساس من وضوح الرؤية المستلهم من كتاب الله العزيز، والطريقة التي عاملهم بها رسول الله عليه الصلاة والسلام؛ حيث المواجهة المحكمة، ووضع الأمور مواضعها، حسبما تقتضيه مصلحة الأمة، خصوصاً وأن مما هدانا إليه كلام الله المعجز ـ الذي هو الصدق كلُّه واليقين كلُّه ـ أن اليهودي يهوديٌّ في أي زمان وفي أي مكان، مهما تقلبت الظروف، وتطورت المفهومات الفكرية عند الناس، ولذلك خاطب القرآن اليهود الذين عاشوا متنزّلَ القرآن، وكأنهم

هم الذين شاركوا في صنيع الآباء والأجداد، قتلاً للأنبياء، وتشوفاً إلى الشرك، ومجاهرة لله ولرسله بالعداوة وأتباعهم، ومظاهرة للباطل على الحق وأهله، في محاولة للتفلُّت من أحكام السماء، مع الدعوى العريضة أنهم «المستمسكون بالتوراة، الأمناءُ على الدين الذي أنزل على موسى عليه السلام».

ومما جاء في تفنيد هذه الحقيقة المومى إليها ـ وهي واحدة من كثير في نصوص الكتاب والسنة: ما رأينا في سورة النساء، وهي سورة مدنية ـ من قول الله تبارك وتعالى في شأن يهود: ﴿ **أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ...** ﴾ [النساء: ٥٤] جاءت الآية تنديداً بما كان من حسدهم رسول الله ﷺ والمسلمين، أن كانت النبوة فيهم ولم تكن في اليهود، وكان لذلك ما له من آثار غاية في السوء، لعل من أبرزها ـ على الصعيد الفكري ـ أنهم شهدوا لكفار قريش عبدةِ الأوثان، أنهم أهدى سبيلاً من الذين آمنوا بمحمد ﷺ واتبعوا النور الذي أنزل معه. وكيف ننسى ما جاء في سورة البقرة من قول الله جل شأنه: ﴿ **وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم..** ﴾ الآية، تبياناً لتلك الصفة التي ملكت عليهم القلب والعقل، وألقت بثقلها الهابط على النفوس؛ فهم يودُّون لو يردُّون أهل الإيمان كفاراً يسلكون مع القطعان التائهة طريق جهنم؛ كفراً وركوباً لطريق الضلالة المردي والعياذ بالله.

والذي يزيد من شناعة هذا الودّ الظالم عندهم، أنهم يحبون لو حصل هذا التحول من بعد ما تبين لهم الحق، وعرفوا أن ما عليه المسلمون

هو الحق الذي نزل به الكتاب، وبشَّر به الإنجيل والتوراة من قبل، على صورة لا تحتمل شيئاً من اللبس أو الغموض.

ويقودنا البحث عن مظاهر هذه الحقيقة، إلى ما نجد في سورة البقرة أيضاً، من إعلامنا أن الحسد الذي لا تنطفئ له نار في قلوب اليهود، جعلهم وأتباعهم من المشركين، لا يحبون أن ينال المسلمينَ أيُّ نوع من أنواع الخير، فضلاً عن أن ينزل عليهم الفرقان، وما أوحاه ربنا تبارك وتعالى إلى محمد ﷺ من حِكَمِه النيرات واياته الهاديات إلى سواء السبيل.

وإنها لنفحة من نفحات الإعجاز، تدل أعظم دلالة على أن القرآن كلام الحكيم الخبير، الذي يعلم ما انطوت عليه نفوس أولئك الأناسيِّ أعداءِ الله ورسله، وينبّه عباده المؤمنين على تلك الخلائق النفسية، كيما يكونوا على يقظة تامة، ويأخذوا حِذْرهم على كل صعيد، وفي كل ميدان؛ ذلك بأنهم عندما يواجهون اليهود وأتباعهم، يواجهون عدواً هذه بعض خلائقه؛ فما يخفيه من الحقد والحسد والبغي: أشد وأنكىٰ مما يظهره في ميدان المواجهة، ﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨] لأن ما يخفىٰ، هو الباعث على تلك التصرفات التي لا تعرف إلى الهداية سبيلاً، ولا تمت إلى الأخلاق المرضيّة عند الله بسبب. ذلكم قول الله جل شأنه: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۝١٠٥﴾ [البقرة: ١٠٥].

وما بدٌّ من التنبيه على أن هذه الآية الكريمة، جاءت بعد آية نهت

المؤمنين عن أن يقولوا كلمةً شاع في اليهود استعمالها استعمالاً يحمل الكثير من قلة الأدب مع الرسول عليه الصلاة والسلام، وهي قول: ﴿رَاعِنَا﴾ وأمرَهم باستعمال البديل وهو ﴿انظُرْنَا﴾ والآية المعنيَّة هي قول الله تباركت أسماؤه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾ [البقرة: ١٠٤]. وهكذا حملت الآية الكريمة الهادية، إلى المسلمين هذا النفي القاطع عن الذين كفروا من أهل الكتاب اليهود، ومن هم على سنَنهم وزمرة أتباعهم من المشركين، أن يكونوا على ودٍّ أن يتنزل على المسلمين شيء من الخير.. بجانب أن اليهود يودون لو يعود المسلمون بعد إيمانهم كفاراً.

وإذا كان الأمر كذلك: فغير جائز مطلقاً ـ أن يركن أهل الإيمان إليهم، أو يحاولوا تقليدهم وسلوك مسلك ينتهجونه في الفكر والنظرة إلى الدين، وما لديهم من معايير التعامل والسلوك. وإنها لقضية لا يرتضي العقل السليم غيرها؛ فالذين لا يودُّون للمسلمين أيّ لون من ألوان الخير مهما دقَّ أو جلّ ـ كما أخبر عن ذلك العليم الخبير ـ ويحبون لهم أن يرتدوا على أعقابهم: كفراً بعد إيمان، كيف يسوغ الاطمئنان إليهم أو الركون إلى ما يطالعون به أهل الإيمان، مهما ألقوا على دعاواهم من البهرج الذي قد يأخذ بلب البسطاء، وقدّموها بزخرف القول ومعسول الكلام؟!.

والذي يزيد من ثقل الأمانة في الأعناق، ولا يدع عذراً لمعتذر، بعد الذي كشف عنه الكتاب الكريم ونبّه عليه: ما يُرى من الوضوح في تبيان

تلك الحقيقة، حقيقة ما يحمل أولئك الأعداء للمسلمين من الضغن في النفوس؛ فتأويل الكلام في قوله تعالى: ﴿**مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ**﴾ ـ كما يقول العلماء ـ: ما يُحبُّ الكافرون من أهل الكتاب ولا المشركين بالله من عبدة الأوثان، أن ينزّل عليكم من الخير الذي كان عند الله فنزّله عليكم. فتمنى المشركون وكفرة أهل الكتاب أن لا ينزّل الله عليكم الفرقان، وما أوحاه إلى محمد ﷺ من حكمه وآياته. وإنما كره اليهود وأتباعهم من المشركين ذلك، حسداً وبغياً منهم على المؤمنين.

وفي هذه الآية دلالة بيِّنة على أن الله تبارك وتعالى، نهى المؤمنين عن الركون إلى أعدائهم من أهل الكتاب والمشركين، والاستماع إلى قولهم، وقبول شيء مما يأتونهم به على وجه النصيحة لهم منهم، بإطلاعه جل ثناؤه إياهم على ما يستبطنه لهم أهل الكتاب والمشركون من الضغن والحسد، وإن أظهروا بألسنتهم خلاف ما هم مستبطنون.

اللّهم وفق المسلمين لتدبُّر كتابك، وطاعتك في العمل به وبسنة نبيك محمد عليه الصلاة والسلام، كيما يكونوا على الصراط السوي في مواجهة أعداء الحق والإنسان.

وصلى الله وسلم وبارك على نبي الهداية والرحمة إمام المجاهدين الذي علَّم أمته الكتاب والحكمة وعلى آله وصحابته أجمعين..

حُرِموا بخلائقهم.. رحمة الله للمؤمنين

أراني مسوقاً إلىٰ تأكيد أن النظرة المتدبرة في نصوص المنهج الرباني، تقف على أن العناية بالكشف عن خلائق يهود وصفاتهم النفسية التي يواجهون بها أعداءهم: أمر على غاية الأهمية بالنسبة للمسلمين، كيما يكونوا قادرين على إحكام المواجهة التي تتجدد ميادينها يوماً بعد يوم، وأن يظلُّوا على ذكر من البواعث التي تقود المغضوب عليهم، في الحرب التي لا تنطفئ نارها على الإسلام والمسلمين.

وقد وقفتنا من قريب آيات مباركات من سورتي البقرة والنساء، على حقيقة أن الحسد المصحوب بالبغي وعمدية الإيذاء وتمني المساءة: من الصفات النفسية المتأصلة عند يهود، وأن ذلك كان مبعث كثير من الشرور، ظهرت آثارها في الفكر والسلوك، على صعيد التعامل مع أهل الإيمان.

وإذا كان الأمر كذلك ـ ورحى الحرب دائرة مع أعداء الله والإنسان ـ فالدين والعقل السليم، يوجبان على أمة خير الأنام ﷺ، أمةِ الرسالة الخاتمة والشهادة على الناس، عدم الركون إلى اليهود وأشياعهم من النصارىٰ وسدنتهم من المنافقين والمشركين. وهذا الذي وقفتنا عليه تلكم الآيات المذكَّر بها، تحملنا إلى ما دلّت عليه ـ في هذا المجال ـ آيات من سورة الأعراف ـ وهي سورة مكية ـ الأمر الذي يدل على أن التنبيه على خلائق اليهود وصفاتهم جاء مبكراً في حياة المسلمين كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

لقد دلت تلكم الآيات، على أن اليهود بحسدهم العاتي رسولَ الله ﷺ ومن معه من المؤمنين، وبغيهم عليهم، ظلموا أنفسهم ظلماً كبيراً ـ ناهيك عن ظلم الحق والإيمان ـ وجرّوا عليها الكثير من الوبال؛ إذ إن النبي ﷺ بعث رحمة للعالمين، ولو آمنوا به واتبعوه لنالتهم تلك الرحمة، ولغمرهم نورها وعمّهم فضلها، ولوضع عنهم رسول الله إصرهم والأغلال التي كانت عليهم.. ولكن الضغن الذي باض وفرَّخ في نفوسهم جيلاً بعد جيل، حملهم على ذلك العتوِ والكفران، بل وعلى الإعراض عن قبول التخفيف الذي جاء به محمد ﷺ وهو الرحمة المهداة..

وما من ريب في أن ذلك، إنما كان لغلبة خذلان الله عليهم.. وما جنحوا إليه من الانحراف المهلك عامدين، بعدما تبين لهم الحق، وعلموا علمَ اليقين أن محمداً ﷺ رسول من عند الله، مبلغ عن ربه ما أراد.. لا يأتي رسالتَه الباطل، ولا يحوِّم حولها أثارة من شك أو ريبة.. ولكنه الحسد الذي يجني على صاحبه قبل أن يجني على الآخرين.. ولكنه البغي والتعطش إليه في أيٍّ من الأقوال والأفعال ومنهج السلوك.

والآيات التي نعنيها من سورة الأعراف: هي قول الله تبارك وتعالى ـ بدءاً من الآية الخامسة والخمسين بعد المائة ـ: ﴿ **وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ** ﴿١٥٥﴾ **وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ**

فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥٥ - ١٥٧].

فالآيات الكريمات تبين أجلى بيان وأوضحه، أن الله تبارك وتعالى قال لموسى بعد أن دعا بقوله: ﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ ومعناها: تبنا إليك، قال: ﴿ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ وتبع ذلك إخباره سبحانه عن صفات الذين سيجعل لهم هذه الرحمة ويغمرهم بفضلها، والشرطِ الوثيق الذي يُدخِل المرءَ في عداد أصحابها المستحقين لها؛ فهم الذين يتقون، ويؤتون الزكاة، والذين هم بآياته ـ جل شأنه ـ يؤمنون.

ومع خطوة أخرى على ساحة التحديد التي توحي بأن أمة محمد ﷺ هي المقصودة بذلك، تلا ذلك من الصفات: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ ﴾ وهذا الرسول الأمي الذي جاء النص على رسالته في التوراة والإنجيل: يأمر المؤمنين بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾.. وأكثر من هذا.. ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾.. فالنبي الأمي يضع الإصر، العهد الذي كان الله أخذ على بني إسرائيل من إقامة التوراة والعمل بما فيها من الأعمال الشديدة، كقطع

الجلد من البول، وتحريم الغنائم، وغير ذلك من الأعمال التي كانت مفروضة عليهم، نتيجة تشددهم وتعنتهم، فنسخها حكم القرآن.

وكان ابن زيد يقول في قوله تعالى: ﴿ **وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ** ﴾ قال: الأغلال وقرأ ﴿ **غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ** ﴾ [المائدة: ٦٤] قال: تلك الأغلال. قال: ودعاهم إلى أن يؤمنوا بالنبي فيضعَ ذلك عنهم.

وختمت الآيات بتقرير أن المفلحين هم أولئك الذين آمنوا بالنبي الأمي صلوات الله وسلامه عليه، وعظموه وحموه من الناس وأعانوه على أعداء الله وأعدائه بالجهاد، واتبعوا النور الذي أنزل معه وهو القرآن والإسلام ﴿ **فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾.

تلكم هي الصفات والشرائط التي لا بد من توافرها، ليكون أصحابها ممن سيكتب الله لهم الرحمة. وقد تحقق ذلك ـ والحمد لله ـ في أتباع محمد عليه الصلاة والسلام. ولو أن اليهود آمنوا وصدّقوا، لنالتهم الرحمة وعمّهم فضل الله وإحسانه، ولكن الحسد الذي تغلي به صدورهم، حال دونهم ودون الإيمان، ووقعوا فريسة للضغن الأسود والحقد الدفين، فحرموا من أن يكونوا ممن كتب الله لهم الرحمة؛ وارتد أثر تلك الخصلة الخبيثة إليهم.

روى الإمام الطبري بسنده عن قتادة قال: «فما نقموا ـ يعني اليهود ـ إلا أن حسدوا نبيَ الله، فقال الله: ﴿ **فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ** ﴾ فأما نصره وتعزيره: فقد سبقتم به، ولكن خياركم من آمن بالله واتبع النور

الذي أنزل معه». قال أبو جعفر: (يريد قتادة بقوله: إلا أن حسدوا نبي الله: أن اليهود كان محمد ﷺ ـ بما جاء به من عند الله ـ رحمة لهم لو اتبعوه، لأنه جاء بوضع الإصر والأغلال عنهم، فحملهم الحسد على الكفر به، وتركِ قبول التخفيف، لغلبة خذلان الله عليهم).

والحمد لله الذي هدانا إلى اتباع النبي الأمي صلوات الله وسلامه عليه. والحمد لله الذي غضبَ على اليهود بما كفروا وظلموا. وله ـ سبحانه ـ الأمر من قبل ومن بعد.

وحسد خاص.. على أمور خاصة بأعيانها

من الأمور التي تستوقف الناظر في خلال اليهود والتي كشفت عنها نصوص الكتاب الكريم والسنة المطهرة، وصدقتها الوقائع التي تحدثت عنها السيرة، وما فاض به التاريخ من مفارقاتهم على وجه العموم... من تلك الأمور: أن الحسد الذي كان ـ وما يزال ـ قرين البغي و الحقد عندهم: يأخذ اتجاهين:

أما الأول: فهو الاتجاه العام؛ إذ يحسدون المسلمين على وجه الإطلاق، لما أن رسالة المصطفى عليه الصلاة والسلام كانت فيهم، ولم تكن في بني إسرائيل، ولما أنهم آمنوا وصدقوا وحازوا الشرف العظيم في الدنيا، مع التمكين الذي يفوّت على اليهود فرصة العلو في الأرض والفساد، وفي الآخرة طوبى لهؤلاء المسلمين وحسن مآب.

وأما الثاني: فهو الاتجاه الخاص.. إذ بجانب الحسد المطلق، يحسدون المسلمين على قضايا كثيرة معينة أكرم الله بها الأمة المحمدية... وهذا اللون من الحسد مع سابقه: ظلمات بعضها فوق بعض. ولقد حملت إلينا السنة النبوية بعض النصوص التي تكشف عن هذا، وتنبه المسلمين على الخطر الكامن في نفوس أولئك الأناسي، وكيف أن حقدهم في تجدد دائم، وأن بغْيَهم الأسود لا تكاد تحدُّه حدود. جاء في مسند الإمام أحمد ـ رحمه الله تعالى ـ: حدثنا عبد الله قال: حدثني أبي قال: حدثنا عاصم

عن حصين بن عبد الرحمن عن عمر بن قيس عن محمد بن الأشعث عن عائشة قالت: «بينا أنا عند النبي ﷺ إذ استأذن رجل من اليهود فقال: السَّام عليك، فقال النبي ﷺ: وعليك. قالت: فهممت أن أتكلم، ثم دخل الثانية فقال مثل ذلك: فقال النبي ﷺ وعليك. قالت: ثم دخل الثالثة فقال: السَّام عليك، قالت: فقلت: بل السَّام عليكم وغضبُ الله إخوانَ القردة والخنازير، أتحيُّون رسول الله ﷺ بما لم يحيِّه به الله، قالت، فنظر إليَّ فقال: مَهْ إن الله لا يحب الفحش ولا التفحش. قالوا قولاً، فرددناه عليهم، فلم يضرنا شيئاً، ولزمهم إلى يوم القيامة. إنهم لا يحسدوننا على شيء، كما يحسدوننا على يوم الجمعة التي هدانا الله لها وضلوا عنها، وعلى قولنا خلف الإمام: آمين» وقال ابن ماجه: حدثنا إسحاق ابن منصور قال: أخبرنا عبد الصمد بن عبد الوارث قال: حدثنا حماد ابن سلمة قال: حدثنا سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن النبي ﷺ قال: «ما حسدتكم اليهود على شيء ما حسدتكم على الإسلام والتأمين» قال العلماء: هذا إسناد صحيح ورجاله ثقات احتج مسلم بجميع رواته.

وغير خافٍ أن الروايتين كلتيهما، تدلان دلالة واضحة صريحة على أن هنالك حسداً للمسلمين، يتمرغ اليهود في أوحاله النتنة: هو حسد على أمور خاصة، وهو أشد منه على أمور كثيرة غيرها، وتراه يَصْحَبُ ذلك الحسد المطلق الذي عبّر عنه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا

تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ... ﴾ [البقرة: ١٠٩] والأمور الخاصة التي كانت مبعث الحسد المعنيٍّ هنا أكثر من غيرها: هي يوم الجمعة، والقبلة، وقول المسلمين خلف الإمام: آمين ـ وهذا ما دلت عليه رواية الإمام أحمد ـ والسلام والتأمين، وهو ما دلّت عليه رواية ابن ماجه.

ومما يدعو إلى الاستغراب مرة بعد مرة، ويكشف عن مدى التِقَامِ تلك الخلة الخبيثة لعقل اليهودي وقلبه: ما كان من أمر اليهود بشأن القبلة وتحويلها من بيت المقدس إلى المسجد الحرام، كما جاء في قول الله جل شأنه: ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤) ﴾ [البقرة: ١٤٤] وتحويلها من بيت المقدس إلى المسجد الحرام، فمما ورد في ذلك من النصوص ـ وهي وفيرة مباركة ـ ما قال علي بن طلحة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة أمره الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود، فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهراً، وكان رسول الله ﷺ يحب قبلة إبراهيم، فكان يدعو الله وينظر إلى السماء، فأنزل الله عزو وجل: ﴿ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ فارتاب من ذلك اليهود وقالوا: ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ فأنز الله : ﴿ قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٤٢) ﴾ [البقرة: ١٤٢].

وهكذا حاول اليهود أن يدسوا أنفهم في قضية لا تخصهم، ولكنها تتعلق بصلاة المسلمين، والقبلة التي يتوجهون إليها في تلك الصلاة،

وذلك لإثارة الفتنة، والعمل على تشكيك الضعفاء؛ ولذلك سماهم الله السفهاء بصنيعهم هذا الذي استهدف ـ فيما استهدف ـ توظيفاً سيئاً لصنيع أولئك الذين شاركوا في تلك المحاولة الآثمة؛ فعلى اختلاف الأقوال في المقصود بـ ﴿السُّفَهَاءُ﴾ في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا...﴾ [البقرة: ١٤٢] الآية أَهُمْ مشركوا العرب، أم أحبار اليهود، أم المنافقون؟ فإن الآية عامة بلفظها في هؤلاء كلهم، ولكن أقدرهم على الدسّ والإيقاع، وتولي كبر الفتنة في هذا المجال: هم اليهود، لما أنهم ـ أهل الكتاب المتعالون على العرب بأنهم كذلك ـ ويتبعهم أولئك البُلْهُ الذين ختم الله على قلوبهم من المنافقين والمشركين.

وإذن فاليهود يقولون بعد تحويل القبلة، وأمر المسلمين بالتوجه شطر المسجد الحرام، بعد أن كانوا يتوجهون شطر بيت المقدس: ﴿مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ ويتبعهم في قالة السوء من يتبعهم من أهل الشرك والنفاق..

ترى هذا، وتراهم ـ فيما بعد ـ تغلي صدورهم حسداً وحقداً، أن اختار الله المسجد الحرام قبلة للمسلمين في صلاتهم، بعد أن ظلَّ رسول الله ﷺ في المدينة يصلي ستة عشر أو سبعة عشر شهراً إلى بيت المقدس.

تبدأ القضية الماكرة بقولهم: ﴿مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾؟ وهو تساؤل يحمل ما يحمل من نفثات الدس وإثارة الشك والفتنة.. وتنتهي بما كشف عنه رسول الله الذي لا ينطق عن الهوى، بأن هؤلاء

المغضوب عليهم لا يحسودننا على شيء كما يحسدوننا على يوم الجمعة التي هدانا الله لها وضلّوا عنها، وعلى القبلة التي هدانا الله لها وضلّوا عنها، وعلى السلام، وعلى قولنا خلف الإمام: آمين.

ولسنا نبالغ إذا اتجهنا إلى أن من الممكن تفسير الكثير من الوقائع الظالمة الآثمة في تصرفات اليهود ماضياً وحاضراً، بأن مردّها إلى تلك الخلّة الخبيثة وأمثالها. إنهم يحسدون المسلمين ـ فيما يحسدونهم عليه ـ ذلك البنيان الضخم الذي بنوه عبر التاريخ تحت راية العقيدة التي أسلمتهم إلى العلم والعمل والجهاد، ويودون ـ حسداً وبغياً ـ لو ينقضُ هذا البناء الحضاري العملاق على صعيد الفكر والتصور اليوم.

ولكن الله غالب على أمره، وهو القادر ـ جل شأنه ـ على أن يعود بالمسلمين إلى الطريق التي يستأنفون معها مسيرة الخير الظافرة، كيما تعلو كلمة الله، وينتصر الحق، ويتحرر الإنسان على الوجه الذي ينبغي. ولله عاقبة الأمور.

السأم عليكم.. وإخوان القردة والخنازير

ما نزال مع الرحلة التي تصلنا ـ على ساحة المعرفة ـ بواحدة تأتي في سلسلة الحقائق المتعلقة بالصفات النفسية ليهود؛ وهي أنهم ـ بجانب حسدهم المطلق للمسلمين، الذي يودُّون معه لو يعود هؤلاء المسلمون كفاراً يخسرون الدنيا والآخرة ـ يحسدون الأمة المحمدية على كثير من الأمور بأعيانها، ولكنهم على هذا الصعيد لم يحسدوا المسلمين على شيء، حَسَدَهم على بعضٍ مما أنعم الله به عليهم، من أمور وثيقة الصلة بعبادتهم وعلاقاتهم الاجتماعية بعضهم ببعض.

ففيما يتعلق بالعبادة هم شديدو الحسد على ما هدى الله المسلمين له من الجمعة، والقبلة، وقول «آمين» خلف الإمام.

أما عن الأمر الذي يتصل بعلاقات المسلمين الاجتماعية التي تقوم على أخوة الإسلام والانضواء تحت راية التوحيد: فهي «السلام» تحية أهل الجنة، إذ جعلت تحيتهم «السلام عليكم ورحمة الله، أو السلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

ولعل من الخير متابعة النظر، في مدلولات ومرامي ذلك النص المثقل بالعبر والدروس، حين يعبر عن الدخائل النفسية عندهم على لسان المعصوم عليه الصلاة والسلام وهو ما أوردنا ـ من قبل ـ من حديث النبي ﷺ الذي روته عائشة ـ رضي الله عنها ـ والذي حمل إلى الأمة خبر

الانحراف الذين يتجافى عن إنسانية الإنسان ـ أعني خبر الغيظ والغِل من تلكم النعم الكبار التي أومأنا إليها، وأنهم لم يحسدونا على شيء حسدهم عليها. ذلكم ما روى الإمام أحمد بسنده عن أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: بينا أنا عند النبي ﷺ إذ استأذن ـ رجل من اليهود، فأذن له، فقال: السام عليك، فقال النبي ﷺ: وعليك. قالت: فهممت أن أتكلم، قالت: ثم دخل الثانية فقال مثل ذلك. فقال النبي ﷺ: وعليك. قالت: ثم دخل الثالثة فقال: السَّام عليك، قالت: فقلت: السَّام عليكم وغضب الله إخوان القردة والخنازير، أتحيُّون رسول الله ﷺ، بما لم يحيِّه به الله!! قالت: فنظر إليَّ فقال: مَهْ إن الله لا يحب الفحش والتفحش؛ قالوا قولاً فرددناه عليهم، فلم يضرنا شيء ولزمهم إلى يوم القيامة. إنهم لا يحسدوننا على شيء كما يحسدوننا على يوم الجمعة التي هدانا الله لها وضلّوا عنها وعلى القبلة التي هدانا الله لها وضلّوا عنها، وعلى قولنا خلف الإمام: آمين» وفي سنن ابن ماجه بالسند المتصل عن عائشة – رضي الله عنها – عن النبي ﷺ قال: ما حسدتكم اليهود على شيء ما حسدتكم على السلام والتأمين » والتأمين مفسّر في الرواية السابقة بأنه قول المسلمين خلف الإمام: آمين. ومعناها «استجب» فهم يدعون لله أن يستجيب ما حملت الفاتحة أم الكتاب من دعاء.

هذا: والسَّام الوارد في الحديث الذي رواه الإمام أحمد: معناه الموت؛ وواضح من هذا أن ذلك اليهودي الماكر كان يعبث بالتحية؛ فبدلاً من أن يقول للنبي عليه الصلاة والسلام: السلام عليكم، كان يقول له: السام عليك أي الموت عليك؛ يدعو عليه ـ فداه أبي وأمي ـ بهذا. وتكرر ذلك

منه مرات ثلاثاً، عليه وعلى أمثاله لعائن الله. وأنت واجد أن السيدة عائشة، قد أثار حفيظتها هذ العبث العابث في تحية الرسول عليه الصلاة والسلام بما لم يحيِّه به الله وهو تحية السلام، وعندما قالت بعد أن كرر اليهودي قالته فنطق بها الثالثة.. السّام عليك وغضب الله إخوان القردة والخنازير أتحيون رسول الله بما لم يحيّه به الله!! وجهها رسول الله علية الصلاة والسلام إلى ما هو الأسمى فقال: مَهْ إن الله لا يحب الفحش والتفحش، مع أنها كانت ـ رضي الله عنها ـ تقول الحقيقة وكان البادئَ بالشر هو اليهودي، وقد أصّر على كلمته الظالمة أعادها ثلاثاً...

ولكنه عليه الصلاة والسلام أراد أن يعلم عائشة، بل الأمة جميعاً، أن هنالك ـ في رد مثل هذا الأذى ـ مع كون كلام عائشة حقاً ـ ما هو أسمى ـ كما سبق ـ فبيّن لعائشة بعد أن أمرها بالكف عن ذلك بقوله: «مَهْ» بأن الرد على اليهودي بطريقته هو عليه الصلاة والسلام: أولى؛ ذلكم قوله صلوات الله وسلامه عليه: «قالوا قولاً فرددناه عليهم ـ حيث كان يقول له: وعليك ـ فلم يضرنا شيء ولزمهم إلى يوم القيامة». مع أن هنالك رواية في الصحيح أن اليهود كانوا جماعة ولكنها قالت لهم: «عليكم السام والذام واللعنة».

ولكن الذي يستوقف الناظر في هذه الواقعة أكثر وأكثر: أن الرسول عليه الصلاة والسلام ـ وهو المؤيد بالوحي ـ كشف عن الحقيقة التي يرتد إليها صنع هذا اليهودي في قوله للرسول عليه الصلاة والسلام: «السام عليك» تلك الحقيقة هي أن مبعث ذلك: الحسدُ.. فالحسد الذي يأكل

قلبه ويعميه عن الحق، حمله على ذلك الصنيع الذي لا يصدر إلا عن ماكر حاقد، لا يبالي استبدال اللؤم والحِطَّة بالكلام الطيب والخلق النبيل.

وبيّن الرسول عليه الصلاة والسلام أن ما صدر عن هذا اليهودي، ليس مقصوراً عليه وحده، ولكنه خلق اليهود جميعاً، وهو خلق مبعثه الحسد الذي لا يبقي ولا يذر إنه حَسَدٌ على تلك الأمور التي هدى الله المسلمين لها وضلّ عنها اليهود. انظر إلى قوله صلوات الله وسلامه عليه ـ وهو يلجأ إلى التعميم في حكمه على يهود ـ: «إنهم لا يحسدوننا على شيء كما يحسدوننا على يوم الجمعة التي هدانا الله لها وضلوا عنها، وعلى القبلة التي هدانا الله لها وضلوا عنها، وعلى قولنا خلف الإمام آمين» وفي الرواية الأخرى: «ما حسدتكم اليهود على شيء ما حسدتكم على السلام والتأمين».

السّام والسَّوْم: الموت. والذَّام والذَّيْم. العيب. قال ابن الأثير في «النهاية»: ومنه حديث عائشة «قالت لليهود: عليكم السَّام والذَّام» واللعنة: الطرد والإبعاد من الله.

ومما تجدر الإشارة إليه أن ذلك الخلق الذي كان سِمةً من سمات اليهود في تحيتهم لرسول الله والمسلمين: ندّد به القرآن الكريم ضمن صفات ذكرها الله تبارك وتعالى عنهم، وجاءت الأحاديث الصحيحة في تقريرها وبيانها؛ ذلكم قول الله جل شأنه في الآية الثامنة من سورة المجادلة ـ والخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ

حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾ ﴾ [المجادلة : ٨] .

اللهم اهد قلوب المسلمين لأداء الأمانة فيما بيَّن كتابك وسنة نبيك من حقائق عن أعدائهم اليهود، واجعلهم يفيدون منها على طريق الإعداد لمعركة فاصلة لا يضمن نتائجها لأهل الحق، إلا الجهاد الصادق الصابر في سبيل الله، والحمد لله على كل حال .

خلائقهم .. والعبرة اليوم

الأسلوب القرآني الحكيم في الحديث عن خلائق يهود، وتنبيه الأمة على مدى الارتباط بين تلك الخلائق وبين طرائقهم في التعامل مع الرسول ﷺ والمسلمين.. هذا الأسلوب الحكيم الفريد.. يحملنا على مزيد من العناية بأن تأخذ كل مسألة على هذه الساحة أبعادها في العقول والقلوب، كيما يكون للقناعة: ذلك الحضورُ المؤثر في المواجهة.. ذلك بأن أخطار هؤلاء الفئام من الناس تتجدّد في كل يوم، وبأن بُعدَ المسلمين في كثير من الأحيان عن المورد العذب في هدايتهم، الموردِ الذي كانوا به خير أمة أخرجت للناس، يجعل من الضرورة بمكان، تعميق الدلالة التي حملتها نصوص الكتاب والسنة في هذا الشأن، كيما يفيء هؤلاء المسلمون إلى الحق الذي اؤتمنوا عليه، ودَعَوْا إليه، ويدركوا ضرورة الالتزام بما وجّه إليه الكتاب الكريم، وبيانه من هدي النبي عليه الصلاة والسلام ـ ثم ما تبع ذلك من وقائع استوعبتها السيرة المطَهرة، وهي وقائع أكدت ـ وما تزال تؤكد ـ تلك الحقائق التي تقطع بوجودها النصوص.

أقول هذا، وقد وقفتنا من قريب كلمات هاديات على شيء من آثار الحسد عند اليهود ـ والحسد خليقة متأصلة فيهم ـ وذلك ما كان من أسلوبهم المنكر في تحية النبي عليه الصلاة والسلام، وآية هذا الصنيع استبدالهم كلمة « السام » ـ وهو الموت ـ بكلمة « السلام » فتراهم يحيّونه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بقولهم: (السام عليك) ثبت ذلك في السنة

برواية أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ التي سمعت ذلك مرات بأم أذنها. وقد صدّق وقوعَ ذلك منهم: القرآن الكريم أوضح تصديق وأبينه؛ فقد جاءت سورة المجادلة على ذِكْره، مع التنديد بلون من ألوان مكرهم وخبثم؛ وهو تناجيهم بالإثم والعدوان ومعصية الرسول مكراً ـ بالمسلمين وهزواً بالإسلام ـ. ذلكم قول الله جلّ ذكره: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ** ﴾ ولقد كشفت الآية الكريمة عن أن سوء صنيعهم بتحية السوء، كان يصحبه استخفاف مشين، وما يشبه التحدي لقدرة الله عز وجل: ﴿ **وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ** ﴾ أي يقولون بعد خروجهم: لو كان محمد نبياً، لعذبنا الله بما نقول، ومعلوم أن «لولا» في العربية أداة عَرْضٍ وحضٍّ.

وكون اليهود هم المعنيين في الآية الكريمة: هو ما نطقت به الآثار التي حملتها المصادر الموثقة؛ كالذي روي عن مجاهد في ذلك. وروى الطبري بسنده عن ابن أبي نجيح في قوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى** ﴾ الآية أنه قال: اليهود. لقد نهوا عن التناجي بالإثم والعدوان: طعناً بالإسلام، ومكراً بالمسلمين، ونبيهم عليه الصلاة والسلام، ثم تراهم يعودون لما نهوا عنه، دونما حياء أو مراعاة لمابينهم وبين النبي ﷺ من الموادعة.. ويضيفون إلى ذلك، أنهم إذا جاؤوه ﷺ ـ وهو الصادق المصدوق المؤيد بالوحي ـ حيّوه بتحية تنبئ عن سوء الطوية، والاستخفاف بما عظم الله، ناهيك عن الحسد الذي أضلّهم وأعمى

أبصارهم، وفي الوقت نفسه يسوِّل لهم الشيطان: أن لو كان محمد صادقاً، لعذبنا الله بما نقول.. إنها طامات، كلٌّ واحدة أسوأ من أختها، ظلمات بعضها فوق بعض.

وهذا الذي نومئ إليه بشأن الآية ودلالتها على صنيعهم ـ عليهم غضب الله ولعناته ـ: هو ما دلت عليه النصوص؛ فالذي أوردناه عن مجاهد وابن أبي نجيح بأن المعنيِّين في الآية هم اليهود: روي مثله عن مقاتل بن حيّان وزاد ـ كما يقول الحافظ ابن كثير ـ كان بين النبي ﷺ وبين اليهود موادعة، وكانوا إذا مرَّ بهم الرجل من أصحاب النبي ﷺ، جلسوا يتناجون بينهم، حتى يظن المؤمن أنهم يتناجون بقتله أو بما يكره المؤمن ؛ فإذا رأى المؤمن ذلك: خشيهم وترك طريقه عليهم، فنهاهم النبي ﷺ عن النجوى فلم ينتهوا، وعادوا إلى النجوى، فأنزل الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ أجل يعودون إلى النجوى! وبم يتناجون؟ إنهم يتناجون بالإثم، والعدوان ومعصية الرسول، إنهم يتحدثون فيما بينهم بالإثم وهو ما يختص بهم، والعدوان وهو ما يتعلق بغيرهم، ومن هذا العدوان: معصية الرسول ومخالفته؛ يصرُّون عليها ويتواصون بها، ويعملون جاهدين على أن يأخذ ما يتناجون به على هذه الشاكلة ـ من السوء البالغ والضلال المبين ـ طرقه إلى التنفيذ في علاقتهم بالمسلمين، مع أن الموادعة بينهم وبين النبي ﷺ، كانت تقتضي غير ذلك!

ولكن اليهود هم اليهود.. قابلوا كل ما قدَّمه لهم رسول الله من الإحسان، والحرص على العدل، وحفظ الحقوق وصيانتها، بالإساءة والمكر

والتآمر، بل وقلة الأدب في تحيتهم لرسول الله عليه الصلاة والسلام. وهذا ما كشفت عنه الآية الكريمة بعد الكلام على عودهم إلى ما نهوا عنه من النجوى الآثمة، وتناجيهم بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾ والمعنى ـ والله أعلم ـ وإذا جاءك يا محمد هؤلاء الذين نهوا عن النجوى، الذين وصف الله جل ثناؤه صفتهم، نبَّه على صنيعهم، حيّوك بغير التحية التي جعلها الله لك تحية، وكانت تحيتهم التي كانوا يحيونه بها، ـ التي أخبر الله أنه لم يحيه بها فيما جاءت به الأخبار كما رأينا من قبل ـ أنهم كانوا يقولون: السام عليك أو السأم عليك.

وروى ابن أبي حاتم بسنده عن عائشة قالت: «دخل على رسول الله ﷺ يهود فقالوا: السام عليك يا أبا القاسم فقالت عائشة وعليكم السام، قالت: فقال رسول الله ﷺ: «يا عائشة إن الله لا يحب الفحش ولا التفحش قلت: ألا تسمعهم يقولون السام عليك؟ فقال رسول الله ﷺ: أوما سمعت أقول وعليكم؟ فأنزل الله ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾ وقال الإمام البخاري: حدثنا أبو اليمان قال: أخبرنا شعيب عن الزهري قال: أخبرني عروة عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: «دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا: السام عليك، ففهمتها فقالت: عليكم السام واللعنة، فقال رسول الله ﷺ: مهلاً يا عائشة فإن الله يحب الرفق في الأمر كله، فقلت: يا رسول الله أو لم تسمع ما قالوا: قال رسول الله ﷺ قد قلت عليكم».

وهذه الرواية ـ كما نرى ـ أفصحت فيها عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها فهمت ما أرادوا بتلك التحية الضالة؛ إذ أن السَّام معناه الموت.

يا سبحان الله!! ما هذا الذي يعتلج في صدور هؤلاء الناس من الحسد والحقد والغيظ؟! وأيٌّ داهية تصيب المسلمين، إن هم غفلوا عن مثل هذه الحقيقة أو تجاهلوا أن ما عليه اليهود اليوم، صورة نكدة هي أسوأ مما كانوا عليه بالأمس؟!!.

وصلىٰ الله وسلم وبارك على الرحمة المهداة محمد عليه الصلاة والسلام الذي واجه هؤلاء المعنيين في الآية ـ بعد أن طفح الكيل ولم يبق في القوس منزع ـ باللغة التي لا يصلح لهم سواها. والله ولي التوفيق...

لكي لا نكون فريسة.. للغفلة والجهل؛

كلما أمعن المسلم النظر في فيما حملت نصوص الكتاب الكريم والسنة المطهرة، من حقائق عن اليهود، وما يضمون إلى العدوان الظاهر السافر: ما تغلي به صدورهم من الانحراف النفسي العميق.. ازداد يقيناً بأن ما حصل من هؤلاء الفئام من الناس عبر التاريخ، في موقفهم من أمة الإسلام، وما يحصل منهم في العصر الحاضر.. يبدو امتداداً طبيعياً لما كان عليه أسلافهم ـ وبئس الأسلاف ـ وأن الوقع الذي تعاني منه أمتنا اليوم، على ساحة العلاقة القاتلة معهم ـ مع ملاحظة الاستهانة بالمسؤولية من قِبَلِها نتيجة الانحسار الهائل لسلطان الإسلام في حياتها ـ صورةٌ لعلها أوضح في النكد والأذى من ذي قبل؛ لما أن العلم الحديث المنفصل عن الأخلاق، أمدَّهم ـ وهم يتعسَّفون في استخدامه ـ بما زاد خططهم ومسالكهم سوءاً على سوء، وكشف عن الآثار الناجمة عن تلك الحقائق التي أعلنت عنها نصوص الكتاب والسنة، ووقائع السيرة، بما لا يدع ريبة لمستريب، ويحدث القناعة في نفس من يريد مقنعاً: أن هؤلاء الأناسيّ هم أعداء الله ورسله، وكل ما فيه خير الإنسانية..

ولكن عداءهم للإسلام والمسلمين اليوم – ومعهم أعتى قوة في الأرض –، يبدو ـ كما كان عبر القرون ـ أكثر حدَّة وأوضح دلالة على خبث الطوايا وما تعتلج به النفوس من إصرار على الأذى بشتىٰ صوره وألوانه، بغية الوصول إلى ما ينشدونه ـ على سوئهم البالغ ـ من قرون

وقرون، مستعينين على ذلك بثغرات قاتلة في الصفوف، ومشايعة من كل من يرضيهم ما يغضبنا، ويفرحهم ما يغيظنا ويسوؤنا والمستعان الله: ﴿ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ ﴾ [آل عمران: ١١٩].

وقد حملت إلينا بعض النصوص ـ كما رأينا من قبل ـ أن الأمر قد وصل بالقوم إلى الحد الذي جعلهم يحيّون رسول الله ﷺ بتحية تقطر بالضغن والاستهتار، وهي قولهم: «السَّام عليك»، والسَّام هو الموت، أو السأم عليك، أي تسأمون دينكم، كما سنرى في بعض الروايات.

ومن إعجاز الكتاب الكريم في توجيه المسلمين، وتربيتهم على الوعي الصحيح، والإفادة من الوقائع: أن الحديث عن سوء التحية اليهودية، جاء في أعقاب التنبيه على معاودتهم التناجيَ بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ـ بعد أن نهوا عنه وحُذِّروا منه ـ بُغية إثارة القلق عند المسلمين، واستخداما لما نسميه اليوم بالحرب النفسية، ورطلاق الشائعات والتخرصات التي قدتفتٌ في عضد المجاهدين، وتحدث البلبلة الفكرية والنفسية في الصفوف. ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ ﴾ [المجادلة: ٨].

هذا التناجي بالتهامس الماكر الظالم: يتبع التنبيهَ عليه، تقريرُ أن ما عمدوا إليه من تحيّة رسول الله ﷺ باللفظ الذي يقولونه، هو تحية سوء على وجه اليقين ﴿ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ ﴾ [المجادلة: ٨] وإذا كان الأمر كذلك: فلا بد من التبصُّر في عطف الثانية على الأولى ـ وكلتاهما شر ـ إذ في ذلك ما يؤكد وجود الداء النفسيّ العضال؛ التناجي

الآثم الضال، والتحية المقيتة التي لم يحيِّ بها الله رسوله عليه الصلاة والسلام. وكان في ذلك إرشاداً للمسلمين أن لا يغفلوا عن واقعةٍ ما من صنيع هؤلاءاليهود، وأن يعملوا على البحث عن الكلية التي ترتبط بها الجزيئات في سلوكهم وصنيعهم؛ وليكن ذلك مصحوباً بذاكرة، لا يقعدها النسيان عن الإفادة وسلامة التعليل؛ لأن الغفلة أو التغافل عن ذلك أشد وأنكى منه، وما أكثر الأدلة الصارخة في القديم والحديث على هذا الذي نقول.

ثم إن مما يجب تذكّره: ما سبقت الإشارة إليه من قبل: من الاستخفاف ومجاهرة الله بالتحدي، مع زعمهم التديُّنَ والالتزامَ بشرع السماء ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ [المجادلة: ٨] ثم جاء الحكم الرباني على هذا التصرف العدواني على عقيدة التوحيد، مؤذناً بشر عاقبة في الآخرة وأسوأ مصير ﴿ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾.

أما بعد: فإن عطاء الآية هذه، على ساحة التبصير بحال من ابتلينا بهم، والتذكير بفقرات السلسلة النكدة من تصرفاتهم المرتبطة بانحراف الدخائل، ـ مضموماً إليها ما ثبت في صحاح الأحاديث، من الكشف عن مؤشرات السلوك الذي نومئ إليه.. ـ إن هذا كلّه جدير بأن يأخذ مكانه على ساحة العظة والاعتبار والتذكُّر، في ظل المناخ الذي ندرك أبعاده في علاقة الأمة باليهود وأعوانهم وسدنتهم الظاهرين والأخفياء.

هذا: وقد رأينا من قبل ما جاء في رواية الإمام أحمد من أن الباعث على تحية السوء عند اليهود: هو الحسد... ولعل من الخير أن نستذكر ما

روى البخاري بسنده عن الزهري أنه قال: أخبروني عن عروة عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا: السَّام عليك ففهمتها، فقلت: عليكم السَّام واللعنة، فقال رسول الله ﷺ: مهلاً يا عائشة فإن الله يحب الرفق في الأمر كله، فقلت: يا رسول الله أولم تسمع ما قالوا؟ قال رسول الله: فقد قلت: عليكم».

ويبدو أن الرسول عليه الصلاة والسلام، كان على يقين من إصرارهم على هذه التحية له وللمسلمين، لما أنها انعكاس طبيعي لما تعتمل به صدورهم من الحسد الباغي والحقد الدفين، لذا وجّه المسلمين إلى أن يردوا على اليهود - إذا حيُّوهم - بالذي رد به هو عليه الصلاة والسلام من قوله. «عليكم» أو «وعليكم». ذلك ما أورد البخاري بعد الحديث السابق بسنده عن ابن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سلَّم عليكم اليهود، فإنما يقول أحدهم: السّام عليكم فقل: وعليك». هكذا يعلم رسول الله المسلمين ويربيهم على الوعي واليقظة، لكيلا يقعوا فريسة الغفلة، والجهل بالواقع في علاقتهم باليهود. «اليهودي يقول: السام عليك فقل: وعليك».

ومن فقه الإمام البخاري: أنه جاء برواية أخرى تحت بابٍ جعل عنوانه «إذا عرّض الذمي أو غيره ولم يصرّح نحو قوله: السام عليكم» من (كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتلهم) من جامعه الصحيح، ذلكم ما روى بسنده عن هشام بن زيد بن أنس بن مالك قال: سمعت أنس بن مالك يقول: «مر يهودي برسول الله ﷺ فقال: السام عليك، فقال رسول

الله ﷺ: وعليك. فقال رسول الله ﷺ: أتدرون ما يقول؟ قال: السام عليك. قالوا: يا رسول الله ألا نقتله؟ قال: لا، إذا سلّم عليكم أهل الكتاب: فقولوا: وعليكم».

وأنت ترى هنا أن النبي عليه الصلاة والسلام ذكر في هذا الحديث أهل الكتاب ـ من يهود ونصارى ـ على العموم. وقد جاء البخاري بهذا الحديث مختصراً بعد الرواية التي كنا بصددها من قبل، وقد أتى بها تحت (كتاب الاستئذان)؛ إذ روى بسنده عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - أنه قال: قال النبي ﷺ: «إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا: وعليكم».

صلى الله وسلم وبارك على رسول الله المبيِّن عن الله ما أراد، وجزاه عن الأمة وعن بني الإنسان كافة ما هو أهله.

وبعد: فما أحسب عاقلاً يرتاب في أن هذا التوجيه وأمثاله من النبي ﷺ في شأن هؤلاء الناس، يعطي الدليل القاطع ـ ورسول الله هو الشارع وهو الأسوة الحسنة ـ على وجوب اليقظة، والعمل الجاد على توعية المسلمين وجعلهم في المستوى الذي يدركون معه الحقائق من مواردها، وأن عليهم أن يستأنفوا طريق الانتفاع بالهدي النبوي ووقائع التاريخ ـ وما أكثرها ـ فيتحرّكوا في ميادين المواجهة، وقد أعدوا القوة المستطاعة بألوانها جميعاً؛ إذ ما معنى أن ينبه عليه الصلاة والسلام حتى على التحية، في بيانه الواضح الجلي لما جاء في الكتاب العزيز!! ﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ**﴾ [الزمر: ٢١]...

جهنم حسبهم.. وظاهرة استبطان السوء

سوء التحية الذي كان اليهود يواجهون به النبي ﷺ والمسلمين، بدافع ما يملأ نفوسهم من الحقد والغيظ: بدا من الروايات الصحيحة الموثقة، أنه قد أخذ حيِّز الظاهرة، لما أنه قد وقع غير مرة ـ على ما يبدو ـ فلم يقتصر الأمر على ما شهدت عائشة ـ رضي الله عنها ـ بنفسها، بل تعدى ذلك إلى وقائع أخرى تؤكد هذا المسلك العمدي، الذي تنكره أبسط الأعراف الاجتماعية، فضلاً عن أحكام الدين، وما بينهم وبين رسول الله ﷺ من الموادعة.

من ذلك تلك الواقعة التي وردت في حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ والتي قصّت علينا ـ كما روى البخاري ـ قصة ذلك اليهودي الذي تكرر منه قوله لرسول الله ﷺ: السام عليك وردُّ رسول الله ﷺ بقوله: «وعليك»، وأنه ـ ﷺ ـ بيَّن للصحابة حقيقة ما يقول اليهودي: استأذنه الصحابة في قتله، ولكن رسول الله عليه الصلاة والسلام لم يرتض ذلك، فقال: لا، وعلَّمهم كيف يردون التحية لأهل الكتاب ـ على وجه العموم ـ بقوله: «إذا سلَّم عليكم أهل الكتاب فقولوا: وعليكم ـ أو ـ وعليك ـ كما في بعض الروايات ـ» وفي بعض الروايات عند البخاري تخصيص لليهود؛ وذلك بقوله ﷺ: «إن اليهود إذا سلَّموا على أحدكم إنما يقولون: سام عليك، فقل: وعليك».

ومما يجدر ذكره أن رسول الله ﷺ ـ وهو يعمل على تربية المسلمين على الوعي والإدراك لما حولهم ـ كان يحرص على أن تكون هذه التربية متكاملة تتحقق معها سلامة البنية الفكرية للمسلم، الذي يراد بناؤه على التكامل وعياً لرسالته، وإدراكاً لما حوله؛ فترى التوجيه إلى الأخذ بالأسباب في إدراك للكليات والجزئيات. وفي الوقت نفسه، ترى الحرص على تنمية الذوق الإيماني، واليقين بما عند الله من الإمداد بالخير والإحسان، وأن سننه في نصر المؤمنين لا تتخلف، إن هم استقاموا على الطريقة، وأخذوا بالأسباب، وصدقوا في السير مع ما تقتضيه سننه الحكيمة ـ جل شأنه ـ وما أقام عليه الكون من ربط الأسباب بالمسببات... وأنه يستجيب لهم في الدعاء على أعدائهم الظالمين المعتدين، إن هم لجؤوا إليه خاشعين، وتضرعوا إليه صادقين، وأنه ـ سبحانه ـ لا يستجيب لأعدائهم العتاة البغاة فيهم، وذلك من عدله ورحمته سبحانه.

ذلكم ما حملت إلينا بعض الروايات الواردة في شأن الواقعة التي أغضبت بعد التكرر عائشة – رضي الله عنها –، من صنيع أولئك الرهط من اليهود، بتحيتهم الآثمة التي حيّوا بها رسول الله ﷺ مرة بعد مرة؛ فتحت (كتاب الدعوات) من الجامع الصحيح عقد البخاري باباً عنوانه: «قول النبي ﷺ: يستجاب لنا في اليهود. ولا يستجاب لهم فينا» وقال هناك: حدثنا قتيبة بن سعيد قال: حدثنا عبد الوهاب قال: حدثنا أيوب عن ابن أبي مليكة عن عائشة – رضي الله عنها – «أن اليهود أتوا النبي ﷺ فقالوا: السام عليكم قال: وعليكم، فقالت عائشة: السام عليكم

ولعنكم الله وغضب عليكم فقال رسول الله ﷺ: مهلاً يا عائشة عليك بالرفق وإياك والعُنْفَ ـ أو الفحش ـ قالت: أو لم تسمع ما قالوا؟ قال: أو لم تسمعي ما قلت؟ رددت عليهم: فيستجاب لي فيهم، ولا يستجاب لهم في».

فمن رحمة الله تعالى أنه يستجاب لنا فيهم، ولا يستجاب لهم فينا؛ وهذا أيضاً محض العدل منه سبحانه؛ لأنهم هم البادئون بالإساءة واستبطان السوء حتى في التحية؛ وقد رأينا من قبل في رواية الإمام أحمد في قول النبي ﷺ: «مَهْ إن الله لا يحب الفحش ولا التفحش قالوا قولاً فرددناه عليهم، فلم يضرنا شيء ولزمهم إلى يوم القيامة». وقال الحافظ ابن حجر في شأن قول النبي ﷺ: «رددت عليهم فيستجاب لي فيهم ولا يستجاب لهم فيَّ». (ويستفاد منه أن الداعي إذا كان ظالماً من دعا عليه، لا يستجاب دعاؤه ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ ۝﴾ [غافر: ٥٠]).

ونحن واجدون عند الإمام مسلم رواية من طريق جابر بن عبد الله رضي الله عنه يقول فيها: «سلَّم ناس من يهود على رسول الله ﷺ فقالوا: السام عليك يا أبا القاسم. فقال: وعليكم، فقالت عائشة ـ وغضبت ـ: ألم تسمع ما قالوا؟ قال: بلى قد سمعت عليهم فرددت عليهم، وإنا نجاب عليهم ولا يجابون علينا».

هذا: وروى الإمام الطبري بسنده عن مسروق عن عائشة قالت: «جاء ناس من اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا: السام عليك يا أبا القاسم فقلت:

السام عليكم وفعل الله بكم وفعل، فقال النبي ﷺ: يا عائشة إن الله لا يحب الفحش، فقلت: يا رسول الله ألست ترىٰ ما يقولون؟ فقال: ألست تريني أرد عليهم ما يقولون؟ أقول: وعليكم؛ وهذه الآية في ذلك نزلت ﴿ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝٨ ﴾ [المجادلة: ٨]» كما أخرج بسنده عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – رواية جاءت بلفظ «السأم عليكم» بالهمز، من السآمة، إذ جاء فيها قول النبي ﷺ ـ بعد أن رد الصحابة السلام على اليهودي ـ: «هل تدرون ما قال: قالوا: سلَّم يا رسول الله، قال: بل قال: سأم عليكم!! أي تسأمون دينكم، فقال النبي ﷺ: أقلت: سأم عليكم: قال: نعم، فقال النبي ﷺ: إذا سلم عليكم أحد من أهل الكتاب فقولوا: وعليكم، أي عليك ما قلت».

وعلى هذه الساحة وتعليم النبي ﷺ الأمة كيف ترد التحية على هؤلاء ـ وكم في ذلك من دروس وعِبَرٍ ـ نذكر ما أخرج الإمام أبو داود في «السنن» بسنده عن عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – قال: قال رسول الله ﷺ: «إن اليهود إذا سلّم عليكم أحدهم فإنما يقول: السام عليكم فقولوا: وعليكم» وقد صوَّب الإمام الخطابي ما ذهب إليه الإمام سفيان بن عيينة من رواية الحديث بلفظ «عليكم» بحذف الواو. قال أبو سليمان في كتابه «معالم السنن» شارحاً لحديث أبي داود: (هكذا يرويه عامة المحدثين «وعليكم» بالواو، وكان سفيان ابن عيينة يرويه «عليكم» بحذف الواو، وهو الصواب؛ وذلك أنه إذا حذف الواو صار قولهم الذي قالوه بعينه مردوداً عليهم، وبإدخال الواو يقع

الاشتراك معهم، والدخول فيما قالوه، لأن الواو حرف العطف والجمع بين الشيئين. والسام فسروه بالموت).

وبعد : فكم نكون على فقه سليم للوقائع، وقدرة على الإفادة من الترابط بينها : إذا ذكرنا ما كان من عتو اليهود، ومجاهرتهم الخالقَ بالكلمة الباغية، حين كانوا يقولون بعد كل ما بدر منهم من المساءة : ﴿ **لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ** ﴾ وكيف ردَّ الله تعالى عليهم بقوله جل وعلا : ﴿ **حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ** ﴾ إنهم يفعلون ما يفعلون، ويقولون بأفواههم محرفين الكلام، مبهمين السلام في الظاهر، عامدين أن يكون شتماً ومسبّةً في الباطن، ومع هذا يقولون في أنفسهم : لو كان محمداً نبياً لعذبنا الله بما نقول له في الباطن؛ لأن الله يعلم ما نُسره، فلو كان نبياً حقاً، لأوشك الله أن يعاجلنا بالعقوبة في الدنيا، فقال تعالى ـ وهو الذي يعلم ما يُسرُّ عباده وما يعلنون ـ : ﴿ **حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ** ﴾، أي كفايتهم في الدار الآخرة يصلونها؛ ﴿ **فَبِئْسَ الْمَصِيرُ** ﴾ الذي يؤولون إليه . يقرر ذلك ويؤكده ما أخرج الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – « أن اليهود كانوا يقولون لرسول الله ﷺ : (سام عليكم) ثم يقولون في أنفسهم : لولا يعذبنا الله بما نقول . فنزلت هذه الآية : ﴿ ... **وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ** ﴾ .

والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

وصلوات الله وأزكى تسليماته على من أدىٰ أمانة البلاغ على أتم وجه وأكمله، وعلى آله وصحابته أجمعين .

بشَّر بمبعثه.. وكفر به بغياً وظلماً

هذا حديث موصول بالكلام على لون معيّن من أخلاق يهود، رأينا من قريب مصداق وجوده المتأصل في خبايا النفوس لديهم؛ وذلك فيما أخبر به الكتاب الكريم وبيانه من سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام، وتعددت الأدلةالتي تؤكده حتى بدا بعضه ظاهرة في السلوك عندهم.

وليس من نافلة القولك التذكير بأن المهم في الموضوع: أن ينتفع المسلمون لواقعهم بما هداهم إليه كتاب ربهم سبحانه وتعالى، وحديث نبيهم عليه الصلاة والسلام، وأكدته التصرفات التي لم يعرف الحياء إليها سبيلاً، فلا الحياء من رسول الله ﷺ كان بالحسبان، عندما مردوا على أن يحيوه بما لم يحيِّه به الله، وأن يتناجوا بالإثم والعدوان ومعصيته عليه الصلاة والسلام، قصداً لإحداث الرعب وإيجاد الخلخلة في صفوف المسلمين، ولا الحياء من الله كان له أي وجود في قلوبهم، بعد سوء الأدب والسلوك الباطني في التحية عندما وقفوا وقفة التحدي لقدرته تعالى وعلمه: ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة: ٨].

وإذا انتفع المسلمون بهدي الكتاب والسنة في شأن المغضوب عليهم: حازوا فضيلتي الدنيا والآخرة؛ فمن ناحية الواقع في الدنيا: يفيدون على صعيد مواجهة العدو، فيعملون على إعداد القوة المناسبة ـ مهما تعددت أسباب تحقيقها وتكاثرت صورها حسب التطور العلمي والاقتصادي ـ

وعلى الصعيد الأخروي: ينالون أجر تصديقهم، وحسن تدبرهم لما جاء عن الله وعن رسوله صلوات الله وسلامه عليه.

ولقد يُرى أن بعض النصوص، يتكرر إيرادها في بعض الحالات: والباعث على ذلك في واقع الأمر، الحرص على المزيد من تجلية ما عرضت له النصوص الكريمة، من حقائق ليس من السهل التغاضي عنها، أو الغفلة عن توظيفها في ميدان معركةٍ ـ ما أطول أمَدَها ـ مع أعداء الأمس واليوم.

على أن الحنكة السياسية من منظور إسلامي على هذه الساحة، توجب أن يفيد المسلمون من تلك الحقائق، فينظروا إلى الحاضر في علاقتهم باليهود بعين مبصرة، لا تهمل الماضي، ولا تنسى الواقع التاريخي الأليم، كل أولئك مع التبيُّن الواضح لطبيعة العلاقة بينهما.. وما أيسر ذلك على من تدبّر الكلمات الهاديات ببصيرة، ولم يدع أن يُكلِّف نفسه عدم الاستهانة بذاكرة التاريخ!!

وفي متابعة لرحلة الاستهداء بنبع الهداية الأصيل: نقع على واحد من الأمثلة الصارخة التي تدل على أن اليهودي لا يفتأ ـ حسداً وبغياً ـ يتجاوز الحق إلى الباطل ـ ما وسعه التجاوز ـ حتى لو كان هو نفسه قد أعلن في الناس هذا الحق، وحاول جاهداً أن يقيم عليه الدليل، وتلك ظاهرة لا يعوزك أن تجد لإثباتها ما يكفي ويشفي من الوقائع!!

جاء في مسند الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ: حدثنا عبد الله قال: حدثني أبي قال: عن ابن إسحاق قال: حدثني صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف عن محمود بن لبيد أخي بني عبد الأشهل عن سلمة

ابن سلامةَ بنِ وقشٍ ـ وكان من أصحاب بدر ـ قال: كان لنا جار يهودي في بني عبد الأشهل، قال: فخرج علينا يوماً من بيته قبل مبعث النبي ﷺ بيسير، فوقف على مجلس عبد الأشهل، قال سلمة: وأنا يومئذ أَحْدَثُ من فيه سناً، عليَّ بُردة مضطجعاً فيها بفِناء أهلي، فذكر البعث، والقيامة، والحساب، والميزان، والجنة والنار؛ فقال ذلك لقوم أهلِ شرك، أصحابِ أوثان، لايرون أن بعثاً كائنٌ بعد الموت، فقالوا له: ويحك يا فلان ترى هذا كائناً أن الناس يُبعثون بعد موتهم إلى دارٍ فيها جنةٌ ونارٌ يُجزَون فيها بأعمالهم؟ قال: نعم والذي يُحْلَف به: لودَّ أن له بحظه من تلك النار أعظمَ تَنور في الدنيا، يحمُّونه ثم يُدخِلونه إياه، فيطبقُ به عليه، وأن ينجوَ من تلك النار غداً. قالوا له: ويحك! وما آية ذلك؟ قال: نبي يبعث من نحو هذه البلاد ـ وأشار بيده نحو مكة واليمن ـ قالوا: ومتى نرَاه؟ قال: فنظر إليَّ ـ وأنا من أحدثهم سنًّا ـ فقال: إن يستنفِدْ هذا الغلام عمُره يدركْه. قال سَلَمةُ: فو الله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله رسوله ﷺ ـ وهو حي بين أظهرنا ـ فآمنا به وكفر به بغياً وحسداً، فقلنا: ويلك يا فلان،ألست الذي قلت لنا فيه ما قلت؟ قال: بلى وليس به».

أرأيت.. يبدو أن هذا الرجل اليهودي كان على شيء من العلم بماجاء في التوراة، قبل التبديل وتحرف الكلم عن مواضعه؛ هاهو ذا يتحدث عن البعث والقيامة والحساب والميزان والجنة والنار... وكلٌ ذلك من الإيمان الذي بعث به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فالقيامة تقوم والناس يُبعثون بعد الموت، والله تبارك وتعالى يضع الموازين القسط، فيحاسب كل إنسان على صنيعه في الدنيا، ويجزيه بما قدّم، والعاقبة إمّا

جنةٌ عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين.. وإما نارٌ تلظى وبئس المصير. والذي نبَّه إليه سلمةُ - رضي الله عنه -: أن اليهودي لما ذكر البعث والقيامة والحساب والميزان والجنة والنار.. قال ذلك لقوم أهلِ شرك أصحابِ أوثان، لا يرون أن بعثاً كائن بعد الموت؛ لأنهم لا يؤمنون باليوم الآخر، ونظرُهم لا يتجاوز هذه الحياة الدنيا، ففيها البداية ـ على زعمهم ـ والنهاية. من أجل هذا: لم يكن يسيراً عليهم أن يتصوروا ما قاله الرجل، فضلاً عن أن يصدقوه. ولذلك كان منهم الاستغراب الشديد،؛ إذ قالوا له: ويحك يا فلان، ترى هذا كائناً، أن الناس يُبعثون بعد موتهم إلي دار فيها جنة ونار يُجزَوْنَ فيها بأعمالهم؟ وكان من اليهودي الإصرارُ المقترنُ بشيء من الإيضاح، وإعطاءِ الصورة العملية لما يكون من ذلك الإنسان الذي يُعدُّ من أهل النار، وكيف أنه يتمنى ن يزحزح عن النار بما يكون من ثمن ـ مع أن القضية هذه من الغيب، والإيمان بوقوعه: لابد أن يسبقه الإيمان باليوم الآخر ـ إذ قال لهم بعد الذي بدا من استغرابهم واستبعادهم: «نعم والذي يُحلَفُ به يتمنى لو أن له بحظِه من تلك النار أعظمَ تنُّور في الدنيا يحمُّونه ثم يدخلونه إياه فيطبقُ به عليه، وأن ينجو من تلك النار غداً».

وحاول القوم أن يُعملوا عقولهم، فسألوه عن الدليل الذي يؤيد به دعواه ويثبتُ ما يقول، لقد قالوا له: ويحك وما آية ذلك؟ يعني ـ وما علامة ذلك الذي تدعي والدليل عليه؟ ـ قال اليهودي في الجواب: «نبي يبعث من نحو هذه البلاد وأشار بيده نحو مكة واليمن..» ولم يكن عجباً من العجب أن يشددوا عليه في المسألة فيطلبوا منه تحديد الزمان

الذي يبعث فيه النبي المنتظر ـ بعد أن حدد لهم المكان على وجه التقريب ـ وحددّ ذلك لهم بِسِنٍّ سلمة ـ رضي الله عنه ـ حين قال: «إن يستنفدْ هذا الغلام عمره يدركه».

وبُعث النبي ﷺ ـ واليهودي حيٌّ يرزق ـ وآمن برسول الله من آمن من أهل المدينة، وهم كثير كثر؛ إذ لم يبق بيت من بيوتها إلا دخله الإسلام، وأبى الرجل الإيمان، وكفر بالرسول ﷺ حسداً وبغياً. وعندما ووُجِهَ بالحقيقة، وقال له من حدثهم بالأمس عن محمد عليه الصلاة والسلام: ويلك يا فلان ألست الذي قلت لنا فيه ما قلت؟ قال «بلى وليس به». اعترف بأنه قال ما قال في شأنه لكنه بدافع من الحسد والبغي: أنكر أن يكون الرسول الكريم هو المقصود بما قال «بلى وليس به».

ألا إن هذه الواقعة ـ من حيث هي ـ أنموذج دال على الذي أدرنا عليه الحديث، ولكنها ـ في الوقت نفسه ـ مؤشر يومئ إلى الظاهرة، ظاهرةِ جحودِ الحق حين يهوى المغضوب عليهم الجحود، وما إلى ذلك من تلك الأمراض المستعصية في النفوس والله من ورائهم محيط.

أمانة الحقائق.. وظاهرة الكفران عندهم

حاجتنا إلى التذكير بما جاء في الكتاب العزيز، والسنة المطهرة، وسيرة الرسول عليه الصلاة والسلام؛ من حقائق عن اليهود، ووقائع تكشف عن خلائقهم، والسمات التي تطبع سلوكهم وتوجه مواقفهم من الحق وأهله بعامة ـ والمسلمين بخاصة. . هذه الحاجة يساويها ـ إن لم يفضلها ـ الحاجة إلى اعتقاد أن الحقائق المشار إليها: أمانة في أعناق المسلمين، هم مسؤولون عن وعيها وإدراك أبعادها، والإفادة منها،في مواجهتهم أولئك الذين لا يرقبون في الإسلام وأهله شيئاً من الحق أو العدل؛ فنصوص القرآن والسنة لم تُعنَ تلك العناية بأخبار اليهود: عبثاً، ولا حفلت بذكر كل ما يكون طريقاً إلى معرفة خلائقهم والسمات المميزة لسلوكهم: قصداً إلى تزجية الوقت، وتسلية المسلمين، معاذ الله أن يكون شيء من ذلك في الكتاب الذي أنزله الله هداية ورحمة وشفاء لما في الصدور، أو في السنة التي هي من الوحي غير المتلو؛ إذ إن رسول الله لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، وطاعته ﷺ من طاعة الله عز وجل: ﴿**مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا** ﴿٨٠﴾﴾ [النساء: ٨٠] ووقائع السيرة تحمل من الدروس والتطبيق العملي لما جاء في القرآن والسنة، ما لا يقع في الغفلة عنه أو عدم الانتفاع به، إلا من سفه نفسه وجنح عن الصراط المستقيم.

وهكذا: فما ورد من المعلومات والحقائق، وكلٌ ما فيه دلالة على نهج

القوم ومنطلقاتهم في التعامل والسلوك.. إنما ورد للعلم والتربية، والعمل على الإعداد وأخذ الحذر واليقظة، وليس مقصوداً به العرضُ التاريخي المنفصل عن العقيدة ووجوب العمل. وأيان شرَّقت أو غرَّبت: يعوزك أن تقع على منصف لا يعيذ المؤمنين الذين يحملون رسالة الخير والهدى، وهمهم مرضاة الله ورسوله وتحقيق كلمة الله العادلة في الأرض.. لا يعيذهم أن يقعوا في شيء من ذلك.

فليس لمؤمن ولا مؤمنة خيرة من أمرهم بأن يقول الواحد منهم: (أريد) أو (لا أريد) مهما كانت الذريعة أو الباعث أمام الذي جاء عن الله أو رسوله ﷺ، ولقد آذن الله تبارك وتعالى المؤمنين بهذه المقولة الجذرية الأساسية ـ وهم يخوضون معارك المواجهة مع مثلث الأذى: اليهود والمشركين والمنافقين ـ ويتحركون علماً وعملاً وجهاداً لبناء المجتمع المسلم والدولة المسلمة، وتنقية الأجواء من أذى المؤذين وفساد المفسدين، لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.. ذلكم قول الله تبارك في سورة الأحزاب: ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا** ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

أقول هذا في أعقاب ما سعدنا باصطحابه من قريب: مما روى الإمام أحمد في مسنده في شأن ذلك اليهودي الذي كشف في مجلس لبني عبد الأشهَل في المدينة ـ والقومُ أهل شرك أصحاب أوثان لا يرون أن بعثاً كائن بعد الموت ـ كشف عن عقيدة الإيمان باليوم الآخر فذكر ـ كما جاء

في الرواية ـ البعث والقيامة والحساب والجنة والنار، وأن كلاً مسؤول عن عمله يوم القيامة ومجزيٌّ به إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وعندما استغرب القوم، وسألوه البرهان على ما يقول. أخبرهم أن آية ذلك نبي يبعث من هنا ـ وأشار إلى مكة واليمن أو إلى مكة كما في بعض الروايات ـ وعندما شدَّدوا عليه في المسألة، فطلبوا تحديد الزمان بجانب ما أشار إليه من تحديد المكان، خرج عليهم بالمهلة القريبة، وأن سَلَمَة بنَ سلامة بنِ وقش ـ وكان أصغر القوم سناً ـ إن يستنفِدْ عمْرَه يدركه.. وبُعث الرسول عليه الصلاة والسلام، وآمن به الناس ـ وفيهم سلمة رضي الله عنه ـ وفوجئوا بكفر اليهودي وجحوده ودعواه من جديد: أن محمداً ﷺ ليس الرسول الذي حدثهم عنه. ذلك ما أضرب به سلمة ـ رضي الله عنه ـ: «فوالله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله رسوله ﷺ وهو حي بين أظهرنا فآمنا به وكفر بغياً وحسداً فقلنا له: ويحك يا فلان ألست الذي قلت فيه ما قلت؟ قال: لى لكنه ليس به».

والذي يكشف عن أن الذي جعله يتعثر ولا يؤمن، هو الحسد والبغي: ما يرى من التناقض الفاضح؛ فقد حدَّد لبني عبد الأشهل المكان والزمان ـ تقريباً بصورة دقيقة ـ.... وحين نكص على عقبية قال: بلى ـ يعني قلت ما قلت، ولكنه ليس به، أي ليس بالمبعوث الذين عيَّنتُ مكان مبعثه وزمانَه، آيةً دالةً على صدق ما ذكرت لكم من البعث والقيامة والحساب والعذاب والجنة والنار، وأن الواحد من أهل النار يتمنى لو يناله أقسى شيء من نار الدنيا ويعافى من العذاب في جهنم.

هذا: وقد جاء حديث هذه الواقعة أيضاً عند أبي عبد الله الحاكم في

«المستدرك» تحت كتاب معرفة الصحابة بنحو ما جاء عند أحمد، حيث روى بسنده عن صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف عن محمود بن لبيب عن سلمة بن سلامة بن وقش أنه قال: كان لنا جار من يهود في بني عبد الأشهل. قال: فخرج علينا يوماً من بيته حتى وقف على بني عبد الأشهل، قال سلمة: وأنا يومئذ حَدَثٌ عليَّ بردة لي مضطجع فيها بفناء أهلي، فذكر القيامة والبعث والحساب والميزان والجنة والنار قال: فقال ذلك في أهل يثرب، والقوم أصحاب أوثان لا يرون بعثاً كائناً بعد الموت، فقالوا له: ويحك أترى هذا كائناً يا فلان؛ أن الناس يبعثون بعد موتهم إلى جنة ونار ويجزون فيها بأعمالهم، قال: نعم والذي يحلف به، قالوا: يا فلان ويحك، وما آية ذلك؟ قال: نبي مبعوث من نحو هذه البلاد وأشار بيده إلى مكة، قالوا: ومتى نراه؟ قال: فنظر إليَّ وأنا أصغرهم سناً فقال: إن يستنفدْ هذا الغلام عمره يدركْه. قال سلمة: وهو حي بين أظهرنا، فآمنا به، وكفر ـ بغياً وحسداً ـ فقلنا له: ويحك يا فلان، ألست الذين قلت لنا فيه ما قلت؟ قال: بلى ولكنه ليس به» قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ـ يعني البخاري ومسلماً ـ وقد وافقه الذهبي على ذلك إذ رمز برواية مسلم.

على أن الحديث قد رواه ابن إسحاق من حديث سلمة بن سلامة ابن وقش، والإمام أحمد ـ كما رأينا ـ وصححه ابن حبان من طريقه.

ولعل من المفيد أن نشير إلى أن راوي الحديث ـ وهو سلمة بن سلامة بن وقش ـ صحابي جليل يكنى أبا عوف، شهد العقبة الأولى والعقبة

الثانية مع السبعين في قول جميعهم، كما شهد بدراً والمشاهد بعدها مع رسول الله ﷺ، ومات سنة خمس وأربعين بالمدينة، وقد جزم الإمام الطبري بأنه مات وهو ابن أربع وسبعين سنة. أما الحاكم أبو عبد الله. فيرى أنه مات وهو ابن سبعين سنة. رضي الله عن الصحابي سلمة وأرضاه، وجزاه الله خير جزائه على ما أوضح في هذه الواقعة، وكشف عن الحقيقة في صنع هذا اليهودي الذي يعتبر تصرفه إشارة إلى الظاهرة اليهودية في الكفران ومظاهرة الباطل على الحق.

﴿ رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران: ٨].

الدَّخل المستعصي.. ووجوب الاعتبار

كلمـا ازداد المسلم بصـيـرة بما كـان من عطاء الآيات القـرآنيـة، والأحـاديث النبـوية ولغة الوقائع العـمليـة في السـيـرة والتـاريخ في شأن اليهود، بشتى صنوفهم.. كان أقدر على تبيُّن الشلل القاتل في عقول من يحسنون الظن بمصادر السوأى، ويخرجون ـ باسم الموضوعية والتجرد في الحكم بعيـداً عن الرواسب كـمـا يزعـمـون ـ إلى الوقـوع في لجة الضـيـاع والغـفلة، والخروج بأحكام قـد لا تمت إلى الحـقـيـقـة والتـجـرد الموضـوعي بصلة.

وليس من التـفكه الفـكري، أو تزجيـة الوقت بالمغـالاة وتحـميل الأمور مالا تحمل: أن يجنح العاقل، بعد الفهم والتدبر للنصوص والوقائع ـ على اختلاف الأزمنة والأشخاص فضلاً عن تنوع الملابسات ـ إلى تقرير الحقيقة كما هي ـ بعيداً عن البهرج الذي يسخِّره إعلامهم، والرعب الذي أدخلوه على كثير من النفوس في العالم، بما يصطنعون من أساليب تهدف إلى الخلاص ممن يقف موقف المناهض لهم، أو المظاهر لأعـدائهـم ـ زعـمـوا ـ والخوف الذي كان ومـا يزال، شعار من يجـفون الحـقـيـقـة وينحـازون إلى صف القاعدين تحت شعار.. ﴿ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ﴾ [المائدة: ٥٢].

دعاني إلى هذا التقديم ـ وأخشى أن يكون من مكرور القول ـ ما كان من عطاء عدد من النصوص والوقائع التي لامست الدَّخَل المستعصيَ في تلك النفوس، وحـركت في المسلمين بواعـث البـعـد عن العـامـيـة في فـهـم

الارتباط بين التصرفات وبين ذلك الدخَل. وكم تنتفع الأمة لحاضرها، إذا أحسنت فهم الماضي وطبيعة المواجهة في ساحات المواجهة، بعد أن منَّ الله عليها بالبيان المعجز في كتابه، والتحليل الدقيق الفذِّ، في حديث من أؤتمن على البلاغ والتبيين محمدٍ عليه الصلاة والسلام.

وفي نظرة متدبرة ـ على هذا السنن ـ نجد أن من الحقائق التي تفصح عنها النصوص ويؤيدها التاريخ وما يزال، وتكسبها الوقائع جِدَّتَها ورسوخها يوماً بعد يوم: أن حاضر اليهود في سلوكهم المناهض للحق الذي نزل به وحي السماء، وللأخلاق التي لا تنفك عن الدين وعما يرتضيه العقل السليم، وفي أساليبهم الملتوية الماكرة في العلاقة بالآخرين؛ عبادةً للمادة، واستهتاراً بالإنسان، وعدواناً على المسلّمات التي يعرفونها كما يعرفون أبناءهم.. من الحقائق على هذه الساحة.. أن حاضر اليهود ـ وهو على هذه الشاكلة ـ ذو نسب واضح لا ينخرم، إلى ماضيهم المعروف، وبخاصة في علاقتهم برسولنا ﷺ والمسلمين.

والزَّغَلُ المردي في نفوسهم، والذي يتمثل في الحسد والبغي وما إليهما: خَلَّةٌ بارزة عملت في الماضي، وتعمل عملها في الحاضر، لتكون ـ واللام للعاقبة ـ باعثاً متجدداً يأخذ أبعاده وينتج آثاره في هذا المضمار، على اختلاف المكان والزمان والقيادات.

فعلى كل ما يُحاز لهم من أمور الدنيا، ومظاهر التعالي والتفاخر اللذين أسهم في طرحهما على أرض الواقع: تخلف الأمة الإسلامية عن إسلامها علماً وعملاً وجهاداً، وانتفاعاً بوقائع السيرة والتاريخ ـ على

وجه العموم ـ . على كل ما يُحاز لهم من ذلك تجدهم لا يفتؤون يمكرون بالمسلمين، مستعينين بمن يشاركونهم الحقد الآثم، ويعملون حسداً وبغياً من عند أنفسهم على أن لا تقوم لأمتنا قائمة، ويودّون لو أن المسلمين ينقلبون إلى جاهلية مُحدَثةٍ، يولّون معها وجوههم شطر الانخداع الكاذب بالضلال، والصد عن سبيل الله، وبذلك يقعون في حمأة الخسر لدينهم ودنياهم جميعاً، ولا تسل عما يكون من واء ذلك!!

والعهد قريب بما رأينا من أنهم ـ بجانب البغي العام ـ حسدوا المسلمين كما أخبر النبي عليه الصلاة والسلام على أمور محدّدة بأعيانها.

وأكثر من هذا: لقد كان الدخَل في النفوس: من حسد وغلٍ وغيظٍ ونحوها، باعثاً على الأذى والفتنة، وعاملاً من عوامل العبث والاستخفاف بالحق الصراح الذي لا يقبل الاحتمال ـ حتى من وجهة نظرهم.

أو ليس من العدوان على الحق، والاستهانة به تحت وطأة الهوى المردي ومعاداة أهل الحق: أن يعلن واحد منهم ـ فيما أفاد من معرفته وثقافته الكتابية ـ عن بعثة رسول مرتقب في الحجاز. بعلامات دالة في الزمان والمكان والأوصاف، وأن هذا الرسول هو محمد بن عبد الله القرشي الهاشمي، وحين يبعث صلوات الله وسلامه عليه: يؤمن به من أخبرهم ذلك اليهودي خبرَه. أما اليهودي نفسه: فيحولُ الحسد الباغي وأسلوب المواجهة الذميمة، دونه ودون الإيمان، أعاذنا الله من هذا الكفر الأسود البغيض وأهله؟!!

لقد كان ما يخفي صدر هذا اليهودي من الضغن، أقوى من الثقافة المزعومة، والمعرفة المزوّدة بالدليل.. وكان التناقض المخزي بين ما بشَّر به وبين موقفه العملي، وسارت معرفته المقطوعة عن الأخلاق والقيم في طريق ـ كما حدّث بذلك سلمة بن سلامة بن وقش ـ رضي الله عنه ـ فيما أخرج الإمام أحمد وأبو عبد الله الحاكم ـ وسار من بشرهم هو ببعثة النبي ﷺ في طريق.. وشتان بين طريقين؛ أولهما: يصل بصاحبه إلى جهنم وبئس المهاد، مع الغضب الإلهي والعنات، والثاني: يصل بصاحبه – إن شاء الله – إلى مرضاة الله تعالى وما أعد من النعيم المقيم لعباده المؤمنين المتقين.

ترى ... أية قيمة يتصورها العاقل لهذه المعرفة التي تضعف أمام البغي الظالم، فتنهزم وتتخلف، ويقوى عليها ما تغلي به الصدور، الحاقدة الحاسدة!

وفي واقع اليهود اليوم ـ وما أسوأ الاستجابة لهم تحت العناوين المزخرفة المخدِّرة ـ عشرات الأدلة التي تطلع على الناس مع مشرق كل شمس، مؤكدة التناقض المومى إليه بين المعرفة والمعتقد، وأن سلوكهم في علاقتهم بالآخرين ـ وبخاصة المسلمين منهم ـ شيء، ودعاواهم على صعيد العلم والثقافة، ومقولات التدين شيء آخر.

وقد أورد الحافظ ابن حجر ـ يرحمه الله ـ واقعة أخرى ليهودي آخر، قد تكون أوضح في الدلالة على ما نقول، رواها يعقوب بن سفيان. وبين يدي ذلك أشار إلى ما روى سلمة ـ رضي الله عنه ـ فقال: وروى ابن

إسحاق من حديث سلمة بن سلامة بن وقش وأخرجه أحمد وصححه ابن حبان من طريقه. قال: كان لنا جار من اليهود بالمدينة، فخرج علينا قبل البعثة بزمان، فذكر الحشر والجنة والنار، فقلنا له: وما آية ذلك؟ قال: فرمى بطرفه إلى السماء ـ وأنا أصغر القوم ـ فقال: إن يستنفدْ هذا الغلام عمره يدركه، قال: فما ذهبت الأيام والليالي حتى بعث الله نبيه وهو حي فآمنا به وكفر هو بغياً وحسداً».

أما عن الواقعة الأخرى: فقال ـ رحمه الله ـ: وروى يعقوب بن سفيان بإسناد حسن عن عائشة – رضي الله عنها – قالت: «كان يهودي قد سكن مكة، فلما كانت الليلة التي ولد فيها النبي ﷺ قال: يا معشر قريش هل ولد فيكم الليلة مولود؟ قالوا: لا نعلم، قال: فإنه ولد هذه الليلة نبي هذه الأمة، بين كتفيه علامة، لا يرضع ليلتين لامس عِفْريتاً من الجن وضع يده على فمه، فانصرفوا، فسألوا، فقيل لهم: قد ولد لعبد الله بن عبد المطلب غلام، فذهب اليهودي معهم إلى أمّه فأخرجته لهم، فلما رأى اليهودي العلامة خرَّ مغشياً عليه وقال: ذهبت النبوة من بني إسرائيل، يا معشر قريش أما والله ليَسْطُوَنّ بكم سطوة يخرج خبرها من المشرق والمغرب».

سبحان الله ... هذا ما يدعوا إلى العجب الذي لا ينتهي.. يحسدون المسلمين على أن تحولت النبوة عن بني إسرائيل إليهم!! ويكفرون بما جاء الأنبياء، بل بلغت بهم العماية أن قتلوا النبيين بغير حق.. فإن كانوا مؤمنين بأن محمداً ﷺ نبي مبعوث: فعليهم أن يؤمنوا

به؛ ولكنهم يريدون أن تسير الأمور على هواهم حتى في شأن النبوة والأنبياء!! وإذا لم تستح فاصنع ما شئت.. إنهم يريدون أن تظل النبوة في بني إسرائيل، مناطَ فخرٍ كاذب واعتزاز هابط، يقودهم إلى الجحيم، لأنه مبتور عن العمل والانقياد لما دعاهم إليه المرسلون..

إنه الضغن الأسود الذي جعلهم في ظمأ دائم إلى الشر والعدوان ـ ولو كان في ذلك تكذيب عملي لما يدَّعون أنهم به مؤمنون، وتناقض صريح مع المعرفة التي بها يفاخرون ـ.. وإنه الماضي الذي يبدو الحاضر أسوأ امتداداً له في السلوك المخزي والعداء الصارخ للإسلام والمسلمين.

فهل تعتبر أمتنا بالماضي الذي يؤيده الحاضر، ويؤكده أوضح تأكيد؟!

الغادرون.. والانتقام من التاريخ

كلما أمعن المتتبع لخصائص الشعوب، ووقائع التاريخ، النظرَ فيما كان من مواقف اليهود من الحق وأهله ـ بعامة ـ ومن الإسلام والمسلمين ورسولهم عليه الصلاة والسلام ـ بخاصة ـ ازداد يقيناً بأن ما زخرت به نصوص الكتاب والسنة، من تفصيل في الانحراف الذي يطبع خلائقهم، هو عين الصدق والحكمة؛ لما أن الكلام كلام العليم بخبايا نفوسهم، الخبير سبحانه بما تكنه صدورهم، كما أنه كلام رسوله الأمين الذي لا ينطق عن الهوىٰ ﴿ **إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى** ﴿٤﴾ ﴾ [النجم: ٤] مضموماً إلى ذلك ما تكرر منهم من المكر، ونكث العهد. والافتراء، والتشوف إلى كل ما فيه العدوان على دين الله، والحق والإنسان.

ثم إن ازدياد اليقين هذا: من مشتملاته: أن العدل كلَّ العدل من الله الذي لا يظلم أحداً من خلقه، كان في أن غضب ـ جل شأنه ـ عليهم ولعنهم، وضرب عليهم الذلة والمسكنة أنيما ثُقفوا، إلا بحبل من الله وحبل من الناس، وأعدَّ لهم جهنم وساءت مصيراً ﴿ **قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ** ﴿٦٠﴾ ﴾ [المائدة: ٦٠].

وقد أشرت غير مرة إلى أن المسؤولية عن وعي ذلك كله وتدبره، حرصاً على نصرة الحق والذود عن حمى الدين والأمة، ووضع الأمور في

نصابها الحقيقي، مسؤوليةٌ لا يخرج المسلم من عهدتها إلا بالعمل الصادق المخلص وفق مدلولها، والأخذِ بأسباب الحيطة والمواجهة، وفق ما تمليه السنن الربانية، وإعداد القوة المستطاعة بوعي وبصيرة بالواقع؛ كلٌّ حسب موقعه وقدرته، والثغر الذي أقامه الله عليه.

وغير خافٍ أن الصدقَ في إنكار الواقع الذي تتفتَّت له الأكباد، في علاقة أمتنا باليهود واستفظاعَه، يقتضي الأمة قراءة متدبرة واعية لما جاءت به الكلمات الهاديات من تلك الحقائق، وما وعته ذاكرة السيرة والتاريخ الإسلامي، من أحداث تزيد القناعة رسوخاً، والطمأنينة عمقاً وفاعلية، بحيث ينعكس ذلك عملاً منهجياً مخلصاً، يتم بالعزيمة والجدّ، وينأى عن سلطان الأنا ورغبات المنافقين، وحركةً يقودها مقنع القادرين المخلصين بأنه لا يجدي في معاملة أولئك الأناسي، إلا استخدام اللغة التي استخدمها رسول الله ﷺ المؤيد بالوحي ـ وهذا لا يتعارض مع تطور الأساليب ـ والحرصُ على مرضاة الله في الإعداد والمواجهة في كل ميدان ـ وما أكثر الميادين ـ كيما يتحقق نصر الله، وفقاً لسنته الحكيمة التي لا تتبدل، كما جاء في قوله جل شأنه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ ﴾ [محمد: ٧] ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [آل عمران: ١٦٠] ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢١٤].

لم يكن بد من سوق هذه الكلمات، وأنا بسبيل التذكير بحقيقة تبدو الغفلة عنها من الأمراض التي ابتليت بها الأمة.. وهي أن اليهودي ـ وقل مثل ذلك فيمن هو على شاكلته من أعداء الله على تنوع الأساليب والوسائل ـ مهما أوتي من زخرف القول، والقدرة على العبث ببعض العقول، تظل بعض منطلقاته في علاقته بالمسلمين وحضارة الإسلام، قائمة على الانتقام من التاريخ الذي بدأ من بعثة نبينا محمد ﷺ، والعطش القاتل إلى التدمير والإفناء لو أمكن ذلك. واتخاذ المستطاع من الأسباب ـ ومن ذلك تسخير العلم والإعلام والانحراف الخلقي وتهديم القيم تحت شتى العناوين ـ في سبيل إيذائهم، ووضع المعوقات التي تحول دونهم ودون القضاء على ماهم مبتلون به من التخلف عن ركب الإسلام في حقيقته وقطع المسافة بين الواقع، وبين ما يجب أن يكون.

ومعلوم أن إغماض العين عن هذه الحقيقة، على ساحة المواجهة والإعداد: أدنى درجات الحكم عليه، أنه بله وغفلة، وأعلاها، أنه مخالفة للدين والواقع.

ولقد كان واضحاً من بعض النصوص التي ألممنا بها من قبل، أن تحية نفر من اليهود للنبي ﷺ كانت تحمل الدعاء بالموت أو السآمة من الدين، وأن ذلك كان يتكرر مرة بعد مرة. وأوضح صلوات الله وسلامه عليه ـ كما دلت بعض الروايات ـ أن الذي يدعو اليهود إلى هذه التحية الظالمة التي لم يحيِّه بها الله: حسد يأكل قلوبهم، وبغي لا يفارق نفوسهم في ليل أو نهار..

وهذا الذي يراد التذكير به، يقودنا إلى ما ثبت من أن الموت الذي كانوا يدعون به عندما يقولون: «السام عليكم» قد خرج في بعض صوره إلي أكثر من محاولة يراد من ورائها اغتيال الرسول ﷺ، وحيث يكونون هم البادئين بالشر غدراً، أو مكراً وتبييتاً للسوء؛ فمن المعلوم أنه عليه الصلاة والسلام لما قدم المدينة مهاجراً، أحسن معاملتهم، وضمن لهم ـ وهو في موقع القوة ـ حقوق الحياة الكريمة على خير وجه من الدقة وتكريم الإنسان؛ وذلك بالوثيقة المشهورة، وأعطاهم عهداً وذمة على أن لا يقاتلهم ولا يقاتلوه، وأن عليهم بعض الواجبات الدفاعية والمالية عندما يقتضي الأمر، ولكن سرعان ما نقضوا العهد الذي كان بينه وبينهم، فأحل الله بهم بأسه الذي لا يرد، وأنزل عليهم قضاءه الذي لا يُصد.

وقد وقعت حادثة اقتضت أن يذهب رسول الله ﷺ إلى بني النضير فكان منهم الغدر ومحاولة الاغتيال؛ وقصة ذلك ـ كما هي عند ابن إسحاق وغيره ـ أنه لما قتل أصحاب بئر معونة من قتلوا من أصحاب النبي ﷺ وكانوا سبعين، وأفلت منهم عمرو بن أمية الضَّمري؛ فلما رجع ـ رضي الله عنه ـ أخبر رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله عليه الصلاة والسلام: «لقد قتلتَ رجلين لأدينَّهما» يعني لأدفعن ديتيهما. وكان بين بني النضير وبين بني عامر حلفٌ وعهد، فخرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير ـ بناءً على العهد ـ ليستعينهم في دية ذينك الرجلين، وكانت منازل بني النضير ظاهر المدينة على أميال منها شرقيَّها. فلما وصل الرسول ﷺ وحدّثهم بما أرد، قالوا: نعم يا أبا القاسم نعنيك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه، ثم خلا بعضهم ببعض، وقد تحركت في

نفوسهم كوامن الغلِّ الدفين، وأزمعوا الغدر برسول الله ﷺ ـ وهو في منازلهم وقتلَه غيلةً. وهكذا قال بعضهم لبعض: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه ـ ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار بيوتهم ـ فمن رجل يعلو على هذا البيت، فيلقي عليه صخرة، فيريحنا منه!؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب أحدهم فقال: أنا لذلك، فصعد ليلقي عليه صخرة كما قال ـ ورسول الله ﷺ في نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلي ـ رضي الله عنهم ـ فأتى رسولَ الله ﷺ الخبرُ من السماء بما أراد القوم، فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة، فسألوه عنه، فقال: رأيته داخلاً المدينة، فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتهوا إليه، فأخبرهم الخبر بما كانت يهود أرادت من الغدر به، وأمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لحربهم والمسير إليهم..

هكذا لم يُقم هؤلاء الغدارون ـ تحت وطأة الحسد والغل ـ وزناً للعهد الذي كان في صالحهم، قبل أن يكون في صالح المسلمين ـ وعلى رأسهم رسول الله ﷺ ـ كما أنهم لم يلتفتوا أيَّ التفاتة إلى مقدار الشناعة التي يُقدمون عليها في الغدر به ـ صلى الله وسلم وبارك عليه ـ حين يحاولون اغتياله وهو إلى جنب جدار بيوتهم، بعد أن تظاهروا بالاستجابة لطلبه المتسق مع وثيقة العهد، الأمر الذي يدل على أن هذا الصنيع، ذو نسب أصيل بالغ الحطة إلى تحية الدعوة عليه بالموت!! فهل من سبيل بعد هذا إلى حسن الظن؟ ما أحسب أن ذلك يمكن أن يكون إلا إذا اضطربت الموازين واستبدل الذي هو أدنى ـ على صعيد الفكر وتحليل الوقائع ـ بالذي هو خير.

ولنفترض جدلاً أننا لم نسمِّ الأمور بغير أسمائها، ولم نخضع لتزيين الشياطين!! فهل ننسى أن هذا الذي نذكِّر به، واقعة تأخذ مكانها ضمن عدد لا يستهان به من الوقائع؟ وإنما يكون توكيد ذلك بوضع الوثيقة التي حملت العهد موضعها المناسب، ثم النظر إلى النسبة كمّاً وكيفاً ـ بين ما اجترحته أيدي يهود، وبين السنوات العشر التي كانت الوعاء الزمني لتعاملهم في حالات السلم والحرب مع المسلمين في عصر النبوة، وإن كانوا قد بدؤوا بالأذية مبكرين قبل هجرة المصطفى صلوات الله وسلامه عليه.

أما عن محاولة الاغتيال بوضع السم في الطعام: فقد كانت محاولة بالغة الإثم والانحدار المقيت!! ولكن اليهود ببغيهم العاتي، ودخيلتهم المبرّأة من أي معنى من معاني الخير ـ إلا أن يكون في ذلك مصلحة تمليها الضوابط اليهودية ـ أقول: ولكن اليهود؛ هم اليهود دونما فارق في الزمان أو المكان، أو الأدمغة التي تدير معاركهم مع الحق وأهله، من أبناء الإسلام.

أنظر في خبر المحاولة فأجدني ـ كما سبق ذلك ـ أمام عدد من الروايات التي تفيد أن شاة مسمومة أهديت إلى الرسول عليه الصلاة والسلام، حيث بيّت القوم أمر الاغتيال، وأن يكون عن هذه الطريق الموهمة التي ظاهرها الإكرام المنبئ عن شيء من الرضى عن منهج رسول الله ﷺ، وقَبِلَ الهدية صلوات الله وسلامه عليه، في ضوء الهدف الكبير هدف الدعوة إلى الله بالحكمة التي تضع الإحسان موضعه، والحرب موضعها، حتى مع اليهود!!

وكان ذلك في أعقاب غزوة خيبر التي وقعت في السنة السابعة للهجرة، ونصر الله فيها المسلمين على أعدائهم ـ بعد مواجهة مريرة ـ نصراً مؤزاً زاخراً بالعبر والدروس.

وموعدنا ـ إن شاء الله ـ صفحات قادمات نعاود فيها النظر فيما يتسع المقام لذكره من الروايات بغية الاستنارة بعطائها، والانتفاع بما تدل عليه وتهدي إليه من دروس حافلة بالعظة والتوجيه السديد الرشيد.

وصلى الله وسلم وبارك على من أدى الأمانة، وبلغ الرسالة، وصبر وصابر، وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين..

ظاهرة الغدر.. أيضاً

لم يكن عجباً من العجب، أن يعمل اليهود على أن يلقى رسول الله ﷺ ـ فداه أبي وأمي ـ مصرعه بأية وسيلة يرونها. ولقد سوّلت لهم أنفسهم التي ما عرفت إلا الحقد والضغينة والحسد أن يعمدوا إلى إزهاق روحه من طريق السم؛ فأهدوا إليه ـ وياله من أسلوب بالغ الدناءة والخسّة ـ شاةً مسمومة ليعمل السم عمله، وبذلك يروون الغل الذي يأكل منهم القلوب، ويحولون ـ على زعمهم ـ دونه عليه الصلاة والسلام، ودون أن يحقق ما يريد من إعلاء كلمة الله في الأرض، وتمكين الدين للمسلمين.

أجل لم يكن ذلك عجباً من العجب، ولكن المهم أن تكون الأمة على ذكر من ذلك كيما تحسن فقه الترابط بين الجزئيات وكلياتها التي تنتمي إليها، وكيما يتمَّ لها الانتفاع بدلالته البعيدة في نفوس القوم، وما يحمل من مؤشرات تكشف عما ينطوون عليه من حب الأذى، لمن يخالفهم في المعتقد والاتجاه، دون مبالاة بتجاوز الحدود التي تصون الحق وتحميه، وانتاك حرمات الدين والأخلاق، وكل ما به تتحقق إنسانية الإنسان.

ومن الجدير بالذكر: أن حديث الشاة المسمومة أخرجه أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والدارمي والحاكم والبيهقي وغيرهم، كما رواه محمد بن إسحاق في السيرة. ولعل من المفيد البدء بإيراد بعض الروايات التي حملت الإشارة إلى جماعة من اليهود ـ عموماً ـ في وضع

السم، دون تحديد إنسان بعينه. من ذلك ما روى البخاري في كتاب الجزية والموادعة من الجهاد باب «إذا غدر المشركون بالمسلمين هل يعفى عنهم» من جامعه الصحيح حيث قال ـ رحمه الله ـ: حدثنا عبد الله بن يوسف قال: حدثنا الليث قال: حدثني سعيد عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: «لما فتحت خيبر أهديت للنبي ﷺ شاةٌ فيها سُمٌّ، فقال النبي ﷺ: اجمعوا لي من كان ههنا من يهود، فجُمعوا له، فقال: إني سائلكم عن شيء، فهل أنتم صادقيَّ عنه؟ فقالوا: نعم، قال لهم النبي ﷺ: من أبوكم؟ قالوا: أبونا فلان، فقال: كذبتم بل أبوكم فلان، قالوا صدقت: قال: فهل أنتم صادقيَّ عن شيء إن سألتُ عنه؟ فقالوا: نعم يا أبا القاسم وإن كذبنا عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا. فقال لهم رسول الله ﷺ: من أهل النار؟ قالوا: نكون فيها يسيراً ثم تخلفوننا فيها، فقال النبي ﷺ: اخسؤوا فيها والله لا نخلفكم فيها أبداً. ثم قال: هل أنتم صادقيَّ عن شيء إن سألتكم عنه؟ قالوا: نعم يا أبا القاسم. قال: هل جعلتم في هذه الشاة سماً؟ قالوا: نعم: قال: ما حملكم على ذلك؟ قالوا: إن كنت كاذباً نستريح، وإن كنت صادقا نبياً لم يضرك» ورواه الدارمي بهذا اللفظ وأحمد.

وتجدر الإشارة إلى أن من فقه الإمام البخاري، أنه جاء بهذه الرواية نفسها ـ على اختلاف يسير في بعض الألفاظ ـ من طريق آخر عن أبي هريرة أيضاً ولكن تحت باب «ما يذكر في سُم النبي ﷺ رواه عروة عن عائشة عن النبي ﷺ» من كتاب الطب إذ قال هناك: حدثنا قتيبة قال: حدثنا الليث عن سعيد بن أبي سعيد عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ

قال: لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله ﷺ شاة فيها سم ... » الحديث، ولكن جاء في هذه الرواية « فهل أنتم صادقوني » كما جاء فيها « قالوا: صدقت وبررت ». والملاحظ أن الرواية السابقة جاءت بلفظ « صادقيَّ » بينما جاءت هذه الرواية بلفظ « صادقوني » ثلاث مرات. وقد ذهب ابن التين ـ كما نقل عنه الحافظ ابن حجر ـ إلى أن الصواب « صادقيَّ » كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾ وكما في الحديث « أو مخرجيَّ هم ». وأجاب عن ذلك الحافظ بما نقل عن بعض علماء العربية من جواز أن تكون النون الباقية في « صادقوني » نون الوقاية، وجواز أن تكون نونَ الجمع.

ومن فقه البخاري أيضاً: أنه أخرج القصة مرة ثالثة في المغازي « باب الشاة التي سمت النبي ﷺ » ولكن برواية مختصرة جاءت بلفظ « لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله ﷺ شاة فيها سُمٌّ ».

وأنت ترى أن الأسلوب الذي سلكه أولئك اليهود، الذين سألهم رسول الله ﷺ عما سأل، كان أسلوباً في غاية اللين ـ كما يبدو ـ لما أن اللقاء حصل في أعقاب خيبر التي هزموا فيها شر هزيمة، مع الدعاوى العريضة، وكثافة الاستعداد والحصون المحصَّنة المنيعة. ثم إنه أسلوب يتفق مع وضعهم السم في ذلك الطعام المهدى للرسول عليه الصلاة والسلام، عنوانَ اللؤم المكر والغدر، وكلامهم على هذه الصورة من اللين المتكلّف يذكرنا بقول الشاعر:

خشونة الصِّلِّ عقبى ذلك اللين

والصلُّ: الحيَّة السامة التي لا تنفع معها الرقية، وكم هي ناعمة الملمس، أو الحيّة التي تقتل إذا نهشت من ساعتها.

وغير خاف أن اليهود كذبوا رسول الله ﷺ بثنتين، وصدقوه بتعليل خبيث لفعلتهم النكراء في الثالثة؛ فحين سألهم من أبوكم؟ كذبوا في الجواب، وكشف رسول الله ﷺ عن هذا الكذب فيما أجابوا به، وعندها قالوا: صدقت وبررت ـ من البر ـ وحين سألهم من أهل النار؟ لم يبالوا أن يتسافهوا في الجواب فيقولوا: نكون فيها يسيراً ثم تخلفوننا فيها!! أرادوا أنهم يمكثون في جهنم ـ التي هي مأواهم وبئس المصير ـ عدداً محدوداً من الأيام، وبما أنهم أبناء الله وأحباؤه ـ على زعمهم ـ يخرجون منها إلى الجنة، ثم يخلفهم المسلمون فيستقرون فيها؛ فكان أن عَرَّى الصادق الأمين صلوات الله وسلامه عليه هذا التخرُّصَ في ادعائهم الباطل فقال: «اخسؤوا فيها والله لا نخلفكم فيها أبداً». قال ذلك زجراً لهم بالطرد والإبعاد، أو دعاءً عليهم بذلك نافياً ـ على التأبيد ـ دعواهم أن المسلمين يخلفونهم في نار الجحيم التي هي مأواهم على وجه الخلود. فقوله ﷺ: «والله لا نخلفكم فيها» مؤكد لحقيقة أن من يدخل النار من عصاة المسلمين، لابد أن يخرج منها ـ بفضل الله ورحمته ـ فلا يتصور أن يخلف غيره أصلاً.

ودعوى اليهود ـ المزعومة ـ أنهم لا يمكثون في النار إلا أياماً معدودة، قائمة على كونهم أهلَ القرب من الله ـ كما سبقت الإشارة ـ وهو استدلال أكذب وأعتى من الدعوى. وقد أشير إلى ذلك في سورة البقرة بدءاً من الآية الثمانين؛ حيث جاء ذكر تلك الدعوى ـ التي تبعث على

السخرية ـ وتفنيدها، في قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [البقرة: ٨٠ ـ ٨١].

وقد جاء في بعض الروايات عند أهل التأويل، أنهم عنوا بالأيام المعدودة الأربعين يوماً مدة عبادتهم العجل... وسنأتي على تفصيل ذلك في حينه إن شاء الله.

وفي سورة آل عمران نقرأ قول الله تباركت أسماؤه، بدءاً من الآية الثالثة والعشرين: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [آل عمران: ٢٣ ـ ٢٥].

أما عن الذي صدَق اليهود فيه النبيَّ عليه الصلاة والسلام ـ وهو بيت القصيد فيما نحن فيه ـ فهو اعترافهم أنهم جعلوا في الشاة المهداة له سماً عندما سألهم عن ذلك، ولكنه صدقٌ قرنوه بتعليل يهودي خبيث ممجوج، واعتذارٍ أسوأ منه وأخبث؛ فكان العذر أقبح من الذنب؛ ذلك قولهم دونما حياء أو أثارة من خجل: «إذا كنت كاذباً نستريح منك وإن كنت نبياً لم يضرَّك» سبحان الله!! ذلكم هو منهج إبليس؛ الجريمة النكراء، مع التعالي البارد السخيف!! يقدمون على هذا الإجرام،

فيحاولون قتل سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه بالسم، والسم في ماذا؟ في طعام يهدونه له ـ مشتركين أو عن طريق امرأة منهم يرضون عملها ـ كما في بعض الروايات ـ بعد أن بيتوا ذلك بليل، ورسموا خطواته وكيف يجب أن يكون.

ألا ما أحوج المسلمين أن يفيدوا من فقه هذه الواقعة!! مزاولةٌ للجريمة في أبشع صورها، واعتذار يكاد يكون أشنع من الجريمة نفسها، وجراءة على الله والحق وبين الناس، لاتكاد تصدر إلا عن هؤلاء الذين أثقلتهم أوزارهم وأظلمت قلوبهم، وكان من عمى بصيرتهم: هذا التمادي في الضلال؛ إجراماً وتسويغاً للإجرام.

كل هذا يجري وهم قانعون ـ على ساحة العلم بالكتاب ـ بأن محمداً ﷺ الذي جعلوا من محاولة إزهاق روحه بالسم، اختباراً للصدق أو غيره ـ على ما يزعمون ـ رسولٌ من عند الله حقاً وصدقاً، أخبرهم عن صفاته بالتفصيل كتابهم، فهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، بل كانوا يستفتحون به على الذين كفروا، أي يطلبون النصر عليهم، حيث يقولون: اللهم انصرنا عليهم بالنبي المبعوث آخر الزمان.

ألا إنه الحسد الذي عبث بالعقول، والبغي الذي ران على القلوب؛ فكان الكفر البواح، وكان الغدر والدس والافتراء والمكر، بل كانت الحرب التي اتخذت أكثر من لون وصورة. ومن ذلك هذا الذي نرى في الحديث الذي أسعدنا بعطائه المستنير في هذه الرحلة المباركة، التي لابد من متابعتها في صفحات قريبات إن شاء الله.

والله المسؤول أن يشرح الصدور لفقه تلك السلسلة النكدة من وقائع الماضي التي تشير إلى ظاهرة الحرص على الأذى؛ غدراً ونقضاً للمواثيق، كي يحصل الانتفاع بها في الحاضر، فالكلام كلام الله، ومن أصدق من الله حديثاً!! والبيان بيان رسول الله عليه الصلاة والسلام الذي لا ينطق عن الهوى، والوقائع العملية في وضوحها البيّن لا تحتمل أيَّ لبس أو غموض. والله المستعان.

همسة مبكرة في أذن التاريخ

على صعيد المواجهة بين الحق والباطل، كان تمالؤ اليهود على الغدر المغرق في الحطة، بالنبي ﷺ للقضاء على حياته، همسةً عميقة مبكرة في أذن التاريخ، مؤذنةً بأن ذوي الأحلام الشيطانية؛ من الممكن أن يقوموا بأي عمل ـ مهما بلغ من الإثم والعدوان ـ ما داموا يرون فيه تحقيق باطلهم، والانتصارَ على أهل الحق الذين يحتكمون إلى شرعة السماء، ويستمسكون بما تمليه الأخلاق التي ترتد إلى الدين.

ولون الغدر الذي أعنيه: ما كان من واقعة الشاة المسمومة التي أهديت إليه من يهود خيبر ـ كما سبق تفصيله ـ؛ وبعضها يشير إلى امرأة يهودية دون تسميتها، وبعضها يشير إلى أن اسمها زينب، ولكن تلك الروايات ـ بمجموعها ـ تدل دلالة واضحة على أن اليهود قد بيتوا هذه المكيدة، وأعلنوا في حوارهم مع الرسول ﷺ بعدها اعترافهم بذلك، متعللين بعلة هي دون أن توصف بالواهية.

وعلى هذا: لا غنى عن الإشارة، إلى ما يعين على استجلاء الحقيقة من تلك الروايات!! وقد وقفنا من قريب على روايات ثلاث أخرجها الإمام البخاري؛ إحداها في الجزية والموادعة، والثانية في الطب، والثالثة ـ وهي المختصرة ـ في المغازي.

وهذه رواية أخرى عنده صريحة، في أن التي قامت بإهداء الشاة

المسمومة امرأة يهودية؛ قال ـ رحمه الله ـ في «باب قبول الهدية من المشركين» من كتاب الهبة في الجامع الصحيح: حدثنا عبدالله بن عبدالوهاب قال: حدثنا خالد بن الحارث قال: حدثنا شعبة عن هشام ابن زيد عن أنس بن مالك – رضي الله عنه –: «أن يهودية أتت النبي ﷺ بشاة مسموة فأكل منها فقيل: ألا نقتلها؟ قال: لا. فما زلت أعرفها في لهوات رسول الله ﷺ».

اللهوات: بفتح اللام جمع لهاة وهي سقف الفم أو اللحمة المشرفة على الحلق، وقيل: أقصى الحلق، وقيل: ما يبدو من الفم عند التبسم. وقال ابن الأثير في النهاية: (وفي حديث الشاة المسمومة «فما زلت أعرفها في لهوات رسول الله ﷺ») اللهوات: جمع لهاة وهي اللَحمة في سقف أقصى الفم.

وهناك مايدل على أن هذه المرأة اعترفت بأنها صانعة الجريمة، وأنها أرادت بذلك قتله عليه الصلاة والسلام. أخرج الإمام مسلم بسنده عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – «أن امرأة يهودية أتت رسول الله ﷺ بشاة مسمومة، فأكل منها، فجيء بها إلى رسول الله ﷺ فسألها عن ذلك؟ فقالت: أردت لأقتلك. قال: «ما كان الله ليسلطك على ذاك». قال: أو قال: «عليَّ» قال: قالوا: ألا نقتلها؟ قال: لا. فما زلت أعرفها في لهوات رسول الله ﷺ» ورواه أبو داود في كتاب الديات من «السنن». قوله: فما زلت أعرفها، أي العلامة، كأنه بقي للسم علامة وأثر من سواد أو غيره.

وفي هذه الرواية عند مسلم وأبي داود ـ كما يلاحظ ـ شيء من التفصيل لما جاء عند البخاري إذ جاءت الرواية هناك مختصرة لم يذكر فيها سؤال رسول الله ﷺ اليهودية عن سبب فعلها وما أجابت به.

وفي رواية للإمام أحمد ما يدل على أن المرأة ـ مع إقرارها ـ علّلت عملها المشؤوم، بما علّل به قومها؛ من أنه ﷺ إن كان نبياً، فإن الله سيطلعه على ما أريد له، أو أنه لا يضره السم، وإن كان غير ذلك: أريح الناس منه!! سبحان الله ما أسوأ تأويلات شياطين الإنس!!

وجاء في المسند قول عبد الله بن الإمام أحمد – رحمهما الله –: حدثني أبي قال: حدثني شُريح قال: حدثنا عباد عن هلال عن عكرمة عن ابن عباس – رضي الله عنهما – «أن امرأة من اليهود أهدت لرسول الله ﷺ شاة مسمومة، فأرسل إليها فقال: ما حملك على ما صنعت؟ قالت: أحببت ـ أو أردت ـ إن كنت نبياً، فإن الله سيطلعك عليه، وإن لم تكن نبياً، أريح الناس منك، قال: وكان رسول الله ﷺ إذا وجد من ذلك شيئاً احتجم. قال: فسافر مرة، فلما أحرم وجد من ذلك شيئاً فاحتجم».

وأخرج أبو داود في كتاب الديات من «السنن» والدارمي في باب «ما أكرم الله نبيه ﷺ من كلام الموتى» من سُننه أيضاً عن ابن شهابٍ الزهري قال: كان جابر بن عبد الله – رضي الله عنهما – يحدث «أن يهودية من أهل خيبر سمّت شاةً مصليّةً ثم أهدتها لرسول الله ﷺ، فأخذ رسول الله ﷺ منها الذراع، فأكل منها، وأكل رهط من أصحابه معه، ثم قال لهم رسول الله ﷺ ارفعوا أيديكم، وأرسل عليه الصلاة والسلام إلى اليهودية،

فدعاها، فقال لها: أسممت هذه الشاة؟ فقالت: نعم،ومن أخبرك؟ فقال النبي ﷺ: أخبرتني هذه في يدي ـ للذراع ـ فقالت: نعم، قال: فما أردت إلى ذلك؟ قالت: قلت: إن كان نبياً لم يضرّه وإن لم يكن نبياً استرحنا منه. فعفا عنها رسول الله ﷺ ولم يعاقبها، وتوفي بعض أصحابه الذين أكلوا من الشاة»، واحتجم النبي ﷺ على كاهله من أجل الذي أكل من الشاة، حجمه أبو هند بالقَرن والشَّفرة، وهو مولى لبني بياضة من الأنصار. ولفظ الدارمي: حجم أبو هند مولى بني بياضة بالقَرن والشَّفرة، وهو من بني ثمامة وهم حي من الأنصار.

مصليَّةً: أي مشوية بالصّلاء (النار). والحديث بهذه الرواية منقطع عند المحدثين لأن ابن شهاب لم يسمع من جابر بن عبدالله. وجاء في رواية أخرى للدارمي« .. فقال في مرضه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما زلت من الأكلة التي أكلت بخيبر فهذا أوان انقطاع أبهري» رواه أيضاً أبو داود مرسلاً ووصله البيهقي عن أبي هريرة.

ومسألة العفو عن هذه المرأة أو قتلها: عرض لها العلماء بشيء من التفصيل إذ هنالك روايات تنص على أنه ﷺ قتلها، وكان لابد من التعليل والبيان.

والمرأة ـ كما يروي ابن إسحاق في السيرة وغيره ـ هي زينب بنت الحارث بن سلام امرأة سلاّم بن مشكم، وهي أخت مَرحب اليهودي، كما جاء عند أبي داود أو بنت أخي مرحب ـ كما هو عند البيهقي ـ ووافق موسى بن عقبة أنها زينب بنت الحارث. قال ابن إسحاق في السيرة: «لما

اطمأن النبي ﷺ بعد فتح خيبر أهدت له زينب بنت الحارث امرأة سلاّم بن مشكم شاة مشويَّةً، وكانت سألت: أيُّ عضو من الشاة أحب إليه؟ قيل لها: الذراع، فأكثرت فيها من السُّم؛ فلما تناول الذراع لاك منها مُضغة ولم يُسغها، وأكل معه بشر بن البراء، فأساغ لقمته... فذكر القصة، وأنه ﷺ صفح عنها وأن بشر بن البراء مات منها». وجاء في رواية للبيهقي عن أبي هريرة قال: «فما عرض لها» وفي رواية أخرى عن جابر «فلم يعاقبها» وروى عبد الرزاق في مصنّفه بالسند إلى أبي بن كعب مثل ذلك وزاد «فاحتجم على الكاهل» قال: قال الزهري: فأسلمت فتركها. قال معمر: والناس يقولون: قتلها. وروى أبو داود أيضاً أنه قتلها.

وأخرج ابن سعد في كتابه «الطبقات الكبرى» عن شيخه الواقدي بأسانيد متعددة هذه القصة التي تحكي مسلك اليهود مع النبي ﷺ والمسلمين مطوّلةً، وجاء في آخرها: قال: «فدفعها إلى ولاة بشر بن البراء فقتلوها» قال الواقدي: وهو الثبتُ. قال البيهقي: يحتمل أن يكون تركها أولاً ثم لما مات بشر بن البراء من الأكلة قتلها. وجنح إلي ذلك السهيلي في «الروض الأنف» فقال: (ووجه الجمع بين الروايتين أنه عليه الصلاة والسلام صفح عنها أول الأمر، لأنه كان ﷺ لا ينتقم لنفسه، فلما مات بشر بن البراء من تلك الأكلة، قتلها، وذلك أن بشراً لم يزل معتلاً من تلك الأكلة، حتى مات منها بعد حول. وقال النبي ﷺ عند موته: «ما زالت أكلة خيبر تعاودني فهذا أوان قطعت أبهري، وكان ينفث منها مثل عجم الزبيب». وتعاودني: أي تعتادني المرة بعد المرة.

هذا: وقد روى معمر بن راشد في جامعه عن الزهري أنه قال: «أسلمت فتركها النبي ﷺ». قال معمر: هكذا قال الزهري: أسلمت، والناس يقولون: قتلها وأنها لم تسلم. قال الحافظ في «فتح الباري»: ولم ينفرد الزهري بدعواه أنها أسلمت؛ فقد جزم بذلك سليمان التيمي في مغازيه ولفظه بعد قولها: وإن كنت كاذباً أرحت الناس منك: «وقد استبان لي الآن أنك صادق، وأنا أشهدك ومن حضر أني على دينك، وأن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله» قال: فانصرف عنها حين أسلمت.

وجاء في «الإصابة في تمييز الصحابة» للحافظ ابن حجر: (زينب بنت الحارث بن سلام الإسرائيلية؛ ذكر معمر في جامعه عن الزهري «أنها اليهودية التي كانت دسَّت الشاة المسمومة للنبي ﷺ فأسلمت، فتركها النبي ﷺ». وقال غيره: إنه قتلها، وقيل: إنما قتلها قصاصاً لبشر بن البراء لأنه كان أكل معه الشاة فمات بعد حول. وأورد السهيلي في «الروض الأنف» ما جاء في جامع معمر بن راشد أيضاً: من أن أم بشر بن البراء قالت للنبي ﷺ في المرض الذي مات منه: ما تتهم يا رسول الله؟ فإني لا أتَّهِم ببشر إلا الأكلة التي أكلها معك بخيبر فقال: «وأنا لا أتهم بنفسي إلا ذلك، فهذا أوان قطعت أبهري».

ومهما يكن من أمر: فإن اختلاف الأقوال في إسلام اليهودية المذكورة، التي وُكل إليها تنفيذ المؤامرة المنكرة الهابطة على حياة النبي ﷺ لا يغيِّر من واقع التآمر اليهوديِّ شيئاً، ذلك التآمر الذي يعدو على

الحق الأبلج المتمثِّل في عملهم اليقيني أن الذي يأتمرون به ليقتلوه غيلة بدس السم، بعد أن أخفقوا في المواجهة، رسول من عند الله مصدّق لما أنزل الله من التوراة والإنجيل وغيرهما من وحي السماء، وكانوا من قبل يستفتحون به على الذين كفروا. صحيح أن الحرب بين الحق والباطل سجال، ولكن الرسول ﷺ بدأهم أولَ ما بدأهم بالإحسان، وكتب لهم الوثيقة التي تحفظ حقوقهم كاملة غير منقوصة، ولكنهم أبوا إلا الإساءة والتسربل بسربال المكر والغدر، وكل أولئك من نفثات الحسد والغيظ، والحقد الدفين.

ولقد ثبت أنهم ركبوا أيضاً متن الكذب والنفاق، في دعوى أن ما عمدوا إليه من إطعامه الشاة المسمومة، كان القصد من ورائه اختبار صدق دعوى النبوة؛ لأن الرسول ﷺ أطلعه الله على ما عمدوا إليه، ودلّ ذلك على كمال صدقه ﷺ؛ حتى على رأي من يرون إسلام زينب: فإن أمر بهتان القوم يزداد انكشافاً، وإلا فما معنى انتظار ما يدل على الصدق أوغيره إن لم تكن لذلك ثمرة، ولِمَ لم يؤمنوا بعد هذا الوضوح؟؟.

سمومهم اليوم أدهى... وللتنبُّه أدعى

لا تثريب على الناظر في خلائق يهود؛ بحثاً عن الحقيقة بتجرد وأمانة، أن يذهب إلى أن ما قام به اليهود، من جعل واحد من مراكب الموت، هديةً لرسولنا المصطفى عليه الصلاة والسلام، سَداها ولَحمتها السّم الناقع ـ إلى جانب كونه جريمة نكراء ـ لها دلالتها العميقة على ما وراء ذلك من الحقد والحرص على الأذى بأية وسيلة ـ يزيدها شناعة أن يكون مركب الموت هدية الطعام، والهدية ـ في الأصل ـ تعبير عن الود والمحبة والصفاء.

ثم إن المُهدى إليه ـ على صعيد المعتقَد ـ رسول من عند الله يعرفونه كما يعرفون أبناءهم؛ لما أن كتابهم السماوي أخبرهم خبره، وفصّل القول في صفاته وأخلاقه، بالقدر الذي يعين على الدلالة عليه، وعلى صدق دعواه بأنه يحمل رسالة الإسلام للعالمين، وحملهم ذلك على أن يستفتحوا به على الذين كفروا.

ويقتضينا توثيق الحكم على من لعنهم الله، فأصمّهم وأعمي أبصارهم، أن نذكّر بما أشرنا إليه ـ غير مرة ـ من عظمة موقفه الكريم، حين لم يكن منه لهم من أول يوم وطئت قدماه المدينة المنورة مهاجرَه وإخوانِه إلا العدل والإحسان، ولكنهم في تعاملهم اليومي لم يكونوا على هذا المستوى بل كانوا ـ كما دلت الوقائع ـ في الحضيض.

فعلى الرغم من توافر الأسباب التي يفترض أن تسدد خطاهم، فيؤمنوا برسالته، وإن لم يؤمنوا: أن لا يخونوا ولا يمكروا ويغدروا، رأيتهم بعد أن أضاء الصبح لكل ذي عينين، وأعلنت الدعوة المحمدية إعلانها، ينكصون على أعقابهم، ويستبدلون العماية بالهدى، وراحوا لا يكتفون بالكفر والتكذيب، بل يفترون ويبهتون، ويشعلون نار الحرب في السر والعلن، متعاونين مع أعداء الله من مشركين ومنافقين. قال الله جل شأنه: **﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ (٨٨) وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) ﴾** [البقرة: ٨٨، ٨٩].

ومن عجب: أنهم في حوارهم مع النبي عليه الصلاة والسلام، تجاهلوا أنهم مأمورون بالإيمان به بصريح النص في التوراة، وعلّلوا صنيعهم ـ بإهدائه الشاة المسمومة ـ بالحرص على اكتشاف ما إذا كان صادقاً في دعوى الرسالة أو غير صادق؛ فإن كان صادقاً لا تضره تلك الهدية المسمومة أو ينبأ بهذا، وإن كان غير ذلك: يكونوا قد أحسنوا للعباد بإراحتهم منه!! فانظر أيَّ غرض إنساني حرصوا على تحقيقه من خلال سمِّهم سيدَ العالمين وخاتم النبين!!

هذا: وليس من نافلة القول، أن أعود إلى التذكير بأن مجموع الروايات تدل ـ بما لا يقبل الشك ـ أن ما قامت به المرأة الإسرائيلية، كان تنفيذاً ـ والله أعلم ـ للخطة التي بيتوها، وعملوا على أن يصلوا من

خلالها إلى تحقيق ما يريدون، والوقاحة في الاعتراف، مصحوباً بالسبب الذي حملهم على ما صنعوا ـ على زعمهم ـ جزء من تلك الخطة الآثمة.

ولقد أحسن الإمام ابن قيم الجوزية ـ حين جلّى هذه النقطة المهمة ـ بعرضه لواقعة السَّم في كتابه القيم «زاد المعاد» عرضاً يوحي بالتكامل بين الخطة المرسومة وبين تنفيذها. قال ـ رحمه الله ـ في معرض حديثه عن وقائع غزوة خيبر: (وفي هذه الغزاة سُمَّ رسول الله ﷺ؛ أهدت له زينب بنت الحارث اليهودية امرأة سلاّم بنِ مِشكَم مشويةً قد سمَّتها، وسألت أيُّ اللحم أحب إليه: فقالوا: الذراع: فأكثرت من السَّم في الذراع، فلما انتهش من ذراعها، خبَّره الذراع بأنه مسموم، فلفَظ الأكلة ثم قال: «اجمعوا لي من ههنا من اليهود» فجُمعوا له فقال لهم: «إني سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقيَّ فيه؟ قالوا: نعم يا أبا القاسم فقال لهم رسول الله ﷺ: «من أبوكم؟» قالوا: أبونا فلان. قال: «كذبتم أبوكم فلان» قالوا: صدقت وبرِرت. قال: «هل أنتم صادقيَّ عن شيء إن سألتكم عنه؟» قالوا: نعم يا أبا القاسم. وإن كذبناك، عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا! فقال رسول الله ﷺ: «من أهل النار؟» فقالوا: نكون فيها يسيراً، ثم تخلفوننا فيها. فقال لهم رسول الله ﷺ: «اخسؤوا فيها، فوالله لا نخلفكم فيها أبداً» ثم قال: هل أنتم صادقيَّ عن شيء إن سألتكم عنه؟» قالوا: نعم. قال: «أجعلتم في هذه الشاة سَمّاً؟» قالوا: نعم. قال: «فما حملكم على ذلك؟» قالوا: أردنا إن كنت كاذباً نستريح منك، وإن كنت نبياً لم يضرَّك».

مرة أخرى: إنها واقعة من عدد الوقائع التي كانت من جنايات اليهود وكيدهم الذي لم يتوقف ـ لرسول الله ﷺ والمسلمين ـ وتتابعت الفصول النكدة عبر تاريخ طويل، لتؤكد الأحداث ـ وحتى يوم الناس هذا ـ طبيعة المنطلقات التي ينطلق منها أولئك الذين حُمِّلوا التوراة ثم لم يحملوها، في نظرتهم إلى اتباع الرسالة الخاتمة ـ بعامة ـ وإلى الرسول المصطفى عليه الصلاة والسلام ـ بخاصة ـ.

فالسُّم الذي وضع قبل أربعة عشر قرناً في الشاة المصليّة التي جيء بها هديةً له عليه الصلاة والسلام: يوضع للمسلمين اليوم أضعاف أضعافه، ولكن على الصور التي تتناسب مع العصر، وتطور الأساليب والمفاهيم المطروحة في الاقتصاد والسياسة والتربية والتعليم والإعلام،.. وكل ما يمتُّ إلى ذلك بسبب وذلك فيما يغزوهم، ويزيّن لهم على صعيد الثقافة والفكر، وما يدعونه بالتطور الحضاري، ثم على صعيد المعايير التي يفسَّر بها التاريخ، وتوزن بها الوقائع والأحداث، وتربط المسببات بالأسباب، وفق المنهج الذي يرونه، ويراه المغفلون والمنتفعون والسدنة المارقون.. فضلاً عن الأصعدة الأخرى!!

والمطلوب في منطق المواجهة الجادّة: أن تتدبر الأمة وقائع الماضي، تدبراً يمتد رواؤه إلى فهم الحاضر، والارتفاع على المعوقات من داخل النفوس، ومن خارجها، تلك المعوقات التي توقع في الغفلة، أو تمنع وضوح الرؤية، وتحول دون البذل والعطاء.

وقبل هذا وبعده: لا بد من تسمية الأشياء بأسمائها، والاعتراف بأن

الحَيدة عن سنن الله في كونه العريض: من عوامل الهلكة والدمار؛ فماذا ترقب الأمة من أعداء الله والحق وصنائعهم، بعد الذي صنعوا ويصنعون من هذه السلسلة العاتية عبر التاريخ، بدءاً من لحظات المواجهة بينهم وبين رسالة الإسلام في جزيرة العرب؟؟ وماذا نحن منتظرون ـ وفعالهم التي يسخِّرون لها العلم والمال الذي يحوزونه ـ بلا حدودٍ من دين أو خلق ـ ناهيك عن الدس الإعلامي والعبث الاقتصادي وما إلى ذلك... ولا تسل عن المعونات التي يلقونها من هنا وهناك.. ماذا، وفعالهم هذه تزداد مخاطرها يوماً بعد يوم، ولا يخفى على ذي بصيرة معافىً من الوهن والنفاق: أنها حلقات آخذ بعضها برقاب بعض، فاغرة أفواهها كيما تبتلع الخصوم، وتقضي على البقية الباقية من الخير، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

ألا إن الثوابت التي زخرت بها نصوص الهداية، وأكدتها الوقائع، أبرزت الحقيقة فيما عليه القوم من خلائقَ وطرائقَ في الفكر والعمل والسلوك، وكشفت عن البواعث الحقيقية التي تكمن وراء تصرفاتهم.. وهذا كله ـ والقليل منه يكفي ـ حجة على الأمة لا يمكن الفَكاك منها، إلا بانتهاج السبيل الأقوم؛ علماً وعملاً وجهاداً وانضباطاً في السلوك والأخلاق.

وحين تمضي الأمة قدماً على هذه الطريق، يكون لها من الله فرقان، وتستنير أمامها المسالك الصعبة، ويتحقق لها التمكين والنصر بإذن الله وفق سننه الحكيمة سبحانه ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ** ﴿٦٩﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

قتل الأنبياء.. ودعوى الإيمان!

محاولة اليهود قتلَ النبي ﷺ من طريق العزم على إلقاء الصخرة عليه، من قِبَل بني النضير، أو من طريق الهدية المشؤومة المسمومة، من قِبَل يهود خيبر.. هذه المحاولة بواقعيتها: ينبغي أن لا تكون موضع استغراب من حيث المبدأ، لما أن ذلك جارٍ على السَّنَن الذي سلكه آباؤهم وأجدادهم، الذين بلغت بهم حِطَّة الضلال، أن يقتلوا الأنبياء المؤتمنين على وحي السماء؛ فإذا أقدم الأحفاد ـ على ما هو من منهج الآباء والأجداد وهم على سننهم دونما تغيير أو تبديل ـ لم يكن ذلك عجباً من العجب.

ولعل من الخير أن أعيد إلى الأذهان ما أشرت إليه غير مرة، من أن القرآن الكريم، خاطب ـ في العديد من المواطن ـ اليهود الذين كانوا في عصر النبوة، كأنهم هم الذين أساؤوا تلك الإساءات البالغة، التي اقترفها آباؤهم الأولون؛ لما أن الطينة واحدة، والمسلك واحد، والرضى قائم عن صنيع أولئك الضُّلال الذين سبقوهم على طريق الإثم. وهذا يوجه إلى الإفادة من أحداث التاريخ، ثم إلى الطريقة التي يحسن الأخذ بها، على صعيد التعامل مع من حُمِّلوا التوراةَ ثم لم يحملوها، وقاموا بقتل أنبياء الله، دونما تحسُّب من الفارق الزمني؛ فاليهودي هو اليهودي، مهما اختلف الزمان والمكان والظروف!!

وإذا كان الأمر كذلك: فما بد من اصطحاب الكلمة الهادية التي كشفت عن هذه الخليقة فيهم، خليقةِ الجراءة على دم الأنبياء عليهم

الصلاة والسلام ـ ناهيك عن تكذيبهم ـ وفي ذلك ما فيه، من إغضابٍ لله في عليائه سبحانه، وإساءةٍ ـ بالغة الظلمة والنَّكارة ـ إلى الحق والإنسان حتى قيام الساعة!! جاء في الآية السابعة والثمانين من سورة البقرة قولُ الله جل ثناؤه: ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ** ﴿٨٧﴾ ﴾ [البقرة: ٨٧] قال الإمام الطبري: (يقول الله جل ثناوه لهم: يا معشر يهود بني إسرائيل، لقد آتينا موسى التوراة، وتابعنا من بعده بالرسل إليكم، وآتينا عيسى ابن مريم البينات والحجج؛ إذ بعثناه إليكم، وقوّيناه بروح القدس، وأنتم كلما جاءكم رسول من رسلي، بغير الذي تهواه نفوسكم، استكبرتم عليهم ـ تجبُّراً وبغياً ـ استكبارَ إمامكم إبليس، فكذبتم بعضاً منهم، وقتلتم بعضاً، فهذا فعلكم أبداً برسلي) !!.

هكذا كانت بنو إسرائيل، تعامل الأنبياء الذين جاؤوا بالهدى من ربهم أسوأ المعاملة، ففريقاً من هؤلاء الأنبياء – عليهم السلام – كذَّبوا، وفريقاً يقتلونه، وماذاك إلا لأن هولاء الأنبياء كانوا يأتونهم بالأمور المخالفة لرغباتهم الجامحة وأهوائهم، ويعملون على إلزامهم بأحكام التوراة، التي قد جنحوا عنها وتصرفوا في مخالفتها؛ فلهذا كان يشقُّ ذلك عليهم، وتتعذر عليهم طاعتهم فيه، فيكذبونهم، وربما وصل بهم التمادي في الطغيان إلى أن يقتلوا بعضهم؛ ولهذا جاء التعبير القرآني، يحمل هذا اللون من الإنكار والتوبيخ ﴿ **أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ** ﴾.

والتعبير بقوله تعالى: ﴿ **أَفَكُلَّمَا** ﴾ يوحي بالتكرار والاستمرار في هذ الشطط والعياذ بالله، والإخبار عن ذلك واضح في هذا الكلام الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ فقوله تعالى: ﴿ **أَفَكُلَّمَا** ﴾ ـ وإن كان خرج مخرج التقرير في الخطاب ـ فهو بمعنى الخبر عن هذا الذي يصنعونه عامدين مصرّين.

ولا تطول بنا الرحلة، حتى تطالعنا الآية الحادية والتسعون من سورة البقرة نفسها، بالإنكار عليهم قتلَ الأنبياء، وبيانِ أن ذلك مخالف أشدَّ المخالفة لدعوى الإيمان، فلو كان إيمانهم صادقاً، لم يقدموا على تلكم الجرائم النكراء ـ خصوصاً إذا أدَمنا اصطحاب الأهمية العظمى لمكانة النبي واتصاله بالسماء؛ ذلكُم قوله جل شأنه: ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾** ﴾ [البقرة: ٩١].

لقد جاء كشف هذا الزيف في دعوى يهود بني إسرائيل، بهذا الأسلوب الرفيع الذي يزدان بالعمق والوضوح، خطاباً للنبي عليه الصلاة والسلام قل يا محمد لهؤلاء اليهود ـ الذين إذا قلتَ لهم: آمنوا بما أنزل الله قالوا: نؤمن بما أنزل علينا ـ قل لهم: لم تقتلون ـ إن كنتم يا معشر اليهود مؤمنين بما أنزل الله عليكم كما تزعمون ـ أنبياءه ـ وقد حرّم عليكم في الكتاب الذي أنزل عليكم قتلهم ـ بل أمركم فيه باتباعهم وطاعتهم وتصديقهم؟. وهذا الخطاب ـ كما أراده الخالق جل شأنه ـ يحمل ما يحمل من شديد التأنيب والتوبيخ المصاحبين لإقامة الحجة عليهم من دعاواهم الكاذبة.

هذا: وقد استوقفت العلماءَ صيغةُ التعبير في قوله تعالى: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ حيث ابتدأ الخبرعلى لفظ المستقبل ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ﴾ ثم أخبر أنه قد مضى، بقوله: «من قبل؟» واختلف القول في تعليل ذلك، وصوّب شيخ المفسرين ما به تدرك بلاغه التعبير القرآني، في إحكام العلاقة ـ في المخالفة عن أمر الله في كتابه المنزل ـ بين السابقين واللاحقين.

قال ـ يرحمه الله ـ: (والصواب فيه من القول عندنا، أن الله خاطب الذين أدركوا رسول الله ﷺ من يهود بني إسرائيل ـ بما خاطبهم في سورة البقرة وغيرها من سائر السور ـ بما سلف من إحسانه إلى أسلافهم، وبما سلف من كفران أسلافهم نِعَمَهُ، وارتكابِهم معاصيه، واجترائِهم عليه وعلى أنبيائه، وأضاف ذلك إلى المخاطبين به، نظيرَ قول العرب بعضِها لبعض: فعلنا بكم يوم كذا، كذا وكذا، وفعلتم بنا كذا، كذا وكذا... يعنون بذلك: أن أسلافنا فعلوا كذا بأسلافكم، وأن أوائلنا فعلوا كذا بأوائلكم. فكذلك في قوله: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ﴾ إذ كان قد خرج على لفظ الخبر عن المخاطبين به، خبراً من الله تعالى ذكره، عن فعل السابقين منهم ـ على نحو الذي بينّا ـ جاز أن يقال: «من قبل» إ كان معناه: قل: فلم يقتل أسلافكم أنبياء الله من قبل؟ وكان معلوماً بأن قوله: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ﴾ إنما هو خبر عن فعل سلفهم، والحكمة في الخطاب على هذه الصورة لم تعد خافية؛ فقد جرى الكشف عنها غير مرة، ويأتي لذلك مزيد بيان. وتأويل قوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل اليوم.

وغيرُ خاف أيضاً أن ختم الآية بقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ لا يدع زيادة لمستزيد، في كشف المواربة، والتناقض المخزي عند اليهود، وإقامةِ الحجة عليهم في دعوى الإيمان بما أنزل الله عليهم من الكتاب، والوقوعِ فيما هو مخالفة صريحة لما يزعمون أنهم به مؤمنون، لا فرق بين من ابتلي رسول الله والمسلمون بهم، وبين أسلافهم من قبل، لأن هؤلاء يتولون أولئك الأسلاف راضين عن ضلالهم المبين. وأفعالهم المجافيةِ لوحي السماء.

فقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يعني: إن كنتم مؤمنين بما نزَّل الله عليكم كما زعمتم. وإنما عنى بذلك ـ وكلامه الحق والصدق ـ اليهودَ الذين أدركوا رسول الله ﷺ وأسلافَهم ـ إن كانوا وكنتم كما تزعمون أيها اليهود، مؤمنين.

وهنا مفصِل القضية في التسوية بين الأسلاف وأحفادهم، فالأسلاف هم الذين قتلوا، والمعاصرون لرسول الله ﷺ لم يقتلوا!! ولكن الله الذي يعلم خبايا النفوس، وأهلية أصحابها عيَّر ـ جلّ ثناؤه ـ هؤلاء بقتل أوائِلهم أنبياءَه، عند قولهم حين قيل لهم: آمنوا بما أنزل الله: نؤمن بما أنزل علينا، لأنهم ـ كما يقرر ابن جرير وآخرون ـ كانوا لأوائلهم الذين تولوا قتل أنبياء الله ـ مع قيلهم: نؤمن بما أنزل علينا ـ متولِّين وبفعلهم راضين، فقال لهم. إن كنتم ـ كما تزعمون ـ مؤمنين بما أنزل عليكم، فلم تتولَّون قتلة أنبياء الله؟ أي ترضون أفعالهم؟ سبحان الله!! كأن الكلام يتنزّل غضّاً طرياً اليوم؛ فما أشبه الليلة بالبارحة! إنه الواقع الذي يؤكد بتجدده

حقيقة أن يهود اليوم، صورة لا تختلف عن يهود الأمس، مع زيادة القدرة على الانحراف بسبب تطوُّر الوسائل ووجود أعوان السوء!

والأمر الذي لا غنى عن التذكير به مرةً أخرى: أن اليهود وضعوا ما تمليه أهواؤهم وشهواتهم، بدلاً عما جاءت به التوراة التي بأيديهم، والتي يزعمون الإيمان بها، فهم في غنية ـ على حدٍّ زعمهم الهابط ـ عن الإيمان بما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام؛ وكان أن أثمر هذا الموقف المخزي الذي سَداه ولحمته التناقض والعبث الكفري.. أثمر تجاوزاً صارخاً، لم يقتصر على عدم القيام بما تلزمهم به التواراة من أحكام، ولكن تجاوزوا ذلك إلى تكذيب الأنبياء، بل إلى قتل بعضهم ـ كما سلف ـ والإصرار على ذلك، مولّين ظهورهم للحق، مستمسكين بالباطل، عناداً وتشهياً واستبكباراً.

فالله تبارك وتعالى يقول لهم: إن كنتم صادقين في دعواكم الإيمان بما أُنزل إليكم من التوراة، فَلِمَ قتلتم الأنبياء المبلّغين عن الله، الذين جاؤوكم بتصديق التوراة التي بأيديكم، والحكمِ بها وعدمِ نسخها؟ ترتكبون هذه الموبقة فيهم، وأنتم تعلمون صدقهم على وجه اليقين. قتلتموهم ظلماً وبغياً، وعناداً، واستكباراً عليهم، وهم الذين يحملون إلى الناس هداية الله التي أوحاها إليهم، فلستم تتبعون إلا مجرد الأهواء!! كما رأينا فيما دل عليه قوله تعالى: ﴿ **أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ** ﴾.

أما بعد: فإنها حجة الله عليهم من حيث اقتراف الإثم الكبير، والإصرار على ارتكاب الموبقة التي تغضب الله وتستمطر اللعنات.

كما أنه حجة الله على أمتنا في وجوب الاعتبار، ولزومِ المحجة النقية التي تركها عليها سيد الأنبياء والمرسلين، محمد عليه الصلاة والسلام، ووضع ما هدى إليه الكتاب والسنة في شأنهم موضعه اللائق على ساحة الواقع المثقل بالتحديات التي تتجدّد وتتنامى يوماً بعد يوم.

وهذا كفيل ـ إذا صدقت النيات وصحت العزائم ـ بردٍّ الأمور إلى نصابها، وتحقيق القدرة على استئناف الوجود الذاتي لأبناء الرسالة الخاتمة. وما ذلك على الله بعزيز..

هكذا يقولون.. جراءةً على الله

لا يعوز الناظر في كتاب الله تبارك وتعالى، أن يقع على العديد من النصوص التي تؤكد حقيقة اليهود قتلة الأنبياء ـ كما سبقت الإشارة إلى ذلك ـ وأنهم كانوا يقدمون على هذه الجريمة التي هي عدوان على الحق والإنسانية، مع علمهم بأحقية ما كان عليه أولئك الأنبياء عليهم السلام، بل ومفاخرتِهم الناس، بأنهم أهل كتاب، مؤمنون مصدقون.

ومن هذه النصوص: ما يحمل وعيداً على تلكم الفعلة النكراء، ومنها ما يحمل الإخبار عن عقوبات أوقعها الله فيهم، جزاء ما اكتسبوا من هذا الإثم الشنيع.

ها نحن أولاء نقع في سورة آل عمران، على وعيد شديد بعذاب يحيق بهم في الدنيا والآخرة، على قالة سوء بالغة القباحة، مضمومة إلى قتلهم الأنبياء بغير حق؛ نقول ـ كما قال القرآن ـ ﴿ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ لأن هذا تقرير للواقع فليس هنالك قتل للأنبياء بحق. وإذن: فليس هنالك مفهوم مخالفة لتعبير ﴿ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ فالله بيّن أن فَعْلتهم هذه هي الضلال كلُّه على هذه الساحة، وليس لها نصيب من الحق. وقالةُ السوء هذه: هي قولهم ـ ويا بئس ما قالوا ـ: إن الله فقير ونحن أغنياء. ذلكم قوله جل ثناؤه وتقدست أسماؤه في الآية الحادية والثمانين بعد المائة منها: ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١) ﴾ [آل عمران: ١٨١] روى الحافظان

ابن مردويه وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ [البقرة: ٢٤٥] قالت اليهود: يا محمد، افتقر ربك، يسأل عباده القرض، فأنزل الله ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ...﴾ الآية. ولابد أن يستوقف التالي لهذه الآية الكريمة قوله جل شأنه: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ لأن التعبير المعجز، يوحي بأن قتلهم الأنبياء سابق لهذه المقالة الفظيعة المنكرة، ومن كان من أخلاقه، أن يقدم على قتل أنبياء الله المؤتمنين على وحيه، فليس غريباً أن يجري على لسانه هذا الهراء، وهذا يدل - فيما يدل - على جذرية النظرة المادية البحتة في نفوسهم؛ فالله فقير - ونستغفر الله - وهم أغنياء، والأنبياء لا يأتونهم بالمال الذي يطلبونه بأية وسيلة مهما كان شأنها.

وفي الكلمة القرآنية الحكيمة إشعار الناس أيضاً، بأن هؤلاء ليسوا حديثي عهد بالإجرام على هذه الساحة، ولكنهم ذوو سوابق قبيحة مَرَدوا عليها من قبل. من أجل هذا كان من بلاغة القرآن، نظم هذه المقالة مع ما سبقها من قتلهم الأنبياء، إيذاناً بتلك السوابق، وأنها - على شناعتها - ليست أول جريمة يقترفونها. وعلى هذا: فينبغي التنبه دائماً، إلى أن من بلغ بهم سوء الطوية، والاستخفاف بالدين، حداً يجترئون معه على قتل أنبياء الله المؤتمنين على وحيه، لا يستبعد منهم أيُّ لون من ألوان الانحراف؛ ومن ذلك هذا الكلام الذي، أقلُّ ما يقال فيه: إنه سوءُ أدب

بالغ مع الله الخالق الرازق المنعم سبحانه، وجحودٌ لحقيقة الألوهية واتصافهِ سبحانه بصفات الكمال كلها.

وترى أن الصحابة – رضي الله عنهم –، مع علمهم بخلائق اليهود المعاصرين لهم، وأنهم راضون عن صنيع أسلافهم ـ يتولونهم ولا يحيدون قيد أنملة عن نهجهم المردي ـ كان وقْعُ ما قالوه من تلك القالة المنكرة بالغةِ السوء، شديداً عليهم، لما فيه من جراءةٍ واضحة على مقام الربوبية، وانتهاكٍ لحرمة الأدب مع الله، فضلاً عن ما فيه من الإفك والبهتان!! قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أنه حدثه عن ابن عباس – رضي الله عنه – قال: « دخل أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – بيت المدراس فوجد من يهود، أناساً كثيراً قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له: فنحاص، وكان من علمائهم وأحبارهم، ومعه حبر يقال له: أشيع.

فقال أبو بكر: ويحك يا فنحاص، اتق الله وأسلم، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله، قد جاءكم بالحق من عنده، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل. فقال فنحاص: والله يا أبا بكر، ما بنا إلى الله من حاجة من فقر، وإنه إلينا لفقير. ما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنا عنه لأغنياء، ولو كان عنا غنياً، ما استقرض منا ـ كما يزعم صاحبكم ـ ينهاكم عن الربا، ويعطيناه، ولو كان غنياً ما أعطانا الرب، فغضب أبو بكر – رضي الله عنه –، فضرب وجه فنحاص ضرباً شديداً وقال: والذي نفسي بيده لولا الذي بيننا وبينك من العهد، لضربت عنقك يا عدو الله

فأكذبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين. فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال: أبصر ما صنع بي صاحبك. فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: ما حملك على ما صنعت؟ فقال: يا رسول الله إن عدو الله قد قال قولاً عظيماً! زعم أن الله فقير وهم عنه أغنياء، فلما قال ذلك، غضبتُ لله مما قال، فضربت وجهه، فجحد ذلك فنحاص، وقال: ما قلت ذلك، فأنزل الله فيما قال فنحاص رداً عليه وتصديقاً لأبي بكر ﴿ **لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾** ﴾ [آل عمران: ١٨١ - ١٨٢] وأخرجه الطبري في التفسير بزيادة: (وفي قول أبي بكر وما بلغه في ذلك من الغضب): ﴿ **لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴿١٨٦﴾** ﴾ [آل عمران: ١٨٦]. كما أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم عن طريق عكرمة عن ابن عباس.

والوعيد الشديد واضح في قوله تعالى: ﴿ **سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا** ﴾ ولذلك قرنه ربنا سبحانه بقوله: ﴿ **وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ** ﴾ كبرت كلمةً تخرج من أفواههم!! هذا قولهم في الله الغنيِّ الحميد، وهذه معاملتهم لرسل الله. ولهذا قال جل ذكره: ﴿ **وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ** ﴾.

والمعنى: ونقول للقائلين بأن الله فقير ونحن أغنياء، القاتلين أنبياء الله بغير حق يوم القيامة: ذوقوا عذاب الحريق بذلك، ذوقوا عذاب نار محرقة ملتهبة تصلونها وبئس المصير.

وفي تقرير للعدالة الإلهية، وأن العذاب مردُّه إلى ما كسبت أيديهم، جاء قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي قولنا لهم يوم الحساب: ذوقوا عذاب الحريق بما اجترحت أيديكم من المآثم واكتسبتها، أيامَ حياتِكم في الدنيا، وبأن الله عدل، لا يجور، فيعاقب عبداً بغير استحقاق منه العقوبة، ولكنه يجازي كل نفس بما كسبت، ويوفي كل عامل جزاءَ ما عمل، فيعاقب الذين قال لهم ذلك يوم القيامة (من اليهود الذين وصف صفتهم، فأخبر عنهم أنهم قالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ وقتلوا أنبياء الله بغير حق) يعاقبهم بما يعاقبهم به من عذاب الحريق، العذاب بالنار الملتهبة المحرقة، بما اجترحوا من السيئات، واكتسبوا من الآثام مع الله ورسله، وكذبوا على الله بعد البيان والإعذار إليهم بالإنذار؛ فهو سبحانه لا يضع عقوبته في غير أهلها، ولا يظلم أحداً من خلقه، ولكنه العادل بينهم، المتفضل عليهم بما أحبّ من نعمه التي لا تحصى، وفواضله التي لا تستقصى.

وجميل ما سلكه الطبري – رحمه الله –، في معاودة الكشف عن السبب في توجيه الخطاب لأولئك اليهود المعاصرين لنبينا عليه الصلاة والسلام، بما صنعه أسلافهم ـ على الجميع لعائن الله ـ ؛ فهو لايدع أن يزيد هذه المسألة بياناً، لما يرى من ضرورة ذلك، كي يتسنى لمن يحرص على تدبر الآيات والانتفاع بها، أن لا يغيب عنه هذا الجانب العميق المشرق في محور الهداية، عند الحديث عن هؤلاء الناس، وما اجترحوا ويجترحون من مجاهرة الله ورسله بالعداوة والصدود. وفائدة ذلك في واقع الأمة؛ حاضراً ومستقبلاً: لا تخفى.

فقد أجاب - رحمه الله - عن تساؤل، قد يُطرح عند تفسير الآيات: ـ وهو أن الذين قالوا قالة السوء في عصر النبي ﷺ، لم يكن منم أحد قتل نبياً من الأنبياء، لأنهم لم يدركوا نبياً من الأنبياء فيقتلوه... أجاب بأنه قيل ذلك في الآية: لأن الذين عنى الله تبارك وتعالى بهذه الآية ـ وهم الذين قالوا: إن الله فقير ونحن أغنياء ـ كانوا راضين بما فعل أوائلهم؛ من قتلِ من قتلوا من الأنبياء، وكانوا وفق أهوائهم وعلى مناهجهم من استحلال ذلك واستجازته، فأضاف ـ جل ثناؤه ـ فعلَ ما فعله من كانوا على مناهجهم وطريقتهم إلى جميعهم، إذ كانوا أهل ملة واحدة، ونحلة واحدة، وبالرضى من جميعهم فَعَلَ ما فَعَل فاعلُ ذلك منهم، على ما بينا من نظائره فيما مضى من قبل.

وهذا الذي نرى: يصلنا بقوله تعالى في سورة آل عمران أيضاً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ [آل عمران: ٢١] حيث بينت الآية الكريمة أنه اجتمع لهؤلاء الأناسي الكفر بآيات الله، وأنهم يقتلون الأنبياء بغير حق ـ هكذا بصيغة المضارع دليلَ الإصرار والاستمرار ـ وأنهم يقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس ـ. هكذا بصيغة المضارع أيضاً دَليل إصرارهم واستمرارهم على هذا الصنيع الفاسد ـ والكلام صريح في ذم أهل الكتاب، فيما ارتكبوه من المآثم والمحارم ـ كما يقول العلماء ـ بآيات الله قديماً وحديثاً، وهي الآيات التي بلَّغتهم إياها الرسل، وكان ذلك استكباراً على أولئك الرسل عليهم السلام، وعناداً لهم ـ في تعاظم أجوف على الحق، واستنكافٍ عن اتباعه. ولم تقف غوايتهم عند هذا

الحد، بل قتلوا من قتلوا من النبيين حين بلغوهم عن شرعه، ولا سبب ولا جريمة منهم إليهم ـ قاتلهم الله ـ إلا لكون أولئك الأنبياء ـ عليهم السلام ـ دعوهم إلى الحق، وهم يرغبون عنه إلى الباطل الذي يرضي أهواءهم وشهواتهم. ثم تجاوزوا ذلك إلى قتل الذين يأمرون بالقسط من الناس، وهذا هو غاية الدَّخَل النفسي، والكبر والصد عن سبيل الله، كما قال ﷺ فيما روى مسلم عن عبدالله بن مسعود – رضي الله عنه –: «الكبر بطر الحق وغمط الناس».

بطر الحق: دفعه وإنكاره ترفعاً وتجبراً. ومعنى غمط الناس: احتقارهم يقال في الفعل منه غمَطه يغمِطَهُ. وقد أورد الحافظ ابن كثير عند تفسيره الآية ما أخرج ابن أبي حاتم بسنده عن أبي عبيدة عامر بن الجراح – رضي الله عنه – قال: «قلت: يا رسول الله، أي الناس أشد عذاباً يوم القيامة؟ قال: رجل قتل نبياً أو من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر. ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ ثم قال رسول الله ﷺ: يا أبا عبيدة قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً، من أول النهار في ساعة واحدة، فقام مائة وسبعون رجلاً من بني إسرائيل، فأمروا من قتلوهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر، فقتلوا جميعاً من آخر النهار من ذلك اليوم، فهم الذين ذكر الله عز وجل».

هذا وقد جاء الوعيد في ختام الآية الأولى، متسقاً مع استحقاقهم النكال على تلك الجرائم، فقال تعالى: ﴿**فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ وجاء بعد

ذلك قوله سبحانه: ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٢) ﴾ [آل عمران: ٢٢].

لقد كفروا بآيات الله، وتكبروا عن الحق، واستكبروا على الخلق، وأصروا على العناد الآثم، فقابلهم الله على ذلك بالذلة والصغار في الدنيا، والعذاب المهين في الآخرة، ناهيك عن حبوط الأعمال في الدنيا والآخرة. ولله عاقبة الأمور.

قتل الأنبياء .. ونقض الميثاق

سبحان ربنا العلي الأعلى الوهّاب الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا تخفى عليه خافية مما تنطوي عليه دخائل النفوس وما تكنّه ذات الصدور. وليت أنّا نحن المسلمين ننتفع على الوجه الذي ينبغي بما نشهده من إحاطة الكلمة القرآنية بكل ما تلزم الإحاطة به من خلائق يهود، وركائز مناهجهم في السلوك، والبواعث التي تحملهم على التصرف اليهودي مع الآخرين ـ بعامة ـ ومع المسلمين ورسولهم عليه الصلاة والسلام ـ بخاصة ـ وموقفهم النابي الجاحد الهابط من أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام، وما يدعون إليه من الحق الذي نزل به الكتاب.

وفي متابعة لهذا الموقف من الأنبياء عليهم السلام، تجدر الإشارة إلى أن التالي لكتاب الله، يقع على صورة أخرى ـ بجانب ما سبق ـ تكشف عن تهديد الله ووعيده إياهم على قتلهم الأنبياء، مقروناً ذلك بنقضهم الميثاق وكفرهم بآيات الله، واعتذارهم المعوجّ عن عدم انتظامهم في سلك الهداية التي دعاهم الأنبياء إليها؛ فكان منهم التكذيب، بل قتل الأنبياء أحياناً، وكفرهم وقولهم على مريم البهتان العظيم، وزعمهم أنهم قتلوا المسيح عيسى بن مريم. يقول الله تعالى بدءاً من الآية الخامسة والخمسين بعد المائة من سورة النساء، في معرض الحديث عن يهود بني إسرائيل:

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا

غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ ﴾ [النساء: ١٥٥ - ١٥٨].

هكذا يتكرر ذكر الاجتراء على أنبياء الله، بتكذيبهم وقتل جمٍّ غفير منهم؛ فقد أتت الآيات على مجموعة من الذنوب التي ارتكبوها، الأمر الذي أوجب طردهم وإبعادهم عن الهدى؛ وهي نقضهم المواثيق والعهود التي أخذت عليهم، وكفرهم بآيات الله ـ وهي حججه وبراهينه، والمعجزات التي ظهرت على أيدي الأنبياء عليهم السلام وشاهدوها بأم أعينهم ـ. وكذلك قتلهم الأنبياء بغير حق. وتعبير ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ يدل دلالة قاطعة على أنهم قتلوهم استكباراً وعتواً، وطاعة لأهوائهم الضالة وشهواتهم الفاسدة؛ فهذه هي الحقيقة لأن الكلام هنا ليس له مفهوم مخالف ـ كما أسلفنا ـ إذ ليس هناك قتل للأنبياء بغير حق، وقتل بحق. ولكن الكلمة القرآنية تصوِّر واقعهم في هذا التعامل المشين مع الأنبياء عليهم السلام. وهذه الجريمة الشنعاء ضموا إليها كفراً بعد كفر، وبهتاً عظيماً لمريم أم عيسى، وذلك الزعم الباطل في شأن المسيح عيسى عليه السلام.

هذا: وقد كشف العلامة أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي في كتابه «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» عن معالم أساسية في الأسلوب

القرآني هنا، تجلّي المعاني المرادة، وتنير سبيل الفهم والانتفاع بعونه تعالى فعند الكلام على قوله تعالى: ﴿وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ﴾ قال - رحمه الله -: «وهو أعظم من مطلق كفرهم لأن ذلك سدٌّ لباب الإيمان عنهم وعن غيرهم، لأن الأنبياء سبب الإيمان، وفي محو المسبب محو السبب. ولما كان الأنبياء معصومين من كل نقيصة، ومبرئين من كل دنيَّة، لا يتوجه عليهم حقٌّ لا يؤدونه، قال: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي لا كبير ولا صغير أصلاً. وهذا الحرف لكونه في سياق طعنهم في القرآن - الذي هو أعظم الآيات - وقع التعبير فيه بأبلغ مما في آل عمران الذي هو أبلغ مما سبق عليه؛ لأن هذا مع جمع الكثرة، وتنكير الحق، عبر فيه بالمصدر المفهم، لأن الاجتراء صار لهم خلقاً وصفة راسخة - يعني تعبير - ﴿وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ﴾ - بخلاف ما مضى، فإنه بالمضارع الذي ربما دل على العروض..».

وهذا يكشف عن سر من أسرار التكرار في القرآن الكريم؛ فهو بلا ريب لحكم عظيمة؛ إذ التكرار في مسألة قتل الأنبياء بجراءة شنيعة من يهود بني إسرائيل على الصور المتعددة التي ورد فيها ذكر ذلك: مما يعين على الإحاطة المطلوبة، ويدخل القناعة إلى نفس من أراد مقنعاً بأن هذا الاجتراء المردي، صار لهؤلاء القوم خلقاً وصفةً راسخة، كما يقول البقاعي رحمه الله.

وقد أحسن صاحب «نظم الدرر» صنعاً في بيان ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ بياناً يسعف في تجلية العديد من النقاط التي تطرحها الآيات الكريمة في الحديث عن اليهود. وقد مهّد لذلك بالإشارة إلى أن القرآن

بعد أن أتى على قتلهم الأنبياء، في عداد تلك الجرائم التي يقترفونها، ذَكَرَ أعظم من ذلك كله وهو إسنادهم عظائمهم إلى الله تعالى، فقال: ﴿ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ جمع أغلف أي لاذنب لنا؛ لأن قلوبنا مغشاة بأغشية جِبِلِّيَّة؛ فهي شديدة الصلابة، لا يكاد يصل إليها ما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [فصلت: ٥]. أي فلسنا نحن الملومين لأن قلوبنا خلقت بعيدة عن فهم ما يقول الأنبياء، وذلك سبب قتلهم ورد قولهم. وقد حصل هذا منهم بعد أن كانوا يقرّون بهذا النبي الكريم، ويشهدون له بالرسالة، وبأنه خاتم الأنبياء، ويصفونه بأشهر صفاته، ويترقبون إتيانه، لا جرم ردَّ الله عليهم عطفاً على ما تقديره «وقد كذبوا» لأنهم ولدوا على الفطرة، كسائر الولدان، فلم تكن قلوبهم في الأصل غُلفاً ﴿ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ ﴾ أي الذي له معاقد العز ومجامع العظمة ﴿ عَلَيْهَا ﴾ طبعاً عارضاً ﴿ بِكُفْرِهِمْ ﴾ أي ليس كفرهم وعدم وصول الحق إلى قلوبهم، لكونها غلفاً بحسب الجبلة ـ كما يزعمون ـ بل إنه خلقها أولاً على الفطرة، متمكنة من اختيار الخير والشر، فلما أعرضوا ـ بما هيأ قلوبهم له من قبول النقض ـ عن الخير، واختاروا الشر باتباع شهواتهم الناشئة من نفوسهم، وتركوا ما تدعو إليه عقولهم: طبع سبحانه وتعالى عليها، فجعلها قاسية محجوبة عن رحمته، ولذا سبب عنه قوله: ﴿ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ أي منهم كعبد الله بن سلام ـ رضي الله عنه ـ وأضرابه، أو إلا إيماناً قليلاً لا يُعبأ به لتمرُّن قلوبهم على الكفر والطغيان.

وبعد: فليس من الغرابة في شيء ـ أن تشدنا الآية السابعة والخمسون بعد المائة، إلى تبيُّن أن زعمهم قتل عيسى بن مريم رسول الله، جارٍ على كون قتل الأنبياء من خُلُقهم وسجاياهم؛ فهم لم يقتلوه ولم يصلبوه ولكن شُبِّهَ لهم، ولكنهم كانوا عازمين العزم الأكيد على قتله، فقالوا كذباً إنهم قتلوه.

ومن بلاغة القرآن العظيم أن أسلوبه في التعبير عن ذلك، كشف عن أنهم كانوا مبتهجين بقتل عيسى عليه السلام ـ كما زعموا ـ قال العلامة أبو السعود في تفسيره «الإرشاد السليم إلى مزايا القرآن الكريم» «نظمُ قولهم هذا ـ يعني قوله: إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم ـ في سلك سائر جناياتهم التي نعيت عليهم، ليس لمجرد كونه كذباً، بل لتضمنه لابتهاجهم بقتل النبي عليه السلام والاستهزاء به؛ فإن وصفهم له ـ عليه السلام ـ بعنوان الرسالة، إنما هو بطريق التهكم به كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾﴾ [الحجر: ٦] ولإنبائه عن ذكرهم له عليه السلام بالوجه القبيح، على ما قيل من أن ذلك وضع للذكر الجميل منه تعالى، مكان ذكرهم القبيح. وقيل: هو نعت له عليه الصلاة والسلام من جهته تعالى مدحاً له، ورفعاً لمحله، وإظهاراً لغاية جراءتهم، في تصديقهم لقتله، ونهاية وقاحتهم في افتخارهم بذلك».

وتقودنا الرحلة مع آي الكتاب الحكيم إلى وقفة عند الذي أشرنا إليه من قبل، في شأن عقوبات حلّت بيهود بني إسرائيل،، جزاء اجترحهم قتل الأنبياء مع كفرهم بآيات الله، من ذلك ما نجد في الآية الحادية

والستين من سورة البقرة من قول الله جل ذكره: ﴿ ... وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [البقرة: ٦١].

هكذا يخبر الله جل ثناؤه أنه أبدل يهود بني إسرائيل بالعز ذلاً، وبالنعمة بؤساً، وبالرضى عنهم غضباً، وأن ذلك كان جزاءً منه لهم على كفرهم بآياته وقتلهم أنبياءه ورسله؛ اعتداءً وظلماً منهم بغير حق، وعصيانهم لهم، وخلافاً عليه. والتعبير موح ـ كما أسلفنا من قبل ـ بأن قتل أنبياء الله قد أصبح لهم خلقاً وصفة راسخة. والملاحظ أن الأسلوب القرآني الحكيم، لا يدع الإبانة عن أن ما أنزل الله بالمغضوب عليهم من العقوبة، إنما كان بسبب ما اجترحوه من تلك العظائم ـ والعياذ بالله ـ ومنها قتلهم الأنبياء؛ فإنهم قتلوا كما قال البيضاوي ـ رحمه الله ـ شعياء وزكريا ويحيى وغيرهم بغير الحق عندهم، إذ لم يروا منهم ما يعتقدون معه جواز قتلهم، وإنما حملهم على ذلك اتباع الهوى وحب الدنيا، كما أشار إليه بقوله: ﴿ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾.

والترابط واضح بين الجريمة وأختها؛ فقد جرّهم العصيان والتمادي بالباطل والاعتداء فيه، إلى الكفر بالآيات، وقتل النبيين الذين هم مصدر تبليغ الهداية عن الله للبشر؛ فإن الإصرار على صغار الذنوب، سبب يؤدي إلى ارتكاب كبارها كما أن صغار الطاعات ـ على حد قول علمائنا ـ أسباب مؤدية إلى تحري كبارها، ثم إن الترابط النكد بين قتل الأنبياء، وبين الكفر بالآيات: أشد وضوحاً، لأن الكفر بالآيات ـ مع شدة وضوحها

في عالم الشهادة ـ أبعدُ رتب الكفر من الإيمان ـ كما يقول العلماء ـ. نقل العلامة البقاعي عن الشيخ علي بن أحمد الحراليِّ التجيبي ـ من علماء المغرب، المتوفىٰ سنة ٦٣٨ هـ قوله: «والكفر بالآيات أبعد الرتب من الإيمان، لأنه أدنى من الكفر بالله، لأن الكفر بالله كفر بغيب والكفر بآيات الله كفر بشهادة» ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ﴿٢٠﴾﴾ [البلد: ١٩ – ٢٠] ثم قال البقاعي: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ﴾ أي كان ذلك جبلة لهم».

وفي إيضاح لما كان من الحكمة والعدل الإلهي؛ بإحلاله بأسه ونكاله بهم جزاء ما اكتسبوا من تلك الموبقات، قال الحافظ ابن كثير: «هذا الذي جازيناهم من الذلة والمسكنة، وإحلال الغضب بهم بسبب استكبارهم عن اتباع الحق، وكفرهم بآيات الله، وإهانتهم حملة الشرع ـ وهم الأنبياء وأتباعهم ـ فانتقصوهم إلى أن أفضى بهم الحال إلى أن قتلوهم؛ فلا كبر أعظم من هذا، إنهم كفروا بآيات الله وقتلوا أنبياء الله بغير الحق». وجاء – رحمه الله – على ذكر الحديث المتفق على صحته وقد أوردته من قريب من رواية مسلم ـ وهو قوله ﷺ: «الكبر بطر الحق وغمط الناس» وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل عن ابن عون عن عمرو بن سعيد عن حميد بن عبد الرحمن قال: قال ابن مسعود: «كنت لا أُحجب عن النجوى، ولا عن كذا، ولا عن كذا ـ قال ابن عون: فنسي واحدة ونسيت أنا واحدة ـ فأتيت رسول الله ﷺ وعنده مالك بنُ مُرارة الرهاوي، فأدركته من آخر حديثه وهو يقول: يا رسول الله قُسم لي من الجمال ما ترى! فما أحب أن أحداً فضلني بشِراكين فما فوقهما، أفليس ذلك هو

البغي؟ فقال: لا، ليس ذلك من البغي، ولكن البغي من بطر ـ أو قال ـ سَفِهَ الحق وغمط الناس» قال ابن كثير: «يعني ردَّ الحق وانتقاصَ الناس والازدراءَ بهم والتعاظمَ عليهم. ولهذا لما ارتكب بنو إسرائيل ما ارتكبوه من الكفر بآيات الله وقتل أنبيائهم، أحلّ الله بهم بأسه الذي لا يرد، وكساهم ذلاً في الدنيا موصولاً بذل الآخرة جزاءً وفاقاً».

سبحان الله!! أيُّ داهية دهت أمتنا حتى أصبح من باؤوا بغضب من الله وضربت عليهم الذلة والمسكنة يهددونها في عقر دارها، بعد أن اغتصبوا أرضاً شاسعة من أرض المسلمين وديارهم، وفيها المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله، وشاء سبحانه أن يكون مسرى نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، ومن خصائصه أنه أولى القبلتين، وتضاعف الصلاة فيه إلى خمسمائة ضعف؟ ناهيك عن الأذى المتواصل، قتلاً وتدميراً، وعدواناً بلا حدود!!

نعم إنها داهية المخالفة عن سنن الله في هذا الكون، والقعود عن الأخذ بأسباب النصر، على العكس من صنيع من ضربت عليهم الذلة والمسكنة. أجل إن الذلة والمسكنة مضروبتان عليهم في حقيقة الأمر، ولا أحد أصدق من الله، والتسربُل بالغضب قائم إلى قيام الساعة؛ ولكن أين الإسلام وأين المسلمون؟ وهنيئاً لأهل الثبات طلاب الشهادة الصادقين.

أبناء الله وأحباؤه؟!

أخبار أعداء الله وأعداء أمتنا ـ وفيهم اليهود ومن على شاكلتهم ـ كما جاءت في القرآن الكريم، وفي بيانه من حديث المصطفى صلوات الله وسلامه عليه، تزيد المؤمن المتبصِّر ـ وهو يشهد الواقع المعبِّر باللغة التي لا تقبل الاحتمال ـ يقيناً على يقين، بأن ما عليه هؤلاء الناس في نظرتهم إلى الإسلام والمسلمين، وفي منطلقاتهم، على صعيد التقويم لوجودنا الذاتي، وأين نأتي في التصنيف على سلم المواجهة والتحدي.. لا يكاد يختلف اليوم عما كان عليه بالأمس؛ من حيث الافتراء على الله، في دعاوى لا تمت إلى الحقيقة بصلة، والاستكبار البارد، والتعالي المقيت وتنوُّع صور المكر والأذى !! ناهيك عن عدم الإنصاف في الأحكام. ولكن التعبير عن ذلك: قد يختلف من عصر إلى عصر، ومن بيئة إلى بيئة، حسب متطلبات المعايشة ـ إن وجدت ـ وما تقتضيه المصالح الذاتية وتفرضه المواجهة، ناهيك عما لابد منه من التنفيس عن الحسد القاتل، والحقد الدفين.

هذه سورة المائدة ـ وهي من أواخر السور نزولاً في العهد المدني ـ تطالعنا بحكاية دعوى باطلة، هي محض افتراء صادر عن الفريقين: اليهود والنصارى، مع بيان شافٍ لبطلانها، وتقرير أنها عنوان تناقض وبهتان!!

ذلكم قـول الله جل ثناؤه: ﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ** (١٨) ﴾ [المائدة: ١٨].

ولـم يـدع علمـاؤنا أن يوردوا في أسبـاب النزول الكلام الذي تـذرّع به اليـهـود والنصـارى، لادعـاء مـا ادّعـوا من تلك الفـرية الغـبـيّـة. قـال الإمـام الطبـري: حـدثنا يونس بن بـكيـر عن مـحـمـد بن إسـحـاق قـال: حـدثني محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت قال: حدثني سعيد بن جبير أو عكرمة، عن ابن عباس قال: «أتى رسول الله ﷺ نعمان بن أضاء، وبحريُّ بن عـمرو، وشأس بن عدي، فكلَّمـوه، فكلَّمـهـم رسول الله ﷺ، ودعاهـم إلى الله وحذرهـم نقمته، فقالوا: ما تخوفنا، يا محمد !! نحن - والله - أبناء الله وأحبـاؤه!! كقول النصارى، فأنزل الله عز وجل: ﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ**... ﴾ إلى آخر الآية».

وروى ابن أبي حاتم والطبري من طريق أسباط عن السُّدي في قول الله تعـالى: ﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ** ﴾: «أمـا قـولهـم: ﴿ **نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ** ﴾ فإنهم قالوا: إن الله أوحى إلى إسرائيل أن ولداً من ولدك أدخلهم النار فيكونون فيها أربعين يوماً حتى تطهرهم وتأكل خطاياهم، ثم ينادي منادٍ أن أخرجوا كل مختون من ولد إسرائيل، فأخرجهم. فذلك قـوله: ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ** (٢٤) ﴾ [آل عمران: ٢٤] وأما النصارى: فإن فريقاً منهم قال: ﴿ **الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ** ﴾ [التوبة: ٣٠].

ونجد عند القرطبي قوله: السُّدي: زعمت اليهود أن الله عز وجل أوحى إلى إسرائيل عليه السلام أنْ ولدُك بكري من الولد. قال غيره: والنصارى قالت: نحن أبناء الله، لأن في الإنجيل حكاية عن عيسى «أذهب إلى أبي وأبيكم». وقيل: المعنى نحن أبناء الله فهو على حذف مضاف.

وقد أورد العلامة الطاهر بن عاشور عدداً من النصوص التي يُزعم أنها من التوراة والإنجيل، وهي واردة في هذا الشأن، وقال: «وكلها جائية على ضرب من التشبيه، فتوهمها دهماؤهم حقيقة، فاعتقدوا ظاهرها». هذا ما قاله ـ رحمه الله ـ. ولكن السياق القرآني لا يدل على أن ذلك قالة الدهماء من اليهود والنصارى، بل قد يكون أصحاب تلك القالة المفتراة، أحبارَهم ورهبانَهم في الأصل، كما هو الشأن في غيرها، ولا ننسى كم حرّفوا كلام الله عن مواضعه واشتروا به ثمناً قليلاً كما أخبر القرآن. وعناية الكتاب الكريم بحكاية هذه الدعوى العريضة، وردُّه على قائليها يكشف تناقضهم، وتوجيههم إلى وجوب العدول عن الباطل إلى الحق، الأمر الذي يدل ـ والله أعلم ـ على ما نقول، ثم إنه هو نفسه ـ جزاه الله خير الجزاء ـ ابتدأ كلامه في تفسير الآية بقوله: «مقال آخر مشترك بينهم ـ يعني النصارىٰ ـ وبين اليهود، يدل على غباوتهم في الكفر، إذ يقولون ما لايليق بعظمة الله تعالى، ثم هو مناقض لمقالاتهم الأخرى، عُطف ـ يعني هذا المقال ـ على المقال المختص بالنصارى وهو جملة: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ...﴾.

وعلى كل ما يعاني المسلمون من أخلاق اليهود، ومن لفَّ لفَّهم في كل عصر، ودلالة واقع الحال: شاهد صدق على أحقية ما جاء في كتاب الله عنهم، وعن النصارى، فقد كان علماؤنا غايةً في الإنصاف، من حيث النظر في الكلام، وتحليله بدقة، وسلامة الاستنباط لدلالته على ما يذهب إليه صاحبه، وإقامة الحجة على الخصم بمنهجية وتجرد، ينأى عنهما الآخرون الذين لا يعرف الإنصاف ـ في الأعم الأغلب ـ إلى نفوسهم سبيلاً، عندما يواجهون بالحكم ما ينسب إلينا من كلام، أو فكر، ومعتقد.

هذا الحافظ ابن كثير: بعد أن أشار ـ وهو يفسر الآية ـ إلى أن الله تعالى يقول راداً على اليهود والنصارى في كذبهم وافترائهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ...﴾ قال: أي نحن منتسبون إلى أنبيائه وهم بنوه، وله بهم عناية، وهو يحبنا. ونقلوا عن كتابهم أن الله قال لعبده إسرائيل: «أنت النبي بكري» فحملوا هذا على غير تأويله وحرَّفوه.

وجميل ما كشف اللثام عنه وأوضحه من أن هذا التحريف، وتأويل الكلام على غير موضعه، لم يرض عنه غير واحد من عقلائهم الذين أسلموا؛ إذ قال هؤلاء ـ وهم على علم بمصطلحات القوم ـ هذا يطلق عندهم على التشريف والإكرام. ثم قال ـ رحمه الله ـ: أما النصارى: فقد نقلوا عن كتابهم أن عيسى قال لهم: إني ذاهب إلى أبي وأبيكم يعني ربي وربكم. ومعلوم أنهم لم يدَّعوا لأنفسهم من النبوَّة ما ادَّعوها

في عيسى عليه السلام، وإنما أرادوا بذلك: معزَّتهم لديه، وحظوتهم عنده، ولهذا قالوا: ﴿ **نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ** ﴾.

ويمكن القول بأنهم عطفوا ﴿ **وَأَحِبَّاؤُهُ** ﴾ على ﴿ **أَبْنَاءُ اللَّهِ** ﴾ لأنهم قصدوا أنهم أبناء محبوبون، إذ قد يكون الابن مغضوباً عليه.

وما أدهاهم في العبث بالألفاظ، احتياطاً لأنفسهم، وتلبيساً على الآخرين، كالذي رأينا في هذه الحقبة من صياغة بعض قرارات ما يدعى بـ «هيئة الأمم المتحدة» في شأن القضية الفلسطينية، وما أدراك ما القضية الفلسطينية!! وعلى ذلك فقِسْ!

وتظل الفرية الظالمة التي تكشف عن تناقضهم، ومخالفة سنن الله في خلقه بما يدّعون.. تظل هذه الفرية فاقعة الشكل والمضمون؛ ولو سرنا ـ على مضَضٍ ـ مع العلامة جمال الدين القاسمي في قوله: (أي قالوا: نحن من الله بمنزلة الأبناء من الآباء في المنزلة والكرامة ونحن أحباؤه لأننا على دينه) وذلك في تفسيره «محاسن التأويل».

هذا ولم يُعوز العلماء أن يجدوا في الآية نفسها قاعدة الرد على هذا الادعاء الغبيّ المقيت؛ وذلك بالكشف عن تناقضهم فيما يقولون، ثم بيان ما يحمل كلامهم من زعم أن لليهود والنصارى ـ وهم بشر ممن خلق الله ـ ميزةً تخالف عن سنة الله في خلقه أجمعين: ﴿ **قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ** ﴾ [المائدة: ١٨].

وفي هذا درس لنا ـ نحن المسلمين ـ في أن نكون على الجادة في سلوكنا الفكري والعملي، فلا نقع فيما وقع فيه أولئك الأناسي من

التناقض المهين، والسقوط فيما هو مخالفة عن سنن الله في خلقه، وأن تكون لدينا الشجاعة الأدبية في النقد الذاتي، تقويماً للاعوجاج، وعودة مطمئنة عن الخطأ إلى الصواب!!

وهذا الدرس ـ على أهميته ـ مضموم إلى ما حملت الكلمات المباركات من تفنيد لتلك الدعوى العريضة التي يراد لها أن تكون عند القوم وسيلة من وسائل الاستكبار في الأرض، والوصول إلى غايات هابطة، ما نزال نرى انتساب نظائرها اليوم إلى ما تنتسب إليه من الحرب على الحق وأهله، وعلى الإنسان وإنسانيته في العالمين، بدعواهم أنهم شعب الله المختار!!

قال شيخ المفسرين في «جامع البيان»: «يقول الله لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء الكذبة المفترين على ربهم ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُم﴾، يقول: فلأي شيء يعذبكم ربكم بذنوبكم، إن كان الأمر كما زعمتم أنكم أبناؤه وأحباؤه؛ فإن الحبيب لا يعذب حبيبه، وأنتم مقرُّون أنه معذبكم؟ وذلك أن اليهود قالت: إن الله معذبنا أربعين يوماً عددَ الأيام التي عبدنا فيها العجل، ثم يخرجنا منها، فقال الله لمحمد ﷺ: قل لهم: إن كنتم ـ كما تقولون ـ ﴿أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ فلم يعذبكم بذنوبكم؟.

«يُعلِمُهم عزَّ ذِكْرُه أنهم أهلُ فريةٍ وكذبٍ على الله جلَّ وعز».

هذا عن الشق الأول من الرد؛ إذ كشفت الكلمة القرآنية ـ كما رأينا عند أبي جعفر ـ عن التناقض الذي وقع فيه الفريقان من جراء دعواهم أنهم أبناء الله وأحباؤه، فلو كانوا أبناءَه لما عذبهم، لكن اللازم منتف، إذ

يلزم من كونهم أبناءه وأحباءه ـ كما يزعمون ـ أن لا يعذبهم، وشأن المحب أن لا يعذب حبيبه، وشأن الأب أن لا يعذب أبناءه، ولكن الله عذبهم في الدنيا بالقتل والأسر والمسخ، وأعدّ لهم في الآخرة جهنم وبئس المهاد، جزاءَ كفرهم وافترائهم وكذبهم، بل هم معترفون بأنه سيعذبهم بالنار يوم القيامة أياماً معدودات.

ومن لطائف ما يذكر بهذه المناسبة: أن أحد كبار السالكين وهو أبو بكر دلف بن جحدر الشبلي المشهور بـ«الشبلي» والمتوفى سنة ٣٣٤هـ سأل بعضَ الفقهاء: ـ ويروى أن المسؤول كان المقرئ المحدث النحويّ أبا بكر بن مجاهد المتوفى سنة ٣٢٤هـ ـ أين تجد في القرآن أن المحبَّ لا يعذب حبيبه؟، فلم يهتد إلى ذلك، فقال له الشبلي: في قوله تعالى: ﴿**قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم**﴾ قال الحافظ ابن كثير: وهذا الذي قاله حسن، وله شاهد في المسند للإمام أحمد حيث قال: حدثنا ابن أبي عدي عن حميد عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: مرَّ النبي ﷺ في نفر من أصحابه، وصبي في الطريق، فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يوطأ، فأقبلت تسعى وتقول: ابني ابني، وسعت فأخذته، فقال القوم: يا رسول الله، ما كانت هذه لتلقي ابنها في النار، قال: فخفَّضهم النبي ﷺ فقال: والله ما يلقي حبيبه في النار» تفرد به أحمد.

وجميل ما ذهب إليه السمرقندي من أن في الآية دليلاً على أن الله تعالى إذا أحب عبده، يغفر ذنوبه، ولا يعذبه، لأنه تعالى احتج عليهم فقال: فلم يعذبكم لو كنتم أحباء إليه؟ وقد قال في آية أخرى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ**

يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. ففيها دليل أنه لا يعذب التوابين بذنوبهم، ولا المجاهدين الذين يجاهدون في سبيل الله ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الصف: ٤].

والملاحظ أن الرد على أهل تلك الدعوى الباطلة، لم يقتصر في الآية الكريمة على إعلامهم بأنهم أهل افتراء وكذب على الله سبحانه، بل تبع ذلك ـ وهذا هو الشق الثاني من الرد ـ تقرير أنهم بشر من خلق الله، وله جل شأنه في عاجل أمر عباده وآجلهم، سنة ماضية، ومشيئة نافذة، وما دام الأمر كذلك: فهو يعامل هؤلاء الفئام من الناس كما يعامل سائر الخلق، فلهم أسوة فيهم، ولا مزية لهم عليهم، فالكل لآدم وآدم من تراب؛ ذلك قوله تعالى: ﴿ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ﴾ [المائدة: ١٨].

ولقد جلَّى أبو جعفر الطبري هذه النقطة تجلية تامة فقال: «يقول جل ثناوه لنبيه محمد ﷺ: قل لهم: ليس الأمر كما زعمتم أنكم أبناء الله وأحباؤه ﴿ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ﴾ يقول: خلقٌ من بني آدم، خلقكم الله مثل سائر بني آدم؛ إن أحسنتم جوزيتم بإحسانكم كما سائر بني آدم مجزيون بإحسانهم، وإن أسأتم جوزيتم بإساءتكم، كما غيركم مجزيٌّ بها؛ ليس لكم عند الله إلا ما لغيركم من خلقه، فإنه يغفر لمن يشاء من أهل الإيمان به ذنوبه، فيصفح عنه بفضله، ويسترها عليه برحمته فلا يعاقبه بها ﴿ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ﴾ يقول: ويعدل على من يشاء من خلقه، فيعاقبه على ذنوبه، ويفضحه بها على رؤوس الأشهاد، فلا يسترها عليه».

وحسنٌ أن نعرِّج على ما اتجه إليه القرطبي في الكلام على هذه القضية، إذ آثر ـ وهو يرد على أولئك المبطلين دعواهم من خلال الكلمة القرآنية في دلالتها القطعية على تسفيه ما ذهبوا إليه ـ: آثر الاستعانة بشيء من منهج الجدليين في عصره؛ فبالجملة – كما يقول – رأى أصحاب تلك الدعوى المزعومة يهوداً ونصارى ـ لأنفسهم فضلاً، فردَّ الله عليهم قولهم فقال: ﴿ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ﴾ فلم يكونوا يخلون ـ كما يقول ـ من أحد وجهين؛ إما أن يقولوا: هو يعذبنا، فيقال لهم: فلستم إذاً أبناءَه وأحباءَه، فإن الحبيب لا يعذب حبيبه، وأنتم تقرّون بعذابه؛ فذلك دليل على كذبكم ـ وهذا هو المسمى عند الجدليين ببرهان الخلف ـ أو يقولوا: لا يعذبنا فيكذِّبوا ما في كتبهم، وما جاءت به رسلهم، ويبيحوا المعاصي، وهم معترفون بعذاب العصاة منهم ولهذا يلتزمون أحكام كتبهم.. وقيل: معنى ﴿ يُعَذِّبُكُم ﴾ عذَّبكم؛ فهو بمعنى المُضيِّ؛ أي فلم مسخكم قردةً وخنازير؟ ولم عذب من قبلكم اليهود والنصارى بأنواع العذاب وهم أمثالكم؟ لأن الله سبحانه لا يحتج عليهم بشيء لم يكن بعد، لأنهم ربما يقولون: لا نعذب غداً، بل يحتج عليهم بما عرفوه.

قال القرطبي: (ثم قال ﴿ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ﴾ أي كسائر خلقه يحاسبكم علي الطاعة والمعصية ويجازي كلاً بما عمل ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ ﴾ أي لمن تاب من اليهود ﴿ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ﴾ من مات عليها).

وقد ختمت الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾ [المائدة: ١٨] فالسماوات والأرض كلها

سواء في كونها خلقاً وملكاً له، تحت قهره وسلطانه، وإليه ـ سبحانه ـ المرجع والمآب، فيحكم في عباده بما يشاء، إنه العادل الذي لا يجور، يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، ولا يظلم أحداً من خلقه.

هذا: وكما عوّدنا العلامة البقاعي؛ نراه يقفنا في هذه الآية على إحاطة بالمعنى لا تخلو من جدة في بعض الوقفات، ومزيد من البيان. قال ـ رحمه الله ـ في «نظم الدرر»: «ولما عمّ سبحانه في ذكر فضائح بني إسرائيل تارة، وخصّ أخرى، عمَّ يذكر طامَّة من طوامِّهم، حملهم عليها العُجبُ والبطر بما أنعم الله به عليهم، فقال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى﴾ أي كل طائفة قالت ذلك على حدتها خاصة لنفسها دون الخلق أجمعين ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ﴾ أي بما هو ناظر إلينا به من جميع صفات الكمال ﴿وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ أي غريقون في كل من الوصفين ـ كما يدل عليه العطف بالواو ـ».

وعلى طريقته في السير المرحلي من أجل الكشف عن التناسب ـ ما أمكن ـ قال: «ثم شرع ينقض هذه الدعوى نقضاً بعد نقض، على تقدير كون البنوة على حقيقتها أو مجازها». وبعد أن أتى على بعض النصوص المزعومة التي تذرعوا بها لهذه الشبهة ـ والتي رأينا بعضاً منها آنفاً ـ دلف إلى تقرير أن «أول نقض نقض به سبحانه وتعالى هذه الدعوى: بيان أنه يعذبهم ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم﴾ أي إن كنتم جامعين بين كونكم أبناء وأحباء؛ بين عطف البنوة وحنو المحبة، ﴿بِذُنُوبِكُم﴾ وعذابهم مذكور في نص توراتهم في غير موطن، ومشهور في تواريخهم، بجعلهم قردة وخنازير،

وغير ذلك؛ أي فإن كان المراد بالبنوة الحقيقة: فابن الإله لا يكون له ذنب، فضلاً عن أن يعذَّب به، لأن الابن لا يكون إلا من جنس الأب ـ تعالى الله عن النوعية والجنسية والصاحبة والولد علواً كبيراً!! ـ وإن كان المراد المجازَ: أي بكونه يكرمكم إكرام الولد والحبيب، كان ذلك مانعاً من التعذيب.

ولما كان معنى ذلك، أنه يعذبكم لأنكم لستم أبناء ولا أحباء، عطف عليه نقضاً آخر أوضح من الأول ـ وهذا من بلاغة القرآن في إقامة الحجة ـ فقال: ﴿**بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ**﴾ وذلك أمر مشاهد؛ والمشاهدات من أوضح الدلائل؛ فأنتم مساوون لغيركم في البشرية والحدوث، لا مزية لأحد منكم على غيره في الخلق والبشرية، وهما يمنعان البنوة، فإن القديم لا يلد بشراً، والأب لا يخلق ابنه، فامتنع بهذين الوصفين البنوة، وامتنع بتعذيبهم أن يكونوا أحباء الله، فبطل الوصفان اللذان ادَّعوهما».

ومما هو جدير بالكثير من التأمل المبصر: أنه تلا الكلمات المباركات التي كان الحديث يدار حولها، وهي قوله سبحانه: ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ...**﴾ الآية.. تلاها قوله عزَّ ذِكره: ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾**﴾ [المائدة: ١٩] فهذا كلام قاطع للعذر؛ إذ جاءهم البشير النذير ـ على فترة من الرسل ـ وما عليهم إلا أن يؤمنوا.

ذلك بأنه لما دحضت حجتهم، ووضحت فريتهم الكاذبة الظالمة على الله؛ والقرآنُ الكريم ـ أولاً وآخراً ـ كتاب هداية يهدي إلى الحق وإلى صراط

مستقيم، اقتضى ذلك ـ والله أعلم ـ الالتفات إلى تجديد دعوتهم إلى طريق الهدى، ووعظهم على وجه الامتنان عليهم، وإبطال ما عساهم يظنونه حجة لهم، وهو ذريعة يراد لها أن تنطلي على المسلمين، فقال تبارك وتعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ...﴾ الآية، فلا عذر لمعتذر وحجة الله البالغة قائمة على من عرف الحق واتخذه وراءه ظهرياً، وراح يفتري ويكذب ويمكر.. وقد ختمت الآية ـ كما نرى ـ بقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قال العلامة البقاعي: «وفي الختم بوصف القدرة، وإتباعه تذكيرهم ما صاروا إليه من العز بالنبوة والملك، بعدما كانوا فيه من الذل بالعبودية والجهل.. إشارة إلى أن إنكارهم لأن يكون من ولد إسماعيل عليه السلام نبي، يلزم منه إنكارهم للقدرة».

وبعد: فليذكر المسلم ـ فيما يذكر من حقائق الكتاب والسنة وأخبارهما ـ قول الله الكبير المتعال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ ومن الغفلة بمكان: الإعراض عن ثوابت الكتاب والسنة في شأن اليهود وغيرهم من أعداء الله. والآثارُ المدمرة لهذا الإعراض في حياة الأمة، لا تخفى على ذي بصيرة. فكأين من حقيقة من هذه الحقائق، أو خبر من تلك الأخبار التي تنير السبيل إلى منطلقات أعداء الله والحق، في مواقفهم من كل ما له صلة بالإسلام والمسلمين، لو أخذناها بقوة، ووضعناها موضعها اللائق على صعيد كل من التصور، والتطبيق العملي عند التعامل مع أولئك الأناسي.. لما ضاقت علينا الأرض بما رحبت، وحوصرنا

في عقر دارنا، وزُيِّنَ لكثير منا باطل العدو، كما هو حاصل اليوم في كثير من البقاع!!

ومهما بدأ مرضى القلوب وأعادوا: فالحقيقة المشرقة بنور السماء حقيقة أبداً، ناصعة أبداً، لا يضيرها جهلٌ أو تجاهل، ووقوع أهل النفوذ في جيل من أجيال الأمة في حمأة الجهل أو التجاهل والغفلة لسبب أو لآخر، لا يعفي من المسؤولية، والعمل على وضع الحق في نصابه، مهما غلا الثمن في المال والنفس وما إليهما؛ ولنذكر أنه لأمر ما جعل النبي ﷺ لتالي القرآن بكل حرف عشر حسنات، والمضاعفة حاصلة بإذن الله؛ فالمؤمن يتلو الحقيقة القرآنية ـ في الولاء والبراء أو الجهاد الخالص في سبيل الله.. وله ـ بجانب الهداية التي تعلي من شأن الفرد والجماعة والأمة في الدنيا والآخرة ـ بكل حرف عشر حسنات، والله يضاعف لمن يشاء.

نسأله تعالى عزيمة الرشد والثبات في الأمر، وأن نكون ممن يوالون في الله ويعادون في الله. وهو ـ جل شأنه ـ حسبنا ونعم الوكيل.

وغرّهم في دينهم ما كانوا يفترون

ما رأينا من الكلام على واحدة من تخرصات يهود في سورة البقرة وذلك في قوله تعالى: ﴿ **وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً...** ﴾ الآية، وما تلاها، يخلص بنا إلى موطن آخر في الكتاب العزيز يطالعنا بما يقرر ويؤكد إصرارهم، أو إصرارهم والنصارى على تلك المقولة المفتراة كذباً على الله تعالى؛ إذ نقرأ في سورة آل عمران قوله جل ثناؤه: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ (٢٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤)** ﴾ [آل عمران: ٢٣ - ٢٤].

ينكر الله سبحانه وتعالى على اليهود الذين أوتوا نصيباً من التوراة، وهم متمسكون بهذا النصيب على زعمهم.. ينكر عليهم شديد الإنكار الذي جاء على صورة التقرير والتعجيب بالاستفهام ﴿ **أَلَمْ تَرَ** ﴾ خطاباً للنبي عليه الصلاة والسلام، أنهم إذا دعوا إلى التحاكم إلى التوراة التي تحمل نصوصها أمرهم باتباع النبي ﷺ، أو إلى التحاكم إلى القرآن الذي أمروا أن يؤمنوا به، تولّوا وهم معرضون. وقد يكون المقصود مع اليهود: نصارى نجران كما تدل بعض الروايات؛ فالنصارى أيضاً أمروا باتباع محمد ﷺ وأن يؤمنوا بالقرآن وبمن أنزل عليه، ولكنهم إذا دعوا إلى كتاب الله ليحكم بينهم، سواء أكان الإنجيل أو القرآن، كان منهم الإدبار

والإعراض. وفي هذا من الفريقين ما فيه من شديد الضلالة ومجاهرة الله بالعداء؛ ولذلك جاء التنويه بذكرهم بالمخالفة والعناد.

وقد جاء في بعض الروايات لأسباب النزول عند الإمام الطبري، ما أخرج بسنده عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: « دخل رسول الله ﷺ بيت المدراس على جماعة من يهود، فدعاهم إلى الله فقال له نعيم بن عمرو - أو نعمان بن عمرو - والحارث بن زيد: على أي دين أنت يا محمد؟ فقال: على ملة إبراهيم ودينه، فقالا: فإن إبراهيم كان يهودياً!! فقال لهما رسول الله ﷺ: هلموا إلى التوراة، فهي بيننا وبينكم! فأبيا عليه، فأنزل الله عز وجل: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ** ﴾ إلى قوله: ﴿ **مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ** ﴾ ومن الواضح أن الفريق الذي تولى وأعرض: هم الرؤساء والعلماء.

وهذا يذكّر بقوله تعالى في سورة ال عمران: ﴿ **مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾** ﴾ [آل عمران: ٦٧ – ٦٨].

كما روى شيخ المفسرين عن قتادة: قوله: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ** ﴾ الآية، أولئك أعداء الله اليهود، دعوا إلى كتاب الله ليحكم بينهم، وإلى نبيه ليحكم بينهم، وهم يجدونه عندهم مكتوباً في التوراة والإنجيل، ثم تولوا وهم معرضون. أجل لقد تولوا بأجسامهم، معرضين بقلوبهم عن كتاب الله، وهم بحقيقته وحجيته عالمون!

وقال ابن عباس – رضي الله عنهما –: «إن الله جعل القرآن حكماً فيما بينهم وبين رسول الله ﷺ، فحكم القرآن على اليهود والنصارى أنهم على غير الهدى، فأعرضوا عنه».

وممن اتجه إلى أن المقصود بالذين أتوا نصيباً من الكتاب في الآية: اليهود والنصارى: الحافظ ابن كثير: ذلكم قوله في تفسيره للآية: «يقول تعالى منكراً على اليهود والنصارى المتمسكين ـ فيما يزعمون ـ بكتابيهم اللذين بأيديهم ـ وهما التوراة الإنجيل ـ وإذا دعوا إلى التحاكم إلى ما فيهما من طاعة الله فيما أمرهم به فيهما، من اتباع محمد صلى الله عليه وسلم، تولّوا وهم معرضون عنهما، وهذا في غاية ما يكون من ذمهم، والتنويه بذكرهم في المخالفة والعناد. ثم قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾».

وهكذا تجد أن اليهود مكذبون بالقرآن، مصدقون ـ على حد زعمهم ـ بالتوراة، وكذلك النصارى: تجدهم مكذبين بالقرآن، مصدقين ـ بزعمهم ـ بالإنجيل؛ فكانت الحجةُ عليهم جميعاً بتكذيبهم بما هم به ـ كما يدَّعون ويزعمون ـ مؤمنون، وبأحكامه مستمسكون، أبلغَ، وللعذر أقطع، لأن كلاً من التوراة والإنجيل، آمر بالإيمان بمحمد ﷺ، وبالكتاب الذي أنزل عليه وطاعته في ذلك!

والملاحظ أن الكلمات الهاديات، كشفت بوضوح عن أن هؤلاء الذين أبوا الانصياع لدعوة التحاكم إلى كتاب الله ليحكم بينهم بالحق، فيما نازعوا فيه رسول الله عليه الصلاة والسلام، إنما فعلوا ما فعلوا من التولي

والإعراض، بسبب زعمهم أنهم في أمان من العذاب ـ وهذا تخرُّص يهود ـ إلا أياماً قليلة هي الأيام الأربعون التي عبدوا فيها العجل، أما النصارى: فباعث هذا الضلال عندهم: أنهم واليهود ـ بزعمهم ـ أبناء الله وأحباؤه؛ وقد كانت لنا وقفة عند كل من الزعمين الباطلين فيما سبق. وبذلك انعدم اكتراثهم باتباع الحق، لأن اعتقادهم النجاة من عذاب الله على كل حال، مصدِّقين فريتهم الكاذبة عليه ـ سبحانه ـ جرَّأهم على ارتكاب مثل هذا الإعراض الظالم الذي صحب التولي **﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾** فذلكم هو السبب.

هكذا زين الشيطان لهؤلاء الكفرة أن يقعوا في مباءة الكذب على الله، فاخترعوا من تلقاء أنفسهم أن الله مسهل لهم أمر العقاب ـ وهم على ما هم عليه ـ **﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾** أي ثبتهم على دينهم الباطل ـ كما يقول العلماء ـ ما خدعوا به أنفسهم من زعمهم أن النار لا تمسُّهم بذنوبهم وضلالاتهم، إلا أياماً معدودات، وهم يعلمون أنهم هم الذين افتروا هذا من قِبلَ أنفسهم وافتعلوه، ولم ينزل الله به سلطاناً.

قال القاضي البيضاوي في «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» عند تفسيره لقوله جل ذكره: **﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾** قال: «بسبب تسهيلهم أمر العقاب على أنفسهم لهذا الاعتقاد الزائغ والطمع الفارغ **﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾** من أن النار لن تمسَّهم إلا أياماً قلائل، وأن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم، أو أنه تعالى وعد يعقوب عليه السلام أن لا يعذب أولاده إلا تحلَّة القسم».

وإذا كان الأمر كذلك: فمن دقة الأسلوب القرآني وروعته في الحديث عن هؤلاء المغضوب عليهم والضالين، أن الله تعالى أعقب الآيتين السابقتين بما يليق بصنيعهم، من وعيد شديد، وتهديد غليظ، واستعظام لما أعد لهم في ذلك اليوم الذي لا ريب في أنه كائن وواقع، يجزى الناس فيه بأعمالهم، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، ولا يظلم ربك أحداً؛ فكيف يكون حال هؤلاء العابثين وهم يقعون فيما لا حيلة لهم فيه، حيث لا يغني عنهم بهتانهم وإفكهم، شيئاً، ويظهر للعيان أن ما حدثوا به أنفسهم وسهّلوه عليها، إنما كان تعللاً بباطل، وطمعاً فيما لا يكون، لما أنه مخالف لسنن الله في خلقه، كما مرّ في سورة البقرة. ذلك قوله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [آل عمران: ٢٥].

جاء في «جامع البيان»: «يعني بقوله جل ثناؤه: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ ﴾ فأيُّ حال يكون حال هؤلاء القوم الذين قالوا هذا القول، وفعلوا ما فعلوا من إعراضهم عن كتاب الله، واغترارهم بربهم، وافترائهم الكذب؟ وذلك من الله عز وجل وعيدٌ لهم شديد، وتهديد غليظ.

وإنما يعني بقوله: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ ﴾ الآية: فما أعظم ما يلقون من عقوبة الله وتنكيله بهم، إذا جمعهم ليوم يوفّى كل عامل جزاءَ عمله على قدر استحقاقه، غير مظلوم فيه، لأنه لا يعاقب فيه إلا على ما اجترم، ولا يؤاخذ إلا بما عمل، يجزي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، لا يخاف أحد من خلقه يومئذ ظلماً ولا هضماً».

هذا: ومن بلاغة القرآن العظيم التعبير بقوله: «ليوم» باللام، وليس «في يوم» وذلك أنه لو كان «اللام» «في» لكان معنى الكلام ـ كما يقول شيخ المفسرين ـ: فكيف إذا جمعناهم في يوم القيامة، ماذا يكون لهم من العذاب والعقاب؟ وليس ذلك المعنى في دخول «اللام» ولكن معناه مع «اللام»: فكيف إذا جمعناهم لما يحدث في يوم لا ريب فيه، ولما يكون في ذلك اليوم من فصْل الله القضاء بين خلقه، ماذا لهم حينئذ من العقاب وأليم العذاب؟ فمع «اللام» في «ليوم لا ريب فيه» نيَّةُ فعل، وخبرٌ مطلوب قد ترك ذكره، أجزأت دلالة دخول «اللام» في «ليوم» عليه منه. وليس ذلك مع «في» فلذلك اختيرت «اللام» بدلاً من «في».

الطامات الثلاث!!

والذي يحسن التنبه إليه أن ما ذكر في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ الآية ليس القضيةَ كلها في صنيع الضالين سواء السبيل، المغضوب عليهم في الدنيا ويوم الدين؛ فالأمر لا يقتصر على توليهم وإعراضهم عن كتاب الله، حين يدعون إلى التحاكم إليه فيما نازعوا خاتم النبيين عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، متعللين بافتراء كاذب على الله يسهِّلون به على أنفسهم ما يقعون فيه من شدة الضلالة؛ بل هنالك موبقات وطامات أخر، كل واحدة أسوأ من أختها، جاء ذكرها في الكتاب الكريم قبل الكلام على هذه الموبقة، بدءاً من الآية الحادية والعشرين من سورة آل عمران؛ ذلكم قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ

النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [آل عمران: ٢١ - ٢٢].

ففي هاتين الآيتين ما يدل أوضح الدلالة على أن أهل الكتابين التوراة والإنجيل، كانوا مرتكبين لهذه المآثم؛ وهي الكفر بآيات الله، وقتل النبيين بغير حق - ولا يقتل النبيُّ إلا بغير حق - وقتل الذين يأمرون بالقسط من الناس. وفي ذلك ما فيه من الإضرار للفرد والجماعة، ناهيك عن ذلك التعدي الظالم لحدود الله.

وقد جاءت الكلمة القرآنية صريحة في ذمهم، فيما اجترحوا من الاستكبار على الحق وأهله، والعتوِّ عن أمر الله بتلك المحارم التي جِماعُها: تكذيبهم بآيات الله قديماً وحديثاً، تلك التي بلغتهم إياها الرسل، استكباراً عليهم وعناداً لهم، وتعاظماً على الحق واستنكافاً عن اتباعه. ولم يقتصر الأمر على ذلك، فأضافوا إليه أن قتلوا من قتلوا من النبيين المبلغين عن الله، حين بلغوهم عن الله شرعه الذي به تنتظم الحياة، ويسعد المؤمنون العاملون به في الدنيا والآخرة؛ كل أولئك بغير سبب ولا جريمة منهم إليهم، إلا لكونهم دعوهم إلى الحق، وبيّنوا لهم سبيل الرشاد، ونهوهم عما يأتون من معاصي الله وركوب ما يركبون من الأمور التي قد تقدم الله إليهم بالزجر عنها؛ نحو زكريا وابنه يحيى عليهما السلام، وما أشبههما من أنبياء الله.

ويبلغ بهم التهاون في الدين، والاستهتار بدم أهل الصلاح والإصلاح: أن يضموا إلى قتل النبيين، قتل من يتبعهم آمراً بالمعروف ناهياً

عن المنكر ويصدق في دعوة الناس إلى ما دعوا إليه: ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ روى الإمام الطبري عن قتادة في قوله: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ قال: هؤلاء أهل الكتاب، كان أتباع الأنبياء ينهونهم ويذكّرونهم، فيقتلونهم؛ وهذا ـ بلا ريب ـ غاية الكبر والاستعلاء الظالم على الحق وأهله، كما قال النبي ﷺ: «الكبر بطر الحق وغمط لناس» أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي من رواية عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، كما أخرجه أبو داود أيضاً من رواية أبي هريرة رضي الله عنه، وهو جزء من حديث سئل فيه النبي ﷺ عن الكبر ـ كما سبق ـ.

ومن بلاغة القرآن العظيم أنه جيء بصِلات الموصول «الذين» بالأفعال المضارعة «يكفرون» «يقتلون.. يقتلون» لتدل على استحضار الحالة الفظيعة المنكرة، وليس المراد إفادة التجدُّد؛ لأن ذلك وإن تأتى في قوله: «يكفرون» لا يتأتى في قوله: «ويقتلون» لأنهم قتلوا الأنبياء والذين يأمرون بالقسط في زمن مضى، والمراد من أصحاب هذه الصِّلات ـ كما يرى العلامة الطاهر بن عاشور ـ يهود العصر النبوي؛ لأنهم الذين توعدهم بعذاب أليم، وإنما حمل هؤلاء تبعة أسلافهم ـ كما أشرنا غير مرة ـ لأنهم معتقدون سداد ما فعله أسلافهم الذين قتلوا زكريا، لأنه حاول تخليص ابنه يحيى من القتل، وقتلوا يحيى لإيمانه بعيسى، وقتلوا النبيَّ إرْمياء بمصر، وقتلوا حزقيال النبي لأجل توبيخه لهم على سوء أفعالهم، وزعموا أنهم قتلوا عيسى عليه السلام؛ فهو معدود لهم بإقرارهم وإن كانوا كاذبين فيه: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾

[النساء: ١٥٧] وقتل منشا بن حزقيال ملك إسرائيل النبيَّ أشعياء: نشره بالمنشار، لأنه نهاه عن المنكر، بمرأى ومسمع من بني إسرائيل ولم يحموه، فكان هذا القتل معدوداً عليهم!

وكم قتلوا ممن يأمرون بالقسط!! وكلُّ تلك الجرائم معدودة عليهم؛ لأنهم رضوا بها وألحوا في وقوعها.

وإني مذكِّر بما جاء في السنة من استفظاع هذه الجريمة النكراء، ـ كما سبق ـ والترهيب الشديد منها، وأن أشد الناس عذاباً يوم القيامة من يجترئ على ذلك؛ قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو الزبير الحسن بن علي بن مسلم النيسابوري نزيل مكة قال: حدثني أبو حفص بن عمر ابن حفص ـ يعني ابن ثابت بن زرارة الأنصاري ـ قال: حدثنا محمد ابن حمزة قال: حدثني أبو الحسن مولى لبني أسد عن مكحول عن قبيصة بن ذؤيب الخزاعي عن أبي عبيدة بن الجراح – رضي الله عنه – قال: «قلت: يا رسول الله أي الناس أشد عذاباً يوم القيامة؟ قال: رجل قتل نبياً أو من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر. ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٢﴾**﴾ ثم قال رسول الله ﷺ: «يا أبا عبيدة قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً من أول النهار في ساعة واحدة، فقام مائة وسبعون رجلاً من بني إسرائيل، فأمروا من قتلهم بالمعروف، ونهوهم عن المنكر؛ فقُتلوا جميعاً من آخر النهار من ذلك اليوم، فهم الذين ذكر الله عز وجل».

وهكذا رواه ابن جرير ـ ولكن بلفظ « فقام مائة واثنا عشر رجلاً من عُبَّاد بني إسرائيل ـ عن أبي عبيد الوصّابي محمد بن حفص عن ابن حمْير عن أبي الحسن مولى بني أسد عن مكحول به.

وعن عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – قال: « قتلت بنو إسرائيل ثلاثمائة نبي من أول النهار، وأقاموا سوق بَقْلِهم من آخره ». رواه ابن أبي حاتم.

قال الإمام الطبري: « فتأويل الآية إذاً: الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق، ويقتلون آمريهم بالعدل في أمر الله ونهيه، الذين ينهونهم عن قتل أنبياء الله وركوب معاصيه ».

ولا تعجب بعد هذا إذا قابلهم الله على صنيعهم الفاجر المخزي الذي أولُ سماته التكبر عن الحق والاستكبار على الخلق: بالذلة والصغار في الدنيا، والعذاب المهين في الآخرة؛ فقال سبحانه: ﴿ ...**فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٢)** ﴾ والمعنى: فأخبرهم يا محمد وأعلمهم: أن لهم عند الله عذاباً مؤلماً وهو الموجع المهين.

وعلى السنن القرآني الحكيم في وضع الأمور مواضعها، والتنبيه على ربط النتائج بالمقدمات، وأن الجزاء من جنس العمل: بيَّنَ سبحانه أن هؤلاء المذكورين الذين ديدنهم الكفر بآيات الله، وقتل النبيين بغير حق، وقتل الذين يأمرون بالقسط من الناس: هم الذين حبطت أي بطلت

أعمالهم في الدنيا والآخرة؛ فأما في الدنيا: فلم ينالوا بها مَحْمَدَةً ولا ثناءً من الناس، بل العكس هو الصحيح؛ لأنهم كانوا على ضلال وباطل، ولم يرفع الله لهم بها ذكراً، بل لعنهم ـ كما يقول شيخ المفسرين ـ وهتك أستارهم، وأبدى ما كانوا يخفون من قبائح أعمالهم على ألسن أنبيائه ورسله في كتبه التي أنزلها عليهم، فأبقى لهم ما بقيت الدنيا مذمةً متجددة، فذلك حبوطها في الدنيا. وأما في الآخرة: فإنه أعد لهم فيها من العقاب ما وصف في كتابه، وأعلم عباده أن أعمالهم تصير بوراً لا ثواب لها، لأنها كانت كفراً بالله وعدواناً صارخاً على الحق وذويه؛ فجزاء أهلها الخلود في الجحيم.

وهذا الجزاء لا حيلة لهم في دفعه ـ وقد كان لهم في الدنيا من العبث والمراوغة ما كان ـ وذلك ما ختمت به الآية من قوله تعالى: ﴿**وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ**﴾ يعني: وما لهؤلاء المفسدين من ناصر ينصرهم من الله، إذا هو انتقم منهم بما سلف من إجرامهم واجترائهم عليه فيستنقذهم منه، ويصرف عنهم العذاب.

هذا: وقد زاد الأمر وضوحاً: كما ذهب إلى ذلك صاحب «التحرير والتنوير» ـ رحمه الله ـ من أن المعنى هنا: (أن اليهود لما كانوا متدينين يرجون من أعمالهم الصالحة النفع بها في الآخرة بالنجاة من العقاب، والنفعَ في الدنيا بآثار رضى الله على عباده الصالحين؛ فلما كفروا بآيات الله، وجحدوا نبوة محمد ﷺ، وصوّبوا الذين قتلوا الأنبياء والذين يأمرون بالقسط، فقد ارتدوا عن دينهم، فاستحقوا العذاب الأليم؛ ولذلك ابتدئ به بقوله: ﴿**فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾.

فلا جرم تحبط عمالهم فلا ينتفعوا بثوابهم في الآخرة، ولا بآثارها الطيبة في الدنيا.

ومعنى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ ومالهم من ينقذهم من العذاب الذي أنذروا به.

وجيء في قوله: ﴿مِّن نَّاصِرِينَ﴾ بمن الدالة على تنصيص العموم، لئلا يترك لهم مدخل إلى التأويل).

وهكذا تدل الآيات بمجموعها ـ بدءاً من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ﴾ الآية وهي الآية الحادية والعشرون من سورة آل عمران، وانتهاء بالآية الخامسة والعشرين وهي قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ...﴾ [آل عمران: ٢٥] الآية.. تدل على أن ما اقترفه هؤلاء المغضوب عليهم الضالون ـ وكان ديدنهم ـ لا يقتصر على توليهم معرضين عن الاحتكام إلى كتاب الله، فيما نازعوا فيه رسول الله ﷺ، وتعليل أنفسهم بسهولة هذا العصيان؛ لأن النار لا تمسُّهم إلا أياماً معدودات! ولكن هنالك أنهم يكفرون بآيات الله، ويقتلون النبيين بغير حق، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس.

وقد أحسن الحافظ ابن كثير صنعاً حين أعقب تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ...﴾ حتى قوله: ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ بما يكشف عن أن الوعيد في الآية الخامسة والعشرين كائن على تلك الجرائم كلها؛ ذلكم قوله رحمه الله: (.. قال الله متهدداً لهم ومتوعداً: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ﴾ أي كيف

يكون حالهم وقد افتروا على الله وكذبوا رسله وقتلوا أنبياءه، والعلماء من قومهم، الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، والله تعالى سائلهم عن ذلك كله، ومحاسبهم عليه، ومجازيهم به، ولهذا قال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ﴾ لاشك في وقوعه وكونه ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾).

وفي خاتمة المطاف: أود التنبيه على أن المطلوب من المسلمين ـ والحال هي الحال ـ أن يثوبوا إلى سواء الصراط، فيتحاكموا إلى حقائق القرآن الكريم وبيانه من السنة النبوية في شأن التعامل مع يهود ومن هم على شاكلتهم ـ على اختلاف المناهج في بعض الأحيان ـ غير ناسين ما توعد الله به أهل الكتابين على توليهم معرضين عن التحاكم إلى كتاب الله، وتمويههم على أنفسهم وعلى الآخرين، بأن عاقبة هذا الإجرام الشنيع سهلة محتملة لأن النار لن تمسَّهم إلا أياماً معدودات.

فالتوجه بالعقل الأخروي، والتحليل الواعي لوقائع التاريخ، وما أعقبه نسيان أو تناسي المسلمين ـ أو أهل النفوذ فيهم ـ لهذه الحقيقة: كل أولئك مدعاة إلى مراجعة حقبة الإعراض والتولي عن الاحتكام إلى حقائق الكتاب والسنة ـ مصحوباً ذلك بالأخذ بالأسباب ـ ماذا صنعت ودمّرت!!

والشجاعةُ في النقد الذاتي، والرجوع إلى الحق: محمدةٌ تعني الخطوة الصحيحة على طريق العودة الصادقة إلى الله، والإخلاص في الاستنارة بهدي الحقائق الربانية.

والعاقبةُ الحميدة من وراء ذلك محققة إن شاء الله، لا يحول دونها الغثاء العارض ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ ﴾ [الرعد : ١٧].

والله ناصر هذه الأمة إن صدقت في نصره، وعمدت بالجهاد ـ على تنوع ميادينه ـ إلى تغيير واقع ينتسب من بعض الوجوه إلى قول الشاعر العربي : « خلا لك الجو فبيضي واصفري »

والحمد لله أولاً وآخراً وهو حسبنا ونعم الوكيل.

لن تمسَّنا النار إلا أياماً معدودة!!

في حديث موصول بما كنا بصدده من الرحلة مع قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ... ﴾ الآية يبدو النسب متصلاً في هذا الموضوع - على وجه العموم - بما أخبر الله عن زعم اليهود أن النار لا تمسّهم إلا أياماً معدودات، وزعمهم مع النصارى أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى. وهذه واحدة من خلائقهم.

ففي سورة البقرة: بعد أن بيّن الله تعالى أن من اليهود أميين لا يعلمون الكتاب إلا أمانيَّ وإن هم لا يظنون، أي لا يفقهون من الكتاب الذي أنزل على موسى شيئاً، ولكنهم يتخرّصون الكذب، وينتحلون الأباطيل، كذباً وزوراً وإن هم إلا يظنون.. يتكلمون بالظن بغير ما في كتاب الله ويكتبون ذلك بأيديهم ليشتروا به ثمناً قليلاً مجترئين على أن يقولوا: هو من الكتاب، وما هو من الكتاب، بل أمانيُّ يتمنونها، جاحدين نبوة محمد عليه الصلاة والسلام. وبعد أن توعدهم الله على ذلك بالويل - وهو جبل أو واد في النار - وانتقل إلى تقرير أن الويل لهم مما كتبت أيديهم، وأن الويل لهم مما يكسبون، وذلك قوله تعالى في كلام عن خلائق يهود وممارساتهم: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ [البقرة: ٧٨، ٧٩].

بعد هذا جاء الكلام على واحدة من مزاعمهم وتخرصاتهم؛ وهي أن الله اختصهم بأن النار لا تمسُّهم إلا أياماً معدودة، وحملت الكلمة القرآنية ما يدحض هذا الزعم الباطل، ويبرز الحقيقة ـ كما هي ـ للمؤمنين؛ ذلكم قول الله جلَّ وعز: ﴿ **وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾** ﴾.

[البقرة: ٨٠ ـ ٨٢].

إنها دعوى عريضة تصحب ضلالهم البعيد، وحربهم المعلنة والخفية على الله ورسوله والمؤمنين.. يقولون: لن تمسَّنا النار ـ لن تلاقي أجسامنا النار ولن ندخلها ـ إلا أياماً معدودة. وقد تعددت الروايات وتنوّعت في المراد من تلك الأيام المعدودة؛ فهل المراد: الأيام التي عبدوا فيها العجل، أو غير ذلك؟ روى الطبري بسنده عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ﴿ **وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً** ﴾ قال ذلك أعداءُ الله اليهود، قالوا: لن يُدخلنا الله النار إلا تحلّة القسم، الأيام التي أصبنا فيها العجل، أربعين يوماً، فإذا انقضت عنا تلك الأيام، انقطع عنا العذاب والقسم. وروى مثل ذلك عن قتادة والسدي والضحاك. ونجد أيضاً عند شيخ المفسرين ما أخرج في «جامع البيان» من رواية محمد ابن إسحاق عن ابن عباس قال: قدم رسول الله ﷺ المدينة، ويهود تقول: إنما مدة الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنما نُعذب يوماً واحداً في النار مكان كل ألف سنة من أيام الدنيا، فإنما هي سبعة أيام معدودة، فأنزل الله عز وجل ﴿ **وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا**

مَّعْدُودَةً﴾ إلى قوله: ﴿خَالِدُونَ﴾ وقال الضحاك: قال ابن عباس: زعمت اليهود أنهم وجدوا في التوراة مكتوباً أن ما بين طرفي جهنم مسيرة أربعين سنة إلى أن ينتهوا إلى شجرة الزقوم التي هي نابتة في أصل الجحيم. وقال أعداء الله: إنما نعذب حتى ننتهي إلى شجرة الزقوم، فتذهب جهنم وتهلك.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل كان من تخرصاتهم الباردة التي تنبئ عما تكن صدورهم من الحقد الأسود على المسلمين: دعوى أنهم يمكثون في جهنم أربعين يوماً، ثم يخرجون منها، ويخلفهم فيها ـ على زعمهم ـ المسلمون. وقد رأينا من قبل ما يدل على هذه الدعوى الباطلة، وذلك عند الكلام على محاولاتهم اغتيال الرسول ﷺ بالسّم.

وتحمل إلينا المصادر قول عكرمة: «اجتمعت يهود يوماً تخاصم النبي ﷺ. فقالوا: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ ـ وسمَّوْا أربعين يوماً ـ ثم يخلفنا ـ أو يلحقنا ـ فيها أناس، فأشاروا إلى النبي ﷺ وأصحابه. فقال رسول الله ﷺ: كذبتم بل أنتم فيها خالدون مخلَّدون، لا نلحقكم ولا نخلفكم فيها إن شاء الله أبداً».

وأورد الحافظ ابن كثير ما روى ابن مردويه بسنده عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: «لما فتحت خيبر، أهديت لرسول الله ﷺ شاة فيها سمٌّ، فقال رسول الله ﷺ: اجمعوا لي من كان من اليهود ههنا. فقال لهم رسول الله ﷺ: من أبوكم؟ قالوا: فلان، قال: كذبتم، بل أبوكم فلان، فقالو: صدقت وبررت. ثم قال لهم: هل أنتم صادقي على شيء إن

سألتكم عنه، قالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبناك عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا. فقال لهم رسول الله ﷺ: من أهل النار؟ فقالوا: نكون فيها يسيراً، ثم تخلفوننا فيها. فقال لهم رسول الله ﷺ: اخسؤوا والله لا نخلفكم فيها أبداً. ثم قال لهم رسول الله ﷺ: هل أنتم صادقيَّ في شيء إن سألتكم عنه؟ قالوا: نعم يا أبا القاسم. فقال: هل جعلتم في هذه الشاة سماً فقالوا: نعم. قال: فما حملكم على ذلك؟ قالوا: أردنا إن كنت كاذباً أن نستريح منك، وإن كنت نبياً لم يضرَّك» ورواه أحمد، والبخاري، والنسائي، من حديث الليث بن سعد بنحوه. كما رواه البخاري والدارمي عن أبي هريرة وقد رأينا فيما سبق الرواية التي تنصُّ على أن زينب بنت مشكم هي التي وضعت السمَّ، وإنها عندما سئلت عن سبب ذلك؟ أجابت بالجواب المذكور! وقد جرت الإشارة إلى ذلك من قبل.

وفي عود على بدء: يتضح أن الآية التي نسعد باصطحابها، تحمل هذا البيان لبعضٍ آخر من جناياتهم وتخرصاتهم فيما ادعوا لأنفسهم من أنهم ـ مع كل ما هم عليه من الانحراف الظالم ـ لا تمسهم النار في الآخرة إلا مدةً يسيرة، ومرادهم بذلك أنهم لا يخلدون فيها، بل يخلفهم فيها المسلمون ـ على زعمهم ـ لأن كل معدود لابد أن ينقضي. وقد كان ذلك الإفك ـ بما يبعث على الغرور واستسهال التهاون في أمور الدين والخلق ـ مدعاةً لأن يقدموا على المعاصي ومجانبة الحق دونما خوف أو تحسُّب!

ويتضح ذلك إذا كنا على ذكرٍ من الآية السابقة ـ التي آذنت بأن فريقاً من اليهود، يتخرَّصون الكذب على الله، ويكتبون الكتاب بأيديهم ليشتروا به ثمناً قليلاً ـ والقولِ بعطف ﴿ **قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ** ﴾ على ﴿ **يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ** ﴾ فيكون المعنى: فعلوا ذلك وقالوا لن تمسنا النار. ووجه المناسبة ـ كما جاء في «التحرير والتنوير» أن قولهم: ﴿ **لَن تَمَسَّنَا النَّارُ** ﴾ دلَّ على اعتقاد مقرر في نفوسهم يشيعونه بين الناس بألسنتهم، قد أنبأ بغرور عظيم من شأنه أن يقدمهم على تلك الجريمة وغيرها؛ إذ هم قد أمنوا من المؤاخذة إلا أياماً معدودة، تعدل أيام عبادة العجل، أو أياماً عن كل ألف سنة ـ كما سبق من قبلهم في هذا ـ وأن ذلك عذاب مكتوب على جميعهم؛ فهم لا يتوقون الإقدام على المعاصي لأجل ذلك؛

وهكذا نجد أنه بالعطف على أخبارهم، حصلت فائدة الإخبار عن عقيدة من ضلالاتهم، وما أكثرها!! ولموقع هذا العطف، حصلت فائدة الاستئناف البياني، إذ يعجب السامع من جرأتهم على هذا الإجرام.

هذا: وعلى السنن الخيِّر في منهج القرآن الكريم بوضع الأمور مواضعها؛ بيّن الله ـ جلّ ذكره ـ إفكهم في هذه الدعوى الضالة ﴿ **لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً** ﴾ لأن العقل لا طريق له إلى معرفة ذلك، وإنما سبيل معرفته الإخبار منه تعالى، وهو منتفٍ بلا ريب، فقال تباركت أسماؤه: ﴿ **قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** (٨٠) ﴾ [البقرة: ٨٠].

يقول الله لنبيه ﷺ: قل يا محمد لمعشر اليهود: أأخذتم بما تقولون

من كون النار لن تمسَّكم إلا أياماً معدودة، من الله ميثاقاً، فالله لا ينقض ميثاقه، ولا يبدِّل وعده وعقده ﴿أَمْ تَقُولُونَ﴾ أي أم لم يكن ذلك، فأنتم تقولون مفترين على الله الباطل ـ وهو ما لا تعلمون ـ جهلاً وجراءة عليه. وفي هذا ما فيه من توبيخهم والإنكار عليهم.

ولا بد من التنبيه على أن قولهم المحكيَّ، وإن لم يكن تصريحاً بالافتراء عليه سبحانه، لكنه مستلزم له؛ لأن ذلك الجزم لا يكون إلا بإسناد سببه إليه تعالى.

وقد روى الطبري في تأويل عن ابن عباس وقتادة والسدي ما يؤيد ذلك ويقرره؛ فعن قتادة: قالت اليهود: لن ندخل النار إلا تحلَّة القسم، عدَّة الأيام التي عبدنا فيها العجل، فقال الله: ﴿أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا﴾ بهذا الذي تقولونه؟ ألكم بهذا حجةٌ وبرهانٌ؟ فلن يُخلف الله وعده، فهاتوا حجتكم وبرهانكم ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾؟

ثم قال تعالى: ﴿بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [البقرة: ٨١ ـ ٨٢].

فهذا تكذيب من الله للقائلين من اليهود: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ وإخبار منه لهم ـ كما يقول العلماء ـ أنه معذبٌ من أشرك، ومن كفر به وبرسله وأحاطت به ذنوبه، فمخلَّده في النار؛ فإن الجنة لا يسكنها إلا أهل الإيمان به وبرسوله، وأهل الطاعة له والقائمون بحدوده وقد روى ابن جرير بسنده عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «﴿بَلَى مَن

كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ أي من عمل مثل أعمالكم، وكفر بمثل ما كفرتم به، حتى يحيط كفره بما له من حسنة، فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون».

فالله تعالى يقول لهم: ليس الأمر كما افتريتم، ولا كما تشتهون؛ بل الأمر: أنه من عمل سيئة، وأحاطت به خطيئته، وهو من وافى يوم القيامة وليس له حسنة تنير طريقه إلى الجنة، بل جميع عمله سيئات، ظلمات بعضها فوق بعض؛ فهذا من أهل النار. والذين آمنوا بالله ورسوله، وعملوا الصالحات ـ من العمل الموافق للشريعة ـ فهم من أهل الجنة.. وأين أنتم من ذلك وقد هدمتم قاعدة الإيمان، ثم بنيتم من العلم السيء والسلوك المردي ما يوصلكم إلى جهنم وبئس المهاد؟! قال الحافظ ابن كثير: وهذا المقام شبيه بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النساء: ١٢٣، ١٢٤].

ولا يخفىٰ ما في التعبير القرآني المعجز، من واضح الدلالة على ردّ تلك الدعوى المفتراة؛ فقوله تعالى: ﴿بَلَى﴾ إبطال لقولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ لأن كلمات الجواب تدخل على الكلام السابق لا على ما بعدها وعلى هذا: فكلمة ﴿بَلَى﴾ إثبات لما بعد حرف النفي في قوله: ﴿لَن تَمَسَّنَا﴾ فالمعنى: بلى، بل أنتم تمسُّكم النار أبداً، بدليل قوله سبحانه: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ والسيئة هنا: الشرك ـ كما يقول أبو جعفر ـ

وإحاطة الخطيئة: اجتماعها على صاحبها وموته عليها قبل التوبة والإنابة منها؛ فمن كسب سيئة وأحاطت به خطيئته، غمرته من جميع جوانبه، فما أبقت له حسنة، وسدت عليه منافذ النجاة؛ بأن عمل مثل أعمالكم، وكفر بمثل ما كفرتم به، أيها اليهود ـ كما قال عبد الله بن عباس ـ حتى يحيط كفره بما له من حسنة ﴿ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .

من هنا: لم يكن في هذه الآية حجة للزاعمين خلود أصحاب الكبائر من المسلمين في النار، إذ لا يكون المسلم ـ وهو بحمد الله من أهل التوحيد ـ محيطة به الخطيئات، بل هو لا يخلو من عمل صالح يجوز به ـ بفضل الله وعونه ـ إلى الجنة، ولو بعد حين، وحسبك من ذلك سلامة اعتقاده من الكفر بالله، وسلامة لسانه من النطق بكلمة الشرك الخبيثة. وقد تظاهرت الأخبار عن رسول الله ﷺ بأن أهل الإيمان لا يخلدون في النار، وأن الخلود فيها ـ أعاذنا الله من ذلك ـ لأهل الكفر بالله دون أهل الإيمان، قال الإمام الطبري بعد أن قرر هذا: «فإن الله جل ثناوه قد قرن بقوله: ﴿ بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ قوله: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ فكان معلوماً بذلك أن الذين لهم الخلود في النار من أهل السيئات، غير الذين لهم الخلود في الجنة من أهل الإيمان».

وهذا ما حدا بالعلامة القاسمي أن يفرد هذه القضية المهمة من قضايا العقيدة بتنبيه خاص، فقد جاء في كتابه «محاسن التأويل»: «(تنبيه) ذهب أهل السنة والجماعة إلى أن الخلود في النار إنما هو للكفار

والمشركين، لما ثبت في السنة تواتراً، من خروج عصاة الموحدين من النار، فيتعين تفسير السيئة والخطيئة في هذه الآية بالكفر والشرك. ويؤيد ذلك كونها نازلة في اليهود».

وعند الكلام على قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ قال القاضي البيضاوي رحمه الله: «جرت عادته سبحانه وتعالى على أن يشفع وعده بوعيده، لترجى رحمته ويخشى عذابه، وعطف العمل على الإيمان يدل على خروجه عن مسماه». وكان الإمام الرازي فصّل في ذلك بعض التفصيل.

وجميل ما وجُه إليه الحافظ ابن كثير، بأنه عند الكلام على هاتين الآيتين ـ بدءاً من قوله تعالى: ﴿بَلَى مَن كَسَبَ﴾ إلى قوله: ﴿خَالِدُونَ﴾ في الثانية ـ وجاء على ذكر الحديث الذي رواه الإمام أحمد حيث قال: حدثنا سليمان بن داود قال: حدثنا عمرو بن قتادة عن عبد ربه عن أبي عياض عن عبد الله بن مسعود: أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم ومحقّرات الذنوب؛ فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه، وإن رسول الله ﷺ ضرب لهنَّ مثلاً؛ كمثل قوم نزلوا بأرض فلاة، فحضر صنيع القوم فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود، والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سواداً، وأججوا ناراً فأنضجوا ما قذفوا فيها».

ولا يعزب عن البال أنه كما فهم من قوله تعالى: «بلى من كسب سيئة» الآية: أن من عمل مثل أعمالكم ـ أيها اليهود ـ وكفر بمثل ما كفرتم به حتى يحيط به كفره، فما له من حسنة وروى ذلك عن ابن عباس..

كما فهم ذلك هناك؛ فكذلك الأمر ـ ولكن على النقيض ـ في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ... ﴾ الآية إذ روى محمد ابن إسحاق بسنده عن ابن عباس – رضي الله عنهما – ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ «أي: من آمن بما كفرتم به ـ يعني يا معشر يهود ـ وعمل بما تركتم من دينه، فلهم الجنة خالدين فيها؛ يخبرهم أن الثواب بالخير والشر مقيم على أهله لا أبداً انقطاع له».

وما دام الأمر كذلك: فليت أن المسلمين يكلفون أنفسهم وعي ما هدى إليه القرآن في شأن يهود، ليدركوا أيَّ إفكٍ مفترى ودعاوى مكذوبة لا يقوم عليها دليل تكمن وراء الغطرسة والاستكبار وتبييت الشر والأذية دائماً للمسلمين!!

تلك أمانيُّهم:

ولعل مما يتصل بافتراء أهل الكتابين التوراة والإنجيل على الله وتخرصاتهم الآثمة في ذلك، ما ذكر القرآن عنهم من قيلهم: ﴿ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى... ﴾ [البقرة: ١١١] إنها دعوى جدُّ هابطة، تحمل بين طياتها تألياً على الله تعالى ومجاهرة بتكذيب سننه في خلقه حيث العدل والإحسان في ترتيب المثوبة أو العقوبة في الآخرة على العمل في الدنيا. ذلكم قول الله جل شأنه: في سورة البقرة ﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١١١) ﴾ [البقرة: ١١١] وبعد أن أكذبهم الله وبيّن أن كلامهم دعوى بلا دليل، ذكَّر سبحانه بسنته الحكيمة التي لا تتبدل، فقال جل ثناؤه:

﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [البقرة: ١١٢].

وأنت ترى أن هذه الدعوى المفتراة التي كشفت الكلمة القرآنية عن كذبها، على نسب إلى قول اليهود والنصارى ـ كما أسلفنا ذكر ذلك ـ ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ حيث أكذبهم الله تعالى وأخبرهم ـ لو كانوا يعقلون ـ أنه معذبهم بذنوبهم، ولو كانوا كما ادعوا وسوّلت لهم أنفسهم، لما كان الأمر كذلك، كما أنها على نسب بقيلهم: ﴿ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ ـ أو ﴿ مَّعْدُودَاتٍ ﴾ ـ ثم ينتقلون إلى الجنة على زعمهم، مهما كان حجم الجناية والإثم في الدنيا!! وقد رأينا كيف كان الرد القرآني عليهم في هذه أيضاً.

وعلى السنن نفسه، وبالأسلوب القرآني الفريد: كان الرد على افترائهم على الله في شأن دخول الجنة وقصر ذلك عليهم، وهي دعوى لا يقوم عليها دليل، ولا أثارة من حجة أو بينة؛ فقال سبحانه: ﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ﴾ فهي أماني منهم يتمنونها على الله بغير حق، ولا حجة ولا برهان، ولا يقين علم بصحة ما يدّعون، ولكن بادعاء الأباطيل وأماني النفوس الكاذبة، وهو ما قاله قتادة والربيع بن أنس كما روى الطبري، وأسنده ابن كثير إلى أبي العالية.

وفي استكمال لدفع الدعوى، بالطريق النيرة الواضحة قال الله لنبيه محمد ﷺ: ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ حجتكم، ـ بينتكم ـ على ذلك ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ وأنّى لهم ذلك.

هكذا يتنزل الوحي لمعالجة هذا البهتان الذي يدل على ما تحمل دخائل النفوس من الانحراف المتأصل، والذي له ماله من الآثار على صعيد تعامل هؤلاء الناس مع المسلمين.. يتنزل الوحي، فيأمر الله جل ثناؤه نبيه ﷺ بدعاء الذين قالوا: ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ إلى أمر عَدْلٍ بين جميع الفرق مسلميها، ويهودها، ونصاراها، وهو إقامة الحجة على دعواهم التي ادّعوا؛ من أن الجنة لا يدخلها إلا من كان هوداً أو نصارى. قال شيخ المفسرين. «يقول الله لنبيه محمد ﷺ: يا محمد قل للزاعمين أن الجنة لا يدخلها إلا من كان هوداً أو نصارى، دون غيرهم من سائر البشر: ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ على ما تزعمون من ذلك فنسلم لكم دعواكم إن كنتم في دعواكم ـ من أن الجنة لا يدخلها إلا من كان هوداً أو نصارى ـ محقّين».

وقد روى الطبري عن قتادة في تفسير «هاتوا برهانكم» هاتوا بينتكم، كما روى عن السدي ومجاهد والربيع بن أنس ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ هاتوا حجتكم. ويكون المعنى: أحضروا هذا البرهان وأتوا به ـ كما أشرت آنفاً ـ.

ومهما يكن من أمر: فإن هذا الكلام وإن كان ظاهره دعاء القائلين: ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ إلى إحضار بينة ـ أو حجة ـ على دعواهم ما ادعوا من ذلك، فإنه ـ كما يقول العلماء ـ بمعنى تكذيبٍ من الله لهم في دعواهم وقيلهم، لأنهم لم يكونوا قادرين على إحضار برهانٍ أو أثارةٍ من برهان على دعواهم المفتراة تلك أبداً.

ولا يعوزك أن تجد ما يقرر ذلك ويؤكده؛ فقوله تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أبان عن أن الذي ذكر من الكلام فيما تدل عليه الآية هو بمعنى التكذيب لليهود والنصارى في دعواهم وما ذكر الله عنهم.

ذلك بأن النقلة من تحدي أولئك المفترين، أن يأتوا بالبرهان على ما ادعوا، إلى قوله تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ نقلة إلى ما فيه تقرير القانون الرباني الحكيم الذي يقفنا على ما به يكون العبد أهلاً لدخول الجنة؛ الأمر الذي يكشف عوار تلك الدعوى، وأن أصحابها أدعياء يتظاهرون على سنة الله في خلقه، والحكم على عاقبة كل منهم كيف تكون.

فمن أخلص دينه لله، وهو متبع فيه الرسول عليه الصلاة والسلام، فله حسن العاقبة؛ يزحزح عن النار ويدخل الجنة في زمرة الداخلين ـ برحمة الله وفضله ـ لأن للعمل المتقبل شرطين مابد من توافرهما حتى يكون كذلك.

أحدهما ـ أن يكون خالصاً لله وحده لا يشركه فيه أحد.

والآخر ـ أن يكون موافقاً للشريعة على هدي المصطفى عليه الصلاة والسلام.

فمتى كان خالصاً ولم يكن صواباً، كان ذلك حائلاً دون قبوله، روى مسلم عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ». فعمل الأحبار والرهبان ومن

شابههم، وإن فرض أنهم يخلصون فيه ـ كما يقول الحافظ ابن كثير ـ لا يتقبل منهم، حتى يكون ذلك متابعاً للرسول ﷺ المبعوث إليم وإلى الناس كافة، وفيهم وفي أمثالهم قال الله جل ثناؤه: ﴿ **وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا** ﴿٢٣﴾ ﴾ [الفرقان: ٢٣] وقال الله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ** ﴿٣٩﴾ ﴾ [النور: ٣٩] وروي عن أمير المؤمنين عمر، أنه تأولها في الرهبان.

وأما إن كان العمل موافقاً للشريعة في الصورة الظاهرة، ولكن لم يخلص عامله القصد لله؛ إذ داخل العملَ ما داخله، مما يتنافى مع الإخلاص لله وحده، فهو أيضاً مردود على فاعله؛ وهذا حال المنافقين والمرائين الذين يشركون بعبادة الله غيره، كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا** ﴿١٤٢﴾ ﴾ [النساء: ١٤٢] وقال تعالى: ﴿ **فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ** ﴿٤﴾ **الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ** ﴿٥﴾ **الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ** ﴿٦﴾ **وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ** ﴿٧﴾ ﴾ [الماعون: ٤ ـ ٧] ولهذا قال جل وعلا: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا** ﴿١١٠﴾ ﴾ [الكهف: ١١٠] وقال في هذه الآية من سورة البقرة: ﴿ **بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ** ﴾ أي بلى من أخلص طاعته وعبادته له، محسناً في فعله ذلك بأن كان عمله وفق الشريعة المطهرة ﴿ **فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾.

إنه ضمان من الله تعالى لهم على ذلك، تحصيلَ الجزاء والثواب عنده سبحانه في المعاد، والأمن من المحذور؛ على ما عبدوه مسلمين وجوههم له وهم محسنون؛ فلا خوف عليهم فيما يستقبلونه في الآخرة، ولا هم يحزنون على ما مضى مما يتركونه في الدنيا، ولا أن يمنعوا ما قدموا عليه من نعيم ما أعد الله لأهل طاعته. وقال سعيد بن جبير: ﴿**وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ**﴾ يعني في الآخرة ﴿**وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ للموت.

ومن لطائف التعبير القرآني هنا ـ لما أن القرآن جاء على معهودات العرب في الخطاب ـ: أن الله جل ثناؤه قال: ﴿**وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ فأتى بضمير الجمع، وقد قال قبل: ﴿**فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ**﴾ بضمير الفرد. ذلك لأن ﴿**مَنْ**﴾ التي في قوله: ﴿**بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ**﴾ في لفظ واحدٍ ومعنى جميعٍ، فاللفظ مفرد، والمعنى للجمع، وعلى هذا: فالتوحيد في قوله: ﴿**فَلَهُ أَجْرُهُ**﴾ للَّفظ ـ باعتباره مفرداً ـ والجمع في قوله: ﴿**وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ**﴾ للمعنى ـ باعتبار دلالته على الجمع ـ والله أعلم.

هذا: ولعل من البداهة بمكان، أن الناظر في الآيتين الكريمتين، يدرك تمام الإدراك مدى رعونة المسلك الذي يتظاهر أصحابه على القانون الرباني، وسنة الله في خلقه وتدبيره الحكيم؛ فهو خالق عباده وأعلم بما يصلحهم في دنياهم وآخرتهم، وهو الذي يحكم لا معقب لحكمه.

ومما يقرر ذلك ويؤكده: ما أخبر عنه القرآن من الموقف المعادي الذي يقفه النصارى واليهود بعضهم من بعض على ساحة المعتقد، مع دعواهم أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارىٰ، ذلكم قوله

تعالى في أعقاب الآيتين السابقتين: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١١٣) ﴾ [البقرة: ١١٣].

الذين كفروا من أهل الكتاب..

وإخوانهم المنافقون

لعل من الضرورة بمكان، أن لا نغادر القول ـ ونحن نقترب من خاتمة المطاف على ساحة هذه العجالات ـ فيما توحي به نصوص الهدى في الكتاب والسنة، من الثوابت التي ينبغي تنهيج التعامل من خلالها، مع يهود ومن هم في بؤرتهم يعمهون ـ كما هو مقتضى الإيمان ـ. أن لا نغادر القول في ذلك ـ على وجازة ما نقول ـ دون التذكير بآصرة بئست الآصرة؛ أعني آصرة الأخوة التي أحكمت العلاقة في عصر النبوة وما تلاه، بين اليهود وبين مرضى القلوب أهل النفاق الذين أخبر الله أنهم في الدرك الأسفل من النار، كيما يأخذ التنبه على ذلك، مكانه الطبيعي من التصوُّر الواعي على طريق المواجهة؛ إدراكاً للأمور على حقيقتها، بمعرفة الأصل الذي تنتمي إليه، وقدرةً على تعليل الوقائع وتفسير التاريخ، علماً بأن الله جل شأنه نبَّه الأمة على هذا حين كشف عن تلك العلاقة بين الفريقين، كما سيأتي بيان ذلك إن شاء الله.

ولقد كان هذا التلاحم بين يهود وبين المنافقين ـ وهم على ما هم عليه من الكفر الأسود وتبييت الأذى لأهل الإيمان ـ صورة من صور خيانتهم للعهد وخروجهم على الوثيقة التي كتبها رسول الله ﷺ مقدَمه إلى المدينة، ونقضاً للميثاق الذي تضمنته، بكل ما يحمل هذا الميثاق من كفالة لحقوقهم على خير وجه.

والناظر المتبصِّر في ردِّ الجزئيات إلى كلياتها، وربط المسبّبات بأسبابها، لا يجد غرابة في هذا التآخي بين الفريقين؛ ـ وما أكثر الروابط التي تشد النظير إلى نظيره ـ على العداء المتأصل للإسلام، ونبي الإسلام صلوات الله وسلامه عليه والمسلمين:

لذا: فإن بواعث التلاقي على تلك الآصرة العفنة، قائمة في كل عصر، لما أن سَداها ولحمتها، ضلال مبين في عدوان على الحق وحقد دفين على دين الإسلام وكل ما يمتُّ إليه بصلة، ناهيك عن البغي والحسد من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق، وإن اختلفت وسائل التنفيذ حسب مقتضيات التطور واختلاف البيئات، وموقع المسلمين على خط المواجهة الذي يقف فيه الأعداء بالمرصاد!!.

وإنها لحقيقة توجب أن يكون المسلمون ـ في كل ظرف وموقع ـ مؤهلين على الوجه الذي توحي به المواجهة ويفرضه الواقع الأليم، شديدي الحذر واليقظة، مدركين لما يدور حولهم على الصعيدين الإقليمي والعالمي، دونما خروج على الثوابت التي تشرق بها نصوص الهدي الرباني، وتؤكد الوقائع أحقيتها يوماً بعد يوم. ومن هذه الثوابت: حقيقة التلاحم بين اليهودي والمنافق في كل عصر ومصر، دونما كلفة أو مقدمات!!

وحين نعود إلى نقطة البدء في دواعي الالتقاء بين من عبدوا الطاغوت وضُربت عليهم الذلة والمسكنة وغضب الله عليهم، ولعنهم وجعل منهم القردة والخنازير، وبين المنافقين الذين عتوا عن أمر الله واستمرؤوا الولوغ

في الدنية والإثم، فأصمهم الله وأعمى أبصارهم: يضع الإمام الطبري أيدينا على نقطة مهمة في الموضوع؛ قوامها عداء اليهود للرسول ﷺ ودعوته، ومسارعة المنافقين ـ وقد رأوا النموذج الهابط الذي أعجبهم ـ إلى سلوك السبيل نفسها في عداوة الحق وأهله، تحت مظلة النفاق الذي كان يسلكه اليهود أيضاً في بعض الأحيان.

فعند الكلام على قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [البقرة:٨] أورد الإمام أبو جعفر الطبري عدداً من الآثار ـ التي رواها بسنده ـ في بيان ذلك، كان آخرها قول ابن جريج – رحمه الله –: «هذا المنافق، يخالف قولُه فعلَه، وسرُّه علانيته، ومدخلُه مخرجَه، ومشهدُه مغيبَه» ثم قال ـ أجزل الله مثبوته ـ: «وتأويل ذلك أن الله جل ثناؤه لما جمع لرسوله ﷺ أمرَه في دار هجرته، واستقرَّ بها قراره، وأظهر الله بها كلمته، وفشا في دور أهلها الإسلام، وقهر المسلمون من فيها من أهل الشرك من عبدة الأوثان، وذلَّ بها من فيها من أهل الكتاب: أظهر أحبار يهودها لرسول الله ﷺ الضغائن، وأبدوا له العداوة والشنآن، حسداً وبغياً، إلا نفراً منهم هداهم الله للإسلام فأسلموا، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩] وطابقهم سراً على معادة النبي ﷺ وأصحابه وبغيهم الغَوائلَ قوم من أراهط الأنصار الذين آووا رسول الله ﷺ ونصروه ـ وكانوا قد عَسَوْا في شركهم وجاهليتهم.. وظاهروهم على ذلك في خفاءٍ غيرِ جهار؛ حذار القتل على أنفسهم، والسِّباء من رسول الله ﷺ وأصحابه،

وركوناً إلى اليهود لما هم عليه من الشرك وسوء البصيرة بالإسلام. فكانوا إذا لقوا رسول الله ﷺ وأهل الإيمان به من أصحابه، قالوا لهم ـ حِذاراً على أنفسهم ـ إنا مؤمنون بالله وبرسوله وبالبعث، وأعطوهم بألسنتهم كلمة الحق، ليدرؤوا عن أنفسهم حكم الله فيمن اعتقد ما هم عليه مقيمون من الشرك، لو أظهروا بألسنتهم ماهم معتقدوه من شركهم. وإذا لقوا إخوانهم من اليهود وأهل الشرك والتكذيب بمحمد ﷺ وبما جاء به، فخَلَوْا بهم ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾﴾ [البقرة: ١٤] فإياهم عنى جل ذكره بقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [البقرة: ٨]. يعني بقوله تعالى خبرا عنهم: آمنا بالله ـ: مصدّقنا بالله».

هكذا التقى أولئك المنافقون الذين خرجوا على الطريق الهادية التي سلكها الأنصار – رضي الله عنهم – مع اليهود، الذين كان منهم ما كان من العدواة والكيد والضغائن والشنآن حسداً وبغياً، وشاركوهم بغيَ الرسول ﷺ وأصحابه الغوائل ـ وهي النوائب المهلكة ـ.

والعلّة التي ضربت على قلوب أولئك المنافقين الذين خالفوا عن مسلك ذويهم من الأنصار؛ أنهم قد عسَوْا في شركهم وجاهليتهم، يعني عتوا وغلظت أكبادهم في الشرك وصلبت؛ فأطاعوا الهوى والشيطان مقيمين على الضلال العنادي، وراحوا يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ـ عليهم وعلى أمثالهم لعائن الله ـ ويشاركون اليهود المكر والمخادعة وتبييت الأذى للمسلمين. وهنا نقول في شأن الواقع ـ وهو ما تقرر غير مرة فيما سبق ـ: ما أشبه الليلة بالبارحة!

والذي يجب الوقوف عنده من الأمر، وينبغي أن يعطى ما هو جدير به من الأهمية على صعيد التبصُّر بالواقع، ومن هم الموالون ومن هم المعادون ـ بإطلاق ـ أن القرآن الكريم ـ كما أشرت من قبل ـ هو الذي نبَّه على تلك الحقيقة، حقيقةِ أن رباطاً نكداً، على غاية الأهمية في هذا الباب يربط بين اليهود والمنافقين، وهو آصرة الأخوة فيما بينهم!! ذلكم قوله جل ذكره في سورة الحشر بدءاً من الآية الحادية عشرة: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ** ﴾ [الحشر: ١١] الآيات.

فالله تعالى يخبر عن المنافقين كعبدالله بن أبيّ رأس الفتنة فيهم وأضرابه، حين بعثوا إلى يهود بني النضير يعدونهم النصر والمؤازرة على مختلف الأصعدة، فيما كان بينهم وبين المسلمين من الحرب.. وقد جاء التعبير القرآني مؤذناً بما تكنُّه صدور الفريقين من الأخوة الظالمة في وجه أهل الإيمان، فقال الله سبحانه: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ...** ﴾.

وهنا لا بدَّ من العودة إلى خبر ما حصل بين المسلمين وبين بني النضير من اليهود: وإن سبق ذكره في مناسبة أخرى؛ ففي أعقاب ما جرى في بئر معونة ـ وهي بين أرض بني عامر وحرة بني سليم ـ من العدوان الغادر على أربعين رجلاً من أصحاب النبي ﷺ ـ وهم من خيار المسلمين ـ من قِبلَ عُصَيّة ورِعلٍ وذكوان استجابة لطلب عدو الله عامر بن الطفيل، حيث

قتلوهم عن بكرة أبيهم رضي الله عنهم وأرضاهم.. في أعقاب ذلك: قتل عمرو بن أمية الضّمري – رضي الله عنه – رجلين من بني عامر كان معهما عقد من النبي ﷺ وجوار لم يعلم هو به، فلما قدم عمرو بن أمية على رسول الله ﷺ، فأخبره الخبر، وهو يظن أنه أصاب بقتل ذينك الرجلين ثؤرة من بني عامر فيما أصابوا من أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام، فقال له رسول الله: «لقد قتلت قتيلين لأدينّهما».

ثم خرج ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ إلى بني النضير يستعينهم ـ عملاً بما نصت عليه الوثيقة ـ في دية ذينك القتيلين من بني عامر اللذين قتل عمرو بن أمية رضي الله عنه للجوار الذي كان ﷺ عقد لهما، وكان بين بني النضير وبين بني عامر عقد وحلف.

فلما أتاهم رسول الله ﷺ لهذا الغرض، قالوا: نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه، ثم خلا بعضهم ببعض، فقالوا ـ أخزاهم الله ـ: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه ـ ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد ـ فمن رجل يعلو على هذا البيت، فيلقي عليه صخرة، فيريحنا منه؛ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب أحدهم، فقال: أنا لذلك، فصعد ليلقي عليه ـ فداه أبي وأمي ـ كما قال، ورسول الله ﷺ في نفر من أصحابه، فيهم أبو بكر وعمر وعلي رضوان الله عنهم، فأتى رسول الله الخبر من السماء، بنقض هؤلاء اليهود العهد، وهمُّهم متفقين بالغدر به ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقتله غيلةً، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة.

فلما استبطأ النبيَّ ﷺ أصحابُه، قاموا في طلبه، فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة، فسألوه عنه، فقال: رأيته داخلاً المدينة، فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتهوا إليه، فأخبرهم الخبر بما كانت اليهود أرادت من الغدر به وهو في ديارهم، وأمر عليه الصلاة والسلام بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم، لما أن ذلك هو اللغة التي لا يصلح غيرها ـ بعد طول معاناة وسماحة وإكرام ـ مع الخونة الغدارين، الناقضين للعهد المستهترين بالمواثيق؛ وكان من أمر غزوة بني النضير ما كان، حيث انتهى الأمر بموافقة النبي ﷺ على جلائهم والكف عن دمائهم، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلى الحلْقة ـ وهي السلاح عاماً أو الدروع خاصة ـ.

هذا: وقد أنزلت في بني النضير وما يتعلق بها سوة الحشر بكاملها وهي السورة المدنية المبدوءة بقوله تعالى: ﴿ **سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ۝٢** ﴾ [الحشر: ١، ٢].

قال سعيد بن منصور: حدثنا هشيم عن أبي بشر عن سعيد بن جبير قال: «قلت لابن عباس: سورة الحشر؟ قال: أنزلت في بني النضير». ورواه البخاري ومسلم من وجه آخر عن هشيم به، ورواه البخاري من حديث أبي عوانة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير قال: «قلت لابن عباس: سورة الحشر؟ قال: قل سورة النضير».

ومن الوقائع التي جاءت هذه السورة المباركة على ذكرها: ما سبقت الإشارة إليه وحوله ندندن. من التشجيع البالغ الذي لقيه يومذاك يهود بني النضير من رأس المنافقين عبدالله بن أبي بن سلول ونفر من زبانيته، على الثبات في مواجهة الرسول ﷺ وأصحابه في معركة المصير، وقد كشفت الكلمة القرآنية الهادية عن أن الباعث على ذلك: ما هو قائم بين الفريقين من رابطة الأخوة التي يغذوها الكفر، والمعاداة المتأصلة في النفوس للإسلام والمسلمين، والرغبة في أن يستعلي الضلال والأذى، وتسقط راية الإيمان ومحاسن الأخلاق.. ولكن المنافقين يكذبون ويكذبون.. وكانت كذبتهم بلقاء حتى في هذه، فلم يفعلوا شيئاً مما آذنوا إخوانهم به، ولم يفوا بوعد واحد من تلك الوعود المشجعة على الاستمرار في المعركة إلى آخر الشوط! كما جاء تفصيل ذلك والتنبيه على ما يتصل به أو يترتب عليه، في السورة المومى إليها.

ها نحن نقرأ في ذلك قول الله جل ثناؤه خطاباً للنبي عليه الصلاة والسلام: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحشر: ١١ - ١٣].

قال الإمام الطبري: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ألم تنظر بعين قلبك يا محمد فترى إلى الذين نافقوا ـ وهم فيما ذكر عبدالله بن

أبيّ بن سلول، ووديعة بن مالك بن قوقل أو بن أبي قوقل، وسويد وداعس ـ بعثوا إلى بني النضير حين نزل بهم رسول الله ﷺ للحرب: أن اثبتوا وتمنَّعوا فإنا لن نسلمكم، وإن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن خرجتم خرجنا معكم، فتربصوا لذلك من نصرهم فلم يفعلوا، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ويكف عن دمائهم، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة». وجاءت بعض الروايات على ذكر أسماء أخرى مثل: عبدالله بن نبتل، ورفاعة بن زيد، ورافعة بن تابوت، وأوس بن قيظي..

ومن الآثار التي أخرجها شيخ المفسرين في ذلك ما روى بسنده عن سعيد بن جبير عن عبدالله بن عباس - رضي الله عنهما - « ﴿**يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ**﴾ « يعني بني النضير وقوله: ﴿**لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ**﴾ يقول: لئن أخرجتم من دياركم ومنازلكم وأجليتم عنها، لنخرجنَّ معكم فنجلي عن ديارنا ومنازلنا معكم. وقوله: ﴿**وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا**﴾ يقول: ولا نطيع أحداً سألنا خذلانكم وترك نصرتكم ولكنا نكون معكم ﴿**وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ**﴾ يقول: وإن قاتلكم محمد ﷺ ومن معه لننصرنَّكم يا معشر النضير عليهم وقوله: ﴿**وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ**﴾ يقول: والله يشهد إن هؤلاء المنافقين الذين وعدوا بني النضير النصرة على محمد ﷺ لكاذبون في وعدهم إياهم ما وعدوهم من ذلك».

ومن بلاغة القرآن العظيم: هذا الاستفهام الذي جيء به للتعجيب من حال المنافقين، كيف أنهم مع ما ينتظمهم واليهود من التآخي على الكفر

والحقد الدفين على كل ما هو حق وخير، يكذبون على إخوانهم في كل ما أمَّلوهم؛ من النصرة والتعاون، ويخلفون كل ما وعدوهم به، من ذلك، وكون التعجيب يقع في خطاب للنبي ﷺ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ...﴾ يزيد الأمر وضوحاً فيما يشعر بتلك البلاغة الفاذة والأسلوب الرفيع؛ قال صاحب «التحرير والتنوير» في معنى الآية: «تأمَّل الذين نافقوا في حال مقالتهم لإخوانهم، ولا تترك النظر في ذلك فإنه حال عجيب».

وأنت واجد أن أقوال العلماء، تنصبُّ باديءَ ذي بدء على أن الله تعالى وصف اليهود بأنهم إخوان المنافقين؛ لأنهم كانوا متحدين في الكفر برسالة محمد ﷺ، وينبني على ذلك ما ينبني مما يؤمل من التعاون على اتخاذ الأسلحة المناسبة للمواجهة كما يرون. وليست هذه أخوة النسب؛ فإن بني النضير من اليهود، والمنافقين الذين بعثوا إليهم ما بعثوا من الوعود المعسولة ونداءات التثبيت: من بني عوف من عرب المدينة، وأصلهم من الأزد. قال صاحب «الكشاف»: («لإخوانهم» للذين بينهم وبينهم أخوة الكفر؛ ولأنهم كانوا يوالونهم ويؤاخونهم وكانوا معهم على المؤمنين في السر).

على أن وصف إخوانهم ـ على الجميع لعائن الله ـ: بـ«الذين كفروا» إيماءً إلى أن جانب الأخوة بينهم هو الكفر في الأصل، ويترتب على ذلك ما يترتب ـ كما أسلفت ـ إلا أن كفر المنافقين كفرالشرك، وكفر إخوانهم كفر أهل الكتاب، وهو الكفر برسالة محمد ﷺ، مع علمهم بأن رسالته

من الحق وإليه، كما هو صريح كتابهم قبل التحريف ووضع الكلام غير موضعه.

وما ذكرته من قبل ـ مما يمليه واقع العلاقة بين هؤلاء وأولئك من التعاون الحاقد الآثم المستند إلى الكفر والعتو عن أمر الله ـ نجد تفصيله عند الإمام الرازي في «التفسير الكبير» حيث قرر أن الأخوة المذكورة تحتمل وجوهاً:

(أحدها) الأخوة في الكفر؛ لأن اليهود والمنافقين كانوا مشتركين في عموم الكفر بمحمد ﷺ.

(وثانيها) الأخوة بسبب المصادقة والموالاة والمعاونة.

(وثالثها) الأخوة بسبب ما بينهما من المشاركة في عداوة محمد ﷺ.

والواقع ـ كما أسلفت ـ أن التعبير القرآني المعجز في قوله تعالى: ﴿ لِإِخْوَانِهِمُ ﴾ يجمع هذا كله، وهو ما تدل عليه الوقائع وتؤكده عبر العصور في شتى المناسبات. وكذب المنافقين على إخوانهم، لا يتنافى مع هذه الحقيقة التي يجب أن تأخذ مكانها في وعي الأمة على كل صعيد؛ خصوصاً حين تكون للنفاق سوق رائجة يؤمها الذين يبيعون دينهم بدنياهم أو بدنيا الآخرين، والذين يستهترون بقيم أمتهم وتاريخها ومقومات وجودها، في سبيل الحفاظ على متاع زائل يغشاه الذل ـ حقيقةً ـ والهوان.

هذا: والإجمال الذي نراه في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ جاء بيانه في قوله جل شأنه بعد هذا: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ﴾.

فالله تعالى يشهد على كذبهم فيما وعدوهم به؛ إمّا أنهم قالوا قولاً، ومن نيتهم أن لايفوا لهم به، وإمّا أنهم لا يقع منهم الذي قالوه. ولهذا قال: ﴿وَلَئِن قُوتِلُوا لا يَنصُرُونَهُمْ﴾.

وعلى كلا المعنيين: فيه دليل على صحة النبوة وصدق الرسول عليه الصلاة والسلام، لأنه إخبار بالغيوب. وما أوضح هذا الإخبار بكذبهم في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن قُوتِلُوا لا يَنصُرُونَهُمْ﴾ أي لا يقاتلون معهم.

وقد يتساءل امرؤ كيف قيل: ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ﴾ بعد الإخبار بأنهم لا ينصرونهم؟ وجواب ذلك ـ كما يرى صاحب «الكشاف» ـ: (أن المعنى ولئن نصروهم على الفرض والتقدير، كقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وكما يعلم ما يكون، فهو يعلم ما لا يكون لو كان كيف يكون. والمعنى: ولئن نصر المنافقون اليهود، لينهزمن المنافقون، ثم لا ينصرون بعد ذلك؛ أي يهلكهم الله تعالى ولا ينفعهم نفاقهم لظهور كفرهم. أو لينهزمنَّ اليهود ثم لا ينفعهم نصرة المنافقين).

على أن العلاَّمة الطاهر بن عاشور جنح إلى أن ضمير «لا ينصرون» عائد إلى الذين كفروا من أهل الكتاب إذ الكلام ـ كما يرى ـ جار على وعد المنافقين بنصر إخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب. والمقصود تثبيت رسول الله ﷺ والمسلمين وتأمينهم من بأس أعدائهم.

أما الحافظ ابن كثير: فذهب إلى أن معنى ﴿ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ ﴾ ولئن قاتلوا معهم ﴿ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ ﴾، قال -رحمه الله-: وهذه بشارة مستقلة بنفسها.

وما من ريب في أن هذه البشارة متصلة الأسباب بكل زمان وفي كل ظرف يكون للمسلمين من عمق إيمانهم وأخذهم بالأسباب، وصدقهم في جهاد أعداء الله، ووحدة كلمتهم: ما يرتفع بهم إلى مستوى الأهلية لهذه المكرمة العظيمة، حيث يكتب الله لهم النصر ويديل لهم من أعدائهم.

وترى ذلك واضحاً كل الوضوح فيما تبع ذلك من قوله تعالى: ﴿ لأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ ﴾ فهم يرهبون المؤمنين أشد مما يرهبون الله، كقوله تعالى: ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾ [النساء: ٧٧] ولو خافوا الله ما خافوا أحداً من عباده، ولكن الذين لا يفقهون هذه الحقيقة يخافون عباد الله أشد مما يخافون الله، ولهذا قال سبحانه: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ ﴾.

ومهما يكن من أمر: فالمقصود ـ والله أعلم ـ تشديد نفوس المسلمين وتقويتها ـ وهم يخوضون معركة الإسلام والذود عن الحق المضيّع، وإنسانية الإنسان المهددة ـ ليعلموا أن عدوَّهم مُرَهَبٌ منهم، وذلك مما يزيد جند الإيمان إقداماً في مواجهة أولئك الأعداء المتآخين على الكفر، والظلم، وقهر أهل الحق لو استطاعوا؛ إذ ليس الكلام ـ كما يقول العلماء ـ للتسجيل على المنافقين واليهود قلة رهبتهم لله ـ مع وقوع هذا لأنهم لا

يفـقـهـون ـ بل إعلام المسلمين بأنهم أرهب لهم من كل أعظم الرهبات؛ لأنهم مسلمون بحق، مستمطرون لنصر الله.

وإنما ينال المنافقون والذين كفروا من أهل الكتاب .. من المسلمين ـ كما يقول صاحب الظلال ـ أجزل الله مثوبته وجزاه خير الجزاء ـ عندما تتفرق قلوب المسلمين؛ فلا يعودون يمثلون حقيقة المؤمنين التي عرضتها هذه السورة فيما سبق. فأما في غير هذه الحالة: فالمنافقون أضعف وأعجز، وهم والذين كفروا من أهل الكتاب متفرقو الأهواء والمصالح والقلوب ﴿ **بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ** ﴾ .. ﴿ **تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى** ﴾ [الحشر: ١٤].

« والقرآن يقرر هذه الحقيقة في قلوب المؤمنين، ليهون فيها من شأن أعدائهم، ويرفع منها هيبة هؤلاء الأعداء ورهبتهم؛ فهو إيحاء قائم على حقيقة؛ وتعبئةٌ روحية ترتكن إلى حق ثابت. ومتى أخذ المسلمون قرآنهم مأخذ الجد ـ إيماناً وإعداداً وصدقاً في المواطن ـ هان عليهم أمر عدوهم وعدو الله، وتجمعت قلوبهم في الصف الواحد، فلم تقف لهم قوة في الحياة.

والمؤمنون بالله ينبغي لهم أن يدركوا حقيقة حالهم وحال أعدائهم؛ فهذا نصف المعركة. والقرآن يطلعهم على هذه الحقيقة في سياق وصفه لحادث وقع، وفي سياق التعقيب عليه، وشرح ما وراءه من حقائق ودلائل، شرحاً يفيد منه الذين شهدوا ذلك الحادث بعينه، ويتدبره كل من جاء بعدهم وأراد أن يعرف الحقيقة من العالم بالحقيقة! ».

وإذا كان الأمر كذلك ـ والذين كفروا من أهل الكتاب تجمعهم على الكفر معاداة من أكرمهم الله بالإسلام آصرة الأخوة والتعاون على الإثم والعدوان، وإن كان بعضهم يكذب على بعض، وكثيراً ما تراهم متفرقي الأهواء والمصالح والقلوب في غياب وحدة المسلمين وقوتهم ـ إذا كان الأمر كذلك: فأي سقوط يغشى بظلامه هذه الأمة إن هي خالفت عما نهاها الله عنه نهياً بالغ الجزم والحزم في قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴿٥١﴾ ﴾ [المائدة: ٥١].

وأية مهانة نفسية وضعف إيماني، يعلنان إعلانهما في حياة الفرد والجماعة، ويترتب عليهما من الآثار المدمرة ما الله به عليم، حين يحصل الوقوع في الحمأة التي وقع فيها من عرَّت انهزامَهم النفسي والعملي الكلمة القرآنية في قوله تعالى بعد ذلك: ﴿ **فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ** ﴿٥٢﴾ ﴾ [المائدة: ٥٢].

وبعـــد

فهذا ما تيسَّر القول فيه ـ بعون الله ـ من الثوابت وخلائق يهود، كما تمليه النصوص وتوجب على الأمة العمل به، وأخذه بعين الاعتبار عند التخطيط والتنفيذ في مواجهة أعداء الله والحق؛ لأنه من الهدي الرباني الأمر الذي يذكّر بقوله تعالى في سورة النور: ﴿ **إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢)** ﴾ [النور: ٥١، ٥٢] وقوله جل شأنه في سورة الأحزاب: ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا (٣٦)** ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وإذا تحقق ذلك، ذهب الغثاء أدراج الرياح، وعادت الأمور إلى وضعها الطبيعي في مصلحة الأمة وحقوقها، لا في مصلحة اليهود الظاهرين والمقنعين. وصدق ربنا إذ يقول: ﴿ **أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ (١٧)** ﴾ [الرعد: ١٧].

ولله الحمد في الأولى والآخرة، وصلوات الله وأزكى تسليماته على من آتاه الله الحكمة في وضع الأمور مواضعها واستخدام اللغة المناسبة على

سلّم الهداية ونصرة الحق. لدى تعامله مع الأولياء ومع الأعداء، سيدنا محمد بن عبد الله الذي بلّغ الرسالة وأدى الأمانة وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين، وعلى آله وصحابته ومن دعا بدعوته وجاهد في سبيل الله أعداء الله والحق وإنسانية الإنسان إلى يوم الدين.

الدكتور محمد أديب الصالح

الفهرس

الموضوع